

سلسلة فى التاريخ الإسلامى

# الدولة الإسلامىة الأولى

(السيرة النبوىة الشرىفة لرسول الله محمد ﷺ)

الدكتور/ محمد حسن العىدروس

أستاذ التاريخ بجامعة روتردام الإسلامىة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار الكتاب العربىة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف  
1421 هـ / 2001 م

دار الكتاب الحديث



94 شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762  
هاتف رقم : 2752990 (00 202) فاكس رقم : 2752992 (00 202) بريد  
إلكتروني : kdh@eisl.eis.com.eg

القاهرة

شارع الهلال ، برج الصديق ص.ب : 22754 - 13088 الصفاه هاتف رقم  
2460634 (00 965) فاكس رقم : 2460628 (00 965) بريد إلكتروني  
ktbhades@ncc.moc.kw

الكويت

Adresse : Gouvernorat du Grand Alger - Lot C no 34 - Draria  
B. P. No 061 - Draria هاتف رقم : 353035 (02) - 354105 (02)  
فاكس رقم : 353055 (02) بريد إلكتروني dkhadith@netscape.net

الجزائر

2000/16225  
977-5758-70-X

رقم الإيداع  
I.S.B.N.

## بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

### إهداء

إلى سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء وإلى زوجها الإمام عليّ عليه السلام  
وإلى سيديّ شباب أهل الجنة سبطيّ الرسول ﷺ الإمام الحسن والحسين  
إلى سيدنا ومولانا بقية العترة الطاهرة الإمام محمد الفقيه المقدم، والإمام  
عبد الله أبو بكر العيدروس الأكبر

وإلى المرحوم والدي السيد/ حسن أحمد علوي العيدروس

وإلى أبناء الأمة الإسلامية لكي يهتدوا ويسيروا في الطريق الذي رسمه  
القائد العظيم رسول الله محمد ﷺ، ورئيس أول دولة إسلامية، ليخرجوا  
هذه الأمة من الذل والهوان والتخلف وجاهلية أنظمة الحكم والتخلف الذي  
لحق بها من جراء عدم اتباع نهج رسول الله محمد ﷺ في تطبيق الشريعة  
الإسلامية في أنظمة الحكم والسياسة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية  
الإسلامية، والحرية والمجتمع المدني ودولة المؤسسات الإسلامية.





## مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وحبينا وشفيعنا رسول الله محمد ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الأخيار إلى يوم الدين .

هذه محاولة لدراسة السيرة النبوية الشريفة لرسول البشرية ورحمة للعالمين الذي أخرج البشرية من الظلام إلى النور، وقد جاءت هذه الدراسة استجابة للطلاب المسلمين في أوروبا وخاصة في هولندا من إخواننا المسلمين الأتراك إضافة إلى بعض الهولنديين من الأصول العربية الذين قد يجدون صعوبة في فهم الكتب العربية التقليدية أو القديمة للسيرة النبوية الشريفة، وعندما وجدتهم يعانون بعض الصعوبة في قراءتها، فكانت المحاولة لكتابة هذه السيرة بطريقة شاملة وجامعة بقدر الإمكان لعلها تستطيع أن تفيد المسلمين في أوروبا خاصة والعالم عامة .

راجيا من الله عز وجل ثم من القارئ الكريم أن يغفر لي إذا ما كان هناك زلة أو خطأ أو سهو، فكل من يكتب قد يخطئ، لهذا أتمنى أن لا يكون هناك أخطاء بقدر الإمكان، والهدف هو فهم وإدراك السيرة النبوية الشريفة وشخصية رسول الله محمد ﷺ، الذي لعب دوراً ربانياً إلهياً، لتأسيس أول دولة إسلامية عرفتها البشرية، وبقدر ما كان رسول الله وخاتم النبيين فإنه كان أيضاً مؤسساً لدولة وحاكماً سياسياً عبقرياً وقائداً عسكرياً، علمنا كيف يكون الإنسان وكيف يحمل معنى الإنسانية وكيف يكون الحاكم المسلم ويحكم شعبه ويطبق الشريعة الإسلامية .

فهو إذا، قدوة كحاكم للدولة ونبي الأمة الإسلامية ورسول الله، وأنه كان كأخ للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وخير رب أسرة كآب لأبنائه السيدة فاطمة الزهراء والسبطين الإمام الحسن والحسين، وزوج لخديجة رضی الله عنها بقية أمهات المؤمنين، وجار، ومعلم، وقائد عسكري، أي أنه مكمل لما جاء في القرآن الكريم وأنه «كان على خلق عظيم» ومن هذا المنطلق يجب أن يكون رسل الله محمد ﷺ قدوة لكل أب وأخ وزوج ومعلم وقائد عسكري وحاكم سياسي وإمام للمسلمين، في كل يوم وفي كل لحظة من حياة كل فرد من هذه الأمة الإسلامية العظيمة، حيث إنها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتساهم في البشرية والإنسانية، حيث قال رسول الله محمد ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» . . وكما قال تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ (آل عمران) .

تشمل هذه الدراسة في الباب الأول - البعثة الشريفة لرسول الله محمد ﷺ ومحاربة كفار قريش - الفصل الأول - الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ - الفصل

الثاني - المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ وسيرته حتى البعثة، الفصل الثالث - الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وبعده كفار قريش - الفصل الرابع - من الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة.

يحتوي الباب الثاني - معارك وغزوات الدولة الإسلامية الأولى، الفصل الخامس - بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر، الفصل السادس - معركتي أحد والاحزاب، الفصل السابع - من هدنة الحديبية إلى فتح مكة، الفصل الثامن - رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية.

ندرس في الباب الثالث - سيادة الدولة الإسلامية الأولى على الجزيرة العربية، الفصل التاسع - التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى، الفصل العاشر - الدولة الإسلامية وعلاقاتها الخارجية. أتمنى أن أكون قد وفقت إلى إعطاء صورة موجزة عن سيرة أعظم شخصية في تاريخ البشرية، ومحاولة لفهم سيرة هذا اليتيم الذي حاربه جميع سكان مدينة مكة من أهله كفار قريش لدعوته إلى الإسلام وإخراجهم من الضلال إلى الهدى، فخرج مهاجراً إلى المدينة المنورة وناصره سكانها الأنصار، وبعد بضع سنوات يعود ظافراً وفاتحاً لمكة التي طرد منها، ومن ثم ينتشر الإسلام إلى كافة أنحاء الجزيرة العربية، وبعد وفاته بعدة أعوام امتد الإسلام من الصين شرقاً إلى أسبانيا في أوروبا غرباً، وهنا تكمن عظمة الإسلام وصاحبها الذي حمل لوائها رسول الله محمد ﷺ وعلينا أبناء الإسلام أن نكمل هذه المسيرة الإسلامية سواء في حياتنا اليومية أو نشر الدعوة الإسلامية في الشعوب الأخرى.

نطلب من الله في آخر دعوانا أن يوفقنا إلى قول الحق وعمل الحق والدفاع عن الحق - الحق الإسلامي، والحمد لله تعالى والصلاة على خاتم النبيين وإمام المتقين رسول الله محمد ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الأخيار - اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

د. محمد حسن العيدروس

روتردام - هولندا

٢٩ / ٩ / ٢٠٠٠

البعثة الشريفة لرسول الله  
محمد ﷺ ومহারبة كفار  
قريش



الفصل الأول

الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ

الفصل الثاني

المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ وسيرته حتى البعثة

الفصل الثالث

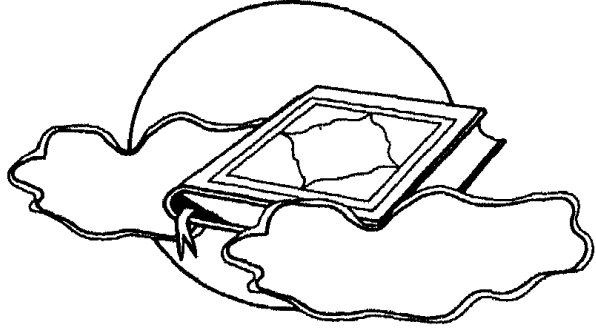
الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وعداء كفار قريش

الفصل الرابع

من الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة



# الفصل الأول



الجزيرة العربية قبل  
المولد النبوي الشريف  
لرسول الله محمد ﷺ



## الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ

تحتل «جزيرة العرب» موقعاً متوسطاً في نصف الكرة الذي شمل قارات اسيا وأفريقيا وأوربا وتؤلف قلب العالم القديم والتي أنجبت رسول الله محمداً ﷺ آخر المصلحين الدينيين والدينيين العظام. إن المحيط الهندي ليغسل شواطئها من ناحية الجنوب، والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر يغسلانها من ناحية الغرب. وإلى الشرق يقع الخليج العربي، ودجلة والفرات، وهذان الأخيران يخترقان جزأها الشمالي أيضاً. وهكذا فهي محاطة من نواحيها الأربع كلها تقريباً بالبحار والأنهار، وهذا هو السبب الذي من أجله اعتبرها المؤرخون والجغرافيون، لا شبه جزيرة، بل جزيرة تضم ضمن تخومها تلك الشقة من الأرض المعروفة ببلاد ما بين النهرين وبلاد الشام العربية. تمتد بلاد العرب على مساحة مقدارها مليون ومئتا ألف ميل مربع. وحوالي ثلث هذه المساحة صحاري رملية، واقعة في وسط الجزء الجنوبي. وليس ثمة في البلاد كلها أنهار. وعبر البلاد كلها تمتد سلسلة جبال، من الجنوب إلى الشمال، تُعرف بجبال السّراة، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة من قممها ثمانية آلاف قدم. والتمر هو نتاج البلاد الرئيسي. أما في الأيام الخالية فكانت بلاد العرب شهيرة بذهبها، وفضتها، وحجارتها الكريمة، وأفوابيها. ومن الحيوانات التي تعرفها تلك البلاد يُعتبر الجمل أعظمها قيمة ونفعاً، في حين أن الجواد العربي لا نظير له في العالم كله من حيث الجمال، والسرعة والشجاعة. والواقع أن بلاد ما بين النهرين والشام العربية تؤلفان جزءاً لا يتجزأ. فأما بلاد ما بين النهرين فتمتد في محاذة فارس. وهناك أُسست مدينتا البصرة والكوفة، اللتان ظلّتا طويلاً مركزي الثقافة الإسلامية، خلال خلافة عمر بن الخطاب، وأما الشام العربية فتقع إلى الشمال، ممتدة حتى حلب. ومن هنا أظهر الجغرافيون العرب الفرات بوصفه التخّم الشمالي لهذه الجزيرة. وفي هذا الجزء يقع جبل طور سيناء حيث تلقى موسى الوحي الإلهي. ولقد كان للعماليق في عهد ما مملكة قوية هناك<sup>(١)</sup>.

قبائل العرب: ينحدر العرب من أصلين كبيرين هما قحطان وعدنان، وقد كان موطن قحطان في اليمن، وكان منهم حمير وأشهر حمير قضاة. وكان منهم كهلان، وأشهرهم: همدان، وأنمار، ومدحج وطيء وكندة ولخم وجذام والأرد وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام ومن أهم بطون قحطان سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان<sup>(٢)</sup>، فلما انهار سد مأرب عام ١٢٠ قبل الميلاد خرج أبناء مأرب إلى الجزيرة بحثاً عن منازل جديدة تصلح لسكنائهم، فنزل الأزد المدينة فاستوطنوها فكانت منهم

(١) مولانا محمد علي - حياة محمد ورسائله - ص ١١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم، وأيضاً جواد علي - أنساب القبائل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الرابع ص ٤١٤ - ٤٦٧ .

الأوس والخزرج . ومنهم من افتتح الحرم من جُرههم ، ومنهم من اتجه شرقاً إلى عُمان أو غرباً إلى تهامة من قبائل الأزدي تهامة أو أزدي عمان ، ومنهم من أوغل في سيره شمالاً حتى بلغ الشام فنزل على ماء غسان وأقاموا مع ملك الغساسنة الموالي للروم . ومنهم من اتجه إلى الحيرة بتخوم العراق وهم لحم بن عدي من أددي بن زيد ابن كهلان ومعهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة فكان ملكهم تابعا لساسان ملوك فارس الذين احتلوا وحكموا العراق . ونزلت قبيلة طيء بالجليل أجاً وسلمى . ونزلت كلب بن وبرة من قضاة ببادية السماوة حتى اتصلت بأطراف العراق . كذلك بقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم . وفيما يلي تخطيط مختصر يبين أشهر تلك القبائل من نسل قحطان . أما عدنان فكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ومن نسله رسول الله ﷺ كان موطنه مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة . وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن معد بن عدنان . ثم هاجر بعض من هذه البطون إلى مواطن أخرى تبعاً لمواقع القطر ومنابت العشب فاتجهت ربيعة شرقاً فأقامت عبد القيس بالبحرين ، وأقامت حنيفة باليمامة ، وعبرت تغلب الفرات فأقامت بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات . أما عن فرع مضر بن معد بن عدنان ، فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة حتى حدود الجليلين أجاً وسلمى . وأقامت ثقيف بالطائف واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة على طريق البصرة ، وسكنت أسد شمالي وادي الرمة شرقي تيماء إلى غرب الكوفة<sup>(١)</sup> .

تنقسم بلاد العرب إلى أجزاء عديدة . منها الحجاز ، وهو الإقليم الذي تقع فيه أرض «الحرم» المقدسة . و«الحرم» (الأرض المحرمة أو المقدسة) إنما دُعي بهذا الاسم لأنه كان منذ أقدم العصور موضع توقير وإجلال بالغين ، وكل ضرب من ضروب القتال محظوراً هناك حظراً صارماً . وفي نطاق هذا «الحرم» تقوم الكعبة المقدسة . والتوراة ، كتاب اليهود المقدس ، يطلق على الحجاز عامة ومكة خاصة لفظ فاران Paran . وأهم مدنه مكة ، والمدينة ، والطائف . وهذا الإقليم يمتد على طول البحر الأحمر على شكل شقّة مستطيلة . وجدة وينبع هما ميناءاه الرئيسيان ، حيث الحجاج إلى مكة والمدينة يهبون إلى البر على التوالي . ويحدّ الحجاز ، من ناحية الشرق ، إقليم نجد ، ومن ناحية الجنوب إقليم عسير ، وهو جزء من اليمن . والإقليم الرئيسي الثاني من أقاليم بلاد العرب هو اليمن ، وتقع في جنوب الجزيرة . وحضرموت والأحقاف تشكلان جزأين من هذا الإقليم . والواقع أن اليمن أخصب أقاليم بلاد العرب كلها ومن أجل ذلك كانت أكثرها تمدناً . ولا تزال تقع ههنا على بقايا مبان فخمة رائعة . وههنا أيضاً أنشئت في يوم من الأيام سدود للسيطرة على ينابيع الماء المنبجسة من الجبال واصطناعها لأغراض الري . وأشهر هذه السدود سدّ مأرب<sup>(٢)</sup> الذي أشار القرآن الكريم إلى خرابه

(١) أحمد راتب عرموش - قيادة الرسول السياسية والعسكرية ص ٥ .

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق - ص ١٤



أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشَمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بُلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبا]. سميت اليمن يمناً لأنها تقع على يمين الكعبة ولأنها بلاد اليمن والخير والبركة وكان القدماء يسمونها بلاد العرب السعيدة أو اليمن الخضراء ويقول الهمداني: «وسميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها وتتكون اليمن من عدة أقسام أهمها حضرموت وعمان وعسير ونجران<sup>(١)</sup>».

وكانت اليمن، مركز التجارة بالمعادن، والحجارة الكريمة، والأفاويه التي اشتهرت بها بلاد العرب، في زمن ما، شهرة عظيمة. ومملكة عاد العظيمة، التي يتحدث عنها القرآن الكريم، إنما أسست هناك، وهذه البقعة بالذات تُعرف بالأحقاف. وحضرموت هي ذلك الجزء من اليمن الواقع في أقصى الجنوب، على ساحل المحيط الهندي. وصنعاء هي عاصمة هذا الإقليم، وعدن هي المرفأ الرئيسي. وإلى شمال صنعاء تقع نجران، حيث انتشرت النصرانية قبل انبثاق فجر الإسلام. والوفد النصراني المشهور الذي زار النبي الكريم والذي أُجيز له أن يتزل في مسجد الرسول إنما أقبل من هذا الوطن. وإلى الشمال من نجران تقع عسير حيث موطن قبائل الأزدي اليمنية القوية. والجزء الثالث من أجزاء بلاد العرب هو نجد، وكان بنو حنيفة القبيلة التي ينتسب مُسلمة الكذاب، يقيمون هناك وإلى الجنوب الشرقي من بلاد العرب، وعلى طول ساحل خليج عُمان، تمتد الأرض المعروفة بعُمان، وعاصمتها مسقط حيث أقيمت اليوم سلطنة منفصلة. وإلى شمال عُمان يقع الجزء المعروف بالبحرين، - ويدعى أيضاً الأحساء - وهو شهير بلأثه، وفي منحازاتها تقع الحيرة، وكانت في يوم من الأيام مملكة. وحجر، موطن ثمود التي أرسل الله إليها نبيها صالحاً، مكان آخر جدير بالذكر. إنها تقع إلى شمال المدينة. وفي رحفه على تبوك اتفق للرسول الكريم أن اجتاز بذلك المكان. وتبوك وحجر، اليوم، محطتان واقعتان على خط الحجاز الحديدي. وإلى غربي حجر تقع المدائن، وهي موطن النبي شعيب، وإلى شمال المدينة تقع خيبر، التي كانت يوماً معقل اليهود. ومدن الحجاز الثلاث الرئيسية، كما سبقت الإشارة، هي مكة والمدينة والطائف. والطائف مدينة شهرتها إلى كونها، على سفح الجبال، معتدلة الجو، غنية بالاحضرار، موفرة الينابيع والفاكهة. وهي تقع إلى الشرق من مكة، وتعتبر مصيف النبلاء من أهل الحجاز. ولكن أشهر مدن الحجاز مكة والمدينة. ومكة، أو بكة، تُعرف أيضاً بـ «أم القرى»، أي أم المدن. وهي محاطة من جهاتها الأربع كلها بالجبال. ولقد كانت منذ أقدم العصور، ولا تزال، عاصمة بلاد العرب الروحية والدينية، إذ فيها يقوم بيت الله الحرام المعروف بالكعبة التي كانت قبلة الحجاج من كل ركن وزاوية في بلاد العرب منذ عهد ما قبل التاريخ<sup>(٢)</sup>.

(١) د. نبيه عاقل - تاريخ العرب القديم وعصر الرسول - ص ٢٨.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤.

في القرآن الكريم إشارة عن أول بيت «وضع للناس» ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران]، وبكلمة أخرى، عن أول بيت على سطح الأرض خصَّص لعبادة الله. فمن هذا المكان انبثقت أشعة الوحي الإلهي، فهذا المكان نفسه يزعم بأنه الحجب خاتم النبيين المباركين. ومكة مدينة بمكانتها المقدسة إلى هذا البيت. فمنذ عهد يرقى إلى ٢٥٠٠ سنة ق. م. كانت محطة للقوافل المترددة ما بين اليمن والشام. والقرآن الكريم أيضاً يثبت أن البيت الحرام كان قائماً قبل إبراهيم ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة]، وحين خلف ولده، إسماعيل، هناك، كانت هذه الكلمات التي تضرع بها الشيخ الجليل إلى الله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [إبراهيم]، وهذا يظهر أن الكعبة كانت قائمة هناك حتى في مثل هذا التاريخ المعين في القدم. وكانت المدينة تدعى، في الأصل، يثرب. وفي ما بعد عندما اتخذها الرسول الكريم مقراً له أمست تُعرف بـ «مدينة النبي»، وهو اسم ما لبث أن تقلص، تدريجياً، فأسمى «المدينة» وهذه أيضاً مدينة عتيقة. وبعض القرائن التاريخية توحى بأن إنشائها يرقى إلى عام ١٠٠ ق. م. وقد سكنها العماليق، بادئ الأمر<sup>(١)</sup>، ثم اليهود، والأوس، والخزرج، وجاء اليهود على أثر اضطهاد الروم والمسيحيين الذين طردوا اليهود من فلسطين فجاءوا لاجئين إلى المدينة واستوطنوا هناك واستمروا على دينهم برغم اتخاذهم العربية لغة لهم في حياتهم اليومية بحكم جيرانهم العرب ثم وفدت قبائل «الأوس» و«الخزرج» من اليمن إلى المدينة وأصبحوا سادتها وحكامها ولم يطمثوا العرب إلى اليهود ولهذا لم يعتنقوا الديانة اليهودية<sup>(٢)</sup>.

وحين أقبل الرسول ليقيم فيها كان هؤلاء الأقبام الثلاثة هم أهلها. وفي ما بعد اكتسب الأوس والخزرج. لقب «الأنصار». وفي السنة الثالثة عشرة من البعثة، هاجر الرسول من مكة إلى المدينة، حيث قضى بقية أيام حياته. هناك لفظ النفس الأخير، وهناك يقوم ضريحه إلى يوم الناس هذا. وتقع المدينة على مبعدة متتين وسبعين ميلاً إلى الشمال من مكة. فيها بالإضافة إلى المزروعات الوفيرة عدد غير قليل من الأشجار المثمرة، ومناخها في الشتاء أكثر اعتدالاً من مناخ مكة. وعاد، وثمود، وطسم، وجديس هي أقدم أعراق بلاد العرب، وقد تحدث القرآن الكريم عن العرقيين الأولين عاد وثمود في بعض آياته. وهذه الأعراق الأولية تعرف بـ «العرب البائدة»، ورغم الشك الذي يبديه بعض المؤرخين حول وجود قبائل «كعاد» و«إرم» فإن القبائل الأخرى «كثمود» وغيرها لا خلاف مطلقاً على حقيقة وجودها التاريخي وأخبار وجودها قليلة جداً ويكتنفها الغموض في أغلب الأحيان<sup>(٣)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع - ص ١٧.

(٢) د. شوقي ضيف - العصر الجاهلي ص ٣٢.

(٣) د. نبيه عاقل - تاريخ العرب القديم وعصر الرسول - ص ٣٦.

فبعد هلاك قوم نوح نشأت «عاد» التي امتدت مساكنها إلى مواطن بعيدة خارج تخوم بلاد العرب. والبيئات التاريخية تزكي سيطرة «عاد» على بلاد العرب، ومصر، ومواطن أخرى كثيرة، حتى إذا هلكت انتقلت السيادة إلى ثمود. بعد ذلك ظهر بنو قحطان الذين كانت اليمن موطنهم. وقد تمتعوا في أيامهم بسلطان وسيادة عظيمين أيضاً. وإنما كان الأوس والخزرج من ذريات هذه القبيلة. وجميع هذه الأعراق تعرف بـ «العرب العاربة» أي العرب الخالص. وأخيراً جاء إسماعيل، الذي عُرفت ذريته بـ «العرب المستعربة»، أي المتعربة. وصدوعا بالأمر الإلهي ترك إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه «هاجر» في الموضع الذي تقوم فيه الكعبة. عاد الأب والولد، نزولاً عند الإيعاز الإلهي، بناء الكعبة المقدسة التي كانت، على ما يبدو، في حال متهدمة. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة]، حتى إذا تم لهما ذلك وجها كلاهما هذا الدعاء المشترك إلى الله الكلي القدرة: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة]، وهو دعاء استجابته الله في شخص الرسول محمد صلوات الله عليه. ومن أجل ذلك يدعى الرسول الكريم أيضاً «صلاة إبراهيم». وتكاثرت ذرية إسماعيل، وتشعبت إلى قبائل متعددة. وإحدى هذه القبائل تُعرف بـ «قريش»، وهي متحدرة من «النضر». وفي ما بعد انقسمت هذه القبيلة إلى عدد من البيوت، وكان الرسول سليل واحد منها هو بيت بني هاشم<sup>(١)</sup>.

مملكة «كندة» نجد: عرف النسابون قبيلة «كندة» بأنها من القبائل العربية الحضرية تنسب إلى ثور ابن عفير الذي ينسب إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقب ثور بن عفير «كندة» ويدعوها الأخباريون بـ «كندة الملوك»؛ لأن الملك كان لهم على الحجاز التي يسكنها العرب العدنانيون ثم أصبحوا «كندة» ملوك نجد، يذكر الأخباريون أن الموطن الأصلي لكندة هو «حضر موت» وأن حاضرتهم كانت مدينة «دمون» التي يرد اسمها في شعر امرئ القيس:

كأني لم ألهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

تنزل قبيلة «كندة» في غمر ذي كندة، وفي البحرين والمشقر، وأنها نزحت إلى حضرموت في زمن لا نستطيع تحديده، ونزحت مرة ثانية من حضرموت إلى أرض معد بنجد واستقرت بها. وهناك خلاف بين الأخباريون حول أسباب نزوح كندة إلى الشمال. فاليعقوبي يشير إلى حرب قامت بين قبيلة كندة وقبيلة حضروت طال أمدها وأدت إلى جلاء كندة عن حضرموت: يقول اليعقوبي: «وكان بين كندة وحضرموت حروب أفنت عامتهم، وطالت الحرب بينهم، وفتنت رجالهم، ودامت حتى ضرستهم، وكثر القتل في كندة، صارت كندة إلى أرض معد، فجاورتهم». وهناك فريق آخر من الأخباريين يرجعون نزوح كندة من حضرموت إلى نجد إلى وجود قرابة بين حنجر بن عمرو سيد

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق - ص ١٧ .

كندة، وتبع صاحب السلطان آنذاك على نجد والحجاز وغيرها من بلاد العرب فولى تبع حجرًا على قبائل معد كلها لأنه قريبه من جهة، ومن أتباعه المخلصين من جهة أخرى إضافة إلى قوته وشجاعته. أما حمزة الأصفهاني، فيذكر نقلاً عن ابن الكلبي، أن تبعًا حين أقبل سائرًا إلى العراق نزل بأرض معد، فاستعمل عليها حجرًا أكل المرار. وكل هذه التفسيرات على ما فيها من خلاف في التفاصيل، توضح أن انتقال كندة إلى أرض معد كان في زمن غير محدد، ولظروف غير متفق عليها. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض المعطيات المتفق عليها والتي أدت إلى هجرة القبائل من اليمن، كتحويل طرق التجارة عنها، ووقوعها ضمن المناطق التي تتصارع عليها القوى الدولية العظمى آنذاك، لوجدنا أنه بالإمكان أن نقبل أن هجرة الكنديين من موطنهم الأصلي في حضرموت، قد تمت حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي، وأن من العوامل التي دفعتهم إلى هذه الهجرة تحول طرق التجارة عن موطنهم الأصلي هناك في حضرموت، وقلة موارد عيشهم بنتيجة ذلك<sup>(١)</sup>.

إن أول ملك كان مُرتع بن معاوية بن ثور وكان ملكه عشرين سنة، وخلفه ابنه ثور بن مرتع ولم يطل ملكه إلا مدة يسيرة ثم مات فملك بعده معاوية بن ثور، ثم ملك الحارث بن معاوية فكان ملكه أربعين سنة، وخلفه وهب بن الحارث فملك مدة عشرين سنة. ونصل بعد هؤلاء الملوك الذين لا نعرف عنهم الشيء الكثير والذين حكموا على ما يبدو قبل نزوح كندة من حضرموت إلى نجد، إلى حجر بن عمرو أول ملوك كندة في نجد. وحجر هذا، هو حجر بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية على ما يذكر حمزة الأصفهاني، أو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن كندة، على ما ينقل لنا ابن خلدون ويقول د. سعد زغلول<sup>(٢)</sup>: بأنه أول من أقام مملكة «كندة» هو الملك حجر بن الحارث بن عمر مؤسس مملكتها الحقيقي عام ٤٨٠م.

يلقب حجر بن عمرو بـ «أكل المرار»<sup>(٣)</sup>، لأنه أكله ولم يحس به لغضبه وبهذا عرف بأكل المرار<sup>(٤)</sup> وقد ولاه حسان بن تبع، أخوه لأمه، بعد أن دوخ بلاد العرب وسار في الحجاز، على معد بن عدنان كلها، فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة. ويذهب فيليب حتى إلى القول بأنه، كما كان الغساسنة عمالاً للبيزنطيين، واللخميون عمالاً للفرس، فقد كان كذلك ملوك كندة في أواسط الجزيرة العربية في «نجد» عمالاً لتبابعة اليمن المتأخرين. ويحدد حتى تاريخ تولي حجر على معد بسنة

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٢١٠.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد - في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٣٣.

(٣) المرار: عشب مر إذا أكلته الإبل قلصت عنه مشاقرها فبدت أسنانها، وقيل إن حجرا سمي بأكل المرار لكسر كان به، كما قيل إنه كان في نسر من أصحابه في نسر، فأصابهم الجوع، فأما هو فأكل المرار حتى شبع، فعرف بأكل المرار، وهناك أقوال أخرى.

(٤) سهيل زكار - تاريخ العرب والإسلام - ص ٢٨.

٤٨٠م. وهو أول زعيم من رعماء كندة تمكن من توحيد صفوفها وفرض سيطرتها على القبائل الأخرى وتوسيع رقعة أرضها حتى بلغت حدود مملكته حدود مملكة اللخمين. وتذكر إحدى الروايات أن حجراً نزل بنجد في موقع يقال له «بطن عاقل» في جنوب وادي الرمة على الطريق بين مكة والبصرة. وكان هذا الجزء من نجد يقع تحت سيطرة المناذرة يسكنه جماعة من بني بكر بن وائل. فحين نزل حجر به جمع حوله بني بكر ونهض بهم فحارب المناذرة واستخلص أرض بكر منهم. ويستخلص من رواية أخرى أنه غزا عُمان، وأن أحد الأمراء الغساسنة استغل فرصة غيابه عن بلاده فأغار على أرضه وأخذ أموالاً كثيرة وسبى بعض نسائه ومن بينهن قينة كانت من أحب قيانه إليه. ولما عاد حجر من غزواته هذه وعرف بما كان من غدر الغساسنة به، سار مسرعاً فلحق بأرض غسان واسترد أمواله ونسائه. كما قام بحملات ضد القبائل الساكنة في الحجاز شمال الجزيرة العربية والبحرين. وفي فترة من الفترات وصل بفتوحاته حتى حدود دولة المناذرة وانتزع منهم بعض أراضيهم. كما مدّ سلطانه على اليمامة. وقد توفي حجر ودفن ببطن عاقل عام ٥٢٨م. إن حكم حجر كان في الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي. وقد تزوج بزوجات ثلاث هن: هند بنت ظالم وكانت تعرف بهند الهنود، وأم أناس بنت عوف الشيباني وهي أم الحارث بن حجر، والزوجة الثالثة من حمير. ويبدو أن حجراً كان يهدف من وراء هذه الزيجات الثلاث أن يقيم علاقات مصاهرة مع قبائل عربية مختلفة حتى يوطد حلفه بها ويرتبط بها برباط متين، وهذا ما كان يفعله سادة القبائل العربية في الجاهلية. خلف حجراً ابنه عمرو بن حجر، وقد عرف بعمرو المقصور؛ لأنه «قصر على ملك أبيه». كان لعمرو أخ اسمه «الجون» تولى حكم اليمامة، فلم يبق تحت حكم عمرو سوى نجد<sup>(١)</sup>.

يظهر عن عمرو هذا أنه لم يكن قويا. ويقول ابن الكلبي أن عمرو المقصور كان في جملة الذين دخلوا في خدمة حسان بن تبع سيد حمير، حتى أنه لم يتلقب بلقب «ملك» بل عرف فقط باسم «سيد كندة»، ولما قتل عمرو بن تبع أخاه حسان بن تبع وأصبح ملكا مكانه، دخل عمرو المقصور في خدمة عمرو بن تبع واصطنعه هذا الأخير واعتمد عليه وزوجه ابنة أخيه حسان. وقد ولدت ابنة حسان بن تبع لعمرو المقصور ابنه الحارث الذي سيكون له شأن كبير بعد وفاة أبيه وتسلمه ملك كندة والذي عين أبناءه على قبائل نجد ومنهم ابنه صخر والد امرئ القيس<sup>(٢)</sup>. وكانت علاقة عمرو المقصور مع اللخمين علاقة ود وحسن جوار، حتى أن الأسود بن المنذر ملك الحيرة تزوج ابنة عمرو المقصور، فولدت له النعمان الأسود الذي حكم في زمن قباذ أربع سنين. أما صلواته بالغساسنة فلم تكن كذلك، ويذكر اليعقوبي أخبار غزوة قادها عمرو ومعه ربيعة ضد بلاد الشام، ويبدو أن هذا الجفاء بين عمرو والغساسنة هو الذي قرب بينه وبين المناذرة اللخمين. وقد كانت نهايته، على ما

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٢١١ .

(٢) حواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الثالث ص ٣١٥ - ٣٨٦ .

يذكر اليعقوبي، على يد الحارث بن أبي شمر الغساني الذي قتله أثناء معركة قامت بينهما وكان الحارث الخامس أشهر ملوك الغساسنة والذي جعله «يوستينانوس» قائداً وأنعم عليه بالتاج ومنحه السلطة المطلقة على القبائل العربية في بلاد الشام<sup>(١)</sup>. انتقل الملك بعد وفاة عمرو بن حجر أو عمرو المقصور إلى ابنه الحارث بن عمرو من زوجته ابنة حسان بن تبع. وقد استطاع الحارث بعد هذا أن يوسع ملكه ويمد نفوذه، فصار ملكاً على كندة ويكر وقبائل أخرى. وقد امتد حكمه من ٤٩٥ - ٥٢٨، وكان الحارث أقوى ملوك كندة، من أسرة آكل المرار، وقد تولى الإمارة على بكر. وحول هذا الموضوع يتحدث أبو عبيدة: فيقول أنه حين ساءت أحوال هذه القبيلة إلى حد كبير «وغلها سفهاؤها وتقاطعت أرحامها، فارتأى رؤساؤها وقالوا: إن سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا، فأكل القوي الضعيف، فنرى أن تملك علينا ملكاً تعطيه الشاة والبعير، فيأخذ للضعيف من القوي ويرد على المظلوم من الظالم، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا، فيأباه الآخرون، فيفسد ذات بيتنا، ولكننا نأتي تبعاً فتملكه علينا، فأتوه، فذكروا له أمرهم، فملك عليهم الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي». وكما مد نفوذه على بكر، فقد نجح الحارث في مد نفوذه على الحيرة في الفترة ما بين ٥٢٤ - ٥٢٨<sup>(٢)</sup>.

يرجع نجاحه في بسط نفوذ كندة على الحيرة، وانتزاع السيادة عليها من المناذرة، إلى سببين، على ما يذكر حمزة الأصفهاني. وأول هذين السببين أن الملك الفارسي قباد أهمل شؤون مملكته وتغاضى عن سياسة رعيته ورعاية أمورهم، كما أنه أخذ بزندقة مزدك. وقد أدى كل هذا إلى صدام بين قباد والمنذر بن ماء السماء الذي رفض الدخول في المزدكية ولم يرضخ لضغط قباد. وهرب المنذر من دار مملكته بالحيرة ومضى حتى نزل إلى الجرسا الكلبي، وأقام عنده، وكان كسرى قد أمر باسترداد ودائع النعمان من بني شيبان الذين امتنعوا عن رد الودائع مما أدى إلى إرسال جيش كسرى ضد قبيلة «بني شيبان»<sup>(٣)</sup> الذين حققوا أكبر انتصار لهم وللغرب أجمعين على الفرس في يوم «ذي قار» إلى الشمال من «الكاظمة» وإلى الجنوب الغربي من البصرة وذلك في عام ٦١٠م وهو العام الذي بعث فيه رسول الله محمد ﷺ وقال: «هذا يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبني نصر»<sup>(٤)</sup>، وقال فيه هانئ بن مسعود: «إن الخدر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية لا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الشجر أكرم من الطعن في الدبر، يا قوم جدوا فما من الموت بد...»<sup>(٥)</sup>. ولما مات قباد وملك ابنه كسرى أنوشروان وسار في الملك بسيرة مخالفة لسيرة أبيه ولا سيما فيما يتعلق بالمزدكية، عاد المنذر إلى حاضرة ملكه وطرد منها الحارث بن عمرو الكندي. أما السبب الآخر في رأي حمزة، فهو أن: «امرئ القيس البدء كان يغزو قبائل ربيعة، فينكى فيهم،

(١) كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٣

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٢١.

(٣) إحسان النصير - العصابة القبلية في الشعر الأموي ص ١٥٦.

(٤) عمر فروخ - تاريخ الجاهلية ص ١٤٥.

(٥) عمار الكندي - شعر الحرب في العصر الجاهلي ص ٤٠.

ومنهم أصاب ماء السماء . . . ، ثم أنه ترك الحزم في غزوة من غزواته، فثارت به بكر بن وائل إلى أن وهى أمر الملك قباذ، فعندها أرسلت بكر إلى الحارث بن عمرو بن حجر» فملكوه عليهم، ونهضوا معه حتى أخذ الملك ودانت له العرب. وقد عظم سلطان الحارث، وبعد أن سيطر على الحيرة، وفخم أمره، واستطاع أن يولي أولاده ملك قبائل بكر وقيم وقيس وتغلب وأسد. كما أن من حل نجدًا من أحياء نزار غدا تحت سلطانه، وظل الحارث ملكًا على قبائل معد حتى ملك أنوشروان<sup>(١)</sup>.

لما ملك فارس كسرى أنوشروان وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى ملك الحيرة، كان الحارث بن عمرو يومئذ بالأنبار، فلما بلغت عود المنذر إلى عرش الحيرة خرج هاربًا في أصحابه وماله وولده. فتبعه المنذر بالخيال من تغلب وإياد وبهراء، فلحق بأرض كلب ناجيًا بنفسه. ولكن بني تغلب أنتهبوا ماله وهجأته وأسروا ثمانية وأربعين شخصًا من أفراد أسرته وقدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم. وكان بين هؤلاء الأسرى ابنا الحارث عمرو ومالك، فأعدما مع الباقيين. وكان الحارث قبل هذا الحادث قد وزع أبناءه ملوكًا على قبائل معد، كما ذكرنا، فولى حجرا أكبر أبنائه على بني أسد بن خزيمه وغطفان، وقيل على بني أسد وكنانة، وملك ابنه شرحبيل وهو الذي قتل في يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن تميم، وبني أسد بن عمرو بن تميم والرياب، وولي ابنه معد يكرب على قيس عيلان وطوائف أخرى. أما سلمة، أصغر أبنائه، فقد أقامه على بني تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مائة. أما ابنه قيس بن الحارث فقد كان سيارة، أي يصبح ملكًا على أي قوم نزل بهم<sup>(٢)</sup>.

اختلف الرواة في مصير الحارث بن عمرو. وكانت نهايته، عند اليعقوبي، على يد ملوك الحيرة، وقام أولاده بعده بقتال المنذر انتقامًا لمقتل أبيهم. إن الحارث كان من الرجال العظام الذين لم يلعبوا دورًا بارزًا في السياسة المحلية في عصرهم فحسب، بل تعدى دورهم السياسي حدود منطقتهم إلى العالم المجاور، إذ يذكر المؤرخ البيزنطي تيوفانس بأن رومانوس حاكم فلسطين في عهد الإمبراطور أناستازيوس أسر سنة ٤٩٧ قائدين عرييين أحدهما الحارث بن عمرو. وبعد أربع سنين من هذا الحادث، قام معد يكرب بن الحارث بهجوم انتقامي على فلسطين فاضطر أناستازيوس أن يعقد صلحًا مع الحارث بن عمرو يضمن به أمن المدن السورية من هجمات كندة. ويرى بعض المؤرخين أن هذا الصلح بين بيزنطة وكندة كان موجها أيضًا ضد الفرس وحلفائهم المناذرة. كما أننا لا نعرف شيئًا واضحًا عن أثر هذا الصلح على العلاقات بين كندة والمملكة الغسانية في بلاد الشام، ويرجع الغساسنة إلى القبائل اليمنية ومدة حكمها تتجاوز القرن ونصف القرن ويصل عدد ملوكها لثلاثين<sup>(٣)</sup>.

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٢١ .

(٢) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٢٢ .

(٣) عبد اللطيف الطيباري - محاضرات في تاريخ العرب والإسلام - ص ١٨١ .

كان الحارث قبل وفاته قد ولى أبناءه حكم القبائل التابعة له فكان من نصيب ابنه حجر بن الحارث حكم قبائل أسد وكنانة. وكانت أسد تقسم في زمنه في جنوب جبلي طيء، أجا سلمي الواقعين على جانبي وادي الرمة. ويقول اليعقوبي أنه كان سيء السيرة في بني أسد لذلك لم يقم في منازلهم بل أقام في تهامة خوفاً من بطشهم به. وكان حجر أثناء حياة أبيه يرسل رسله كل سنة إلى أسد لجمع الإتاوة التي كانوا يدفعونها له. ولكن لما مات الحارث أراد بنو أسد اغتنام الفرصة لرفض طاعته والقضاء عليه، وهكذا لما جاءت رسل حجر طالبة الإتاوة السنوية منعوها عنهم وضربوهم وطردوهم. وبلغ الخبر حجراً فسار إليهم بجند من ربيعة وقيس وكنانة، واستباح ديارهم وقتل أشرفهم وأسر عدداً كبيراً من رجالاتهم وأرسلهم إلى تهامة. ولكن ما لبث هؤلاء الأسرى أن قفلوا عائدين وهاجموا معسكر حجر وقتلوه. وبعد مقتله انضمت كنانة وقيس إلى بني أسد في نهب معسكره. أما أخوه شرحبيل بن الحارث فكان أبوه قد ملكه على بكر بن وائل وحنظلة ابن مالك وبني أسيد والرباب من مضر، وكان نصيبه القسم الشرقي من نجد من أملاك أبيه ما عدا البحرين. وكان سلمة بن الحارث، أخوه، ملكاً على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة<sup>(١)</sup>. كانت خطة المنذر ملك الحيرة حين عجز عن القضاء على أولاد الحارث بن عمرو أن يفرق بينهم بالدسائس والوقيعه، ويعتبر المنذر من أشهر ملوك الحيرة وكان عصره من أزهى عصور المناذرة<sup>(٢)</sup>. فوجه إلى سلمة بعض الهدايا، وأرسل إلى أخيه شرحبيل من يقول له: إن سلمة أكبر منك، وهذه الهدايا تأتيه من المنذر. وظل يوقع بينهما ويدس الدسائس حتى تحاربا وقتل شرحبيل. ولما علم سلمة بمقتل أخيه، وكان ذلك في يوم من أيام العرب المشهورة يدعى بيوم الكلاب، جزع لذلك وأدرك أن المنذر إنما أراد الوقيعه بينهما وتفريق شمله وشمل إخوته ثاراً منهم لما كان بينه وبين أبيه الحارث بن عمرو. وبعد مقتل شرحبيل أخرجت تغلب سلمة عنها، فالتجأ إلى بكر بن وائل فدانت له بالطاعة<sup>(٣)</sup>، ولكن المنذر ملك الحيرة طلب إليهم أن يخلعوا طاعة سلمة فرفضوا، فزحف عليهم بجموعه وهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً على جبل أواره، ويعرف هذا اليوم بيوم أواره الأول الذي يقع قرب الكاظمة والتي تعرف بالجهرة في الكويت الحالية، أما «أواره» فهي «المطلاج» في الكويت حالياً، وبذلك كان بطش ملوك الغساسنة والمناذرة كبيراً بقبائل العرب، حيث وجدنا كيف بطش المنذر بن ماء السماء بقبيلة بكر من جماعة «الكندة» وقتل منها خلقاً كثيراً كما أسر عدداً كبيراً وأمر أن يذبحوا على جبل «أوارح» وأمر النساء أن يحرقن بالنار<sup>(٤)</sup>.

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٢١٧.

(٢) جرجي زيدان - العرب قبل الإسلام - ص ٢٧٧.

(٣) جاد المولى - أيام العرب ص ٩٩.

(٤) ابن الأثير - ١ / ٣٣٤.



آخر أولاد الحارث، معد يكر ب بن الحارث، فكان أبوه قد ولاه على قيس عيلان وطوائف أخرى. يقول تيوفانس المؤرخ البيزنطي أن شيخاً عربياً اسمه Madicaripos قام بغارة على فلسطين وأوغل فيها وأوقع الدعر في جند الروم. ويظن أن Madicaripos هذا، إن هو إلا معد يكر ب بن الحارث. والذي يزيد في هذا الاعتقاد هو أن تيوفانس يذكر أن هذا الشيخ العربي كان شقيقاً لشخص يسمى Ogaros أي حجر (حجر بن الحارث) وكان من نتائج هذه الغارات أن عقد الإمبراطور الروماني أناستازيوس صلحاً مع الحارث بن حجر والدهما. وعلى هذا الأساس تكون غارة معد يكر ب وأخيه حجر على فلسطين قد حدثت زمن أبيهما الحارث أي في حدود عام ٥٠٢. ويشير الإخباريون إلى هذه الغزوات التي قام بها معد يكر ب وأخوه حجر على حدود سوريا وفلسطين. وقد ظل معد يكر ب رئيساً لقبائل قيس عيلان بعد مقتل أخويه شرحبيل وحجر وموت أخيه سلمة. وقضى الشطر الأخير من حياته حزينا على فقد أخويه حتى اعتراه وسواس هلك به. وهكذا قضى أولاد الحارث بن عمرو واحدا بعد الآخر، ولم يبق من نسله سوى حفيده امرئ القيس بن حجر بن الحارث<sup>(١)</sup>.

يتحدث صاحب الأغاني عن قتل حجر بن الحارث ويقول: إنه لما طعن حجر وقبل أن يلفظ أنفاسه أرسل رسولا من قبله إلى أولاده وحمل كتاباً يشرح فيه مقتله أمام قتلته، وطلب من الرسول أن يطوف على أولاده ويدفع لهم كتابه فمن لم يجزع وأظهر بأساً وتشدداً أعطاه سلاحه وخيله ووصيته وطلب إليه الأخذ بثأره. وقد طبق الرسول وصية حجر فطاف بأولاده جميعاً فظهروا الجزع والضعف لمقتل أبيهم، حتى جاء امرؤ القيس، وهو أصغرهم فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعب بالنزد. فأخبره بمقتل أبيه فلم يلتفت إلى قوله حتى إذا ما فرغ من لعبه، سأل الرسول عن الخبر فحدثه به. وكان حجر قد وطد ابنه امرئ القيس «وآلى ألا يقيم معه أنفة من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك. فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم، وخرج إلى الصيد تصيد ثم عاد فأكل أكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغطته قيانه. ولا يزال كذلك حتى ينفذ ماء الغدير ثم ينتقل معه إلى غيره. فأتاه خبير أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض حضرموت. فلما تاه بذلك قال: ضيعني صغيراً، وحملني دمه كبيراً، لاصحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر وآلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن حتى يدرك بثأره». وارتحل امرئ القيس ونزل بيكر وتغلب وسألهم أن ينصروه على بني أسد فأجابوه لذلك. وعلم بنو أسد بما ينويه لهم امرئ القيس فساروا حتى نزلوا منازل بني كنانة لكن لما عرفوا أن امرئ القيس سائر في إثرهم إلى منزلهم الجديد، تركوا بني كنانة. وحين وصل

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٢١٨.

امرئ القيس إلى ديار كنانة وعرف بارتحال بني أسد عنهم، تابع سيره في إثرهم فأدركهم ظهر اليوم التالي وقد أنهك السير خيله ورجاله وأضناهم العطش والجوع. وبنو أسد في أحسن حال وقد نزلوا قرب عين ماء. ورغم ذلك استطاع أن ينارلهم وأن يقتل منهم خلقا كثيرا ففروا مجددا. ولما طلب من صحبه من بكر وتغلب السير معه مجددا لملاحقة الأسديين رفضوا بحجة أنه أصاب ثاره منهم ولا مبرر لمطلبه وكرهوا الاستمرار في الحرب<sup>(١)</sup>.

وبذلك قتلت «بني أسد»، «حجر» والد امرئ القيس بعد أن انهزمت كندة وغنمت أسد أموالهم، حيث يقول عبيد بن الأبرص<sup>(٢)</sup>:

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا هارينا

فلما يشس من نصرتهم أخذ يتنقل بين قبائل اليمن طالبا النصر منها على خصومه دونما جدوى. ويبدو أن بني أسد طلبا حماية المنذر بن ماء السماء فمتحهم إياها، وأخذ المنذر زمام المبادرة في هذه المشكلة فأخذ يسرح الجيوش في طلب امرئ القيس، فانفض عنه من كان معه من رجال واضطر هو للانتقال بين قبائل العرب طالبا الحماية الشخصية لشخصه وأصحابه. وكان آخر من نزل به وطلب حمايته السموال بن عادياه صاحب تيماء. وقد أكرم السموال امرئ القيس ومنحه الحماية والرعاية. ويبدو أن امرئ القيس طلب من السموال أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ليكون وسيلته إلى الإمبراطور البيزنطي جستنيان، علّ هذا الآخر يساعده على الفوز بثأره. وبعد أن انتهت المراسلات قرر امرؤ القيس السفر، وأودع السموال دروعه وأهله، وسار قاصداً القسطنطينية. لما وصل حاضرة البيزنطيين أكرمه الإمبراطور جستنيان وأدخله مقره. ويقول ابن قتيبة أنه كان للإمبراطور ابنة نظرت إلى امرئ القيس فعشقت فكان يأتيها وتأتيه. فبلغ ذلك بني أسد، فأضرموها وانتظروا نتيجة مساعيه مع الإمبراطور، فلما عرفوا أن الإمبراطور موفد معه جيشا لنصرتهم عليهم، أرسلوا شخصا منهم كان امرئ القيس قد قتل أباه، إلى الإمبراطور وحدثه بالعلاقة المريبة بين امرئ القيس وابنته، وأنه يقول الشعر الغزلي بها ويفضحها بين أحياء العرب. فامتلات نفس الإمبراطور غيظا وعزم على الانتقام من امرئ القيس فبعث إليه بحلة شي منسوجة بالذهب ولكنها مسمومة. فلما لبسها أسرع السم في جسمه وسقط جلده ولذلك سمي بلذي القروح. ولما وصل إلى أنقرة من بلاد الروم وهو في طريق عودته إلى بلاده مات متأثرا بقروحه ودفن هناك<sup>(٣)</sup>.

ومن شعر امرئ القيس<sup>(٤)</sup>:

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٢٢١

(٢) الشعر والذمراء لابن قتيبة - ١ / ١٢١.

(٣) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٢٢٢.

(٤) ديوان امرئ القيس - ص ٦٦.

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصر

فقلت له لا تبك عينك وإنما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

لما مات امرئ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموال طالبه بأدراع امرئ القيس، وكان مائة درع وبما له عنده، فرفض السموال أن يسلمها إلى الحارث. عند ذاك أخذ الحارث ابنا للسموال وهدده إذا لم يسلمه الأدراع فإنه سيقتل ابنه. وأبى السموال تسليم ما بعهدته، فنفذ الحارث تهديده وقتل ابن السموال. ويعتبر هذا الحادث خير مثال على الوفاء بالعهد. هكذا انتهت دولة كندة، ولم يبق من الكنديين سوى جيل من أحفاد أكل المرار من آل معاوية الجون أخي عمرو المقصور ظلوا يحتفظون بالرياسة في البحرين ولجند وحضرموت، وقد قاتلا المسلمين في حروب الردة، ثم ما لبثوا أن انضوا تحت لواء الإسلام. أما اليمن فقد خضعت للنفوذ الحبشي منذ عام ٥٢٥، وتركتها بعض قبائلها وهاجرت إلى لجد والعراق ودخلت تحت سيطرة اللخمين.

لم يكن الكنديون أصحاب حضارة راقية تشبه حضارة المناذرة أو الغساسنة، فقد حافظوا على النظم والحياة البدوية، ولم يقيموا في حضارة ثابتة، بل كانوا يتنقلون بين الجنوب والشمال، واستعملوا الخيام كمساكن ولم يعرف عنهم بناء المدن والقصور. وكان ملوكهم يقضون أوقاتهم في الحرب والصيد، وظهر منهم شعراء عظام من أمثال امرئ القيس بن حجر ومعد يكرب بن الحارث وغيرهما. أما ديانتهم فكانت وثيقة ومن أصنامهم المشهورة ذو الخلصة الذي انتقلت عبادته إلى عرب الحجاز فيما بعد وقد تسربت الديانة اليهودية إليهم فاعتنقها بعضهم، ويبدو أنها جاءتهم بسبب مجاورة اليهود لبني كنانة في يثرب وخيبر، وبسبب اتصال الكنديين بالتبابعة الحميريين في عهدهم الأخيرة وتبعيتهم لهم. أما المسيحية، فكانت أكثر انتشارا في لجد من اليهودية، واعتنقها بنو تغلب وجماعة من بني أسد، وقد انتقلت إليهم عن طريق الغساسنة وعباد البحيرة وأحباش اليمن. ولعل أهم ما يجب أن نذكره عن الكنديين أنهم كانوا رعماء اتحاد قبلي يضم قبائل مختلفة تعترف بزعامتهم وتدين بالولاء لهم. وقد ساعد وجود هذا الاتحاد القبلي الذي يدين بالزعامة لكندة إلى استقرار شؤون القبائل في الجزيرة العربية ونشر الأمن والنظام فيها. ولما ضعفت كندة حلت محلها في السيادة على القبائل دولة المناذرة، ولكن لفترة قصيرة، فلما سقطت دولة المناذرة تفككت عرى الوحدة القبلية في الجزيرة واستقل كل منها في شؤونه وأموره الداخلية، حتى جاء الإسلام فأعاد الوحدة لهذه القبائل وضمها تحت جناحيه وسار بها ليقم دولة الإسلام<sup>(١)</sup>.

أسواق العرب:

العرب يقيمون أسواقا في أوقات محددة من كل عام، وقد اشتهر منها عكاظ. يقول سعيد

الأفغاني:

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٢٢٢ .

«ينزل السوق قريش وهوازن، وطوائف من العرب يؤمنونها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر واليمن وسائر أطراف الجزيرة. وهي عامة حتى أنه ليس فيها مكاس ولا عشار، لأنه لم تكن في ملك أحد من الأمراء. وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تتقصف دونها مطاعم الكبراء. ولعل من أهم ميزاتها صفتها العامة هذه.

«هي إذن معرض عام للجزيرة العربية: فيها عرض لتجارات جميع الاقطار، وعرض للبيوع، وعرض للعادات والأديان، واللغات والآداب، وللسياسة، وفيها لجان رسمية، على نحو ما نألف في معارضنا اليوم. تحكم للمتفوق بتفوقه، وتزيد عن معارضنا بميزة جميلة وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواصفاتها لتنتقي منها أصلحها، وأخلقها بالبقاء.

أطلق القرآن على العهد الذي سبق ظهور الرسول اسم «الجاهلية» أو العصر المظلم، وهو اسم يُجمل في لفظه واحدة ما قد يحتاج التبسط فيه إلى مجلدات. والصورة التي ترسمها إنما تمثل حالة الانحطاط التي تردى فيها الوثنيون العرب، واليهود، والنصارى على حد سواء. لا، بل إنها تثبت أن الفساد كان متفشياً في طول العالم وعرضه، وكانت الحروب أبرز ظاهرة يتميز بها العصر الجاهلي «ولو تساءلنا عن دافع هذه الحروب والغزوات أو الغارات القبلية لوجدنا بأن أسبابها التنافس على المراعي أو الماء كما حصل في يوم «سفوان» عندما التقت قبيلة بني مازن وقبيلة بني «شيبان» على منطقة صغيرة في الجنوب الغربي من البصرة إلى الشمال من حدود الكويت الحالية يسمى «سفوان» فزعمت كل قبيلة أنه ملكها مما أدى ذلك إلى حرب كبيرة بينهما<sup>(١)</sup>. بيد أن هذا لا يفترض ضرورة أن العالم لم يشهد قط من قبل وضعاً أفضل، ولكنه يعني أن أيما حضارة وحياة أخلاقية قدر لهما أن ينشأ في أيما مكان بفضل الأنبياء الذين بعثهم الله إلى مختلف الشعوب بين فترة وأخرى كانت قد تلاشت بالكلية بسبب تطاول الأحقاب والزمان. لقد كانت جميع شعوب الأرض محرومة، لذلك العهد، من حالة الحضارة الحقيقية. وإنما انبعثت هذه الكلمات من فم رجل كان، من غير ريب، أمياً بكل ما في الكلمة من معنى. وهذا الرجل لم تتح له أية فرصة للضرب في أرجاء العالم لكي يدرس أحوال البلدان المختلفة، لا ولم يكن في ميسوره أن يفيد من مثل نظام الإعلام العصري الذي كان خليقاً به، لو عرف في تلك الأيام أن يعرفه إلى حال العالم في ذلك الزمان. ومع ذلك، فإن نظرة إلى صفحات التاريخ تعزز صدق ذلك التوكيد على نحو رائع. فباستثناء هذه الواقعة التي تقول بأن أوروبا عرفت إمبراطورية جبارة في الجزء الجنوبي الشرقي منها - إمبراطورية روما النصرانية - كانت الديار الأوربية غارقة في حال من البربرية بالمعنى الحرفي للكلمة. وكانت آسيا، من بين القارات جميعاً، هي مهد الحضارة في عهد ما. ولكن أيما دراسة لمختلف البلدان التي تؤلف مهد الفلسفات والديانات هنا لتظهر أن الفسوق المحض كان هنا، شأنه في أي مكان آخر، هو القاعدة الغالبة.

(١) السنت تاريخي - ٢٠٩

والهند، التي كانت ذات يوم مركز الثقافة الشرقية القديمة، تبدو هنا بالصورة الرهيبة نفسها. كانت أشياء شنيعة، وضيعة، شائنة تعزى حتى إلى ما كان الناس يعتبرونهم أنصاف آلهتهم. كان الشر قد استبد بهم إلى درجة جعلتهم بصورون، حتى الأطهار الأعفة، في ألوان قاتمة<sup>(١)</sup>.

وكانت فارس والصين، أيضاً، ترديان في الحمأة نفسها. نجد أن العرب عبدوا الأصنام وآمنوا بالدهرية التي تدعي أن الطبع هو المحيي وأن الدهر هو المني والذي قال عنه القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ...﴾ [الجاثية]. وبذلك كانت الأشياء المادية محط أنظارهم وعبادتهم كالحجارة والأشجار والجبال مما جعلت البدوي يعتقد أن ثمة روحانية تتواجد في هذه الأشياء وتعطيها فائدة حيوية<sup>(٢)</sup>. ولعل مرد ذلك إلى أن قرونًا مستطولة تقضت على ظهور آخر الأشخاص الأطهار الصالحين، وأن الإصلاح والحضارة القديمين - إذا وجدا - كانا قد ضعفا تدريجياً، وانتهيا آخر الأمر إلى الزوال. يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد].

وكان في المدينة عدد كبير من اليهود. بينما اعتنقت قبائل غسان وتغلب وقضاعة النصرانية بحكم مخالفتهم للرومان ومجاورتهم لبلاد الشام، حيث كانت تسود النصرانية. وكذلك فقد كان في اليمن بعض اليهود وعدد من النصارى بحكم قربهم من الحبشة. ولكن بعضهم عبد الكواكب. وأما في البحرين والعراق فقد كان الناس يعتنقون المجوسية التي تقوم على تقديس النار، لقربهم من بلاد فارس حيث كان يسود ذلك المعتقد. ولكن وثنية الغرب لم تكن كالوثنية المعروفة عند الشعوب الوثنية، فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله، والقرآن الكريم نفسه يشهد بذلك: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨٤] ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٨٥] ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [٨٦] ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٨٧] ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٨٨] ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [٨٩] ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٩٠] [المؤمنون]. ويعتبرون أصنامهم وسيلة تقربهم إلى الله: ﴿... وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ [الزمر]، ﴿... وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [يونس]. كذلك كانوا يعتقدون أن الملائكة والنفوس الإنسانية المقدسة والسيارات السماوية (الكواكب) لها دخل في تدبير نظام الكون، ولذلك كان العرب يعبدون الأجرام والكواكب مثل الشمس والقمر لأنها تعطي النمو كما أن البعض يخاف منها لأنها تحرق العشب وتدمر المراعي<sup>(٣)</sup>. ولذلك كانوا يرجعون في

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٩.

(٢) علي إبراهيم حسر - التاريخ الإسلامي - ص ١٥٤.

(٣) لطفي عبد الروهاف يحيى - العرب في العصور القديمة ص ٨٥.

أمورهم إلى آلهتهم المصنوعة لا إلى الله عز وجل، مع أن إبراهيم بنى الكعبة في مكة رمزاً للتوحيد وبقي في الجزيرة بعض الموحدون لحين ظهور الإسلام. ونستنتج من ذلك أن الضلال والانحراف الذي أصاب العرب لا يختلف كثيراً عن الانحرافات التي أصابت الديانات التي سبقت الإسلام من إشراك مع الله وتقديس للمغيبات، وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

لا يعرف بالتحديد مصدر الوثنية ولا كيف دخلت الجزيرة العربية. ويقال إن أصل عبادة الأصنام حدثت عندما كثر أبناء إسماعيل عليه السلام، واضطروا إلى أن يخرجوا من مكة طلباً للعيش فكانوا يحملون عند خروجهم شيئاً من تراب الحرم الذي يحمل ذكر الكعبة، أثر أبيهم إسماعيل، ثم جملوا هذا التراب للحفاظ عليه، وتطورت الذكرى إلى تقديس وعبادة. وكان العرب في جاهليتهم يحججون إلى مكة، ولم يكن من الممكن الحج في ظروفهم القائمة على الغزو والقتل والسلب والنهب. فاتفقت مختلف القبائل على وقف القتال أربعة أشهر في الأشهر الحرم، وهي ثلاث متتالية: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم. وفيها يمتنعون عن القتال؛ لأن مناسك الحج تؤدي في ذي الحجة وكان يلزمهم شهر قبلها للحضور إلى مكة وشهر بعدها ليعودوا فيه إلى مواطنهم. أما رجب فقد حرم وهو في وسط السنة لأجل زيارة البيت والاعتمار<sup>(٢)</sup>.

نلاحظ أن بروز النصوص والآراء والمواقف في مكة وفي الحجاز عموماً اقترن بازدهار نسي لما أطلق عليه تعبير الحنيفية، أما على صعيد هذه الأخيرة فلعل الاحتمال كبير بأننا لن نكون قادرين على تقصي سماتها وآفاقها إن نظرنا إليها منفصلة عن الديانة المسيحية واليهودية اللذين سلاحظ حضورهما في مكة والمدينة خصوصاً وفي الحجاز عموماً<sup>(٣)</sup>. ونشير إلى الاستحالة المذكورة في تكوين صورة أولية حول الحنيفية وغيرها كالدهرية عندما نهمل البحث في احتمالات وجود علاقات بينهما من طرف وبين بعض الاتجاهات الدينية والفلسفية المتحدرة من بلاد الروم والفرس في حينه من طرف آخر، مما تتمثل في العمل على تفكيك البنية الدينية والفكرية العامة التي تواجهها عشية الإعلان عن الوليد الجديد الإسلام في الحجاز مما يساهم في تحديد وضبط العناصر الدينية والفكرية التي واجهها رسول الله محمد ﷺ وانطلق منها باتجاه تأسيس دين الإسلام<sup>(٤)</sup>.

نجد أن النبي عيسى عليه السلام أقرب الأنبياء إلى الرسول محمد ﷺ من وجهة النظر الزمنية. وطبيعي أن يتوقع المرء أن يجد في الديار المسيحية، على الأقل، بعض آثار من الفضيلة والأخلاق. ولكن كيف كانت حال المسيحية في ذلك العهد؟ فلنرجع إلى شهادات الكتاب المسيحيين أنفسهم في هذا الموضوع. فقد رسم أحد الأساقفة صورة لتلك الأيام فقال إن المملكة الإلهية كانت

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١.

(٣) د. طيب تيزيني - مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر - ج ٤ - ص ٥٦.

(٤) د. طيب تيزيني - نفس المرجع ج ٤ ص ٥٩.

في اضطراب كلي، بل إن حالة جهنية حقيقية كانت قد أقيمت على سطح الأرض، نتيجة للفساد الداخلي. وقد عالج السير وليم ميوير هذا الموضوع فانهى إلى النتيجة نفسها. قال: «وفق هذا فقد كانت مسيحية القرن السابع نفسها متداعية فاسدة. كانت معطلة بعدد من الهرطقات المتنازعة، وكانت قد استبدلت بإيمان العصور الأولى السمع صغارات الخرافة صبيانياتها». تلك صورة للنصرانية تمثل وضعها العام آنذاك. كانت وحدة الذات الإلهية قد احتجبت منذ عهد بعيد. وكانت عقيدة التثليث قد زادت إلى نشوء تعقيدات متعددة. وتنافست الفرق والهرطقات المختلفة في قدح زناد الفكر لتفسير هذه العقيدة. وأدى ذلك إلى إنشاء جمهرة من المؤلفات أبعدت الإنسان عن هدف الدين الحقيقي. والمؤرخ جيبون Gibbon في تعليقه على حادثة حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة من قبل المتعصبين من المسيحيين يبدي هذه الملاحظة الهامة: «ولكن إذا صح أن ركام الجدل الأريوسي والقائل بطبيعة المسيح الواحدة قد أحرق فعلا في الحمامات العمومية فإن في ميسور الفيلسوف أن يذهب إلى القول، في ابتسامة، بأن ذلك كان في مصلحة الجنس البشري». وكانت الشرور التي سادت العالم المسيحي، كالخمر والميسر والفسوق، غالبية حتى في تلك الأيام. ويروي دوري Dozy عن الخليفة على قوله في حق تغلب، وهي قبيلة نصرانية، «إن كل ما اقتبسته عن تلك الكنيسة هو معاقرة الخمر». وبكلمة مختصرة، فإن المسيحية - وهي آخر ديانات العالم المنزلة - كانت في ذلك الحين في حكم المفقودة. كانت قد فقدت كل قدرتها الدافعة التي تمكنها من إحداث إصلاح أخلاقي. وإلى هذا، فإن الدرك الذي تردى فيه المجتمع الإنساني كله، في طول العالم وعرضه، ليقوم الدليل على صحة التوكيد القرآني<sup>(١)</sup>.

وكانت هناك عند العرب فئة لم تظمنن للوثنية أو المسيحية واليهودية وتركوا عبادة الأصنام وشرب الخمر واتخذوا حياة فطرية قامت على الأخلاق الفاضلة وإيثار المعروف وحب الخير واعتزلوا الحروب الجاهلية وزهدوا في متاع الدنيا وساح بعضهم في البلاد ترفعا وتنسكا<sup>(٢)</sup>. وكان من ضمن هؤلاء ورقة بن نوفل والذي رآه الرسول محمد ﷺ في منامه وعليه ثياب بيض وقال عنه أظن لو أنه من أهل النار لم أر عليه البياض<sup>(٣)</sup>.

ولكن كيف كانت حال بلاد العرب نفسها؟ صحيح أن الشعر العربي كان في ذروة مجده، وأن الشعر الجاهلي يتكشف عن درجة كبيرة من المقدرة والبراعة. وصحيح أيضاً أن الكتابة لم تكن مجهولة عند العرب، ولكنهم نادرا ما أفادوا منها أو سخروها لأيا غرض نافع. وحتى شعرهم نفسه لم يدون تدوينا. والواقع أن قصائد العصر الجاهلي كلها تحدرت إلينا من طريق الرواية الشفهية ما عدا القصائد المعروفة بـ «المعلقات» التي دونت على ورق، وعلقت على جدران الكعبة. وفيما يتصل بكون

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢١.

(٢) عمر فروخ - العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٨٣.

(٣) الأصفهاني - الأغاني ج ٣ ص ١٤.

العرب قد طوروا فن الشعر بحسبنا أن نقول أن مجرد الشعر، بما هو شعر، لا يقدم لنا محكا ثابتا للمنزلة التي بلغها الشعب في سلم الحضارة. فالولوع بالشعر ملاحظ في جميع المجتمعات تقريبا، بالغاً ما بلغ إمعانها في الفجاجة والبداية. وتعليل ذلك ليس بالأمر العسير. فالأمة في مثل هذه المرحلة تنعم بقلّة قليلة من الأشياء التي تثير شوقها - وهي أشياء لا تتضاعف إلا بنمو الحضارة واستبحارها، ومن هنا فإن عنايتها البالغة تنصب على الشكل الوحيد الذي في متناولها من أشكال الفن الجميل، وليس ذلك الشكل غير الشعر. ولكن حتى الشعر العربي خلو من رحابة الرؤيا وسمو الفكر اللذين لا يتيسران إلا بفضل الثقافة. إن كل ما يستطيع ذلك الشعر أن يعتز به هو جمال اللغة. كانت ثمة، من غير ريب، بعض السمات النبيلة في الخلق العربي، ففقرى الضيف، وحب الحرية، والجرأة، والرجولة، والولاء القبلي، والكرم<sup>(١)</sup>، كانت بعض الصفات التي تفوق بها العربي على أقرانه جميعاً. وكانت الضيافة والكرم واجبة عند العربي على الفقير والغني ربما كان العربي يأخذ ناقة جاره كرها أو طوعاً لإطعام ضيوفه وإن بعض الضيوف كانوا يطلبون الطعام الذي يشتهونه والغطاء الذي يحبونه<sup>(٢)</sup>. وتعارف العرب بأن الضيافة ثلاثة أيام ولياليها وافتخروا بالجرود والكرم أثناء القحط والجذب وأيام الشتاء الباردة<sup>(٣)</sup>.

لخص القرآن الكريم هذا التفسخ الكلي، أحسن تلخيص، في جملة واحدة: ﴿... وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا...﴾ [آل عمران]. حتى إذا نشبت المنازعات بينهم، مرة، استمرت أجيالاً. وكثيراً ما أدت بعض السفساف، ككلمة اذراء توجه إلى بعضهم، أو إجحاف في الحكم في سباق للخيل، إلى مقتل آلاف وآلاف. واسوأ ما في الأمر أن المنتصرين في هذه الحروب كانوا يستعبدون المغلوبين والأسرى استعباداً سرمدياً. تلك كانت هي الجماعة البشرية المنحلة التي رفعها الرسول إلى صعيد من الحياة الأخلاقية يغري بالحسد. لقد صهر العناصر المتنافرة في إخوة متناغمة لا نعرف لها في تاريخ العالم نظيراً ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...﴾ [آل عمران]. يا له من تحول خير جبار! واحتلت المرأة مركزاً وضيعاً في المجتمع العربي. فباستثناء قصائد الغزل المنظومة في إطراء المحبوبات، وهي قصائد كانت ثمرة شهوة جسدية، كانت المرأة تعامل معاملة الحيونات الدنيا. وكان تعدد الأزواج Polyandry، وهو من خصائص المجتمعات البشرية في مراحلها البدائية الأولى، شائعاً بينهم أيضاً. وإلى هذا، لم يكن ثمة أي حد لعدد الزوجات اللاتي يستطيع الرجل أن يقتنهن. كان ذلك كله رهناً برغبته أو شهوته الخاصة. وبالإضافة إلى تعدد الزوجات كان في استطاعته أن ينشئ علاقات غير شرعية مع عدد من المعشوقات. وكانت الأسيرات يكرهن، بعد أن يجعلن

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٢١ .

(٢) بولس سيور البولس - عوائد العرب - بيروت ١٩٨٣ - ط ١١ .

(٣) حسن الحاج حسين - الحضارة في العصر الجاهلي - ط ٩ .



خادمت، على اكتساب المال لاسيادهن من هذه الطريق الوضيعة. وكان الرجال يجيزون لزوجاتهم أن يتصلن بالآخرين من أجل إنجاب الأولاد. وكان ذلك الصنيع يدعى «الاستبزاء» وهو شيء مشابه لما يُعرف بـ«نيوغا» Niyoga التي لا تزال سائدة بين الهندوس<sup>(١)</sup>.

لم تكن المرأة الغربية أو الأوربية أفضل من العربية فقد كانت عند اليونان أحقر أنواع المخلوقات وأنها رجس من الشيطان وتباع وتشتري وعند الرومان ليس لها حقوق مدنية حتى في العيش وأن المرأة التي لا تضع ولدًا قويا يصلح للجيش تقتل وأن المرأة الولود تؤخذ من زوجها لتلد للوطن أولادا من رجل آخر<sup>(٢)</sup>.

وفوق هذا، فقد كان العرب ينظرون إلى المرأة وكأنها متاع. وكانوا يحرمونها أيما نصيب من إرث زوجها المتوفى، أو من إرث أبيها أو أي نسب آخر من أنسابها. بل إنها هي نفسها كانت تورث كجزء لا يتجزأ من تركة الميت. وكان من حق الوريث أن يتصرف بها كيف شاء. وكان في إمكانه أن يتزوجها هو، أو أن يزوجه من أيما امرئ يختاره. ليس هذا فحسب، بل إن الولد كان يستطيع، عند وفاة أبيه، أن يتزوج حتى من زوجة ذلك الأب، بوصفها جزء من الإرث. ولم يكن الطلاق الشائع عندهم أقل بربرية. ذلك بأنه كان في ميسور الرجل أن يطلق زوجته ألف مرة وأن يستردها خلال مدة معينة تعرف بـ«العدة». وفي بعض الأحيان كان يقسم أن لا يقربها، وفي بعضها الآخر كان يعلن أنه سوف ينظر إليها نظرتة إلى أمه، تاركًا إياها في حال معلقة، فلا هي بالمتزوجة ولا هي بالمطلقة. وهذه الطرائق إنما كانت تُصطنع لمجرد إغاضتها ومكابذتها. ولم يكن لها، ويا لبؤسها، أي مفر من هذا المارق المثير للإشفاق. وكانت أسوأ ضروب اللغة الفاسحة تُصطنع في التعبير عن العلاقات الجنسية. وكانت قصص الحب والاتصال المحرم تروى في غير ما حياء وبكثير من الاعتزاز في قصائد ليس أكثر منها إمعانًا في الإقذاع. وكان الخطاب يوجه في القصائد الغزلية توجيهًا صريحًا إلى نساء الأسر النبيلة. والواقع أننا إذا نظرنا إلى الأحوال السائدة بين العرب في ما يتصل بوضع المرأة لم يكن من العسير علينا أن نقدر أي عظيم يُثقل أعناق الجنس الناعم لمحمد ﷺ الذي انتشلها من حضيض الضعة وأحلها مقاما عليا. وحتى الحضارة الأوربية الحديثة التي لا تحترم الجنس الناعم إلا احترامًا سطحيًا تقصر عن منح المرأة هذه الحقوق. إن احترام المرأة الحقيقي يكمن في الإقرار بطهارتها وبمسؤولياتها الكاملة في الحقوق مع الرجل، وهما أمران لا تقع عليهما - مع الأسف - في الثقافة الغربية البتة<sup>(٣)</sup>.

في حين لقيت المرأة عند العرب في الجاهلية عطفًا من قبل الرجل واستحسانًا في تصرفاته وتفهما لوضعها الوظيفي والاجتماعي حتى في العصر الجاهلي<sup>(٤)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٢.

(٢) غوستاف لوبون - حضارة العرب ص ٤٩٢.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٨.

(٤) د. عبد العزيز سالم - دراسات في تاريخ العرب - ص ٦١٢.

وعلى سبيل المقارنة فلنلق نظرة على ما أدخله الإسلام على وضع المرأة من تحسين بالغ . وكانت الوصية القرآنية، ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ [البقرة] هي «الوثيقة العظمى» Magna Charta، إذا جاز التعبير، التي أعلنت تحرير المرأة. وعلى الغرار نفسه أعلن الرسول الكريم: «خيركم خيركم لنسائه». ذلك كان هو التغيير الذي أحدثه الإسلام في الجوكله، المشيح بالازدراء للمرأة. وليس من ريب في أن إرساء قواعد الإجلال للمرأة في أرض اعتبر فيها وأد المولود الأنثى أمانة من أمانات النبل هو خدمة للإنسانية غير يسيرة بأية حال. كان الرجل الجاهلي إذا ما «بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب». وهكذا كان يحمل ابنته إلى الصحراء، ويوقفها على شفا حفرة أعدت قبيل ذلك، ويلقي بالطفلة المعولة بيديه الاثنتين ويدفنها حية تحت ركام من التراب. ولقد أنبئ الرسول الكريم ذات مرة بحادثة من هذا الضرب، فاغرورقت عيناه بالدمع حزنا وإشفاقا<sup>(١)</sup>.

نلاحظ أن من يلقي نظرة شاملة فاحصة على العالم قبل بعثة محمد ﷺ يجده عالما يمور بالفساد، عالما سيطر فيه الظلم، وانغمس في الظلمات. ظلم سياسي: حيث احتكر الحكم جماعة معينة من الناس، وفرضوا سلطانهم على الشعوب، دون أن يكون لأحد حق إبداء الرأي في منهج الحاكم أو تصرفه، فما بالك بحقه في التطلع إلى احتلال مركز القيادة السياسية في البلاد. كان هذا هو الحال في دولة الروم، وفي دولة الفرس، وفي الدول التابعة لهما كالغساسنة والمانذرة، وتدمر، وغيرها من الدول القائمة آنذاك. وظلم اجتماعي: حيث كانت الطبقة هي التي تسود المجتمعات، فالرومان يقسمون مجتمعهم إلى طبقتين، سادة وعبيد، أو رومان وشعوب، وكان لدى الدولة الرومانية قانونان، قانون تحكم به روما ويطبق على الرومان وهو القانون الروماني، وقانون تحكم به المستعمرات، وتحكم به الشعوب وهو القانون البروتوري، وبين القانونين مفارقات كبيرة، مع أن الدولة الرومانية كانت في وقتها أكثر دول الأرض عناية بالتشريع. فما بالك بدولة فارس التي كانت قوانينها مستمدة من وثيقتها، وما بالك بالعرب الذين لا قانون لهم ولا شريعة، وإنما هي مجموعة من الاعراف التي تختلف من قبيلة إلى قبيلة؛ هذا إضافة إلى أن المجتمعات قبل البعثة النبوية قد فقدت الرابطة بين أفرادها، إلا رابطة القبيلة التي كانت تقوم على أساس من العصبية الجاهلية. ظلم اقتصادي: إذ لم يفكر مجتمع من المجتمعات ولا دولة من الدول في إيجاد نظام يعني بالتوزيع العادل للثروة بين الناس، ولذلك وجدت طبقة متخمة بالمال، وأخرى لا تملك شيئا، ومن الطبيعي أن يكون الحكم للطبقة الغنية، ولذلك فإنها كانت تبتدع من السبل ما تظن أنه يروي نهمها، ولكن ذلك لا يزيدا إلا نهما، ومن هنا كان التعامل بالربا منتشرا، بل كان الإقراض بالربا، أضعافا مضاعفا، عرفا لا ينكره منكر<sup>(٢)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٢٩ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ١٢ .

ظلمات في العقيدة: لا يستثنى منها دين ولا مجتمع، فالرومان النصراني كانوا يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة، وأن عيسى هو ابن الله، وأن هناك لاهوتا وناسوتا، والفرس يعتقدون بوجود إلهين اثنين أحدهما للخير والآخر للشر، والعرب يعتقدون بالله الخالق كل شيء ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ... ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]، وإلى جانبه آلهة متعددة، وإذا سألتهم فما بال هذه الأصنام قالوا: تقربنا إلى الذي في السماء، وكان يستتبع هذه الظلمات في العقيدة انحراف في العبادة وصل في كثير من الأحيان إلى حد يثير الضحك، فصلاة العرب الوثنيين مكاء وتصدية، خاليان من المعنى، ومجردان من الهدف، وحجهم يفرقون به بين أهل مكة والقادمين من الأفاق، فالمكي يطوف بالكعبة بشيابه، والآققي يطوف عاريا، والمكي يدخل خلال موسم الحج البيوت من أبوابها، والآققي يدخلها من ظهورها.

وكان رسول الله ﷺ ينفر أصحابه من رواسب وظلم الجاهلية فيبتعدون عن مفاخرها ووضغاتها: «فقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبه كل ماضيه في الجاهلية. كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد»<sup>(١)</sup>.

ظلمات في الفكر: حيث كسبت العقول بالأغلال، ووضعت عليها البراقع السوداء فلم تعد قادرة على الرؤيا الواضحة، ولا التفريق الدقيق بين الألوان، وأصبح الفكر عاجزاً عن إدراك أن أحجاراً لا تقرب إلى الله، ولكن الإخلاص والعمل الصالح هو الذي يقرب إلى الله، بل وصل الفكر إلى درجة فهم الحقائق معكوسة، فأصبح يفهم أن الظلم هو الوسيلة المثلى لحماية الحق. إذا كان العلم هو الأداة التي تزال بها تلك البراقع السوداء، فإن الحكام كانوا يحصرونه في الطبقة الموالية لهم، ولذلك ساد الجهل، وواكبته الخرافة. وظلمات في النفس: لم تكن المجتمعات مبنية على أساس من الإخاء، وهذا ما أفقد نفوسهم الصفاء، بل كانت مبنية على أساسين اثنين: الأول: هو القهر، فالقوي يقهر الضعيف، وهذا ما شحن النفوس بالحق الذي أظلمت به النفوس. الثاني: الانتفاع، وهذا ما نمى الأنا في النفس، وأضعف الغيرية، وقد بدا ذلك واضحاً في المجتمعين الفارسي والروماني، حتى كان للدائن الروماني أن يتقاضى دينه من جسد مدينه، وخفف من هذا في بعض المجتمعات - كالمجتمعات القبلية في الجزيرة العربية - عيشها على نمط معين، جعلها مضطرة للتخلق بالغيرية في كثير من الأحوال، فأوجد فيها النجدة والكرم ونحوهما، ولم يكن ذلك النمط من العيش ليؤثر في بعض الأحوال الأخرى، حيث نمت فيها الأنا إلى حد يبعث على الإشفاق، وقد كان الدائن يطالب مدينه المعسر بدينه، فإن لم يكن قادراً على وفائه، أجله الدائن على أن يقضيه مضاعفاً<sup>(٢)</sup>.

(١) سيد قطب - معالم في الطريق - ص ١٩ - ٢٠.

(٢) د. محمد رواس قلعة جي - المرجع السابق ص ١٢.

وجاء الإسلام بمفهوم التوحيد وبدأ يتغلغل في حنايا نفس المسلم ويتحول إلى واقع حي يتحرك بعيداً عن المفاهيم الذهنية المجردة والمعرفة العقلية البحتة «المعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة شيء والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتتفاعل بها النفس كلها وتعطي تأثيراً معيناً في السلوك الواقعي شيء آخر هي ما يطلبه الإسلام بالذات ويستبته في قلوب المسلمين ليصبحوا مسلمين»<sup>(١)</sup>. والحادث الآن في الأجيال القادمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقي بلا إله إلا الله، وصلتها الوثيقة التي لا تنفصم بالحكم بما أنزل الله وعندما تستقر هذه الحقيقة في الأذهان ينبغي أن تعمل على تحويل حياتنا كلها لتستقيم على منهج الله في كل شيء، في سياسة الحكم، وفي سياسة المال، وفي سياسة المجتمع»<sup>(٢)</sup>.

إن هذا الوضع العالمي كان يصرخ في ضمير الإنسانية مطالباً بالمنقذ، المنقذ الذي يرسل النور فتنجاب به الظلمات ولكن هذه الظلمات تحميها عروش ظالمة، فلا بد لهذا المنقذ من السيف الذي يحطم به تلك العروش الباغية الظالمة، ويرفع الظلم عن العباد، لئلا يرتطم النور بالحواجز العاتية التي تمنع انتشاره. فكان محمد رسول الله ﷺ مؤسس دولة الإسلام، حمل السيف فأزاح عن الحكم السلطة الظالمة، ورفع الكابوس عن الناس وأزال الحواجز التي تقف في وجه النور - الإسلام - الذي جاء به من عند الله لينقذ الناس من الظلمات»<sup>(٣)</sup>.

بعث الله بالرسول إلى الناس في مختلف أجزاء بلاد العرب قبل بعثة النبي إبراهيم وبعدها على حد سواء. وفي القرآن الكريم أيضاً إشارة إلى بعض هؤلاء الرسل. فقد بُعث هود لهداية قبيلة عاد، التي استقرت في جزء من اليمن يعرف بالاحقاف، وبعث صالح لهداية ثمود الذين سكنوا الجزء المسمى «حجر»، إلى الشمال من المدينة المنورة. وكلا المصلحين أقدم من إبراهيم عهداً، على حين أن إسماعيل وشعيب، وهما مصلحان بُعثا في اليمن والمدائن على الترتيب، جاءا من بعده. وتظهر الروايات والنقوش أن «عاداً» كانوا شعباً أولي بأس شديد. لقد أسسوا إمبراطورية ضخمة امتدت رقعتها إلى مواطن قصىة جداً خارج بلاد العرب. ويبدو أن الرسل بعثوا فيهم حتى قبل مجيء هود، الذي ظهر في فترة غرقت فيها الأمة في أحط دركات التكالب على الدنيا. ولكنهم أعاروا هذا النبي أذنا صماء، فعاقبهم الله عقاباً قاسياً؛ لقد أهلكهم بعاصفة رملية هبت عليهم من الصحراء، التي تقع شمالي الاحقاف والتي تدعى «الربع الخالي»، أي الربع الجديد. وهكذا شخصت ثمود إلى الجبال فنحتت بيوتها في الصخور ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ [الشعراء]. حتى إذا حانت ساعة هلاكهم عجزت معاقلهم عن إنجائهم. لقد لقوا حتفهم بزلزال أهلكهم. ونظرة إلى خريطة بلاد العرب ترىنا أن الله بعث هوداً وإسماعيل لأهل الجنوب، وبعث صالحاً وشعيباً لأهل الشام. أما الجزء

(١) محمد قطب - منهج التربية الإسلامية - الجزء الثاني ص ٢٨.

(٢) محمد قطب - نفس المرجع - الجزء الثاني ص ٢٨.

(٣) د. محمد رواس قلعة جي - المرجع السابق ص ١٤.

الأوسط، المعروف بالحجاز فظل من غير نبي. ولكن زيارة إبراهيم لمكة، وتركه إسماعيل هناك، وبناء الكعبة بعد ذلك، كل أولئك قد ربط اسم إبراهيم ببعض مواطن الحجاز حتى يوم الناس هذا<sup>(١)</sup>.

خلال بعثات الرسل الإسرائيليين بلغت عبادة الأوثان في بلاد العرب أوجها. ووفق سليمان إلى إقناع ملكة اليمن بلقيس بوحدانية الله، وأتبع ذلك بتموج واهن اعترى مياه الحياة الدينية في بلاد العرب. فقد هاجر اليهود واستقروا هناك، ربما حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، عندما طردهم نبوخذ نصر من ديارهم. وكانت النبوءات المتحدثة عن ظهور خاتم النبيين من أرض بلاد العرب منتشرة بينهم أيضاً. من أجل ذلك اتخذوا من هذه البلاد مفزعا لهم، وأمست خبير مستعمرة يهودية خالصة. حتى إذا توطدت أقدامهم هناك شرعوا يدعون الناس إلى الدخول في دينهم. وحوالي القرن الثالث قبل الميلاد اعتنق ملك اليمن، ذو نواس، اليهودية. فكان في هذا ما أعطى حركة التهود رخما جديداً؛ ومنع مرور الأيام اكتسبت اليهودية سلطاناً كبيراً في الجزيرة العربية. ولكن الأمة العربية، ككل، ظلت متعلقة بأهداب الديانة الوثنية الموروثة عن الآباء والأجداد، وما هي إلا فترة يسيرة حتى ماتت الحركة الدينية اليهودية ميتة طبيعية، مخلفة العرب كما كانوا من قبل. وأعقبت ذلك موجة إصلاح أخرى. فقد شرع المبشرون النصراني يتدفقون على بلاد العرب في القرن الثالث للميلاد، واستقروا في نجران. وإنما عززت نشاطاتهم التبشيرية تعزيزاً كبيراً بالسلطان الزمني الذي كان للدولتين المسيحيتين المجاورتين لبلاد العرب: الدولة الحبشية في الغرب، والإمبراطورية الرومانية في الشمال. ومن ثم اعتنقت مقاطعة نجران اليمنية في شمال اليمن كلها، الواقعة بين عسير وصنعاء، الديانة المسيحية. ولكن المسيحية لم توفق إلى التقدم إلى أبعد من ذلك. فباستثناء قلة قليلة من المسيحيين المنتشرين هنا وهناك لم تحدث المسيحية غير أثر ضئيل في بلاد العرب نفسها. وهكذا انتهت إلى إخفاق كلي هذه المحاولة الثانية لإصلاح الجزيرة العربية<sup>(٢)</sup>.

أما الموجة الإصلاحية الثالثة التي انطلقت في بلاد العرب فكانت حركة داخلية. فقبيل بزوغ الإسلام مباشرة، انبثقت «مدرسة فكرية» عرف أصحابها بـ «الحنفاء». لقد ازدرت هذه العصابة الصغيرة الوثنية، ولكنها لم تكن أكثر ميلاً إلى اليهودية أو المسيحية. لقد عبد أفرادها إلهاً واحداً، بيد أنهم لم يجشموا أنفسهم عناء العمل على إصلاح الحياة الاجتماعية في بلادهم. وليس من ريب في أن كراهية «الحنفاء» لعبادة الأوثان حملت بعضهم على الدخول في حظيرة المسيحية، من مثل ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة، وعبد الله بن جحش، ابن أخي حمزة، ولكن عدد هؤلاء كان صغيراً لا يستحق الذكر وكان هؤلاء قد نزهوا أنفسهم من أوضاع الوثنية ورفضوا عبادة الأوثان ووآد البنات<sup>(٣)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعة جي - المرجع السابق ص ٥.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٥.

(٣) عمر فروخ - المرجع السابق ص ٨٣.

إن كثرة الخنفاء الكاثرة لم تجد ما يرضي نفوسها في النصرانية واليهودية على السواء. وأبرز هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، عم عمر، وأمّية بن أبي الصلت الشاعر الشهير وزعيم الطائف. ولم تكن لدى أي منهم حماسة شديدة لنشر معتقداتهم الجديدة، ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا مقتهم للوثنية، وأعلنوا التوحيد عقيدة لهم، ذاهبين إلى أن هذه العقيدة هي الدين الذي جاء به إبراهيم. صحيح أن هذه الحركة كانت واهنة ضعيفة، ولكنها كانت هناك من غير ريب. إنها لم تلق بالا إلى آفات بلاد العرب الاجتماعية. ولقد كان مجرد الإقرار بوحدانية الله بدلا من عبادة الأصنام هي غاية غاياتها. ولكن هذه الحركة الداخلية عجزت، مثل سابقتها، عن النفاذ إلى أبعد من السطح الظاهري، تاركة المجتمع العربي شبه ممتنع على التأثير كمهده من قبل. والواقع أنها كانت أوهى من أي من الحركتين اليهودية والمسيحية، وكان قيس بن ساعدة الذي آمن بالإله الواحد واعتقد بيوم الحساب وقال في مواعظه: «كلا ورب الكعبة، ليعودنّ ما باد ولئن ذهب ليعودنّ يوما»<sup>(١)</sup>.

إنه لما يلفت النظر أن تنطلق، قبيل ظهور الرسول الكريم مباشرة، ثلاث حركات مختلفات، هدفت كلها إلى إصلاح بلاد العرب. وبرغم أن هذه الحركات واصلت العمل طوال قرون، منعزة بجمييع العوامل المساعدة التي يستطيع السلطان الزمني أن يقدمها، فقد تلاشت كلها كما يتلاشى الدخان. ولكن ما إن تنقضي فترة حتى ينهض رجل فرد، لا عون له ولا نصير، وفي حال من الضعف المحض، فيحسر في رسالته مجاحًا عجيبيًا. وما هي غير سنوات معدودة حتى يحدث تحولًا خيرا لا يضارعه في تاريخ العالم أيما تحول خير. فهو لم يجتث دين البلاد الوضيع - الوثنية - فحسب، بل أصلح البنية الاجتماعية كلها وحررها من فساد العهد عميق الجذور. وكانت لليهود صلة نسب تربطهم بالعرب. فكلا الشعبين يتحدر من أصل عرقي واحد. وكانت بين لغتيهما وأخلاقهما وعاداتهما مشابه كثيرة. ليس هذا فحسب، بل لقد كان كلاهما يوقران إبراهيم ويرفعانه مقاما عليا. وكان ملك اليمن، وهي أخصب أقاليم الجزيرة، قد دخل في الديانة اليهودية. وهكذا، وتبعًا لكل تقدير وتخمين بشريين، كان لهذه القوى المختلفة العاملة في مصلحة اليهودية أثر تراكمي فعال إلى درجة خليق بها أن تكفل تهود الجزيرة العربية كلها ومع ذلك، فقد أثبتت بلاد العرب استعصاءها على جميع هذه المؤثرات الخارجية<sup>(٢)</sup>.

يبدو أن انتشار الطائفة اليهودية في الحجاز لم يؤثر في حياة العرب ولم يغير من نمط عاداتهم ونهج حياتهم بل على العكس فقد امتعض العربي من اليهودية وهذا ما جعل أثر اليهودية عند العرب ضعيفا سواء من الناحية النظرية العقيدية، حيث لم ينجحوا في نشر دعوتهم وذبوع تعاليمهم أو من

(١) الشهرستاني - الملل والنحل ج ٢ ص ٢٤٢.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٧.

الناحية العملية حيث انصرفوا إلى الثراء غير المشروع عن طريق الربا الفاحش وأثرتهم التي لا تعرف نبلا وتضحية<sup>(١)</sup>.

جاءت المسيحية برسالة جديدة بالكلية. فقد أشبهت «وحدانيته» المفهوم العربي للذات الإلهية. وكانت الوثنية السائدة بين العرب ماثلة للوثنية الإغريقية التي ولدت عقيدة التثليث المسيحية تحت تأثيرها. وكان القديس بولس، المؤسس الحقيقي للكنيسة المسيحية كما نعرفها، قد أضفى مسحة «وثنية» على عقيدة الأنبياء الإسرائيليين الوحدانية لكي يجعلها فاتنة في أعين الأمم الوثنية في عصره. ومن هنا اكتسبت المسيحية أعداداً ضخمة من الداخلين فيها من أبناء تلك الأمم. وفوق هذا كله، فقد انطوت المسيحية على سمة أخرى جذابة للعرب بخاصة. فقد أعفت أتباعها من ضرورة الالتزام المتزمت للقانون، وهو ترخص يتساقق تساققاً كاملاً وأسلوب الحياة عند العرب. فقد كان أبناء الصحراء المتهورون هؤلاء - الذين لا تضبط مسالكهم أية قوانين دينية أو زمنية - قد انغمسوا في ملذات الحياة على نحو غير مكبوح. وكانت المسيحية تتيح لهم مجالاً واسعاً لإرضاء نزعاتهم تلك. فهي، بهذا الوصف، عقيدة لا تكلفهم غير قدر قليل من مقاومة تلك النزعات، ومن ثم كان خليقاً بهم أن يجدوا في اعتناقها أعظم اليسر. وبالإضافة إلى هذه المغريات الملازمة، تمتعت المسيحية بسلطان زمني يزينها في أعين العرب. فالإمبراطورية الرومانية الكبرى في الشمال، والمملكة الحبشية في الغرب، وتنصر إحدى مقاطعات اليمن، والسيطرة التي كانت للمسيحية على دولتي الحيرة وغسان - تلك هي المؤثرات المتعددة التي كانت تعمل لمصلحة المسيحية. وفي ظل هذه الظروف والملابسات بدأ دخول الجزيرة العربية كلها في حظيرة الدين المسيحي مسألة أيام ليس غير. ومع ذلك فقد عجزت الكنيسة عن أن تخلف أي أثر محسوس في المجتمع العربي، ما خلا تعزيزها لنزوع العرب إلى الخمر واليسر وحب النساء<sup>(٢)</sup>. وانتشرت المسيحية في بعض المناطق العربية جنبا إلى جنب مع المعتقدات الوثنية في الشام واليمن «وخاصة في نجران» و«الحيرة» وتعد «نجران» من أشهر المدن النصرانية خاصة بعد بناء كنيستها التي عرفت بكعبة «نجران»<sup>(٣)</sup>. وكانت الحركة الثالثة، حركة الخفاء، داخلية صرفاً في أصلها، ولم تكن لتعني إلا قليلاً بالإصلاح الاجتماعي في بلاد العرب، قاصرة أهدافها وأغراضها على نقطة واحدة، هي إحلال التوحيد محل الوثنية. ولكنها، برغم هذا البرنامج غير الطموح الذي التزمته، لم تجهد في بلاد العرب تربة صالحة للنمو أكثر من تلك التي وجدتها الحركتان الأولتان. بل لقد أثبتت الأيام أنها كانت أضعف الحركات الإصلاحية جميعاً، ومن يدري فقد يكون مرد ذلك إلى أنها لم تكن تتمتع بأيما سند من سلطان دنيوي. وعلى ضوء هذا كله لا تستطيع العين الناقدة إلا أن تلمح أن يد الله الجبارة هي التي ساعدت، من وراء ستار، الرسول العربي الكريم على إحداث ذلك

(١) د. منذر معاليقي - صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية ص ١٣٢.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٣٨.

(٣) د. منذر معاليقي - المرجع السابق ص ١٣٢.

التحول الجذري الخير في حياة الجزيرة العربية الدينية والاجتماعية والاخلاقية خلال مدة يسيرة لا تكاد تبلغ العشرين عامًا، وهو تحول لا يوجد نظيره في تاريخ العالم. ومن هنا تعين على السير وليم ميوير أن يقر بهذا التجديد الاعجوبي لوجه الحياة العربية، في الكلمات التالية<sup>(١)</sup>:

«كانت سمة المحافظة الشديدة هي الغالبة على شبه الجزيرة العربية إبان شباب محمد. ولعل الإصلاح لم يكن متعذرا في أيما فترة من فترات تاريخها أكثر مما كان متعذرا في تلك الفترة. وتلتمس الأسباب أحيانا لتعليل بعض النتائج التي أحدثها عامل يبدو غير كاف لاحداثها. وظهر محمد، وبذلك أوقف العرب وفتحت أعينهم على إيمان روجي جديد. ومن هنا الاستنتاج القائل بأن بلاد العرب كانت تختمر للتغير، ومستعدة لقبوله، أما نحن فيتبدى لنا، ونحن نراجع الماضي في أناة، أن تاريخ العرب قبل الإسلام يكذب هذا الإدعاء. فبعد خمسة قرون من التبشير بالمسيحية لا تقع إلا على قلة قليلة من الداخلين في دين المسيح متناثرين هنا وهناك.

ويكلمة موجزة، فإننا إذا ما نظرنا إلى سطح بلاد العرب على هذا النحو من زاوية دينية، وجدنا أنه تموج بين الفينة والفينة تموجًا رقيقًا بفضل الجهود الواهنة التي بذلتها المسيحية. أما نفوذ اليهودية الأشد فكان ملحوظًا حينًا بعد حين في تيار أعمق وأكثر عكرا. ولكن مد الوثنية الاهلية والخرافة الإسماعيلية، المنطلق من كل مكان في قوة وعنف نحو الكعبة ينهض دليلا قاطعا على أن الإيمان المكي والعبادة المكية أبقيا العقل العربي في حال من العبودية القاسية غير المنازعة».

ثم يمضي ميوير فيقول:

«إن أوضاع بلاد العرب العامة، قبل ظهور محمد، لم تكن تؤذن بإمكان القيام بإصلاح ديني ناجح، بقدر ما كانت غير مؤذنة بإمكان الاتحاد السياسي أو الإحياء القومي. فقد كان أساس الإيمان العربي وثنية عميقة الجذور، استطاعت أن تصمد طوال قرون - من غير أن يبدو عليها أي عرض واضح من أعراض الفساد - في وجه كل محاولة من محاولات التبشير من مصر وسوريا».

يتبين من ذلك كله أن عرب الجاهلية عرفوا الديانات السماوية والمعتقدات الوثنية ومارسوا المناسك الجاهلية والطقوس القديمة وأدرك بعضهم الحقيقة الربانية وعملوا بمقتضى أحكام تعاليمها ومهدوا الطريق للرسالة النبوية الشريفة التي انبعثت من الجزيرة العربية من قلب «الحجار» المقدسة وأرض الحرمين الشريفين لنشر رسالة السماء وهداية البشر كافة<sup>(٢)</sup>.

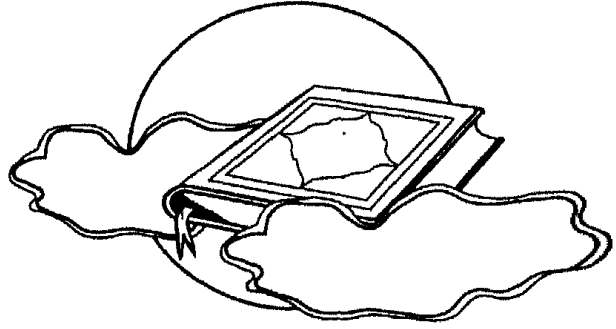
وهكذا بعث النبي محمد منذرا لشعب كان مستعصيا على كل إنذار، إذا جاز التعبير، شعب كان قد أحبط جميع المحاولات السابقة للإصلاح.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) د. مندر معاليقي - المرجع السابق ص ١٣٣ .



# الفصل الثاني



المولد النبوي الشريف  
لرسول الله محمد ﷺ  
وسيرته حتى البعثة



## علامات النبوة قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ

وردت في الكتب المقدسة السالفة نبوءات تتصل بظهور الرسول محمد ﷺ، وكانت بعيدة الذبوع بين الأمم. ولعل هذه النبوءات نفسها هي التي أغرت اليهود والمسيحيين بالاستقرار في بلاد العرب، ذلك بأن أرض النبي الموعود كانت قد عينت في الكتب المقدسة باسمها تعييناً لا يحتمل اللبس.

يؤكد القرآن أن ظهور الرسول الكريم قد تنبأ به جميع الأنبياء السالفة الذين أخذوا على شعوبهم ميثاقاً بأن يؤمنوا به وينصروه. والسمة المميزة للرسول الموعود، كما بشروا، هي أنه سوف يجيء مصداقاً لجميع أنبياء العالم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران]. ويذهب القرآن الكريم أيضاً إلى أن الكتب السماوية كلها تشتمل على نبوءات عن مجيء الرسول ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء]. وهذه التوكيدات القرآنية مؤيدة تأييداً كافياً برواية مماثلة نفع عليها في صفحات «العهد الجديد» [أعمال الرسل ٣: ٢١]. والذي يبدو أن العناية الإلهية قد رأت أنه من المناسب أن تبعث رسولاً مستقلاً لإصلاح كل أمة، في العصور الخالية، عندما كانت الأمم المختلفة القاطنة هذا الكوكب في عزلة مطلقة إحداها عن الأخرى، وعندما لم تكن وسائل المواصلات الحديثة قد وجدت بعد. ثم إنها لكي تصهر الإنسانية في أخوة كونية، بعث نبياً يحمل رسالة إلى الجنس البشري كله. وهكذا فيما أبلغ نبأ هذا النبي الكوني كلا من الرسل السابقين من ناحية، أمر الرسول الموعود، من ناحية ثانية، بأن يشهد بصدق رسالات الأنبياء السابقين جميعاً حينما بعثوا وفي أيما وقت بعثوا، في أرجاء العالم كله. والرسول الكريم، محمد ﷺ هو النبي الذي ينطبق عليه هذا الوصف. فقد جعل من أركان الإسلام الأساسية أن يعلن المسلم إيمانه بجميع أنبياء العالم الآخرين بالإضافة إلى إيمانه به هو. ففي مستهل القرآن الكريم بالذات قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي آتَيْنَاهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة] وفي ما يتصل ببعث مصلح لكل أمة يطلق القرآن الكريم هذا الحكم العام: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] وفي مناسبة أخرى يقول إنه يشير إلى بعض الأنبياء، على حين أن ثمة آخرين لم يتحدث عنهم صراحة. إن نبوءات جميع الرسل الذين سبقوه تجدد مصداقها في شخصه، من ناحية، على حين أنه كان هو وحده بين جميع الأنبياء الرسول الذي فرض على أتباعه، في صلب العقيدة الإسلامية، أن يؤمنوا بجميع أنبياء العالم، من ناحية ثانية. وعلى هذا النحو يكون هو آخر عصبة الأنبياء النبيلة، كما تنبأ جميع الرسل من قبله. وواضح

أن الكتب الدينية-القديمة قد أضيفت إليها إضافات كثيرة ليست منها. بيد أن «العهد القديم» و«العهد الجديد» سلما من ذلك، نسيبا، بوصفهما أقل إمعانا في القدم. ولقد احتفظ هذان الكتابان المقدسان، على نحو سليم، بعدد من النبوءات عن مجيء الرسول محمد<sup>(١)</sup>، وقد قال الله تعالى حاكيا ما جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف] وبشرت بنبوته التوراة والإنجيل، كما تنبأ الرهبان والكهان بقرب بعثته وكثرت بذلك الاخبار حتى سمي بعض العرب أولادهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبي المنتظر<sup>(٢)</sup>.

تلك النبوءات التي يلفت القرآن الكريم النظر إليها أيضا. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف].

تحدث اليهود والإسماعيليون من جد أعلى واحد: إبراهيم الخليل، وعلى الرغم من أن الكتاب المقدس الذي أنزل على إبراهيم لم يصلنا، فإن سفر التكوين من «العهد القديم» يلقي ضوءا كثيرا على وعود الله له. في ما يتصل بمستقبل ولديه، إسحاق وإسماعيل. والقرآن الكريم نفسه يلمح إلى الوجود نفسها حين يقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ [البقرة]. وهكذا وعد إبراهيم بأن تكرم ذريته بهبة النبوة. ولكنها لا بد أن تنتزع منهم إذا ما ظلموا. وصلاة إبراهيم وإسماعيل المشتركة في الكعبة تشير إلى المفاد نفسه أيضا: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٥﴾ [البقرة]. وفي «العهد القديم» وعد إلهي بالمعنى ذاته فاز به إبراهيم، حتى قبل مولد إسحاق وإسماعيل: «فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة، وأبارك مباركك ولاعنعك العنة. وتبارك فيك جميع قبائل الأرض» [سفر التكوين ١٢: ٢-٣]. إن قليلا من إمعان الفكر ليظهر في وضوح أن هاتين الآيتين تشيران بما لا يحتمل اللبس إلى ذرية إسماعيل، يعني إلى المسلمين. ذلك بأن المسلمين هم وحدهم، بين أقوام العالم كله، الذين يصلون على إبراهيم خمس مرات كل يوم<sup>(٣)</sup>. والكلمات التالية تؤلف جزءا لا يتجزأ من صلوات المسلم اليومية: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم» وقد أجمع المؤرخون وأصحاب السير على أن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٤٤ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي ج ١ - ص ٧٧ .

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق .

رسول الله محمد ﷺ لم يكن يأنس للديانات المنتشرة والتي كان يدين بها العرب فقد كان يخلو بنفسه ويفكر في ذلك كثيرا واستمر كذلك حتى أخذ بالحنيفية وهي دين سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان يدين به بعض العرب<sup>(١)</sup>.

يشير سفر التكوين نفسه إلى إسماعيل باسمه فيقول:

«وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا. اثني عشر رئيسا يولد، وأجعله أمة كبيرة» (سفر التكوين ١٧ : ٢٠)

وهنا أعطي الوعد الخاص بإسماعيل وذريته بالطريقة نفسها التي أعطي بها الوعد الخاص بإبراهيم وذريته. والوعد الإلهي في «سفر التكوين» ذو شقين. الأول: «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم» [سفر التكوين ١٧ : ١٠ - ١١].

وهذا الختان كان، طوال مدة من الزمن، شائعا بين اليهود والإسماعيلين في آن معا. ولكن هذا الميثاق الإلهي لا يوفي به اليوم إلا مليار مسلم، على اعتبار أن عدد اليهود الذي لما تمت عندهم هذه العادة بعد لا يكاد يذكر، نسيبا. وهكذا يسي واضحا أن المسلمين هم الآن ورثة الميثاق الإلهي مع إبراهيم، إذ فيهم تقع على علامة الختان المنظورة. أما الجزء الثاني من الميثاق فيجري على هذا النحو:

«وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا. لاكون إلها لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا. وأكون إلههم» [سفر التكوين ١٧ : ٧-٨].

وهذه علامة أخرى منظورة ترينا من هم الآن الورثة الحقيقيون للوعد الإلهي لإبراهيم. ومن الحقائق التاريخية الثابتة أنه ما إن جاء الرسول محمد حتى انتزعت أرض الميعاد من أتباع الأنبياء الإسرائيليين ونقلت ملكيتها إلى المسلمين الذين بسطوا سلطانهم عليها طوال القرون الثلاثة عشرة الماضية. وإنما كان الغرض الأساسي من الحروب الصليبية هو انتزاع أرض الميعاد هذه من أيدي المسلمين. ولا ريب في أنها ضاعت من أيدي المسلمين مؤقتا ولكنها سرعان ما أعيدت إليه بعد فترة يسيرة، وفاء بالوعد نفسه الذي وعد الله إبراهيم. ولو قدر لها بعد أن تضيع من أيدي المسلمين فلن يستمر ذلك غير برهة قصيرة. إن السيطرة السرمدية عليها سوف تكون دائما للمسلمين. مما يؤسف له أن هذا الاحتمال قد حدث يوم قيام «إسرائيل» على أرض فلسطين العربية في ١٥ نوار عام ١٩٤٨. إن وعي الأجيال العربية الطالعة سوف يجعل أيام هذه الدولة الباغية معدودة، كما كانت أيام

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ٧٨.

الممالك الصليبية في فلسطين معدودة. وباختصار، فكلا مظهري هذا الميثاق الإلهي مع إبراهيم، أعني الختان وملكية أرض الميعاد، ينهض دليلاً قاطعاً على الحقيقة القائلة بأن رسول الله محمداً ﷺ هو من غير ريب النبي الموعود. أما النبوة الثانية المعلنة مجيء الرسول الكريم محمد فقد وردت على لسان موسى: «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به» [سفر تثنية الاشتراع ١٨ : ١٨]. وهذا واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. إن أيّا من الأنبياء الإسرائيليين الذين جاءوا بعد موسى في تعاقب متطاوّل، حتى ظهور يسوع، لم يدع أنه النبي الموعود به في هذه النبوة. ولأسباب جلية لم يكن في ميسور خلفاء موسى، الذين جاءوا لتنفيذ شريعته ليس غير، أن يكونوا مثله. وكان أمر النبوة معروفاً لدى الخاصة والعامة من اليهود، الذين انتظروا، جيلاً بعد جيل، ظهور نبي مثل موسى. يؤيد هذا تأييداً كافياً ذلك الحديث الذي دار بين يوحنا المعمدان وأولئك الذين وفدوا عليه ليسألوه: «من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر أنني لست أنا المسيح. فسألوه إذ ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال لست أنا. ذلك النبي أنت؟ فأجاب لا» [سفر يوحنا ١ : ١٩ - ٢١] (١).

وهذا يظهر على نحو يقيني أن اليهود كانوا يترقبون ظهور ثلاثة أنبياء مختلفين. أولهم إيليا الذي اعتقدوا أنه سوف يظهر بشخصه مرة أخرى على هذه الأرض، وثانيهم المسيح، وثالثهم نبي ذو شهرة كلية إلى درجة رأوا معها أن من غير الضروري نعته بأي وصف مميز - كان قولهم «ذلك النبي» كافياً للدلالة على من يعنون. ذلك كان مدى الشيوع والانتشار اللذين حظيت بهما بين اليهود نبوة موسى في ما يتصل بظهور نبي مثله. ومن هنا يتضح أن اليهود كانوا، قبيل ظهور يسوع مباشرة، يرتقبون ثلاثة أنبياء، وفقاً لما تنبأ به كتابهم المقدس: المسيح، وإيليا للمرة الثانية، والنبي الذي هو مثل موسى. ولقد تحققت اثنتان من هذه النبوءات في شخصي يسوع ويوحنا، وقد أعلن الأول أنه المسيح، وأعلن الثاني أنه بعث في روح إيليا. ولكن أيّ منهما لم يدع أنه النبي الموعود، المماثل لموسى. لا، لم يعتبرهما أحد من الذين آمنوا بهما ذلك النبي الموعود. وبظهور يسوع انقطعت سلسلة النبوة بين اليهود. وهكذا ظلت نبوة «سفر تثنية الاشتراع» حول نبي مثل موسى غير محققة بقدر ما يتعلق الأمر بالإسرائيليين. فإذا قلبنا صفحات تاريخ العالم لم نجد أيّ نبي غير محمد عليه السلام أعلن أنه النبي الذي تنبأ موسى بظهوره، ولم نجد أيّ كتاب مقدس غير القرآن الكريم أشار إلى تحقق النبوة في شخص امرئ ما. والوقائع أيضاً تؤيد هذا الاستنتاج نفسه. فقد كان موسى صاحب شريعة، وكذلك محمد صلوات الله وسلامه عليهما. وليس بين الأنبياء الإسرائيليين الذين خلفوا موسى أيّ نبي جاء قومه بشريعة جديدة (٢).

ومن هنا كان الرسول الكريم محمد، بوصفه النبي الوحيد الذي أعطى الناس شريعة، هو وحده النبي الذي هو مثل موسى. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٤٤ .

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٤٩ .

كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ [المزمل]. إن كلمات النبوة، «من وسط إخوتهم» لتلقي ضوءا إضافيا على هذه الحقيقة، وهي أن النبي الموعود كان مقدرًا له أن يطلع لا من بين الإسرائيليين أنفسهم، ولكن من بين إخوتهم، الإسماعيليين. وهكذا فإن نبوءة «ثنية التشريع» تشير بما لا يحتمل اللبس إلى الرسول محمد الذي وجدت فيه، في الواقع، مصداقها.

تعترف التوراة بأن إسماعيل هو ابن إبراهيم البكر ورغم أن التوراة تجعل العهد دائما للابن البكر إلا أنها في هذا الموضوع تنكر أهمية البكورية التي تتمسك بها وتجعل العهد من الله لإسحاق دائما أبدأ وتبدأ قصة إسماعيل في سفر التكوين الإصحاح ١٦ بأن تقوم «سارة» العاقر» بتقديم هاجر جاريتها لإبراهيم حتى تلد له<sup>(١)</sup>: «وأما ساراي امرأة إبراهيم فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها «هاجر» فقالت ساراي لإبراهيم: هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة ادخل على جاريتي. لعلني أزرق منها بنين فسمع إبراهيم لقول ساراي... فدخل على هاجر فحبلت... فولدت هاجر لإبراهيم ابنا ودعاها إبراهيم إسماعيل وكان إبراهيم ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل» [سفر التكوين الإصحاح ١٦: ١-١٦]<sup>(٢)</sup>.

وثمة نبوءة ثالثة نقع عليها، في تعابير لا تقل وضوحًا وجلاءً، في السفر نفسه، سفر «ثنية الاشتراع». وهذه النبوءة تقول: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم» [ثنية الاشتراع ٣: ١]. و«المجيء من سيناء» يشير إلى ظهور موسى، و«الإتيان من ربوات القدس» يشير إلى ظهور يسوع، لأن هذين النبيين تلقيا النداء الإلهي في هذين الموضعين. أما «فاران» فمن المسلم به أنه الاسم القديم لأرض الحجاز حيث ظهر محمد، عليه السلام، من بين حفدة إسماعيل. فالرسول الكريم محمد هو من بين جميع الأبطال العالميين الشخصية التاريخية الوحيدة التي تسامع الخاص والعام بنبأ دخولها الظافر إلى مكة. والشريعة التي قدمها إلى العالم تعرف حتى يوم الناس هذا بـ «الفراء»، أو المشرقة، لأنها تلقي فيضا من الضياء على مختلف ضروب المسائل المتصلة بمصالح الإنسان الدينية والأخلاقية والاجتماعية. وإلى ذلك تلمع كلمات الآية: «وعن يمينه نار شريعة لهم». ليس هذا فحسب، بل إن ثمة نبوءة رابعة تنص صراحة على أن أرض النبي الموعود هي بلاد العرب: «وحي من جهة بلاد العرب. في الوعر من بلاد العرب تبيتن يا قوافل الددانيين. هاتوا ماء لملاقة العطشان يا سكان أرض تيماء. وافوا الهارب بخبزه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب» [أشعيا ٢١: ١٣-١٥]<sup>(٣)</sup>.

(١) د. محمد علي البار - المرجع السابق - ص ١٠١.

(٢) د. محمد علي البار - نفس المرجع - ص ١٠٢.

(٣) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٥٠.

نجد أنه رغم أن إبراهيم ختن إسماعيل إلا أن هذا الختان لم يعط إسماعيل الحق في العهد ومع هذا قام إبراهيم بطرد هاجر وابنها إسماعيل حسب أوامر «سارة» بعد أن أعطاهما قرية ماء وخبزاً فتاهت هاجر في بريمة «فاران» مكة<sup>(١)</sup> وكبر إسماعيل ونما هناك وتصور القصة في التوراة أن إسماعيل كان طفلاً صغيراً وأن الماء نفذ من هاجر وضعت هاجر إسماعيل تحت الشجرة وجلست مقابله وبكت ويقول سفر التكوين: «وسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأنني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت ومسلات القرية ماء وسقت الغلام»<sup>(٢)</sup>. يتضح من ذلك الماء الذي انفجر في عين «رمزم» وكيف أن الله بشر أمة عظيمة من إسماعيل وحفيده فيما بعد رسول الله محمد ﷺ وأن أمة الإسلام اليوم هي من أعظم الأمم في العالم.

لفظة «بلاد العرب»، قبل كل شيء، هي في ذات نفسها ذات مغزى كاف. ثم إن الإشارة إلى «من هاجر» تلقي ضوءاً إضافياً على من المقصود بالنبوءة. فتاريخ العالم لم يدون غير هجرة واحدة قدر لها أن تكتسب أهمية الحدث الحاسم - هي هجرة الرسول محمد ﷺ من مكة إلى المدينة. ومن ذلك اليوم بالذات يبدأ التقويم الإسلامي، ذلك بأنه كان في الواقع مستهل فصل جديد في تاريخ الإسلام، أو على الأصح في حضارة العالم كله. بيد أن في الكلمات التالية «من أمام السيوف قد هربوا» لشهادة أبلغ. فالتاريخ يثبت أن محمداً الرسول الكريم هاجر من مكة بينما كان بيته محاطاً بأعدائه المتعطشين للدماء، الشاهرين سيوفهم فعلاً، المستعدين أتم استعداداً للانقضاض عليه مجتمعين حالما يغادر بيته ذاك. وعبثاً تقلب صفحات التاريخ التماساً لهجرة أخرى تمخضت عن نتائج في مثل هذه الخطورة وبعد الأثر، أو التماساً لنبي آخر هاجر إبقاء على حياته بعد أن سلت في وجهه السيوف. وهاتان الواقعتان التاريخيتان اللتان لا يأتيهما الريب من بين يديهما ولا من خلفهما، مردفتين بنص صريح على بلاد العرب بوصفها مسقطاً لرأس النبي الموعود، تشكلان دليلاً لا نزاع فيه على أن النبوءة تشير إلى الرسول محمد ﷺ<sup>(٣)</sup>. وهناك نبوءات كثيرة مماثلة أطلقها الأنبياء اليهود، من مثل داود، وسليمان، وحبقوق، وحقاي وغيرهم. ولكننا سنجتري، رغبة في الاختصار، بأن نشير إلى واحدة منها، هي تلك التي أطلقها آخر أنبياء الإسرائيليين، أعني يسوع، والتي تقول: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه» [سفر يوحنا ١٤ : ١٥ - ١٧]. وتقول: «وأما المعزى، الروح القدس، الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» [سفر يوحنا ١٤ : ٢٦].

(١) د. محمد علي البار - المرجع السابق - ص ١٠٤.

(٢) د. محمد علي البار - نفس المرجع - ص ١٠٤.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٥١.



وتذكر التوراة أن إسماعيل شب رامياً بالقوس وهذا أمر تذكره الأحاديث النبوية الصحيحة، حيث كان النبي يحث أصحابه على الرمي ويقول لهم: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»<sup>(١)</sup>. وتقول: «الكني أقول لكم إنه خيسر لكم أن انطلق، لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم المعزى. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» [سفر يوحنا ١٦: ٧]. وتقول فوق ذلك: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذلك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق» [سفر يوحنا ١٦: ١٢ - ١٣].

هذه الكلمات النبوية كلها تعلن بتعابير صريحة عن مجيء نبي آخر بعد يسوع. ومع ذلك فقد أرهق اللاهوتيون النصارى أنفسهم، وما يزالون، ابتغوا العدول بها عن قصدتها بحيث تنطبق على الروح القدس. والواقع أن صياغة النبوءة لا تجيز هذا الاستنتاج. فقوله: «إن لم انطلق لا يأتيكم المعزى» كلام هو من الوضوح بحيث يستغنى عن كل تعليق. و«العهد الجديد» يذكر أن يوحنا كان مفعماً بالروح القدس حتى قبل أن يرى النور. ثم يتكلم عن يسوع نفسه فيقول إنه تلقى الروح القدس على شكل حمامة. وهكذا فقد كان من دأب الروح القدس أن يلم بالناس قبل يسوع كما ألم بهم في أيامه. وإذن فالإشارة من تشيير هذه الكلمات: «إن لم انطلق لا يأتيكم المعزى»؟ لا ريب في أنها لا تشير إلى الروح القدس، لأن من التشخيف، أو يكاد، أن نفكر أن يسوع لم يكن مزوداً بروح قدس. فالإجلال الحقيقي ليسوع يقتضينا أن نؤمن بأن حواريه أنفسهم، الذين طهرت نفوسهم بيد معلمهم العظيم، كانوا من النقاء بحيث يستحقون أن يكونوا مفعمين بالروح القدس. والقرآن الكريم، على الأقل، ينسب إلى أصحاب الرسول محمد مثل هذا النقاء في تعابير واضحة، حيث يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢].

قال عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، عن الآية التي في القرآن: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح]، قال في التوراة: «بأيها النبي إنا أرسلناك»<sup>(٣)</sup>.

لا ريب في أن كلمتي «الروح القدس» اللتين وردتا في النبوءة أيضاً، إنما أريد بهما أن تشيرا إلى أن النبي الموعود سوف يكون متحداً بالروح القدس اتحاداً غير منقسم بحيث يجعل مجيئه، مجازياً طبعاً، كمجيء الروح القدس نفسه. وفي النبوءة كلمات أخرى لا تنطبق إلا على النبي محمد. فالسمات المميزة التي تبينها النبوءة مجتمعة فيه برمتها. وقول النبوءة «ليمكث معكم إلى

(١) د. محمد علي البار - المرجع السابق - ص ١٠٤.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٥٢.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في فتح الباري - ٨ / ٥٥٨ حديث رقم ٤٨٣٨.

الأبد» يدل على أنه لن يكون بعد النبي الموعود أيما نبي جديد. وهذا هو عين ما يقوله القرآن الكريم عن الرسول محمد ﷺ: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١٠ ﴾ [الأحزاب]. وتقول النبوة: «فهو يعلمكم كل شيء». وهذا أيضا عين ما يقوله القرآن الكريم عن رسالة النبي محمد ﷺ: ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... ۝٢ ﴾ [المائدة]. ثم إن النبي الموعود يدعى في النبوة «روح الحق»، وهو أمر يزكسه القرآن الكريم أيضا بهذه الكلمات: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١ ﴾ [الإسراء]. وهكذا فإن دعوات إبراهيم وإسماعيل، ونبوءات موسى وعيسى وغيرهما، تحققت في شخص الرسول الكريم محمد ﷺ إلى أبد الأبدين<sup>(١)</sup>.

**سيرة رسول الله محمد ﷺ قبل البعثة:** القى الله تعالى بتدبيره المحكم أضواء كاشفة على شخص رسول الله محمد ﷺ في أيامه الأولى؛ حتى ليخيل للباحث أنه لم يبق ذو شأن في العرب إلا وقد وصله شيء عن رسول الله محمد ﷺ يقول: إن محمداً هو الرجل الذي يمكن أن تناط به في المستقبل مهمة قيادة هذه الأمة إلى شاطئ الأمان. كان إسماعيل أكبر أولاد إبراهيم. وكان له اثنا عشر ولداً، كما يؤكد «العهد القديم»، منهم قيثار الذي انتشرت ذريته في أرض الحجاز العربية. وليس من ريب، استناداً إلى «العهد القديم» أيضاً، أن العرب هم أبناء قيثار. وإلى هذا فإن العرب جميعاً يسلمون بأن عدنان، الذي يرجع إليه نسب الرسول الكريم محمد ﷺ على نحو لا يأتيه الريب من بين يديه ولا من خلفه، كان أيضاً من أولاد إسماعيل في الجيل الأربعين من سلالاته. ولم يكن ثمة في أيما يوم من الأيام خلاف على تحدر النبي محمد ﷺ من عدنان مباشرة. وفي الجيل التاسع من سلالة عدنان يبرز السنزر بن كنانة، مؤسس البيت القرشي. وبعد اسم آخر في شجرة النسب يجيء في المقام التاسع قصي الذي أسندت إليه سدانة الكعبة - وهي من أعظم المناصب شرفاً في بلاد العرب. وكان قصي جد عبد المطلب، جد الرسول الكريم. ومن هنا نرى أن أسرة النبي تحتل، من حيث نبالة المحتد، المقام الأعلى.

وكانت أم عبد المطلب من بني النجار، فهم أحوال النبي<sup>(٢)</sup>. وكان قد ظل عبد المطلب في رعاية أحواله في «يشرب» حتى غدا غلاماً ثم خرج إليه عمه فأعاده إلى أهله في مكة على كره من أمه<sup>(٣)</sup>. وأنجب عبد المطلب عشرة أولاد، أبرزهم أبو لهب الذي كان زعيم المعارضة الأكبر ضد الرسول، وأبو طالب الذي كفله ونشأه، وحمزة الذي كان من أول الناس إسلاماً والذي استشهد في وقعة أحد، والعباس الذي كان شديد الحب للرسول برغم بقائه فترة طويلة خارج الحضيرة الإسلامية.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٥٢.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١٥.

(٣) ابن سعد - حديث المطلب وسلمى زوج هاشم - ج ١ - ص ٨١ - ٨٢.

هو محمد بن عبد الله - واسم عبد الله : شيبه الحمد - بن عبد المطلب بن هاشم - واسم هاشم : عمرو العلي - بن عبد مناف - واسم عبد مناف : المغيرة - ابن قصي - واسم قصي : زيد - بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان . فأمه عليه السلام آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر . فوالدا رسول الله محمد عليه السلام أشرف ولد آدم حسبا، وأفضلهم نسبا . هذا النسب الكريم كان له أثره فيمن يبلغهم رسول الله شريعة الله . أما أثره في رسول الله : فقد شب عليه السلام مرفوع الرأس رغم يتمه، لا يعرف الذل ولا الخنوع، جريئا في إعلان رأيه، تملأ الثقة نفسه . أما أثره فيمن دعاهم رسول الله إلى الإيمان والانضواء تحت راية الإسلام : فإن أكبر شخصية في العرب لا تجد مطعنا على رسول الله في نسبه، ولا تجد غضاضة في الانضواء تحت رايته، وقبوله حاكما، لأنه من أكبر بيوتات قريش وأعلاها نسبا، ولذلك فإنهم لما اختلفوا معه في أمر العقيدة عرضوا عليه الملك عليهم، فأبى إلا أن تكون العقيدة قبل الملك، فهي إذن لا تنكر عليه الرئاسة ولا الملك . وكذلك الحاكم في نظر الإسلام يجب أن يكون من أسرة عريقة جمعت أطراف الشرف ليساهم ذلك في صنع اطمئنان الناس إليه والتفافهم حوله، فلا يأنف الشريف من التعاون معه بله الوضيع، وبذلك يشارك الجميع في إعلاء راية الدولة، وتنعدم المعارضة، ومن هنا قال رسول الله عليه السلام : «الخلاقة في قريش» وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله «لا تستقضين إلا ذا مال وحسب، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس» . بل اعتبر الرسول ارتقاء الصعاليك سدة الحكم من أمارات الساعة . فقال : «أن تلد الأمة ربتها» . وقد رأينا بأمر أعيننا كيف تنهب أموال الناس، وتتمزق الأمة، وتوقع الشقة بين الحاكم والمحكوم عندما يسود الصعاليك كما هو حاليا في الدول العربية والإسلامية<sup>(١)</sup> .

ابن الذبيحين: نزل الأمر من الله لإبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل، فسعى عليه السلام لتنفيذ أمر الله، ففداه الله بذبح عظيم، وإسماعيل هو الجسد الذي ينحدر منه نسب رسول الله عليه السلام . ولما أراد جد رسول الله عبد المطلب أن يكشف عن زمزم عارضته قريش في ذلك أشد المعارضة فنذر لثن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه، ثم اتنوني . ففعلوا ثم أتوه فدخل بهم على «هبل»، وكان هبل على بشر في جوف الكعبة . وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة . فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه . وأخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب آتئذ

(١) د . محمد رواس قلمه جي - المرجع السابق ص ١٥ .

أصغر بني أبيه . وكان أحب ولد عبد المطلب إليه فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أخطأ . فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله .

فأخذه عبد المطلب بيده ، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف وناثلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ! وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان ابن أخت القوم : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه ! وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل وانطلق به إلى المدينة ، فإن به عرافة لها تابع ، فسلها ثم أنت على رأس قومك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته . فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها بخير ، فركبوا حتى جاؤوا إليها فسألوها ، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ، ونذره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله ، فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا من عندها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم : قد جاءني الخبر ، كم الدية فيكم؟ قالوا عشرة من الإبل ، قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى بكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي بكم ونجا صاحبكم<sup>(١)</sup> .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ، وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل ، وجعلوا - هكذا - كلما ضربوا خرج القدح على عبد الله فيزيدون ثم يضربون ثم يزيدون حتى بلغت الإبل مائة ، فقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل ، فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى ، رضي ربك يا عبد المطلب ، فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليه ثلاث مرات فضربوا على عبد الله ثلاث مرات وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو ، فخرج القدح على الإبل في المرات الثلاث ، فنحرت ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا يمنع ، وبذلك طبق عبد المطلب وصية الكاهنة وظل يضرب بالقداح على ابنه عبد الله وعلى الإبل ويزيدها حتى بلغت المئة فرضيت الآلهة وقبلت الفداء وأنقذ عبد الله من موت محقق<sup>(٢)</sup> . وحفظت قريش ذلك لعبد الله والد محمد - رسول الله فيما بعد - فكان هذا تمهيداً لقطع الحجّة على الذين سيعارضون دعوة رسول الله

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ١٦ .

(٢) الطبري - ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٣ وانظر أيضا - ابن هشام - القسم الاول ص ١٥١ - ١٥٥ .

وحقه في الرياسة والقيادة. لقد نجى الله والد محمد من الذبح، فكان منه محمد، وكانت تلك النجاة مفخرة لرسول الله وتدعيمًا لموقفه تجاه العرب. وكانت الغاية من هذه الحادثة بكل ما فيها هي تسليط الاضواء على شخص رسول الله محمد ﷺ في وقت مبكر، واستنفار أبيه من الذبح وليدا بعد أن شب وترعرع وآتى ثماره يانعة طيبة. نجى عبد الله من الذبح، فترعرع وشب، فكان أجمل رجل رثي في قريش، حتى تمتته كثير من نساها أن يكون لهن الزوج المنتظر، حتى إن بعض النساء لم يتوانين في عرض أنفسهن عليه، ولكنه لم يقبل، فخطب له أبوه أمّة بنت وهب ابن عبيد مناف بن زهرة وهي يومئذ سيدة بني زهرة سنا وشرفا فزوجه إياها، وكان عمره حين زواجه ثمانية عشر عاما. وكان عبد الله زوجًا لأمّة بنت وهب. والواقع أن الزوجين احتلا في قومه مقامًا عليا لا بسبب من كرم محتد فحسب، بل بسبب شي آخر كان أرجح في ميزان القيمة في عصر الظلمة والفساد ذلك، لقد كانت لكل منهما نفس طاهرة<sup>(١)</sup>.

وحملت أمّة برسول الله فلم تجد له ثقلا، ولم يطرأ عليها ما يطرأ على النساء من الوحم. إن أمّة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدث: أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقول: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد! ثم سميه محمداً، ورات حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام. وسافر عبد الله مع تجارة قريش إلى بلاد الشام، وذلك كبقية أفراد أسرته التي كانت تعمل بالتجارة مع بلاد الشام في الصيف واليمن في الشتاء<sup>(٢)</sup>. وفيما هو قافل إلى مكة أدركته منيته في المدينة المنورة فتوفى فيها، وذلك بعد عودته من تجارة له في «غزة» فقد مات في سن مبكرة<sup>(٣)</sup>. ودفن هناك عند أخواله من بني عدي بن النجار، توفى عبد الله وترك محمداً حملاً في بطن أمه لم يمض على حملة سوى شهرين. ولد رسول الله يوم الإثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل الذي يصادف عام ٥٧٠م تقريباً. فلما وضعت أمه ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب: أنه قد ولد لك غلام فأتاه فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه، وحدثه بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت به أن تسميه، فسماه «محمداً». وقد حمى الله هذا الاسم من الشيع والانتشار فلم يسم به أحد حتى قرب مبعث النبي، فسمي به ستة هم: محمد بن أوصبة، ومحمد بن مسلمة، ومحمد بن براء، ومحمد بن سفيان، ومحمد بن حمران، ومحمد بن خزاعة، ولا سابع لهم، لأن الكتب السماوية قد بشرت بأن النبي المنتظر سيكون اسمه «محمد»، فسمى آباء هؤلاء أبناءهم به رجاء أن يكون ابنه ذاك النبي، وقد حمى الله كل من سمي به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له. وقد كان لهذا الاسم النادر

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ١٧.

(٢) الأرقم - ج ١ - ص ٧١.

(٣) الأرقم - ج ١ - ص ٧١.

«محمد» الذي سمي به مساهمة في إلقاء الأضواء وتوجيه الأنظار في وقت مبكر نحو هذا الإنسان الذي سيختاره الله تعالى لقيادة هذه الأمة، وإقامة صرح المثل الإنسانية الموحاة إليه من الله تعالى فيها<sup>(١)</sup>.

أخذ عبد المطلب الوليد الجديد فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها والتمس له المراضع فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليلة بنت أبي ذؤيب. وهكذا ولد الرسول الكريم يتيم الأب، ثم ماتت أمه وهو لا يزال في السادسة من العمر. وبذلك حرم حب الأبوين وعنايتهما، ومع هذا فإنه لم ينشأ على أسوأ الفضائل الخلقية فحسب، بل كان أعظم معلم للأخلاق أيضاً. ولم تنشأ الأقدار له أن يفيد من المنافع التي تعود بها الثقافة الكتابية على أصحابها، ومع هذا فقد ترك للعالم تراثاً غنياً من الحكمة البالغة لا يزال حتى يوم الناس هذا ينتزع الاحترام والإعجاب الكليين.

وقد نشأ محمد يتيماً فكفله جده عبد المطلب وظل في رعاية جده حتى توفى هذا الأخير وذلك في السنة الثامنة بعد الفيل<sup>(٢)</sup>. وكذلك كانت وفاة والدته وله من العمر ثماني سنين أو ست على روايات أخرى<sup>(٣)</sup>. ويوم الإثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، هو يوم ميلاد الرسول الكريم. وهو يوافق اليوم العشرين من نيسان (أبريل) عام ٥٧١ من التقويم المسيحي. وقبل مولد الرسول، تلقت أمه النبا السعيد في رؤيا. ويرشح من بعض أحاديث الرسول أن جده سماه محمداً، وأن أمه سمته أحمد، وقد فعل كل منهما ذلك تبعاً لرؤية رآها. ولقد تحدث القرآن الكريم عنه بالاسمين جميعاً. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف]. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران]. ﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوَابِهِ يَعْعَبُ الزُّرَّاعَ لَيَغْلِبَنَّ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

يروى أحد الثقات أن الرسول نفسه قال: «أنا محمد وأحمد في آن معا» وهو يخاطب في المنظومات الشعرية بكلا الاسمين أيضاً. في نفس العام الذي ولد فيه الرسول شيد زعيم مسيحي كنيسة فخمة في اليمن أطلق عليها اسم «القليس» وهذا الاسم مشتق من كلمة Ecclesia بمعنى كنيسة، وعندما وصلت أخبارها إلى مكة فغضب سكانها وخرج أحدهم من مكة حتى قدم اليمن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٥٦.

(٢) الطبري - ص ٢٧٧ - ص ٢٧٧.

(٣) ابن هشام - القسم الأول ص ١٦٨، المنجد ص ٩.

ولطخ «القليس» بالآقذار وعاد إلى بلده فحلف أبرهة حين علم بالحادث أنه سيسير إلى الحجاز ويهدم الكعبة<sup>(١)</sup>. رجاة أن يحولها إلى ملاذ عام لشعبه، زمني وروحي، بدلا عن الكعبة التي كان قد عقد العزم على هدمها. ولقد كان ذلك، في الواقع، صراع حياة أو موت بين التثليث والتوحيد. وهكذا سار ذلك الزعيم، أبرهة الأشرم على رأس جيش عظيم قاصداً مكة لكي يدكها دكا. وعسكر على مبعدة ثلاثة مراحل من مكة، وبعث إلى المكيين رسولا يبلغهم الغرض الذي من أجله جاء. وفي غضون ذلك احتجز رجال أبرهة مئة بعير لعبد المطلب. فلم يكن من عبد المطلب إلا أن وفد بنفسه على الزعيم ليسأله رد إبله. وتأثر أبرهة تأثراً عظيماً بمظهره المهيب، فسأله ما الذي دعاه إلى الوفود عليه، معتقداً من غير ريب أنه أقبل ليلتمس منه الإبقاء على البيت المقدس. فأجابه عبد المطلب أنه إنما أقبل ليسأله رد إبله. فعجب أبرهة لهذا الجواب غير المتوقع وأبدى استغرابه لقلق عبد المطلب البالغ على إبله وعدم قلقه على الكعبة قائلاً لترجمانه: «قل له لقد كنت أعجبني حتى رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مئة بعير أصبتها لك وتترك بيتنا هو دينك ودين آبائك قد جثت لاهدمه لا تكلمني فيه؟»، فقال له عبد المطلب: «إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه»<sup>(٢)</sup>. إذ وجد القرشيون أنفسهم أضعف من أن يقاوموا أبرهة فأخلوا مكة ونصبوا خيامهم في الكشبان المجاورة. وفيما هم يغادرون مكة أخذ عبد المطلب بستار من أستار الكعبة، وراح يستنصر الله قائلاً: «اللهم هذا بيتك. إننا نشعر أننا أضعف من أن نحمله، فتول أنت حمايته بنفسك». ويقول المؤرخون أن الجدرى تفسى، في غضون ذلك، بجيش أبرهة تفسياً ليس أقوى منه ولا أعنف، محدثاً في صفوفه ذعراً رهيباً، مهلكاً القسم الأعظم من رجاله. أما سائرهم فلاذ بالفرار في اختلاط كامل وفوضى مطلقة. وإليك وصف القرآن الكريم لهلاك جيش أبرهة. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل]. وهذا يظهر أن الجيش ولى الأدبار في ارتباك شديد إلى درجة جعلته لا يترث لحظة حتى يدفن جثث القتلى، فأمست طعاماً للنسور وغيرها من جوارح الطير. وقد وقعت هذه الحادثة الأعجوبية في آن واحد مع مولد الرسول الكريم. وتقول بعض الروايات أن هزيمة أبرهة تمت يوم مولد محمد بالذات<sup>(٣)</sup>.

بركة رضاع رسول الله في بني سعد: من عادة المجتمع العربي أن ترسل أولادها مسترضعة في البادية ليكتسبوا فصاحة اللسان من أهلها وسلامة النطق ويعيش في الهواء الطلق النقي فقد أرضع رسول الله ﷺ بعد ولادته مباشرة مولاة أبي لهب «ثوية» وذلك قبل قدوم حليلة وثوية كانت

(١) ابن هشام - القسم الأول ص ٥٠.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٥٧.

(٣) ابن سعد - ج ١ - ص ١٠٨.

قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي فكانا أخويه من الرضاعة ولهذا رفض الرسول الزواج من ابنة عمته حمزة لأنها ابنة أخيه من الرضاعة<sup>(١)</sup>.

كانت حليلة تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير اسمه عبد الله بن الحارث ترضعه، في نسوة من بني سعد، تلتمس الرضعاء، وذلك في سنة مجدبة لم تبق لهم شيئاً تقول: فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا. والله ما تبضُ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني، فلقد أدمتُ بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما معنا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيماً وما عسى أن تصنع أمه وجدها فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة كانت معي إلا أخذت رضيعاً، غيري. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إنني لاكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذه! قال: لا عليك أن تفعلني، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، وذلك عندما لم تحظ حليلة بطفل غيره وكرهت أن تعود دون رضيع فقبلته<sup>(٢)</sup>.

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجده غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام روجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعا، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة، لقد أخذت نسمة مباركة! فقلت: والله إنني لأرجو ذلك. ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمهم، حتى إن صواحيبي ليقطن لي: يا ابنة أبي ذؤيب. ويحك اربعي علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي! فيقطن والله إن لها لشأناً! ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبنا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً (الغليظ الشديد)، فقدمنا به على أمه ونحن أحرص

(١) ابن سعد - ج١ - ص ١٠٩.

(٢) ابن مشام - القسم الأول - ص ١٦٢.



شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بني عندي حتى يغلظ، فإني أخاف عليه وباء مكة. فلم نزل بها حتى رده معنا. تتحدث معظم المصادر عن الخير الذي فاض على حليلة السعدية وأسرتها بعد قدوم الطفل محمد إلى ربوعهم<sup>(١)</sup>. لا نشك في أن خبر محمد ﷺ وخبر ما حل في البيت الذي هو فيه من البركة قد انتشر في أنحاء البادية، وسارت به الركبان، ويؤكد لنا شيوع هذا الخبر أن الناس يقولون لغلمانهم: ارعوا أنعامكم حيث ترعى أنعام حليلة، ولما تعود أنعامهم كما ذهبت وتعود أنعام حليلة وقد امتلأت، لا بد من أن يشور في نفوسهم ألف سؤال بحثا عن السر، ولا تغيير في أمر حليلة إلا دخول هذا الطفل «محمد» بيتها. كل هذا كان له أثره في توجيه أنظار أهل البادية إلى محمد ﷺ في وقت مبكر، ليكون مهوى القلوب، ومجمع الزنود المفتولة عندما يتسلم قيادة هذه الأمة، فيقول الناس: هذا الذي عرفنا بركته صغيرا، فما الذي يمنعا أن نكون معه كبيرا، لعله يحقق لنا الخير الذي عجزنا عن تحقيقه<sup>(٢)</sup>.

لشرك الحديث عن شق صدر «محمد» إلى حليلة السعدية لتحدثنا به، وهي أعلم الناس بذلك، تقول حليلة: بعد أن رددت محمداً معي إلى البادية بعدة أشهر كان محمد مع أخيه - تعني ابنها - مع بهم (الصغار من الغنم) لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعا فشقا بطنه، فهما يسوطانه. فخرجت أنا وأبوه، فوجدته قائما منتقعا وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو.

فرجعنا به إلى خباتنا وقال لي أبوه: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فالحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. فاحتملنا فقدمنا به على أمه فقالت: ما أقدمك به يا حليلة وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لشأنا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى. قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضواء قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط أخف علي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لو واضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقني راشدة، وبذلك يكون قد أقام رسول الله عند حليلة ثم عاد بعدها إلى أمه في مكة. إن هذه الحادثة هي نوع من أنواع الإعداد الذي أعد الله تعالى به رسول الله محمداً ﷺ ليكون نبيا وقائدا. وقال عبدة بن عبد السلمى أنه سأل رسول الله ﷺ كيف كان بدء أمرك؟ فذكر القصة في ارتضاعه في بني سعد

(١) ابن سعد - ج١ ص ١١٠.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٠.

فيه أن الملكيين لما شقوا صدره قال أحدهما للآخر خطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة<sup>(١)</sup>. وكان «خاتم النبوة» من علاماته التي كان أهل الكتاب يعرفونه بها<sup>(٢)</sup>.

لقد كان محمد معصوماً عن المعاصي ظاهراً وباطناً، فعصمته ظاهراً بأن لا يأتيها وعصمته باطناً بتطهيره من الحقد والحسد من أمراض القلب، وعملية شق الصدر واستخراج القلب، كانت، لاستخراج السوء منه، وهو أمر ضروري لتحقيق العصمة الداخلية. ولكن ألا يمكن أن يتحقق ذلك كله من غير شق الصدر؟ ألم يكن بالإمكان بأن يأمر الله الغل والحقد والحسد والسوء كله بالخروج من قلب محمد بغير شق صدره؟! فلماذا كان شق الصدر. وهنا نقول: إن شق الصدر كان أيضاً لتسليط الأضواء على شخص رسول الله محمد ﷺ تمهيداً لتسلمه القيادة ليحفظ الناس أن رسول الله محمد ﷺ ليس كبقية الناس، وهم يعرفون ذلك عنه منذ نعومة أظفاره، منذ أن كان مسترضعاً عند حليلة<sup>(٣)</sup>، استمر محمد مع حليلة حتى بلغ الخامسة من عمره حين أعادته حليلة وسلمته إلى جده<sup>(٤)</sup> ويقول رسول الله محمد ﷺ عن حياته وطفولته بما كان من فضل في تقويم لسانه وإيضاح بيانه: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسانُ بني سعد بن بكر»<sup>(٥)</sup>.

وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبت نباتاً حسناً، لما يريد به من كرامته. فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه بالأبواء بين مكة والمدينة، كسنت قد قدمت به علس أخواله من بني عدي بن النجار تُزيه إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة<sup>(٦)</sup>. وكان موت أبوي رسول الله - وهو عليه الصلاة والسلام ما زال صغيراً - أضواءً أخرى سلطها رب العزة على شخص رسول الله قبل استلامه دفة القيادة. وبوفاة أم رسول الله، انضم عليه الصلاة والسلام إلى أسرة جده عبد المطلب، ولقى في بيت جده كل تكريم أثناء إقامته فيه، حتى إنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً! ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع. فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمانين سنين توفي عبد المطلب - وذلك بعد عام الفيل بثمانين سنين - وانتقل الطفل محمد إلى بيت عمه أبي طالب، فلقي فيه كل تكريم أيضاً، وبذلك توالى المصائب على الطفل محمد عندما توفيت والدته ولم يكن عمه أبو طالب على جانب كبير من الغنى ولكنه كان

(١) الطبراني - المعجم الكبير ١٧ / ١٣١ - الحديث ٣٢٣. وانظر المسند لآحمد ٦ / ٥٦١.

(٢) فتح الباري - ٦ / ٥٦١ وانظر أيضاً - عمدة القارئ: ١٣ / ٦١.

(٣) د. محمد وداس قلمه جي - المرجع السابق ص ٢٠.

(٤) ابن سعد - ج ١ ص ١١٣.

(٥) ابن سعد - ج ١ ص ١١٣.

(٦) ابن هشام - القدم الأول ص ١٦٨.

يعضه بعناية وحب كبيرين استمر طيلة حياته قبل بعثته وبعدها كما رافق محمد عمه أبا طالب في رحلة إلى الشام<sup>(١)</sup>. وهنا لابد لنا أن نلاحظ أمرين ملفتين للنظر<sup>(٢)</sup>:

أولهما: تكامل يتم رسول الله ﷺ بموت أبويه، ثم موت جده، وهذا أمر ملفت للأنتظار لهذا اليتيم، مثير للشفقة عليه، فالناس في مكة لا يفتأون يذكرونه لا لأنه يتيم الأبوين فحسب، بل لأنه جمع إلى اليتيم الذكاء الوقاد، وحسن التصرف، وكريم الاخلاق، والمظهر الموحى بالعظمة، وقوة الشخصية. كل هذا مما ينبه الناس ويلفت أنظارهم إلى هذا الطفل.. ثانيهما: مبالغة جده عبد المطلب في إكرامه، حتى إنه ليلعب على فراشه الممدود في ظل الكعبة، وفي حضرة كبار رجالات العرب وزعمائها، مع أن المعروف عن عبد المطلب أنه كان لا يسمح لأحد، ولا حتى لأحد من أولاده بالجلوس على فراشه. إن هذا أمر ملفت للنظر، يرافق جده يجلس معه على فراشه في ظل الكعبة، وهو ما زال حدثا، على مرأى من رجال العرب الذين يقصدون مكة من كل حذب وصوب ويجلسون مع زعيمها عبد المطلب. ولا بد من أن يتحدث هؤلاء القادمون والمقيمون معا عن هذا الطفل الذي يجلس على فراش عبد المطلب في ظل الكعبة، وتلوك الحديث عنه ألسنتهم، وفي ذلك نشر لذكر محمد بن عبد الله في وقت مبكر يساعده في المستقبل على قيادة العرب. لقد كان التكوين الجسمي والنفسي لرسول الله ﷺ موحيا بالعظمة، ولذلك فإنه ما رآه أحد إلا تنبأ له بالشأن العظيم، وقد جرى ذلك على لسان جده عبد المطلب كما تقدم. وعلى لسان عمه أبي طالب، وعلى لسان العائنين الخبراء بدراسة الشخصية، فابن إسحاق يحدثنا أن رجلا من بني لهب عاتقا كان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم يعتاف لهم فيهم، فأناه أبو طالب بمحمد - وهو غلام - لينظر إليه، فنظر اللهبي إلى رسول الله ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: عليّ بالغلام - محمد - فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل ذلك العائف اللهبي يقول: ويلكم ردوا عليّ الغلام الذي رأيت آنفا، فوالله ليكون له شأن.

واتفقت الروايات على تنزيه رسول الله محمد ﷺ في نطقه من عيوب في الحروف ومخارجها وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم، وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه إلى كل من رآه وتجمعان إليه قلوب من عاشروه وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه الرسول محمد ﷺ بين الضعفاء والأقوياء على السواء<sup>(٣)</sup>.

نجد أيضا أن رسول الله محمد ﷺ كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان وكان مشهورا

(١) ابن هشام - القسم الأول ص ١٨٠.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٧.

(٣) عباس محمود العقاد - عبقرية محمد - ص ٢٢.

بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه وامتلاً هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم<sup>(١)</sup>.

سفره مع عمه إلى الشام، وقصة بحيرا: ولما كان سن رسول الله اثنتا عشرة سنة خرج أبو طالب في ركب تاجراً إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير تعلق به رسول الله ﷺ فرق له أبو طالب وقال والله لا أخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً، فخرج به معه، ونزل الركب مدينة بصرى<sup>(٢)</sup>، وكان في بصرى صومعة لا تخلو من راهب يصير إليه علم المسيحية من كتاب فيها يتوارثونه كابراً عن كابر - فيما يزعمون - وكان راهبها في تلك الآونة هو «بحيرا» - وكانوا كثيراً ما يرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً. وذلك لشيء رآه وهو في صومعته، ذلك الشيء هو أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم، ولما نزلوا في ظل شجرة قريباً منه، وجد الغمامة قد أظلت الشجرة، وتدلت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها فلما رأى ذلك، بحيرا نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فانا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرکم.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم؟ فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم، لحدائثه سنة، في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرفها ويجدها عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلف أحد منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرا، ما تخلف عنك أحد ينبني له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنّاً فتخلف في رحالنا. فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللوات والعزى، إن كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظةً لحظةً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام، أسالك بحق اللوات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه - وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بها - فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: «لا تسألني باللوات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: سلني ما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من

(١) عباس محمود العقاد - نفس المرجع - ص ٢٢.

(٢) ابن هشام - القسم الأول - ص ١٨٠ وابن سعد ج ١ ص ١١٩.

صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده . فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك؟ قال : ابني ، قال له بحيرا : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا . قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن راوه وعرفا منه ما عرفت لبيغته شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به إلى بلاده . ومهما يكن من أمر قصة بحيرا فإنها لم تترك أثراً في نفس رسول الله ، ولم يذكرها في يوم من الأيام ، ولم يطمح أن يكون زعيماً في قومه حتى نزل عليه الوحي فأسلمه دفة القيادة ، ولكنها وجهت الأنظار إليه ، في بلاد الشام وألقت الأضواء عليه ، فالناس يذكرونها ولا ينسونها أبداً<sup>(١)</sup> .

كانت خديجة بنت خويلد الأسدية امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال ليخرجوا بتجارتها إلى البلاد البعيدة وتعطيهم على ذلك نسبة معينة من الربح ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج مع غلامها «ميسرة» في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، فقبل رسول الله ﷺ منها وأخرج في مالها ذلك ، وأخرج معه غلامها «ميسرة» حتى قدم الشام . فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له «نسطورا» فأطل الراهب على ميسرة فقال : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ! لا نشك بأن نسطورا هذا لن يكتم هذا الخبر بعد أن كشفه ، سيديعه ، ومن سمعه منه سيديعه أيضاً . وباع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلاله من الشمس وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فربح المال ضعفه أو قريباً ، وأخبر ميسرة خديجة بما رآه من خلق محمد ونظافة مسلكه ، وبما رآه أيضاً من إظلال الملائكة له ، وبما سمعه من قول الراهب «نسطورا» فوقع ذلك في نفس خديجة موقعاً ، كما قال «ميسرة» لخديجة ما رآه من أخلاقه ومكرماته ويقص أخباراً عن محمد ﷺ ما جعله يثلج صدر سيدته وحببته إلى نفسها سيما وأن تجارتها ربحت ضعف ما كانت تربح تجارتها في السابق<sup>(٢)</sup> . وحملت خديجة إلى ورقة بن نوفل - وكان ابن عمها . وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطور ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلاله ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر ، هذا زمانه . وهذا ضوء جديد يسلط على الرسول محمد ﷺ الذي سيتولى قيادة هذه الأمة عما قريب<sup>(٣)</sup> .

(١) د . محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) ابن سعد - ج ١ ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٣) د . محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٥ .

وقع حديث ميسرة ونسوة ورقة في نفس خديجة موقعه، وكانت خديجة امرأة عاقلة حازمة لبيبة شريفة فطمحت أن تكون الزوجة المخلصة لذلك الرجل العظيم، تشاطره شرف حمل الرسالة، وتعينه عليها، فاستدعته فقالت له: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقربتك وسطتك (الشرف) في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك. ثم عرضت عليه نفسها، وتختلف المصادر في أمر هذا العرض فبعضهم يذكر أنه كان بوساطة نفيسة بنت منية<sup>(١)</sup> والبعض يقول إنها عرضت عليه من غير وساطة<sup>(٢)</sup>، وكانت خديجة يومئذ أشرف نساء قريش نسبا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا، وكان كل رجل من قومها حريصا على الزواج منها لو يقدر عليه.

ولم يكن عيبا عند العرب قبل الإسلام، ولا في الإسلام، أن تعرض المرأة نفسها أو يعرضها وليها على الرجل الكفء الصالح ليكون لها زوجا، فهذه خديجة وكثيرات من النساء عرضن أنفسهن على رسول الله، وعرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر ثم على عثمان. وتلك عادة حسنة يا حبذا لو أخذ الناس بها اليوم، بل نقول: لو عقل الناس اليوم لجدوا في خطبة الرجال الصالحين الأكفاء لبناتهم أكثر من جدهم في خطبة المرأة المناسبة لبنينهم؛ لأن القوامه في البيت للرجل، يلزم أن يكون القيم كفتا صالحا ليكون البيت سعيدا. ولما عرضت خديجة على رسول الله ما عرضت من الزواج منها ذكر رسول الله ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه «حمزة» حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها رسول الله ﷺ، وكانت أول امرأة تزوجها، وجعل صداقها عشرين ناقة، وكان عمر خديجة آنذاك أربعين سنة، وعمر رسول الله خمسة وعشرين سنة، فولدت لرسول الله أولاده كلهم. ذكورهم وإناثهم إلا إبراهيم فإنه من ماري القبطية. ولو أمعنا النظر في حكمة الله تعالى في هذا الزواج لوجدنا أن رجلا سيخوض غمار حرب نفسية وجسدية شرسة ضد أعدائه لابد من أن تكون بجانبه زوجة تشد أزره وتقوي عزيمته وتفسح الأمل بالمستقبل أمام ناظره، لا زوجة تشيع في نفسه الخور والضعف. ولم يتزوج رسول الله في حياة خديجة امرأة غيرها لامرين اثنتين<sup>(٣)</sup>:

الأول: تقديرا منه صلوات الله وسلامه عليه لجهاد خديجة، ونفثها روح الصمود في نفسه.  
الثاني: لم تكن هناك أية حاجة للدعوة الإسلامية لأن يعدد رسول الله الزوجات. فالمرحلة التشريعية التي تقتضي تعليمها للناس والتي كان قسط كبير منها يطبقه رسول الله في بيته، وأحسن مبلغ لها وناقل هم الزوجات اللاتي يعشن مع رسول الله في بيته ويعلمن أحوالها، هذه المرحلة لم تبدأ بعد، والعداء بين رسول الله وخصومه هو محصور في قريش لم يخرج عنها إلى غيرها من قبائل العرب بعد.

رُزق النبي من خديجة أربع بنات، وابنين اثنتين، وعن جعفر عن أبيه قال: ولد لرسول الله

(١) ابن سعد - ج ١ ص ١٢٩ - ١٣١.

(٢) ابن هشام - القسم الأول ص ١٨٩.

(٣) د. محمد رواس قلمه جي - المرجع السابق ص ٢٦.

محمد ﷺ من خديجة القاسم والطاهر وأم كلثوم ورقية وفاطمة وزينب<sup>(١)</sup>. وكان أكبر أولاده جميعاً القاسم، ومن أجل ذلك كُني الرسول بـ «أبي القاسم»، ولكنه توفي طفلاً في الثانية من العمر. وكانت بنته الكبرى هي زينب، التي تزوجت بعد من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس. تليها رقية، وقد تزوجت من عثمان بن عفان، وتوفيت يوم انتصار المسلمين في معركة بدر. وكانت ابنته الثالثة هي أم كلثوم التي تزوجت أيضاً من عثمان بعد وفاة أختها رقية. أما صغرى بناته جميعاً فكانت فاطمة، وقد أنجبت تلك الذرية التي عرف كل فرد من أفرادها بلقب «السيد». لقد زوجت من الإمام علي عليه السلام. وكان أصغر أولاد خديجة غلاماً توفي وهو بعد طفل. والواقع أن الرسول احتسب وهو على قيد الحياة جميع أولاده من خديجة ما عدا فاطمة التي لم تعيش بعده إلا ستة أشهر. ولم يرزق الرسول غير ولد واحد - إبراهيم - من زوجة أخرى، وقد توفي هذا الولد أيضاً وهو طفل وكان الرسول شديد الحب لخديجة، وكثيراً ما كان يتذكرها بتعابير تفيض حناناً، حتى بعد وفاتها. وذات يوم أظري سجايها، فطرحت عليه عائشة سؤالاً محرّجاً جداً: ألم يعوضه الله، في شخصها، زوجاً خيراً من خديجة؟ فأجابها الرسول: «لا، لقد آمنت بي حين تخلى عني الناس جميعاً». لقد وهب خديجة قلبه كله ونفسه كلها بسبب من فضائلها الخلقية. وكان ينفق من مالها، بحرية، في سبيل الله. ولم تعترض هي قط على إنفاقه ثروتها في أغراض الخير. ولقد اشترت من مالها الخاص عبداً للرسول، ولكنها سرت عندما أعتقه. وكان زيد، صاحب الرسول المشهور، عبداً رقيقاً ذات يوم أيضاً، وهكذا نعم بحريته بفضل كرم خديجة<sup>(٢)</sup>.

وحيث هبط عليه الوحي ناء الرسول تحت عبء المسئولية الثقيلة، وتهيب النهوض بالمهمة التي كُلف أداءها. في تلك اللحظة بالذات طيبت نفسه المكروبة بهذه الكلمات المشجعة: «أبشر يا ابن عم واثبت، فالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لنصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». وهذا يظهر إلى أي مدى تأثرت خديجة تأثراً عميقاً بأخلاق الرسول وعطفه الإنساني. وهذا كان، في الحق، هو مبعث الحب العميق بين الزوج وزوجه. كان كل منهما مقعماً بحس العطف الإنساني. وليس في استطاعة امرئ أن يكون أكثر اطلاعاً على عادات رجل ما من زوجته، التي تكون في مركز يمكنها من النفاذ، في حرية، إلى أعماق أعماق قلبه. وإذن، فكون خديجة قد آمنت هذا الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع ينهض دليلاً لا يحتمل الجدل على كمال خلقه. وأشد النقاد عداوة لا يجروء، أمام هذا الدليل، على الارتياب في صدق الرسول وإخلاصه. ذلك بأن الدجال أعجز من أن يوفق إلى انتزاع كامل الولاء والاحترام القلبين من مخلوقة مطلعة على أسرارها هذا الاطلاع كله<sup>(٣)</sup>.

(١) الكامل لابن الأثير - ٤٠ / ٢ .

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٦٣ .

(٣) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٢٨ .

الحكمة من تعدد زوجاته: ولكن بعد وفاة خديجة وهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، بدأت مرحلة جديدة في حياة الدعوة، هذه المرحلة تطلبت أن يكون للرسول العديد من الزوجات، وبذلك يمكننا حصر الحكمة من تعدد رسول الله الزوجات - مع أنه عبء ثقيل على كل رجل لصعوبة التوفيق بينهن، وعلى رسول الله خاصة لما عرف عنه من الفقر وضيق ذات اليد - يمكننا حصر الحكمة من ذلك في ثلاثة أمور<sup>(١)</sup>:

الأول: طالما أن حياة رسول الله الخاصة والعامة كلها مثال يجب على كل مسلم أن يحتديه، فهي سنة لا يجوز التفريط بها عملاً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب] ولما كان أعلم الناس بحياة الرجل الخاصة هم زوجاته، تطلب هذا أن يكون لرسول الله من الزوجات ما يؤمن مصلحة نقل وتبليغ حياة رسول الله الخاصة للناس، والإشراف على تنظيم الدعوة بين صفوف النساء. الثاني: إن المستقرى لأوضاع زوجات رسول الله يجد أن كل واحدة منهن تفتقر عن باقي الزوجات فمنهن الصغيرة التي لا تزال تعكف على العابها، والعجوزة الكبيرة، ومنهن ابنة أعدى أعدائه، ومنهن ابنة أصدق أصدقائه، ومنهن من كانت هوايتها تربية الأيتام... إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومع ذلك فإن رسول الله قدم لأصحابه وللمسلمين تشريعاً رائعاً يعلمهم كيف يتم التعامل الناجح مع كل نموذج من النماذج البشرية. الثالث: إنه ما إن أعلن رسول الله إقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة حتى ناصبته قبائل العرب العداء، ولم يعد أمر هذا العداء قاصراً على قريش كما كان الحال في مكة، بل أصبح عاماً أو شبه عام بين قبائل العرب، فأرى رسول الله أن من الحكمة أن يعجمد بعض أطراف العداء، ولما كان العرب يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن حماية من يتزوج منهم، كما تفيد ذلك لغتهم إذ يسمون أنفسهم بالأحماء - من الحماية - فقد سعى رسول الله ﷺ للزواج من قبائل شتى لتجميد أو تخفيف عدائها.

فزواج رسول الله ﷺ كان لمصلحة عليا تقتضيها مسيرة الدعوة وتوطيد أركان الدولة. وهكذا برهن رسول الله ﷺ أنه السياسي المحنك كما هو النبي الموحى إليه. ولكن لما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل أسوأ استغلال نظراً لأن الأمور الجنسية تتبعها النفوس لاهثة، فقد جعل ذلك خاصاً برسول الله ﷺ، وحدد عدد الزوجات لغيره بأربع يجوز أن ينقصهن ولا يجوز أن يزدن على ذلك إذا اجتمعن. ويحلوا لبعض المتأمرين على الإسلام أو الجهلة المغفلين الطعن على الإسلام لإباحته تعدد الزوجات. ونحن إجلالاً للحقيقة نقول: إن الطعن على الإسلام لإباحته تعدد الزوجات هو جزء من مؤامرة طويلة عريضة التقت للتعاون على تنفيذها دولتان كبيرتان هما أمريكا وبريطانيا وأنشئت لذلك الجامعات، منها: الجامعة الأمريكية في بيروت وفي القاهرة، وأرسلت البعثات التعليمية التي لا تعد ولا تحصى تفتح المدارس في طول البلاد الإسلامية وعرضها، وتمر هذه المؤامرة بثلاثة مراحل<sup>(٢)</sup>:

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٨.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٩.



المرحلة الأولى: مرحلة التشكيك بصلاحيه مبادئ الإسلام وقيمه، ومن ذلك نظام تعدد الزوجات، والطلاق، وتحريم الربا . . . المرحلة الثانية: مرحلة التنبذ لهذه القيم والمبادئ بعد أن يرسخ الإيمان بعدم صلاحيتها. المرحلة الثالثة: مرحلة الطرح، حيث يطرح هؤلاء المتآمرون المبادئ والقيم البديلة عن قيم الإسلام ومبادئه.

سبب هذه المؤامرة أنه تأكد لدى هذه الدول أنه لا يمكنها السيطرة على بلاد المسلمين وخيراتها ما دام المسلمون متمسكون بدينهم الذي يغرس فيهم العزة ورفض كل ولاية غريبة عنهم. يقول عليه الصلاة والسلام: «لا ولاية لكافر على مسلم». وإحكام السيطرة على هذه البلاد لابد من ردم قيم الإسلام وغرس قيم تخدّم مصالحها مكانها. وتسهيلا للوصول إلى هذا الهدف لابد من تحقيق أمرين اثنين<sup>(١)</sup>:

الأول: نشر الرذيلة بين صفوف المسلمين وعلى رأسها الجري وراء النساء ومعاقرة الخمرة، وفي ذلك يقول قائلهم: «كأس وغانية يفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع». ويسهم في انتشار الرذيلة إلى حد كبير وجود كثير من النساء اللاتي لا يجدن من يحصنهن بالحلال، ولما كان عدد النساء في العالم يفوق عدد الرجال فإن إقصاء نظام تعدد الزوجات من الساحة سينتج عنه جيش من النساء اللاتي لا يجدن من يحصنهن وبذلك تنتشر الرذيلة وتحقق أهداف المتآمرين. الثاني: وضع حد لهذا الانفجار السكاني في العالم الإسلامي، إذ أن سكان العالم الإسلامي يزدادون بنسبة مقلقة، بينما يعاني الغرب عموماً من نقص السكان، وازدياد السكان يعني تفجير طاقات أكبر في المجتمع، وهذا أمر مخيف لهم، فإذا ما جمد عدد من النساء عن الإنتاج - أعني عن الإنجاب - لانهن لا رجال لهن، أمكن التخفيف من حدة هذا الانفجار، وإقصاء نظام تعدد الزوجات عن الساحة يحقق ذلك.

نجد أن رسول الله محمد ﷺ أوجب على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم دون ما أوجبه على نفسه فكان يشفق إن رأيته غير باسم في وجوههن ويزورهن جميعاً في الصباح والمساء وإذا خلا بهن كان ألين الناس ضحاًكاً بساماً ولم يجعل من هيبة النسوة سداً رادعاً بينه وبين نساته بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحيان، ومن تراجع أو تغاضبه سحابة نهارها ومن تبلغ في الاجتراء عليه. وقد كان يتولى خدمة البيت معهن أو كما قال: «خدمتك زوجتك صدقة»<sup>(٢)</sup>. تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بخصال وبمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن رسول الله محمد ﷺ مع زوجاته ونجد موقف الرسول من قصة «الإفك» مع عائشة وكيف أن النبي أراد لها البراءة أما الخلق عامة وأمام نفسه المحبة حلداً إن تكون تبرئته إياها عن محبة وضعف لا عن تبيين واستيثاق فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق إلى الثقة

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٣٠.

(٢) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٩٨.

كان قد وفى الكرم والحمية والإنصاف والرحمة أجمعين وما أحد أرحم ممن يرحم المفتقرين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سريره ولا يعذر الناس أحداً كما يعذرون نبيا مطاعا ينال في عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه<sup>(١)</sup>.

بروز رسول الله في بناء الكعبة: كانت الكعبة حجارة منضودة من غير ملاط بينها، وكانت العرب تهاب هدمها لإعادة بنائها، وبقيت كذلك إلى أن حدث سيل عظيم أتى فوق الردم الذي صنعوا، فخرّب به، وخافوا أن يدخلها الماء، فعزموا على هدمها، وبنائها من جديد. وحدث ذلك في تلك الآونة أن البحر قد رمى بسفينة لرجل من تجار الروم إلى جدة، فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبضي نجار، وبذلك تهيأت الأسباب لبنائها. فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنائها قام «أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم» فتناول من الكعبة حجرا زعموا أنه وثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، ولا يدخل فيها مهر بغني، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. ومهما يكن من أمر ذلك فإن في هذه القصة رواسب تصرخ بالإنسان: إن الفضيلة هي ملاذك فلذ بها قبل فوات الآوان، لما كان بناء الكعبة شرفا ما بعده شرف، فإن قريشا أحببت إلا يستأثر بهذا الشرف أحد دون أحد، ولذلك فإنها وزعت العمل في بناء الكعبة على الشكل التالي:

أن يكون بناء شق الباب لبني عبد مناف وبني زهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم، وشق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى، ولبني عدي بن كعب. ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدوكم في هدمها. فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: «اللهم لم نزع إلا الخير» ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعنا، فهدمنا. فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله، فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلي الأساس، أساس إبراهيم عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضا. ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، فاختموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، ولكنهم لم يلبثوا أن تصالحوا على تحكيم أول من يدخل من باب هذا المسجد، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوا قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: «هلم إلي ثوبا» فأتي به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم

(١) عباس محمود العقاد - نفس المرجع ص ١٠٢

قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً»، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه<sup>(١)</sup>.

قال الإمام علي<sup>(٢)</sup> في قصة بناء إبراهيم البيت: «فمر عليه الدهر فانهدم، فبنته العمالقة، فمر عليه الدهر فانهدم فبنته جرهم فانهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ شاب، فلما أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا: نحكم أول من يخرج من هذه السكة فكان النبي ﷺ أول من خرج منها فحكم بينهم أن يجعلوه في ثوب ثم يرفعه من كل قبيلة رجل»<sup>(٣)</sup>. فتوجهت الأنظار إلى رسول الله محمد ﷺ، ولهج الناس بذكره، واعتبروا ذلك دليلاً على سعة مداركه وسرعة تصرفه بحكمة في الأزمان، وهو ميدان أولي العقول الراجحة. فكان ذلك رصيماً له يفيد في المستقبل عندما يدعو الناس إلى الله ويتسلم عصا القيادة في دولة الإسلام. والجدير بالذكر أن قريشا قصرت همتها عن بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، فقصروها من جهة حجر إسماعيل، ولذلك فإن الطائف بالكعبة اليوم عليه أن يدخل حجر إسماعيل في طوافه لأنه من الكعبة. ولم يجد رسول الله ضرورة لهدم الكعبة من جديد - بعد أن تم له الأمر في مكة - لأن الكعبة لم تعد حسب التعاليم الإسلامية حجراً وطينا، بل أصبحت رمزا لوحدة المسلمين صقعا وهدفاً. كانت الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعته نظراً لقرب زمان مبث نبي، أما أخبار الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فسندها ما ورد في كتبهم المقدسة وشروحها من بيان اسم النبي المنتظر وصفته وزمان بعثته ومكان مبعته، وقد تم هذا البيان لأن الله تعالى أخذ العهد على الأنبياء وأتباعهم أنهم إذا ما بعث النبي المنتظر «محمد» ليؤمنن به ولينصرنه قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ... ﴿٨١﴾ [آل عمران]، ولذلك كان لأبد من هذا البيان حتى لا يقصر أتباع الأنبياء بواجبهم تجاه هذا النبي المنتظر. أما أخبار كهان العرب فسندها ما رده أحبار اليهود ورهبان النصارى، إضافة إلى ما حكوه من انقطاع الشياطين عن إمدادهم بالمعلومات بسبب رجمهم بالنجوم كلما حاولوا استراق السمع. ولقد قوى ذلك ودعمه ما جرى لرسول الله من الحوادث التي أتينا على ذكر طائفة منها، والتي كانت بشارات بنبوته عليه الصلاة والسلام<sup>(٤)</sup>.

إن لشهادة خديجة على سمو خلق الرسول أعظم الوزن من غير ريب. ولكن الآخرين الذين اتصلوا به لم يكونوا أقل تعلقاً به. فلم يكذ والد زيد، رقيق الرسول المعتق، يسمع بفوز ابنه بحريته،

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق - ص ٣٠.

(٢) حديث الإمام علي أخرجه الحاكم مطولاً وصححه ووافقه الذهبي، المستدرک مع التلخيص - ١ / ٤٥٩ - ٤٥٨، البيهقي دلائل النبوة ٢ / ٥٥ - ٥٦.

(٣) فتح الباري: ٧ / ١٤٦.

(٤) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق - ص ٣٠.

حتى وفد على مكة ليعود به . ولم يكن في ميسور الرسول، وهو الرقيق القلب، أن يحول دون اجتماع شمل الوالد وولده . كان بالغ السعادة بأن يرى الابن يعاد إلى كنف أبيه المحب . ومع ذلك، فإنه لم يستطع أن يفصل عن زيد برغم هذا الأخير . وهكذا ترك لزيد، حين سأله والده أن يقول له كلمة الوداع، حرية اتخاذ القرار الذي يشاء . وهل يطمع والد في أكثر من ذلك؟ والواقع أنه لم يخطر بباله قط أن يغلب حب ابنه للرسول حبه السنوي له . كان زيد قد أمسى - على الرغم من تحرره من عبوديته المادية تحرراً كاملاً - مفتونا بشخصية الرسول الفاتنة . ومن هنا أثر - ويا لحجية أمل الوالد! - أن يبقى في كنف الرسول . وكذلك فإن تعلق أبي بكر بالرسول على نحو راسخ حقيقة يعرفها الخاص والعام . ولم يكن أبو طالب أقل إعجاباً بنبل خلق الرسول . فعلى الرغم من تمسكه بدين آبائه وأجداده، فقد نصر الرسول في السراء والضراء، ودافع عنه، معرضاً شخصه لخطر عظيم، حين استبد الغيظ ببيوتات قريش مجتمعة . إلى ذلك الحد كان الانطباع الذي تركه سحر أخلاق محمد في نفسه عميقاً . لقد اعتبر أن من الخسة التي ما بعدها خسة أن يتخلى عن رجل يتمتع بمثل هذا الخلق السامي . فهو يؤثر أن يتعرض من أجله لمختلف ضروب المخاطر، مواجهها أحوالاً قاسية . وحين سأله قريش أن يتخلى عن محمد عنفهم وردهم رداً جميلاً<sup>(١)</sup> .

نقل عن ابن بطال قوله : كانت السفارة لقريش قدموها للنبي ﷺ فأبى أن يأكل منها فقدمها النبي ﷺ لزيد بن عمرو فأبى أن يأكل منها وقال مخاطباً لقريش الذين قدموها أولاً : (إنا لا نأكل ما ذبح على أنصابكم)<sup>(٢)</sup> ونقل عن الخطابي قوله : كان النبي ﷺ لا يأكل مما يدبحون عليها للأصنام ويأكل ما عدا ذلك<sup>(٣)</sup> . انتزع محمد إعجاب كل من قدر له أن يتصل به . وأهم من ذلك وأحفل بالمغزى أن جميع الذين اتصلوا به كانوا رجالاً ذوي صفات خلقية ممتازة إلى أبعد الحدود . وإلى جانبه أصحابه المخلصين، المشهورين في تاريخ الإسلام بسمو أخلاقهم، كان ثمة بين أصدقائه الأولين آخرون لا يقلون عن هؤلاء نبيل نفس وخلق، من مثل حكيم بن حزام، وهو زعيم قرشي محترم لم ينضو تحت لواء الإسلام إلا بعد سقوط مكة، وزيد بن ثعلبة . وكانا صديقين حميمين، ورجلين ذوي خلق متين . وهذا يحمل على الاعتقاد - كشأن اللمسة الذهبية في القصة المعروفة - أن كل من قدر له أن يحتك بشخصية الرسول المغناطيسية، حتى في هذه المرحلة المبكرة من حياته، كان يكهرب بسمو أخلاقه ونبلها .

ومن أنفس الجواهر في شخصية الرسول عطفه العظيم على الفقراء، والمساكين، والأيتام، والأرامل . فكان يبذل قصاره لتزويدهم بما يحتاجون إليه . وقد أقر له بهذه الفضيلة أعداؤه وأصدقاؤه

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) نقله العيني في عمدة القارئ: ١٣ / ٣٦٥ .

(٣) الخطابي - أعلام الحديث ٣ / ١٦٥٧ - ١٦٥٩ .

على السواء وأعجبوا به من أجلها. وكلمات خديجة التي سرت بها عن نفسه تقوم دليلا على هذا الجانب من شخصيته. وقد أشار أبو طالب إلى ذلك في شرحه السبب الذي يوجب عليه أن ينصره على أعدائه. واشترآكه في «حلف الفضول» - وهو حلف وضع ابتغاء الدفاع عن المظلوم ليس غير - يفيد المعنى نفسه. وتعاليم القرآن الكريم تجعل العناية بأمر اليتيم والمسكين جوهر الدين نفسه. وأسمى قسم الشرف الإنساني، كما يقول القرآن الكريم، هي رعاية اليتيم والمعوز. وهو يتوعد كل من لا يحترم اليتيم بالإذلال. وينص على أن السقوط القومي لا بد أن يكون هو النتيجة الطبيعية التي ينتهي إليها كل مجتمع يهمل اليتيم ولا يعطف على الفقير. وبكلمة مختصرة، فإن القرآن ملئٌ بأمثال هذه التعاليم التي تؤكد ضرورة الاهتمام بأمر اليتيم والفقير. نستفيد نحن من سيرة الرسول في سني حياته الأولى أنه كان، منذ طفولته نفسها، يتمتع بأسمى مراتب الحياء والعفة. إنه لم يكن نزاعا إلى الأخذ بأسباب الطيش الصبياني الذي يغلب على الفتيان في مثل سنه. وإنما يشهد أبو طالب على هذا المعنى نفسه في حديث له عنه وجهه إلى العباس، قال: «أنا لم أره يكذب، أو يعمد إلى المزاح، أو يصطنع لغة السوق، أو يخالط صبيان الشوارع». وكانت الحرب هي الوسيلة المفضلة للهو وإضاعة الوقت في بلاد العرب، على أيامه، ولكن الرسول استشعر، بفطرته ذاتها، عزوفا عن ذلك ونفرة. وفي حرب الفجار لم يذهب إلى أبعد من دفع السهام وغيرها من أدوات القتال إلى أعمامه. وكانت الخرافات على اختلافها، الخرافات الشائعة في البلاد، بغضه إلى نفسه. لقد مقت عبادة الأوثان منذ صباه الأول. وفي إحدى المناسبات تشعب الحديث حتى انتهى إلى الصنمين العربيين الرئيسيين، اللات والعزى، فأعلن أنه لا يبغض أيما شيء كبغضه الوثنية. ولقد أبى أن يشارك في أداء شعائر عصره الإشراكية. ورفض أن يطعم من ذبيحة قصد بها أن تكون قربانا لأحد الأوثان. وتفطر قلبه حزنا لما تردت فيه الإنسانية من انحطاط. واضطربت في صدره رغبة موقدة في النهوض بإخوانه من بني البشر من هوة السقوط، ودفعهم في طريق الصلاح. وكان كثيرا ما يعتزل الناس متحشًا في غار حراء. ويسأل الله - بعينين تسفحان الدموع - إحياء الجنس البشري وإقالته من عثاره<sup>(١)</sup>.

وكان رسول الله محمد ﷺ قبل البعثة محظوظا في التجارة وقد بين ابن حجر أن رسول الله محمد ﷺ كان مع إفادته للمال وجود به في الوجوه التي ذكرت في المكرمات<sup>(٢)</sup>.

تكفل الله تعالى بنشر اسم محمد ﷺ وإلقاء الأضواء عليه منذ سن الطفولة كشخصية مؤهلة للقيادة، ففي مكة: ألقى الله تعالى عليه من الأضواء ما جعل الأنظار كلها تتوجه إليه وكان من هذه الأضواء: سهولة حمله وسهولة ولادته، وكونه ابن الذبيح عبد الله الذي فدته قريش بمائة من إبلها، ويتمه، وتصرفه الرشيد في تفادي الصدام بين قبائل العرب حينما اختلفوا في أي القبائل سيضع

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٦٦ .

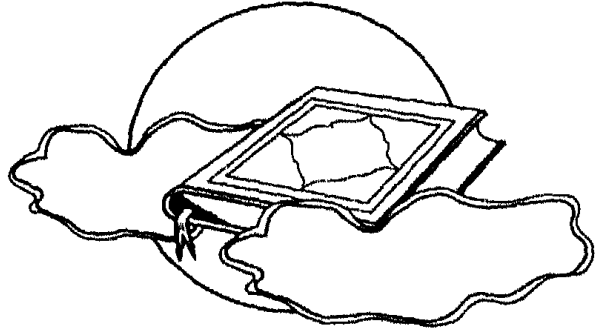
(٢) نتج الباري - ١ / ٢٥ - وهذا هو الذي ذكره النووي في شرح صحيح مسلم ٢ / ٢٠١ .

الحجر الأسود مكانه في جدار الكعبة. وغيرها. وفي البادية: حينما صار حديث ظهور البركة والرخاء في بيت حليلة السعدية على كل لسان، وما كان من حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام. وفي بلاد الشام: عندما صرح الراهب بحيرا والراهب نستورا بما صرحا به. وفي العرب قاطبة: بتسميته بهذا الاسم النادر «محمد» ويجلوسه على فراش جده عبد المطلب - سيد قريش - في ظل الكعبة بحضرة رجالات العرب وزعمائها، وبما توسم به ناظروه من الخير، كعائف بني لهب وغيره<sup>(١)</sup>.

---

(١) د. محمد دواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٣٣ .

الفصل  
الثالث



الدعوة الإسلامية  
لرسول الله محمد ﷺ  
وعداء كفار قريش





## البعثة النبوية الشريفة لرسول الله محمد ﷺ

كان لا بد من إعداد رسول الله محمد ﷺ إعداداً خاصاً - فضلاً عما فطره الله عليه في أمور منها.

رعيه الغنم: لقد عمل رسول الله ﷺ - عندما اشتد عوده - برعى الغنم، فكان يخرج بأغنামه إلى المرعى ويعيش في أحضان الطبيعة الجميلة الهادئة الموحية، فلا يقع بصره إلا على بديع خلق الله الذي لا أثر ليد الإنسان فيه، فيتأمل ويفكر فيكون مردود تأمله وتفكيره صفاء في النفس، وشفافية بالروح، وسعة صادقة من الإيمان يعيش طيلة يومه مع أغنামه، فيرد الشارد منها إلى الجماعة، وليسملها برفق الطاعة، ويحرسها من اللذّب الطاغى الظالم يرتحل بها عن مواقع الجذب، ويوردها موارد الخير والرخاء تماماً كما يفعل القائد البار بشعبه.

توسيع آفاقه بالسفر: لقد سافر رسول الله محمد ﷺ إلى بلاد الشام مع أبي طالب، ثم سافر بتجارة خديجة إلى بلاد الشام أيضاً، وأقام في كل مرة مدة في تلك البلاد، اطلع فيها على أحوال العباد والبلاد، ورأى نماذج من الناس يختلفون عن الناس الذين يراهم في الحجاز. وكان هذا التعرف أمراً لا بد منه، لأن محمداً لن يكون قائداً لأهل الحجاز وحدهم، بل سيكون قائداً لجميع الأمم، فكان لا بد من أن يتعرف على نماذج منهم<sup>(١)</sup>.

الرؤيا الصادقة: وعندما قرب عهد تسلم محمد القيادة - البعثة - بديء بمحمد بالرؤيا الصادقة، فكان لا يرى في نومه رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا الصادقة تزيد ثقة بنفسه، خاصة في الوقت الذي كانت الرؤى فيه تلعب دوراً خطيراً في حياة الناس وتصرفاتهم، فنحن لا نزال نذكر أن جد رسول الله لما رأى في منامه أن يحضر رمزم أقبل على تنفيذ ما رآه في منامه دون تردد. قالت عائشة إن النبي ﷺ «كان أول شأنه يرى في المنام»<sup>(٢)</sup>.

تسليم الشجر والحجر عليه: يذكر لنا ابن إسحاق أنه لما قرب عهد البعثة النبوية كان رسول الله إذا خرج إلى الفضاء أو إلى شعاب مكة ويطون أوديتها لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فليتلقت الرسول حوله وعن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى أحداً، وروى الإمام مسلم في صحيحه والترمذي في سنته عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن بمكة حجراً كان يسلم على ليالي بعثت، إنى لأعرفه الآن».

الخلوة بنفسه: كانت عبادة الحنفيين من العرب خلوة بالنفس وتأملاً بآلاء الله، ولما قرب عهد تسلم رسول الله القيادة، حُبب لرسول الله الخلوة بنفسه، فكان يخرج إلى غار حراء - ذلك المكان

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥ .

(٢) حديث مرور عن عائشة من طريق عبد الله بن لهيعة أخرجه بتامه البيهقي في الدلائل: ٢ / ٣٦٨ .

المرتفع المشرف المنقطع عن الناس، حيث الهدوء المساعد على التأمل، والإشراف على الجبال والوديان، فيخلو فيه في كل سنة من كل غل وحقد وخصينة، ويسمو بروحه بعيدا عن الأصنام وجوها الخائق، وبعيدا عن صحب المدينة بكل مافيهما من تسلط الأقوياء على الضعفاء، واحتيال الأذكياء على الأغبياء، ونصب الشركاء ليسقط فيها كل سليم القلب، فإذا ما انتهت خلوته نزل من غار حراء إلى الكعبة المشرفة، فطاف فيها ما شاء الله له أن يطوف، ثم ينصرف إلى بيته<sup>(١)</sup>.

إن هذه الخطوة كان لابد منها لرسول الله الذي سيتسلم القيادة عما قليل، حيث تصبح القوة والسلطان بيده، قوله هو الفصل، وكلمته هي النافذة، ورجل هذا شأنه، كان تطهير قلبه من كل غل وحقد وخصينة أمراً لا بد منه، ليكون أبعد ما يكون عن الحقد، وليعامله بالرحمة أكثر من معاملته بالسلطان، ليقبل من المحسن منهم إحسانه، وليتجاوز عن المسيئ، ولذلك أرشد الله رسوله إلى ممارسة هذه الرياضة الروحية قبل توليه القيادة، ليكون بالناس رؤوفاً رحيمًا من اليوم الأول الذي يستلم فيه القيادة فهل يدرب حكام اليوم في الكليات الملكية بمثل هذه الرياضة، أم يعلمون كيف تلبس مسوح الحملان لقلوب الذئاب؟؟ وما إن تم إعداد رسول الله محمد ﷺ لتسلم القيادة حتى سلمت إليه هذه القيادة، وكان المعد له، والمسلم إليه القيادة هو رب العزة جل جلاله، وهو سبحانه أعلم بالناس وبقدراتهم التي أوجدها فيهم ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾ [الأنعام]. ويتفق جميع الرواة أن رسول الله محمد ﷺ كان قبل أن يوحى إليه يتحنث في غار حراء فيبقى فيه فترة طويلة للعبادة والتأمل وفي القول «فيتحنث» إشارة إلى أنها بمعنى يتحنف أى تبع «الحنفية» وهي دين إبراهيم<sup>(٢)</sup> وأن الفاء تبديل ثاء في كثير من كلامهم<sup>(٣)</sup> وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة (يتحنف) بالفاء<sup>(٤)</sup>. ولم يكن تسليم رسول الله محمد القيادة في حفل من الناس، بل كان في رأس جبل منعزل، لأن هذه القيادة لا يراد بها الجاه في الأرض بقدر ما يراد بها الرضوان من الله، ولا ينبغي بها السيادة على الناس بقدر ما ينبغي بها العبودية لله تعالى، لا يلحظ فيها جانب الإشهار بقدر ما يلحظ فيها جانب الإخلاص. ويمكننا أن نجمل الروايات التي وردت في كيفية تسليم رسول الله محمد ﷺ القيادة بما يلي:

وقبيل بلوغ رسول الله محمد، صلوات الله عليه، سن الأربعين تزايد انقطاعه للتحنث والتأمل، فكان يخلو إلى نفسه في غار حراء ويفرغ للتفكير الروحي أياماً متوالية. وفي غضون ذلك رأى في نومه رؤى عديدة صدقت كلها بالحرف الواحد. وفيما هو مستغرق على هذا النحو في عبادة

(١) د محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٣٥.

(٢) هذا القول نقله ابن كثير عن ابن الأعرابي - البداية والنهاية ٣ / ٦، ونقله العيني عن ابن عمر التيمي عن ابن عمرو الشيباني - عمدة القارئ: ١ / ٥٥.

(٣) نقله ابن كثير عن ابن هشام - البداية والنهاية: ٣ / ٦.

(٤) ابن هشام - السيرة النبوية: ١ / ٨٢٣٥.

الله فى حراء جاءه الملك جبريل ذات ليلة من لىالى رمضان وكان فى السنة التاسعة بعد الستمانه للميلاد بينما كان رسول الله ﷺ بين النائم واليقظان فى غار حراء إذ حضر عليه رجل معه كتاب ملفوف بقطعة من الديباج ففتحه وقال له: اقرأ فقال رسول الله: ما اقرأ، فضمه إليه ضمة شديدة ثم تركه وقال له: اقرأ، فقال الرسول ﷺ: ما اقرأ، فضمه إليه ضمة شديدة ثم تركه فقال له: اقرأ، فقال له رسول الله ﷺ: ماذا اقرأ؟ فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ اقرأ وربك الأكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥) ﴿ [العلق]، نلاحظ أن فى هذه الآيات - وهى أول آيات نزلت - تنويها بالعلم وهنا لايد لنا من أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال: لماذا كان الإعداد النفسى والروحى لرسول الله ﷺ سابقا لإعلان الشعار الاول للعلم «اقرأ...»؟ اليس فى ذلك إشعار بأن التربية يجب أن تسبق العلم؟ وأن العلم ما لم تسر معه الأخلاق جنبا إلى جنب من أول خطوة انقلب أداة تدمير وبلاء مستطير على الإنسانية كلها؟، وما نحن نشاهد آثار ذلك فى عصرنا عندما خطت العلوم خطوة أوسع من خطوة الأخلاق ففارقتها، فحمل العلم طائراته بالقنابل المدمرة لتلقى على شعب آمن لا أثر للعدوان فى قلبه، لا شئ إلا أن فى أرضه خيرات. ولذلك اقتضت حكمة الله أن تصفى نفس رسول الله برياضة روحية موجهة قبل أن تنزل عليه ﴿اقرأ﴾ وليكون هو ولتكون أمته من بعده العالم البنى الحانى، لا العالم المدمر. كان ذلك صوتا يصرخ فى المسؤولين عن وزارات التعليم: ليكن اهتمامكم بالأخلاق أكبر من اهتمامكم بالعلم، لأنه لا تحمل رسالته الإنسانية إلا بالأخلاق.

فقرأها رسول الله؛ وانصرف عنه جبريل، وهب رسول الله ﷺ وكأنا نقضت فى قلبه. وخرج رسول الله إلى خارج الغار فسمع صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفع بصره إلى السماء فإذا جبريل فى صورة رجل.

تقول رواية ابن سعد أن رسول الله محمد ﷺ قال لخديجة: «يا خديجة إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، لسقت خشيت أن أكون كاهناً، فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم»<sup>(١)</sup> ورواية الطبري تقول بأن رسول الله محمد ﷺ قال: «جاورت فى حراء، فلما قضيت جواري فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني وعن شمالي، وخلفي وقدامي، فلم أر شيئاً، فنظرت فوق رأسي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فخشيت منه، فلقيت خديجة، فقلت: دثروني، فدثروني، وصبوا عليّ ماءً، وأنزل عليّ، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)﴾ [المدثر]»<sup>(٢)</sup>.

أكد للرسول أنه برغم عجزه عن القراءة فلإن محاولته ذلك خليق بها - إذا ما تمت باسم الله -

(١) رواية ابن سعد عن هشام بن عروة عن عروة - ابن سعد - ج١ ص ١٩٥.

(٢) رواية الطبري عن يحيى بن أبي كثير عن جابر بن عبد الله - الطبري ج٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

أن تقتسرن بالنجاح. وقد انطوى هذا على درس عام يتلخص فى أن ما من شيء يظنه أعسر من أن يقوم به نفسه لا بد أن يمتسى هينا يسيرا بعون من الله. هذا أولا. واشتملت الآيات. ثانيا، على إلماع إلى الثقافة العريضة التي قدر لها أن ترى النور بفضل النبى. وكان هذا هو اليوم الذى ألقى فيه، تبعات النبوة الثقيلة. وهكذا انكشف له، آخر الأمر، السبيل القويم الذى طالما بحث هو عنه فى كثير من الحيرة والارتباك. وأومض له النور الذى طالما سعى إليه فى توق عظيم. بيد أنه أعلم فى الوقت نفسه أن مهمة الإصلاح الانسانى الضخمة سوف تقع على عاتقه. ولقد كان خليقا به، وهو الذى يشارك كل الناس ضعف الانسان الفطرى، أن يستشعر ثقل المسؤولية حتى ولو كانت عادية. إن إصلاح الجنس البشرى مهمة تثير فى نفس المرء أعظم القلق وأبهظه. فقد كلف موسى إصلاح أمة مفردة، ومع ذلك فقد وجد نفسه أعجز من أن يقوم بذلك من غير مساعدة، وهكذا صرخ طالبا العون الإلهى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) ﴿هَرُونَ أَخِي﴾ (٣٠) ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ (٣١) ﴿وَأَشْرِكْهُ لِي أَمْرِي﴾ (٣٢) [طه] أما الرسول الكريم، محمد ﷺ، فقد كلف بإحياء الجنس البشرى كله، الغارق فى الدرك الاسفل من الانحطاط. ومع ذلك فإن قلبه الجرىء لم يتكشف لحظة واحدة عن أضال قدر من الجزع، برغم ثقل المسؤولية القاصم للظهور أو يكاد. لقد نهض بالعبء كله، منفردا، غير معتمد إلا على عون الله وحده. إنه لم يسأله أى مساعد. ولكن الوحي الإلهى ظاهرة استثنائية، وهو مرصد فى وجه الخبرة الانسانية العادية. إنه يقتضى انفصال الفرد، بالكلية، عن بيته. وفى أثناء هذه الخبرة يكون الهيكل الجسمانى كله المثلقى الوحي خاضعا للسلطان الإلهى. وحتى عندما ألف الرسول هذه الخبرة كان جسده يتفصد عرقا، وكان يمسى بالغ الثقل<sup>(١)</sup>.

ويروى أحد أصحابه أن فخذ الرسول اتفق أن كانت - فى إحدى هذه المناسبات - على ركبته، فاذا بها تسمى ثقيلة جدا حتى لقد خشى على ركبته أن تسحق سحقا. والحق أن أول خبرة من خبرات الوحي كانت أشد ثقلا على جسده من سائرهما، فأوقعت فيه الرعدة. وهكذا مضى إلى بيته وهو يرتجف؛ لقد دب إلى يديه وقدميه، فسأل خديجة أن تزمه. وبعد فترة قصيرة، حين زايله ما لا بد أن يصاحب الرعدة من شعور بالخوف، قص على خديجة الحكاية كلها. حتى إذا سمعت بالخبرة الجديدة التي تمت له، شجعتة وثبتته بكلمات موحية قائلة له ان الله لن يتخلى عنه، وانه لا بد سيوفق إلى أداء رسالته. ثم راحت تعدد بعض فضائله العديدة، وصلته للرحم، وإغاثته الفقير، والمسكين، واليتيم، والأرملة، وإكرامه للضيف، ودفاعه عن الحق فى أشد الظروف قسوة، وأكدت له أن من يتمتع بهذه الفضائل كلها لا يمكن أن يخاف أبدا<sup>(٢)</sup> حيث قالت خديجة: «أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل - بفتح الكاف - وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٦٩ .

وكان ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة. كان قد ستم الوثنية، وأنشأ يبحث عن دين صحيح، حتى اعتنق آخر الأمر الديانة النصرانية. وكانت خديجة تدرك إدراكا حسنا ما يعتلج في صدر نسيبها من ألم مبرح لعدم اهتدائه إلى دين يوقع اليقين في قلبه التائق إلى الحق. ولعلها ان تكون قد سمعته يتحدث عن ظهور النبي الموعود، «المعزى» الذى كان يسوع قد تنبأ بمجيئه. فما إن وجدت محمدا يعى إلى أداء هذه الرسالة حتى مضت معه إلى ابن عمها، شعورا منها مع هذا الأخير الذى كان قد فقد بصره وأمسى عاجزا عن الحركة بعد ان بلغ سنا عالية. ولم يكد ورقة يسمع ما نزل على محمد من الوحي وكيف نزل حتى هتف: «قدوس، قدوس! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت<sup>(١)</sup>» مشيرا بذلك كما هو واضح إلى النبوة التى أطلقها موسى، فكان ورقة يقول تارة ناموس موسى، فعند إخبار خديجة له بالقصة قال لها ناموس موسى ليس بحسب ما هو فيه من النصرانية وعند إخبار رسول الله ﷺ له قال له: ناموس موسى للمناسبة التى سبق ذكرها، وكل صحيح<sup>(٢)</sup>. ثم أضاف: «ولتكذبين، ولتؤذين، ولتخرجن، ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرون الله نصرًا يعلمه» فسأله النبي، فى دهش، أتكون هذه هى المعاملة التى سيلقاها كل نبي من أهله وعشيرته. فأجابته ورقة قائلًا: «نعم، هذه هى المعاملة التى يلقاها كل نبي» وما هى إلا فترة يسيرة، حتى توفى ورقة. وبسبب من هذا التوكيد الذى صدر عنه لصدق رسالة محمد اعتبره المسلمون واحدا من صحابة الرسول. وبعد هذا الوحي الأول الذى نزل عليه فى غار حراء انقطع جبريل عن زيارة محمد فترة من الزمان. وهذه هى المدة المعروفة بـ«فترة انقطاع الوحي». ولقد روى ابن عباس من أنها لم تدم غير برهة قصيرة، فهذا أجدر بالاعتماد، وهو معزز بالبيئة التاريخية<sup>(٣)</sup>.

انقطع الوحي عن رسول الله ﷺ حتى شق ذلك على رسول الله وأحزنه. وفيما هو يسير فى الطريق رفع بصره إلى السماء وإذا جبريل على خلقتة التى خلقه الله عليها على كرسى بين السماء والأرض، فخاف رسول الله وهرع إلى أهله، قائلًا: رملونى. دثرونى، وما هى إلا برهة حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر]. ثم أنزل تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء]، فكانت هذه الآيات أمرا لرسول الله ﷺ بتجميع القوى وإعداد القواعد الشعبية المؤمنة لإقامة دولة الإسلام.

وقد أبطأ جبريل فى النزول أربعين يوما فقال له رسول الله محمد ﷺ: يا جبريل ما نزلت

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٧٢ .

(٢) ابن هشام - القسم الاول ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) فتح البارى - ١ / ٢٦ .

حتى اشتقت إليك، قال: أنا كنت أشوق إليك، ولكني مأمور، وأوحى الله ﷺ إلى جبريل: قل له (١): ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ... ﴾ [٦٤] [مريم].

والواقع ان انقطاع الوحي كان لحكمة الهية. فقد كان الإرهاق الذي لازمه قد أثر في صحة الرسول تأثيرا سيئا. وكان من الجائز أن لا يقوى جسمه على احتمال تكرار له سريع. وهكذا كانت الفترة أمرا ضروريا حفاظا على عافيته الجسمانية. وحتى بعد انصرام مدة من الزمن لا يمكن ان تتجاوز بأية حال ستة أشهر، ظل الوحي مصحوبا بالشعور نفسه، وإن تكن وطأته قد خفت بعض الشيء. ومرة أخرى: سألت خديجة، من غير أن يستبد به الروح بقدر ما استبد به من قبل، أن تدره. وكانت هذه أول مرة كلف فيها أن يؤدي رسالته تكليفا جديا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ [المدثر] وهذا ما قاد إلى مرحلة أخرى في حياة الرسول، مرحلة إعلان كلمة الله، وإبلاغ رسالته إبلاغا للناس أجمعين. تلك سنة الله تعالى في أنبيائه والدعاة إليه، يسلط عليهم الأذى حتى لا يقتحم ميدان الدعوة دعى ولا كاذب، ولا يحمل لواءها إلا مخلص، ولو ترك الناس لدعاواهم لادعى النبوة، وحمل رسالة الأنبياء أناس ليسوا بمؤمنين، ولكنهم إن عرفوا أن طريق الدعوة محفوف بالمكاره لابتعدوا عنه، ولم يركبه إلا مخلص صادق.

الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ: ما إن نزل قول الله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء] حتى انطلق رسول الله ﷺ إلى أقرب الناس إليه والصدقهم به يدعوهم إلى الله بسرية تامة يكون القاعدة الشعبية المؤمنة للدولة الإسلامية المرتقبة، ويرسى في صدور هذه القاعدة الإيمان بالمبادئ والأهداف التي ستقوم من أجلها هذه الدولة. وتعتبر هذه السرية في التحرك بين الأفراد الذي فرضته هذه الآية فريضة أخرى لثلا يقهر الداعي والمدعوون قبل إدخالهم مبادئ الدعوة إلى الصدور، ولتعلن الدعوة يوم تعلن ومعها عشرات الأصوات مؤيدة لها ومنافحة عنها، فهي تعلن وقد سارت في مدارج القوة ومستقبلها - وقد سارت في مدارج القوة - خير ألف مرة من أن تعلن وهي في مهد الضعف. جعل رسول الله ﷺ يصطفى من يدعوهم إلى الإيمان، فما كانت الدعوة ومبادئها تمس أسماع هؤلاء الذين اصطفاهم رسول الله ﷺ حتى يقبلوا عليها، ويأخذوا بها، وتصبح لهم أما وأبا. أعلم الناس بالرجل أهل بيته، وهو إن استطاع أن يخفى عنهم الكثير فلن يستطيع أن يخفى عنهم سلوكه الشخصي والديني خاصة إذا كان حامل دعوة. وأكثر الناس عونا للرجل وتبشيتا هم أهله، فإذا ما كانوا معه سار بثبات واطمئنان. ولذلك كان أول من اختاره رسول الله ﷺ - بأمر من الله - للدعوة هم أهل بيته (٢).

(١) نقل ما رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق عكرمة نقلها عنه ابن كثير في التفسير: ٣ / ١٣٠ - كما نقل السيوطي رواية عكرمة وأنه قد أخرجها عبد بن حميد وابن أبي حاتم الدر المنثور: ٥ / ٥٣٠.  
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٤٠.

فدعا رسول الله ﷺ زوجته خديجة فكانت أول من آمن به وآزره، وهونت عليه أمر الناس، وأعظمت له عمله في اقتلاع الأشواك من المجتمع الذي يemor بالفساد ليزرع مكانها الورود والرياحين، فما أصابه أمر من أمر الدعوة فدخل إليها إلا خرج من عندها مطمئنا، وهو أمضى عزيزة وأقوى شكيمة، وبذلك كان أول من أقر بصدق رسالة النبي زوجته خديجة. وإنها لم تشك أقل شك، ولو لحظة واحدة، في صدق نبوته. بل لقد أثبتت أنها كانت، في لحظات الكآبة والغم، مصدر عزاء له لا يخطئ البتة. قبل ذلك بخمسة عشر عاما، حين لم تكن صلتها به هي صلة الزوجة ببعلمها، رأت فيه - بعين المرء المجرد عن الغاية - صفات نبيلة تركت في نفسها انطباعة عميقة. ولكن هذه الانطباعة الأولى اردادت عمقا بتوثق معرفتها به، عن طريق حميمية العلاقة التي نشأت بعد بينهما بوصفهما زوجة وبعلا. حين تلقى الرسول الوحى الإلهى أول مرة، ولم يدر كيف يؤدي رسالة الإصلاح الثقيلة، ثبتته هذ السيدة الفاضلة بشهادة فؤادها الخالصة.

وكان على بن أبى طالب يعيش مع رسول الله في بيته، وذلك أن قريشا كان قد أصابتهم شدة، وكان أبو طالب - والد الإمام علي بن أبى طالب عليه السلام وعم رسول الله ﷺ - كثير العيال، فقال رسول الله لعمه العباس - وكان رجلا ميسور الحال - يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من الشدة فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله، فأخذ أنا وتأخذ أنت رجلا فنكفهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا إليه، فأخذ عليا فضمه إليه وأخذ العباس جمعنا فضمه إليه، وهكذا عاش الإمام علي عليه السلام في بيت رسول الله، ولما بعث رسول الله بالرسالة وأمره الله أن يندز عشيرته الأقربين، عرض رسول الله الإسلام على الإمام علي بن أبى طالب عليه السلام فأمن به وصدقته. وكان زيد بن حارثة يعيش مع رسول الله في بيته، وذلك أن حكيم بن حزام قدم من الشام برقيق، فيهم زيد بن حارثة، فدخلت عليه عمته خديجة زوجة رسول الله ﷺ فقال لها: انتارى - يا عمه - أى هؤلاء الغلمان شئت، فهو لك، فاخترت زيدا، فأخذته فرآه رسول الله عندها، فاستوهبه إياه، فأعتقه وتبناه، فلما بعث رسول الله بالرسالة دعاه إلى الإسلام، فأمن به زيد وصدقته. وكانت الصلاة أول فريضة عملية فرضت على رسول الله ﷺ، فكان رسول الله يخرج ويخرج معه الإمام علي بن أبى طالب عليه السلام فيصليان: خفية، فأبصر أبو طالب بهما - يوما - وهما يصليان، فقال لرسول الله: ما هذا الدين الذى تدين به يا ابن أخى؟ فقال رسول الله: أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثنى به الله رسولا إلى العباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجباني إليه وأعانني عليه، فقال أبو طالب: أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت<sup>(١)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٤١ .

يقول الطبري أن خديجة أول من أسلمت من المسلمين عامة ومن النساء خاصة وأن الإمام علي أول من أسلم من الذكور وكان عمره بين التسع والعشر سنين وبالتالي كان أول المسلمين باعتباره من أسرة الرسول ثم أسلم فيما بعد كل من أبو بكر وزيد بن حارثة<sup>(١)</sup>. نجد في مناقب الإمام علي بن أبي طالب أنه ابن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو الحسن وهو ابن عم رسول الله محمد ﷺ شقيق أبيه عبد مناف على الصحيح ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وكان قد رباه رسول الله محمد ﷺ من صغره لقصة مذكورة في السيرة النبوية<sup>(٢)</sup>، فلازمه من صغره فلم يفارقه إلى أن مات، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وكانت ابنة عمه أبيه وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي وقد أسلمت وصحبت وماتت في حياة رسول الله محمد ﷺ<sup>(٣)</sup>، ويقول ابن حجر: «أسلم علي وهو ابن ثمان سنين»<sup>(٤)</sup>. أما ابن إسحاق فيقول فيقول عشر سنين<sup>(٥)</sup>.

كان أبو بكر الصديق من أخلص أصدقاء رسول الله ﷺ، وكان رجلاً وجيهاً مؤلفاً لقومه، محبياً، سهلاً، كريم الخلق والمعشر، وكان أعلم قريش بتاريخ قريش وأحوالها، وكان تاجراً، وكان قومه يأتونه ويجلسون إليه لعلمه وتجارته وحسن مجلسه. فدعاه رسول الله إلى الإسلام فأمن به وصدقه.

وفي عهد جد مبكر، دخل في الإسلام من طريق حماسته رجال ذوو مكانة عليية من مثل عثمان بن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، قدر لهم بعد أن يلعبوا دوراً بارزاً لا في تاريخ الإسلام فحسب بل في التاريخ العالمي أيضاً. وانضم إلى جماعة المؤمنين في الفترة المبكرة أيضاً نفر ينتسبون إلى طبقة اجتماعية أدنى، ومن هؤلاء بلال الحبشي، ويسار غلام خديجة وزوجته سمية وابنه عمار. وكان عبد الله بن مسعود وخباب من السابقين إلى الإسلام، وكذلك كان الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي الذي جعلت داره مركز نشاط الرسول، حوالي السنة الرابعة بعد البعثة. وخلال السنوات الثلاث الأولى بلغ عدد الذين دخلوا في الدين أربعين رجلاً وامرأة. والحق أن هذا النمو المسطر الذي عرفه الإسلام هو الذي روع المكين وأثر معارضتهم الشرسة. ومن أجل هذا تعين على الرسول أن يشخص إلى موطن ناء عن المضايقات العدوانية لكي يتمكن من أداء رسالته على نحو أحفل بالأمن. ووقع الاختيار على دار الأرقم لهذا الغرض.

(١) الطبري - ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) القصة ذكرها ابن إسحاق ونقلها عنه ابن هشام - ١ / ٢٤٦.

(٣) فتح الباري: ٧ / ٧١ هذه المعلومات عن الإمام علي ونشأته وإسلامه وإسلام أمه وهجرتها ذكرها الطبراني في المعجم الكبير: ١ / ٩٢ - ٩٣ - رقم ١٥١. ونقلها عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ١٠٣.

(٤) الرواية أخرجه الطبراني عن أبي الأسود عن عروة - المعجم الكبير: ١ / ٩٥ رقم ١٦٢ - أسد الغابة ٣ / ٥٩٢.

(٥) ابن هشام - السيرة النبوية ١ / ٢٤٥ ونقله ابن الأثير عن ابن إسحاق ٣ / ٥٨٩.



تواصل دخول الناس في الدين، وكان في إسلام بعض البارزين من رجال قريش ما زاد في قوة الجماعة الصغيرة. وإنما كان أبرز هؤلاء حمزة، عم الرسول وأخوه من الرضاعة. وكان رجلاً عسكري الروح ذا ولع بالصيد. ولقد تمتع، بشيء من خلقه الرفيع، باعتبار واحترام عظيمين بين مواطنيه. وكان يستشعر نحو رسول الله محمد ﷺ حبا خاصا. وكان عمر هو الرجل العظيم الثاني الذي اثبتت الأيام أن انضواءه تحت لواء الرسول كان نصرا للإسلام وقوة له. ولقد سبق له، بوصفه رجلا حاد الطبع، أن كان شديدا، على نحو متكافئ، في مقاومته للإسلام. والواقع انه ذهب إلى حد عقد النية على قتل الرسول، مصدر الحركة الجديدة، ووضع حد للبلاء كله. وهكذا اتضت سيفه، ذات يوم، وانطلق إلى بيت الرسول. ومع ذلك فإنه لم يكن قد علم ان اخته فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما<sup>(١)</sup>.

واتفق أن التقاه في بعض الطريق رجل من المسلمين هو نعيم بن عبد الله، وإذ لاحظ الشر في عينيه سأل ما الذي يعتمزم أن يفعله، فأجابه عمر بقوله: «أريد أن أقتل محمدا»، فقال له المسلم أن من الخير له ان يرجع إلى أهل بيته ويقيم أمرهم ثم يفكر بعد ذلك بقتل الرسول، ذلك بأن اخته وبعلمها كانا كلاهما قد اعتنقا الإسلام. ولم يكده عمر يسمع نبأ إسلامهما حتى استبد به أعظم الغيظ، واتخذ سبيله نحو بيتهما، أولا، لكي يصفى حسابه معهما. واتفق ان كان خباب يتلو عليهما آيات من القرآن الكريم عندما دخل عمر بيتهما. فسارعا، بسبب من خوفهما، إلى إخفاء الصحيفة التي خطت الآيات عليها. سمعهما يتلوان القرآن. فما أن اجتاز عتبة البيت حتى تساءل ما هذه المهمة التي سمعت؟ فلما أنكرا صاح بهما: لقد علمت أنكما تابعتما محمدا على دينه، وأمسك بسعيد وأنشأ يوسع ضريبا. وتدخلت اخته محاولة أن تنقذ زوجها من غائلة غضبه، فضربها، فشجها، فسال الدم منها. وأخيرا صاحت في نبرة متحدية: «نعم! أسلمنا، فاقض ما أنت قاض!» وكان لهذه الجرأة التي تكشف عنها اخت عمر برغم تعنيفه إياهما أثر عظيم فيه، فهدأ غيظه. فإذا به يكف عن ضربهما، ويسألها أن يرياه الصحيفة التي كانا يتلوان القرآن منها. وترددت اخته في ذلك خشية أن تبدر منه إهانة ما للكتاب الكريم، حتى إذا أكد لها أنه لن يؤدي مشاعرهما الدينية أكثر مما فعل قدمت إليه الصحيفة التي اشتملت على سورة طه الآية ١ - ٤. وإليك - استهلها: ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ [طه].

فما أن سمع جزءا من السورة حتى عجز عن مقاومة سلطان الحقيقة القرآنية الذي استحوذ عليه استحواذا. ومن ثم راح يتدبر حماقة عدائه لما أظهرت له الرواية أنه تعاليم فاتنة. ولم يتل كما خباب، الذي ألجأ الخوف إلى الاختباء طوال تلك الفترة، عن اقتناص اللحظة السيكولوجية والإفادة منها. فغادر مخبأه وأنشأ يدعو إلى الدخول في الدين. وسرعان ما أذعن عمر الجبار لقوة الإسلام

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٧٧ .

الروحية. وبعد أن سأل خباب أين يستطيع أن يلقي الرسول، مضى مباشرة إلى دار الأرقم التي كانت في تلك اللحظة تظل الرسول وأربعين من صحابته، رجالا ونساء. وقرع عمر الباب، فاختم أحد المسلمين النظر ليرى من القادم. حتى إذا بصر بعمر متقلدا سيفه، استبد به الرعب، بعد أن توهم أن عمر أقبل إلى هناك لأمر مريب. بيد أن الرسول سأله ان يفتح الباب ويدخله. ولم يكد عمر يمثل بين يديه ويوجه إليه رسول الله محمد ﷺ جملة واحدة ليس غير حتى أعلن قائلا: «يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله» فغمر الجماعة الإسلامية كلها فرح بالغ، وهللوا وكبروا حتى لقد رددت الهضاب المجاورة صيحاتهم: «الله اكبرا الله اكبرا»<sup>(١)</sup>.

لح البخاري عن دخول عمر إلى الإسلام بما جاء عن طلحة<sup>(٢)</sup> عن عمر من أن تلك القصة كانت سبب إسلامه فروى أبو نعيم في «الدلائل» أن أبا جهل جعل لمن يقتل رسول الله محمد مائة ناقة. قال عمر: فقلت له: يا أبا الحكم الضمان صحيح؟ قال: نعم، قال: فتقلدت سفي أريده، فمررت على عجل وهم يريدون أن يذبحوه، فقلت أنظر إليهم فإذا صائح يصيح من جوف العجل: يا آل ذريح، أمر نجيح، رجل يصيح، بلسان فصيح، قال عمر: فقلت في نفسي إن هذا الأمر ما يراد به إلا أنا، قال: فدخلت على أختي فإذا عندها سعيد بن زيد...<sup>(٣)</sup>، فذكر القصة في سبب إسلامه بطولها. وإن إسلام عمر كان بعد هجرة الحبشة<sup>(٤)</sup>.

وكان في إسلام عمر منع للجماعة الإسلامية الفتية التي كان عودها ما يزال أطرى من أن يواجه عاصفة المعارضة. وإنما أعز الله الإسلام بحمزة وعمر في السنة السادسة من رسالة محمد. فحتى ذلك الحين لم يجروا المسلمون على ممارسة شعائهم علنا. وكانوا قد حصروا نشاطهم الديني ضمن جدران دار الأرقم الأربعة. حتى إذا أعلن عمر إسلامه استشعروا أنهم أمسوا من القوة بحيث يخرجون من نطاق السرية، فأنشأوا يقيمون صلاتهم على نحو علني في البيت الحرام (الكعبة). وفي غضون ذلك دخل في كنف الإسلام كثير من أبناء الطبقات الدنيا. وكان أبناء الأسر النبيلة يوفقون في بعض الأحيان إلى اجتناب مساوات المساكين واضطهاداتهم، ولكن المهتدين من العبيد المساكين كانوا في وضع بائس. لقد أنزلت بهم في غير ما رحمة ضروب التعذيب على اختلافها من غير أن يجدوا من يحميهم من غضب ساداتهم. والواقع أن من مآثر أبي بكر التي يقوم عليها سمو خلقه أنه أنفق ثروته، بسخاء، في شراء العبيد. إن هذا الإسلام قد جاء للناس كافة، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وسيدهم ومولاهم، وإن المجتمع مدعو لحمل رسالة الإسلام وإبلاغها للناس، وأن الدولة الإسلامية المرتقبة ستظل جميع الفئات بظل واحد ينعمون فيه بالعدل السماوي في الأرض. نشط هذا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٧٩ .

(٢) فتح الباري ٧ / ١٨١ .

(٣) السيرة الصحيحة: ١ / ٥١ حيث يذكر أن المطبوع مختصر من الأصل الكبير.

(٤) سيرة ابن إسحاق بتحقيق سهيل: ج ١٨ وكذلك عند ابن هشام ١ / ٣٦٢ .

الرعييل الاول من المسلمين بالدعوة إلى الله، وتجميع الناس على كلمة التوحيد ليكونوا البناة الأول لدولة الإسلام<sup>(١)</sup>، ثم دخل في الإسلام جماعات من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث بأمر محمد وبالمبادئ التي أدت بها الناس. فكانت هذه القاعدة الشعبية هي التي تشد أزر رسول الله محمد ﷺ، تؤمن بما جاء به، وتصدقه بما يقول، وتجادل عنه المشركين. لما اجتمع الناس على رسول الله يصدقونه ويشدون أزره، وتكونت لديه القاعدة الصلبة بما وقر في صدورهم من الإيمان وبما أضاء في عقولها من نور الحق، أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يدعو الناس جميعا إلى الإيمان به والانضواء تحت لوائه، وأنزل عليه قوله جل شأنه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجرات]. فخرج رسول الله إلى الناس يدعوهم إلى التوحيد، وبين لهم فساد عقائدهم وفساد ما هم عليه من الأعراف والنظم. وما كان لرسول الله ﷺ أن يسكت على انحرافهم، لأنه لا يجتمع في قلب واحد عقيدتان، فالمرء إما أن يكون مسلما يدين بكل جزئية من جزئيات وينكر ما سواها، وإما أنه كافر حين يؤمن ببعض الإسلام ويكفر ببعضه، أو يؤمن به عقيدة وبغيره نظاما. وموقف رسول الله هذا يعطينا درسا في الدعوة هو: أنه لا يجوز أن يكتفى بعرض عقيدة الإسلام ونظامه فحسب بل لأبد من بيان زيف العقائد والأنظمة المغايرة له. ويعطينا درسا آخر أيضا وهو: أن علينا أن نبدأ بالهجوم على العقائد والأنظمة الفاسدة، ولا يجوز لنا أن ننتظر حتى تهاجمنا لنرد عليها، وهنا قد بدأ رسول الله ﷺ - وهو المعلم الأول - بالهجوم على عقائد الجاهلية غير منتظر حتى تهاجمه ليرد عليها، إذ علينا أن نعلم أن الهجوم يمنع الهجوم. وقد لمح رسول الله ﷺ بهذا، إذ أخذ عدد المسلمين يزداد يوما بعد يوم رغم ما يتعرضون له من الأذى والاضطهاد<sup>(٢)</sup>.

أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ وكان قد مضى على مبعثه ثلاث سنين<sup>(٣)</sup> أن يدعو الناس إلى الإسلام بعلانية الدعوة، عن ابن عباس قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: يا صاحباه...<sup>(٤)</sup>، وقد أوضح الحافظ أن هذا طرف من حديث ابن عباس نزل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]<sup>(٥)</sup> وقد ورد شرحه مستوفيا في سورة الشعراء، ولما نزلت هذه الآية صعد رسول الله محمد ﷺ على الصفا فجعل ينادي<sup>(٦)</sup>... يا معشر قريش<sup>(٧)</sup>.

لمجد من السمات الرائعة جدا لانتشار الإسلام في أيامه الأولى أنه كان مقصورا في الأعم الأغلب على الفقراء. أما الأرسوقراطية فقد أعارت الرسالة المحمدية أذنا تكاد أن تكون صماء. وفي

(١) د. محمد رواس قلعة جي - المرجع السابق ص ٤٢.

(٢) د. محمد رواس قلعة جي - المرجع السابق ص ٤٣.

(٣) الطبري - ج ٢ ص ٣١٧.

(٤) الحديث أنزله البخاري مع فتح الباري: ٨ / ٥٣٩ - حديث رقم ٤٨٠١ عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) فتح الباري ٨ / ٥٠١ - ٥٠٣ شرح حديث رقم ٤٧٧٠.

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨ / ٥٠١.

(٧) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨ / ٥٠١ - ٥٠٢ حديث رقم ٤٧٧١.

القرآن الكريم حادثة تلقى ضوءا كافيا على الغرض الإلهي من بقاء الطبقات العليا محروسة في طفولة الإسلام من نعمه وبركاته. فقد كان الرسول منشغلا ذات يوم في دعوة نفر من نبلاء قريش إلى الدخول في الدين عندما جاءه رجل أعمى يدعى ابن أم مكتوم. وإذ لم يكن يعلم أن الرسول في شغله شاغل فقد طرح بضعة أسئلة متوقعا من وراء ذلك أن يلفت نظر النبي إليه. ولم يرتح النبي، وهو المنهمك في ذلك الحديث الهام، لهذه المقاطعة إنه لم يعنف الأعمى ولم ينطق بأية كلمة من كلمات الاستياء، ولكن شيئا من العبوس، ليس غير، تبدى على جبينه. بيد أن الله الذي أراد له أن يبلغ للذروة العليا في الخلق والأدب لم يدع هذه الحادثة تمر من غير تعليق.

ومن ثم نزل عليه الوحي الإلهي محذرا: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾ [عبس]، ثم تمضى الآيات الكريمة فتقول أنه كان من الجائز جدا أن ينشرح صدر ذلك الأعمى نفسه للدعوة المحمدية؛ ذلك بأن القرآن كان ناموس حياة يستطيع البسطاء من الناس أن يرتفعوا بفضلها إلى الصعيد الأعلى. ولقد نصحت الرسول أيضا بأن لا يعلق أهمية كبيرة على العظماء من الرجال. فقد كان رسوخ الإسلام مرهونا بالفقراء والضعفاء الذين سوف يتحققون هم أنفسهم بالمجد بفضل نضالهم من أجل نصره قضيته. والواقع أن هذه كانت هي الحكمة الإلهية الكامنة وراء الحقيقة القائلة بأن العنصر الأضعف من أهل مكة هم الذين رحبوا أكثر من غيرهم بالهدى الإسلامي. لقد أريد بهم أن يكونوا دليلا ملموسا على أن في استطاعة العاديين من الناس، تؤديهم روح الله، أن ينجزوا ما يعجز عن فعله أشد الناس قوة وأعزهم نفرا. ونحن نعلم اليقين، في ضوء التاريخ، أن الإسلام لم يمكن طبقة الضعفاء هذه نفسها من تقلد صولجان الملكية فحسب، بل تعدى ذلك إلى رفعهم في الوقت نفسه إلى أسنى مراتب الأخلاق، والفن، والعلم، والفلسفة، وإلى جعلهم حملة مشعال المعرفة في عصر كان العالم غارقا خلاله في ظلمات الجهالة. ليس في هذا أعظم شاهد على مقدرة التعاليم الإسلامية على النهوض بالناس ورفعهم من درك المذلة إلى قمة المجد؟<sup>(١)</sup>.

وحادثة الرجل الأعمى، على تفاهتها، تلقى فيضاً من النور على مشكلة ذات خطر عظيم. إنها تزودنا بما نستطيع أن نقرر على ضوءه أمراً في قضية طالما اختلف فيها العلماء وتنازعوا، أعنى طبيعة الوحي الإلهي الذي قدر للرسول أن يتلقاه. هل كان صوتا نابعا من قلب الرسول نفسه، أم كان رسالة مستقبلية من مصدر خارجي؟ إن الآيات التي نزلت بعيد لامبالاة الرسول بالرجل الكفيف تنهض دليلا على أنه لا يمكن بأية حال أن يكون ثمرة عمل باطنى قام به عقل الرسول نفسه. فقوامها لوم إلهي للرسول لإعراضه عن الأعمى. وليس يطبق أيما امرئ أن تعرض أخطاؤه على أنظار الخاص والعام، إذا استطاع اجتناب ذلك، مهما استشعر الندم والتوبة. وليس ثمرة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الرسول، برغم كبير قلبه وشهامته، كان إنما نزوع ملح إلى التشهير بنفسه، لهذا الإعراض، مهما يكن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٨١.

تأفها، على رؤوس الأشهاد. وذلك يظهر أن الوحي جاء من مصدر خارجي ما - هو الذات الالهية نفسها. ولقد أذاعها في الناس، على الرغم من علمه بأنها استنكار إلهي لعمله سوف يظل خالدا يتردد في آذان الناس إلى أبد الأبدين. والحق أن الإذعان البهيج لإرادة الله العليا كان هو المبدأ الرئيسي في حياته كلها. وبالإضافة إلى إثبات مصدر الوحي الخارجي على نحو قاطع، فإن تلك الحادثة تغني عن تحبير مجلدات لتوكيد فناء الرسول الكلي في الخضوع لمشيئة الله<sup>(١)</sup>.

محاربة كفار قريش للدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وأتباعه المسلمين: كلما قضت الإرادة الإلهية بأن توحى إلى عصابة من الأبرار أن يكونوا حملة مشاعل الحق لهداية الإنسانية المتفسخة برزت بالضرورة عصابة من أولئك الذين يعتقدون العزم على مقاومتهم حتى الموت، وإنزال ضرب البلاء والتعذيب فيهم. والواقع أن عاصفة المعارضة الحقود أمر لا غنية عنه البتة في هذا المجال. والاضطهادات التي تخضع لها حملة مشاعل الحق إنما تكون بمثابة امتحان حاسم لصدق دوافعهم. وإنهم يصبرون على الإهانات، ويتحملون المحن وضروب البلاء في ابتهاج وبشر، ولكنهم لا يتخلون لحظة واحدة عن الحق الذي يمثلون، والواقع أنهم يعيشون - إذا استطاعوا - للحق، ويموتون - إذا تعين عليهم ذلك - في سبيل الحق. وإلى هذا، فالمحن هي حقل الاختبار الوحيد لتنمية فضائل الثبات والمثابرة التي بدونها يستحيل بلوغ الكمال الخلقى. فما لم تحرق بالمرء من أقطاره جميعا عقبات غامرة، وما لم يتل بضروب الشدائد المبرحة، فإنه لن يقوى على التخلق بهاتين السجيتين. ومن هنا، فإن البلايا التي تصيب أمثال هؤلاء الناس هي، في الواقع، نعم مقنعة، مقصود بها أن تقضى إلى تهذيبهم الخلقى. وهناك، فوق هذا وذاك، هدف ثالث مراد. ذلك بأن الله العلي القدرة يريد أن يوقع في نفوس البشر أن النبتة التي تتعدها اليد الإلهية، مهما بدت هزيلة، قادرة على أن تصمد في وجه أشرس هبات الريح المعادية. ووفقا لهذا الناموس الإلهي، تعين على الرسول وصحابته أن يقاسوا على أيدي المكيين محنا لا تعد ولا تحصى<sup>(٢)</sup>.

نقل عن ابن عباس كان رسول الله محمد ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرق عنه أصحابه، وإذا خفض صوته لم يسمعه من يريد أن يسمع قراءته<sup>(٣)</sup> فنزلت الآية ﴿... وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَالِفُ بِهَا...﴾ [الإسراء: ١١٠]. نزلت هذه الآية والرسول محمد ﷺ مختلف بمكة<sup>(٤)</sup>. وعن سعيد بن جبیر: فقالوا له لا تجهر فتؤذى آلهتنا فنهجو إلهك<sup>(٥)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٨٢ .

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٨٤ .

(٣) الطبري - جامع البيان: ١٥ / ١٨٥ - وكذلك رواها ابن كثير في البداية والنهاية ٣ / ٦٣ - ٦٤ ، وقد نقل السيوطي عن ابن إسحاق وابن مردويه - الدر المنثور ٥ / ٣٤٩ .

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨ / ٤٠٤ - ٤٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٥) الطبري - جامع البيان ٥ / ١٨٦ - فتح الباري ٨ / ٤٠٥ .

اتخذت في البدء معارضة المكيين لرسالة الإسلام شكل السخرية من الرسول والاستهزاء به. إنهم لم يقيموا للحركة كبير وزن، متوهمين انها سوف تموت، في الوقت المناسب، ميتة طبيعية. لقد وقفوا منها موقف اللامبالاة والازدراء، وكأنها غير جدية بأى اهتمام جدوى. إن كل ما لقيه المؤمنون من إساءات المكيين، في تلك الأيام، لم يعد السخرية المزرية. كان اللجوء إلى العنف لا يزال، في اعتقادهم، أمرا لا ضرورة له. فكانوا إذا مروا بالمؤمنين ضحكوا وتغامزوا، استهزاءً وسخرية. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ قَالِيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين] وفي بعض الأحيان كانوا يزعمون أنه حالم متبطل، نزاع إلى نظم الشعر الركيك المضطرب، ولا بد أن يهلك عما قريب. ﴿فَلَذِكْرٌ لَّكَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُبَدِّلُ الصَّلَاةَ مِنَ الْبَيْتِ الْمَكِّيِّ إِلَى الْبَيْتِ الْمَدِينِيِّ﴾ [الطور].

وكان من دأبهم ان يقولوا إنه مخالط في عقله. ولكن ما إن اتبعه، تدريجيا، رجال أولو علم ووجاهه حتى استشعر المكيون الخطر المحدق بهم. إنهم ما عادوا يقنعون بالهزة اللامبالي، بل عمدوا إلى العنف، وذات يوم، كان الرسول في الكعبة ساجدا يصلى، فطرح أبو جهل على عنقه. وإذا كان من مألوف عاداته أن يغادر بيته لإقامة الصلاة مع الفجر، فقد اصطنعوا لمناكرته طريقة جديدة: كانوا يلقون في طريقه أغصان نباتات شائكة لكي يتعثر بها في الظلام. لقد أخذوا يقذفونه بالأقذار حيناً، ويرشقونه بالحجارة حيناً. وذات يوم انقضَّ عليه جمع من أشرف قريش. فطرح احدهم، عقبة بن أبي معيط، رداءه حول عنقه وقتله حتى أن مر أبو بكر، آنذاك، بالمكان، فتدخل وأنقذ الرسول، قائلاً: «أتريدون أن تقتلوا رجلاً لا لشيء إلا لأنه يقول ربى الله؟» ولكن المؤمنين غير المنتسبين إلى بيت من بيوتات قريش النبيلة، وبخاصة العبيد منهم رجالا كانوا أم نساء، هم الذين قدر عليهم أن يحملوا العبء الأكبر من اضطهاد المكيين. فقد أخضعوا لشتى أشكال التعذيب. وبلال الحبشى، أخضعه سيده - لكي يحمله على الارتداد عن الإسلام - لاقسى أنواع الألم الجسدى وأبعده عن الرحمة. ولكن التعاليم الإسلامية كانت تتمتع بسحر يجعل معتقيا أقوى من أن يتأثروا بهذه المحن كلها. كانوا يؤثرون الموت نفسه على التنكر للإسلام الذي رسخ في أعماق قلوبهم<sup>(١)</sup>.

راع فريقاً ذلك المد الإسلامى النشط، فقد كان الإسلام يمتد بين الناس سرعة امتداد النار في الهشيم، يحرق كفرهم ويزرع في رماذه الإيمان، فعملوا جاهدين وبكل وسيلة لإيقاف هذا المد.

ولم تقتصر المحاولات لوضع حد لانتشار الإسلام على ضروب التعذيب التى أنزل بالرسول وأصحابه. فقد كانت الطرق التى اصطنعها الكفار لإطفاء نور الله كثيرة متنوعة. كانت الدعوة فى بادئ الأمر سرية. ولكن النبى سرعان ما تلقى الوحي الإلهى بأن يعلن دعوته على رؤوس الأشهاد

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٨٥ .

وأن ينذر عشيرته الاقربين. ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٨٩ ﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿ ٩٠ ﴾ الدِّينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿ ٩١ ﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٩٢ ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ٩٣ ﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ ٩٤ ﴾ [الحجر]. ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿ ٢١٢ ﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿ ٢١٣ ﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿ ٢١٤ ﴾ وَأَخْلَفْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢١٥ ﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ٢١٦ ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢١٧ ﴾ ﴾ [الشعراء] ومنذ ذلك الحين جهر بالرسالة الإلهية. لقد سعد الصفا يوما ونادى: «يا معشر قريش! قالت قريش: «محمد على الصفا يهتف» وأقبلوا عليه ما له؟ فسألهم الرسول: «هل سمعتموني ذات يوم أقول كذبا؟» فأجابوه بصوت واحد أنهم لم يعرفوا منه غير الصدق والامانة<sup>(١)</sup>.

فسألهم الرسول: «أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكتتم تصدقوني؟» فأجابوه مجمعين: «نعم! أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذبا قط». قال: «فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد. يا بنى عبيد المطلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى زهرة، يا بنى تيم، يا بنى مخزوم، يا بنى أسد، إن الله أمرنى أن أنذر عشرتى الاقربين. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا فى الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله ودعاهم إلى نبل الوثنية، واجتناب الفواحش كلها، والإيمان بوحدانية الله، وانتهاج سبيل الفضيلة. وعندئذ استبد الغضب بهم جميعا، ولكن أبا لهب كان أقسام عليه وأشدهم وطأة. لقد نهض أبو لهب فصاح: «تبا لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟» وأرتج على محمد فنظر إلى عمه، ثم ما لبث أن جاءه الوحى بقوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿ ١ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿ ٢ ﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿ ٣ ﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿ ٤ ﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مِّنْسٍ ﴿ ٥ ﴾ ﴾ [المسد] وشيئا من دابه ودأب زوجته أن يعذباه. وفى أيام الحج، حين يجتمع الناس من كل حدب وصوب فى بلاد العرب، كان الرسول يطوف بينهم يدعوهم إلى الدخول فى دين الله. وحيثما اتجه كان أبو لهب يمضى على آثاره، ويحرض الناس أن لا يستمعوا له، لانه مخالط فى عقله<sup>(٢)</sup>.

يبدو أن أشد المعارضين استهزاءً وسخرية من رسول الله محمد ﷺ والمسلمين كانوا من القرشيين: (١) الأسود بن المطلب بن أسد (٢) أبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة من بنى مخزوم (٣) الوليد بن المغيرة من بنى مخزوم (٤) والعاص بن وائل بن بنى سهم (٥) ومن بنى زهرة الأسود بن عبد يغوث (٦) وبنيه ومنبه أبناء الحجاج بن عامر<sup>(٣)</sup>.

وحيث رأت قريش أن أيا من الاضطهاد وإقامة العقبات لم يوفق إلى كبت الحركة الإسلامية، وأن أتباع هذه الحركة لم يبالوا بتحمل أيما قدر من العنت، من مثل مفارقة ربوعهم الجميلة مؤثرين

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٤٣.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٤٤.

(٣) ابن هشام - القسم الأول ص ٢٦٤ - ٢٦٥.





التجاهل عقدت النية على معاودة الكرة والإلحاح فى ذلك حتى يحسم الأمر بالكلية . فمشى أشرافها إلى أبى طالب، من جديد، وذكروه باحتياجهم الأول لديه قائلين: «يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه علينا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو نازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين» وهذا، إذا جاز التعبير، إنذار لأبى طالب بالحرب . وكان الموقف، من غير ريب، بالغ الدقة . أبو طالب نفسه فى مآزق حرج، كان أمامه سبيلان: إمكانية الحرب ضد أهله وعشيرته من ناحية وحبه العميق لابن أخيه من ناحية، فلم يكن من اليسير عليه أن يقرر أى سبيل يختار . وفى هذه الحال من القلق والارتباك استدعى رسول الله محمد ﷺ وشرح له الموقف من نواحيه جميعا، وقال له أن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له<sup>(١)</sup>: «أبى على، وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . إنه لا قبل لى بمقاومة قريش كلها مجتمعها» فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدء وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، وضع حرج حقا؛ القبيلة كلها ظمأى للدم، ولولا تدخل أبى طالب إذن لقضت على حياته فى وضوح النهار . ولكن وأسفا! إن باب أبى طالب أيضا ليوشك أن يوصد فى وجهه . ولم يبق ثمة أية حماية أرضية تقيه غضب عدوه . ثم إن صحابته الخليق بهم ان يفتدوه بأرواحهم العزيزة عليهم كانوا فى بلد قصى من قارة أفريقية . أفيعنى هذا شيئا غير الهلاك المؤكد الوشيك؟ ولو قد غار قلب الرسول فى صدره اذن لكان ذلك متفقا والسجية البشرية، ولو قد حسنت له غريزة حفظ الذات ان يعقد مع خصومه تسوية، وبذلك ينقذ حياته ويشخص إلى مكان آخر يدعو فيه إلى الإيمان بدينه، اذن لكان ذلك جد طبيعى<sup>(٢)</sup> .

ولكن هل يتطرق مثل هذا النزوع، المبرر بكل ما فى الكلمة من معنى فى ظل ملابسات حرجة بهذا المقدار، إلى فؤاد الرسول؟ لا، لم يتطرق إليه طيف من ذلك . فقد كان يعمر نفسه ايمان بالرعاية الإلهية لا يتزعزع، فهو لا يتراجع بوصة واحدة عن اداء رسالته التى هى، فى الحق، غاية حياته كلها وكينونته كلها . فما ان انطلقت الكلمات المذكورة آنفا من شفتى أبى طالب حتى أعلن فى غير ما جمعجة البتة: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»<sup>(٣)</sup> كلمات انطلقت من فم رسول الله . بل هى بركان تفجر، فإذا الجبال السماء كشبان رمال، وإذا الإنسان المتعالى المتعاضم يتلاشى فى صفحة الوجود، فالنفس المؤمنة الكبيرة لا تقبل المساومة على المبدأ، إنها به تعيش، ومن أجله تموت، تلك هى نفس رسول الله محمد ﷺ . ما كان هدف رسول الله محمد ﷺ مالا ولا متاعا ولا ملكا، ولكن تبليغ دعوة، وبناء دولة تحمل العدل والإنصاف للإنسان على أجنحة الإيمان، لقد أوضح رسول الله محمد

(١) ابن هشام - القسم الأول - ص ٢٦٤ .  
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٩٧ .  
(٣) ابن هشام - ج ١ ص ٢٦٦ .

ﷺ الطريق، وأبان الهدف ولكن عيناه ما لبثتا ان اغرورقتا بالدمع - بعد ان رأى إلى الخيبة التي أوقعها موقفه فى نفس عمه الذى نشأه فى حنان بالغ وبسط عليه حمايته مخاطرا بكل شيء، وانصرف بقلب محزون. ولم يكن أبو طالب قد تخلى عن شكل الديانة الموروثة عن الآباء والأجداد، ولكن خلق الرسول الرفيع كان قد فتنه كثيرا. فبعث فى طلب الرسول على التو<sup>(١)</sup>، وقال له مؤكدا: «اذهب يا ابن اخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبدا»، تظهر هذه الحادثة بوضوح أن قريشا كانت تقيم أكبر الوزن فى علاقاتها مع رسول الله محمد ﷺ لقضية التضامن القبلي سيما وأن أبا طالب زعيم آل المطلب وهاشم لم يكن قد انحاز إلى صف الإسلام وظلت علاقته بهذا الدين نابعة من كون صاحبه يمت له بصلة القرابة والنسب وبالتالي له عليه حق الحماية والدفاع<sup>(٢)</sup>.

لم يشك القرشيون، إلا قليلا، فى أن أبا طالب سوف ينزل عند مطلبهم الموحد. من أجل ذلك دهشوا دهشا بالغاً عندما سمعوا عزمه على أن يمنع الرسول الكريم بأى ثمن. وبدا لهم أن نشوب حرب ضروس فى ما بينهم خليك به أن يكون مفعما بخطر عظيم. إن ذلك قد يقضى على سلطان قبيلتهم وسيادتها إلى الأبد. وهكذا قاموا هذه المرة بمحاولة أخرى لحمل ابى طالب على الإذعان عن طريق الإغراء بدلا من حمله على ذلك عن طريق الوعيد. لقد مشوا إلى أبى طالب، مصطحبين عمارة بن الوليد بن المغيرة وكان فتى وسيما، عرضوا عليه أن يتخذه ولدا ويسلمهم رسول الله محمد ﷺ قائلين: «إن هذا الفتى أنهى فتى فى قريش وأجمله فخذة فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى خالف دين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم، فنقتله فلنما هو رجل برجل!» فأجابهم أبو طالب: «لبس ما تسوموننى! أتعطونى ابنكم أغدوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونونه؟! إن ذلك لن يكون أبدا» فقال المطعم بن عدى: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا! فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك. فحقب الأمر وحميت الحرب، وتناهد القوم، وعادى بعضهم بعضا. وهكذا خاب سعى القرشيين مرة أخرى. وخشى أبو طالب أن يتخذوا إجراءات عنيفة ضد أسرته، بنى هاشم، فدعا إليه أعضاء الأسرة كلهم ليحذروهم من الخطر المرتقب. فأجمعت آراؤهم على أن الرسول الكريم لن يسلم إلى قريش أيا ما كانت الإجراءات التى قد تتخذها ضد بنى هاشم. وباستثناء أبى لهب وحده، الذى قد انضم إلى قريش ضدهم، أعلنت الأسرة كلها استعدادها للدفاع عن النبى الكريم بقوة السلاح. إلى هذا الحد كانت شعبية الرسول قوية عند بنى هاشم كلهم. لقد بجلوه جميعا وأخلصوا

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٩٩.

(٢) د. نيه عاقل - المرجع السابق ص ٣٩٨.

الود له، قلبا وروحا، لخلقه العظيم. ولقد كانوا، برغم خلافاتهم الدينية معه، مستعدين لأن يمنعوه من قريش ولو هلكوا في ذلك<sup>(١)</sup>.

نجد في كتب السيرة والتاريخ أنواع كثيرة من العذاب والأذى ضد رسول الله محمد ﷺ وأصحابه المسلمين وقد تأمروا به أكثر من مرة وهموا بقتله عدة مرات<sup>(٢)</sup>.

لما رأت قريش أن جميع مساعيها الكلامية من رجاء وتهديد ووعود قد فشلت بلجأت إلى أسلوب التعذيب البدني، فاتفق زعمائها فيما بينهم على أن يثب كل الجماعة منهم على من أسلم منهم وانضوى تحت لواء رسول الله محمد ﷺ فيوسعوه تعذبا وتنكيلا، حتى يعود عن موالاته رسول الله محمد ﷺ إلى موالاته المشركين وبدأت عمليات التعذيب الوحشي للمسلمين، والمسلمون صابرون صامدون وهكذا كلما أفلس أصحاب الدعوات الباطلة من الحججة والبرهان وزلزلت الأرض من تحت أقدامه بالمنطق السليم والحججة الساطعة لجأوا إلى البطش والإرهاب ليخرسوا الألسن الناطقة بالحق، ظانين بغباء أسود قاتم أنهم يستطيعون إطفاء نور الحق بعبسه، وما علموا أن ذلك يزيد نار الحق أوارا، ونوره في القلوب ضياء. إن هذا التعذيب الوحشي الذي أنزله المشركون بأصحاب رسول الله محمد ﷺ أحل الرعب في قلب أبي طالب عم رسول الله، فوجد أنه لا بد من التحرك لجمع كلمة بني هاشم وبني المطلب على حماية رسول الله محمد ﷺ، ونجح أبو طالب في مساعيه، واتفق بنو هاشم وبني المطلب على حماية رسول الله من بطش قريش إلا ما كان من عم رسول الله أبي لهب الذي أبى أن يضم يديه لغاية خبيثة في نفسه<sup>(٣)</sup>.

وظل رسول الله محمد ﷺ يدعو قريش في مكة إلى الله ولا تلين له في ذلك قناة صابرا على أذاهم ورفضهم وتعذيبهم واستهزائهم<sup>(٤)</sup> وزاد هذا الصبر والجلد على المكابح في حق قريش وغضبها من رسول الله محمد ﷺ فعمدت إلى جميع الطرق الممكنة للضغط على المسلمين ومنها الناحية الاقتصادية والذي ينص على إكساد تجارة وإهلاك مال كل من يسلم<sup>(٥)</sup>.

لم تستطع قريش أن تمد يدها بالتعذيب إلى رسول الله محمد ﷺ بعد هذا الاتفاق من بني هاشم وبني المطلب على حمايته، ولكن ماذا يفعلون ورسول الله محمد ﷺ لا يسكت، وموسم الحج قد اقترب، وموسم الحج فرصة لا بد وأن ينتهزها رسول الله محمد ﷺ لنشر دعوته بين القادمين من العرب، إنه لا بد من توجيه حكيم، فيما يظنون، لما يقوله رسول الله محمد ﷺ. ومن أجل هذه الغاية اجتمع نفر من أولى الشؤون من قريش إلى الوليد بن المغيرة حين حضر الموسم، وكان ذا سن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٩٩.

(٢) الطبري - ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٣٣ وابن سعد ج ١ ص ٢٠٢.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٤٧.

(٤) ابن هشام - القسم الأول ص ٣٥٤ - ٣٦٤.

(٥) ابن هشام - القسم الأول ص ٣٢٠.

فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا. فقالوا: فانت يا أبا عبد الشمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة (كلام خفي لا يسمع) الكاهن ولا سجعه. فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. وقالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرم فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما تقول أنت يا أبا عبد شمس. قال: والله وإن لقوله لخلوة. وإن أصله لغدق (النحلة)، وإن فرعه لجناه. وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه، بين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته فوافقوه على رأيه وتفرقوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حزره إياه، وذكروا لهم أمره.

فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيبًا ۖ ﴿١٦﴾﴾ [المدثر]. فجعل أولئك نفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها، وخاصة بين الأوس والخزرج. وبعد: لم يكن سكوت رسول الله ﷺ وتحمله أذى المشركين في هذه المرحلة من الدعوة عن خنوع أو ذل، ولكنه سكوت خاضع لتخطيط دقيق وضعه قائد المسيرة رسول الله محمد ﷺ، أنه سيبقى متحملا للأذى، لا يبدي أية مقاومة حتى يصلب عوده، ويستكمل قوته، ويقم دولته، وعندئذ يبدأ الصدام بقوة تمكنه من انتزاع النصر، بفضل الله: وقد تم تنفيذ هذا المخطط بكثير من الحرص، ولو أن أية مقاومة قد بدت من الرسول في فجر الدعوة، لكانت هذه المقاومة الشرارة التي تقع في برميل البارود، ولتفجر الموقف تفجرا عنيفا، ولن يكون ذلك في صالح رسول الله محمد ﷺ ولا صالح الدعوة، نظرا لقلّة أصحابه وشمه فهم، وكثرة عدوه وقوته. وتحمل رسول الله، وتحمل، وما أن حان التوقيت الذي وضعه هو للمعركة حتى شهر السيف، ونزل إلى الساحة يبادل عدوه ضربة بضربة. . وكان له النصر بإذن الله. وبفضل هذا المخطط بنيت دولة الإسلام، وخفقت راياته فوق الأفاق. رأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ يزدون يوما بعد يوم، وأن المفاوضات غير المباشرة وما رافقها من بعلش وتعذيب لم تصد الناس عن الإيمان، فقرروا اللجوء إلى المفاوضات المباشرة، والمفاوضات المباشرة تعنى الاعتراف الرسمي برسول الله محمد ﷺ وبكيان الدعوة الإسلامية، لعلمهم

يستطيعون بهذه المفاوضات إقناع الرسول بترك ما يدعو إليه من وجوب الكفر بالعقائد الزائفة المخالفة لعقيدة الإسلام والأخذ بما جاء من عند الله، وخاصة أن إسلام حمزة بن عبد المطلب قد شد من أزر الرسول ودعم موقفه<sup>(١)</sup>.

استمرار دعوة رسول الله محمد ﷺ وقوته وصلابته في موقفه لنشر الدين الإسلامي الجديد جعل كفار مكة يخشون القضاء على عبادة أصنامهم التي ورثوها عن الآباء والأجداد وأن انتصار الدين الجديد معناه تخطيم دين الأجداد وبالتالي ضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة من ثروة<sup>(٢)</sup>. فأجمعوا أعيان قريش للوقوف ضد رسول الله محمد ﷺ وضد الدين الجديد الإسلام بشتى الطرق لمنع انتشاره.

اختار المشركون لمهمة مفاوضة الرسول رجلاً ذا قوة الحججة وحسن العرض، هو عتبة بن ربيعة، فأتى عتبة رسول الله، وكلمه بمعسول الكلام وقال له: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعتب به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها». فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا (ما يراه من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع (الصاحب من الجن) على الرجل حتى يداوى منه».

إن عتبة بن ربيعة لم يكن جادا فيما يعرض على رسول الله من المال والملك وإنما هو عرض سياسي ذكي، حتى إذا ما رضى الرسول بواحد من بنود هذا العرض كانت الفضيحة بأن رسول الله محمد ﷺ يبتغى فيما يدعو إليه الدنيا، ويكون بذلك القضاء على رسول الله محمد ﷺ وعلى ما يدعو إليه، وإن رفض تأكد لديه أن رسول الله محمد ﷺ رجل دعوة وليس برجل دنيا. وقد كان رسول الله أذكى من أن يقع في هذه المصيدة السياسية، بل كان عليه الصلاة والسلام أنبل هدفا وأسمى مقصدا، إنه ماض لتنفيذ أمر ربه في تبليغ ما عهد إليه بتبليغه، ولذلك فإنه ما إن فرغ عتبة من كلامه حتى قال له: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: أفعل. قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ... ﴿٥﴾ [فصلت]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها،

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٤٩ .

(٢) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - ص ٣٧ .

والقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها وهى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٢٧) [فصلت]. فسجد رسول الله، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. . وعندما أيقن عتبة بن ربيعة أن محمداً رسول الله للناس يحمل أعباء رسالة ويقوم بتبليغها، وماهو بطالب دنيا كغيره من الزعماء، رأى أن واجبه أن يبلغ قومه قناعته بهذا الرجل، وينصحهم ما وسعه النصيح<sup>(١)</sup>.

فقام إلى أصحابه وقد انعكس باطنه على ظاهره فبدأ ذلك فى محياه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يامعشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب كفتيموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به! قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بنسائه. قال: هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدا لكم. والحق أن هذا الكلام هو كلام إنسان ذكى يحفظ خط الرجعة لنفسه، لأنه لو نصحهم بالإيمان بمحمد لثاروا عليه، وجهروا بعداوتهم له، فأحب أن يشعرهم بأنه ما زال فى صفهم، وأنه لهم ناصح. ظن زعماء قريش أن عتبة بن ربيعة لم يوفق فى قوة الحججة بما يستطيع به إقناع محمد بالتوقف عن بث أفكاره وجمع الناس إليه، ولذلك عاد من عنده بخفى حنين، وأمر رسول الله محمد ﷺ لا يحتمل السكوت عليه، فالإسلام يزداد انتشاراً فى بيوت مكة، وأتباع رسول الله محمد ﷺ يزدادون فى كل يوم، وقريش لا تملك من الإمكانيات ما يمكنها من ملاحقة جميع أصحاب رسول الله محمد ﷺ والبطش بهم، هذا إن أفلح البطش، فما بالك إذا أظهرت الأيام أن السبطش لا يزيدهم إلا صلابة وصموداً؟. ولذلك اجتمع رأيهم على أن يجتمع بمحمد عليه الصلاة والسلام أشراف قريش من كل قبيلة<sup>(٢)</sup>.

فاجتمعوا وبعثوا إلى محمد من يخبره ويقول له: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أنه بدأ لهم بما كلمهم فيه بدءاً، وكان عليهم حريصاً، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لتكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئت فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٠ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥١ .

حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيسا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أن نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل إلي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم وهذا شأن أصحاب المبادئ والدعوات، لا يقبلون المساومة فيها، ولا يبيعونها بعرض زائل من أعراض الدنيا، ومغريات لا سبيل إلى مقاومتها من غير ريب فما أكبرها نقلة أن ينقلب المرء بين عشية وضحاها من رجل معوز بائس مضطهد إلى عاهل ذي قوة وسلطان، ولكن قلب رسول الله كان مبرءا من ريف الوصلية براءة كاملة، فكان في هذا ما أحبط آخر محاولة من محاولات قريش للوصول إلى تسوية، لقد أخفق الإغراء وأخفق الاضطهاد وكان الاضطهاد ثقيلًا لا يطاق ولكن الإغراء كان أقوى من أن يقاوم ولولا روح الثبات التي نفخها الله في صدر رسول الله محمد ﷺ لكان خليقا بصنوف التعذيب التي أنزلت به وصنوف الإغراء التي أغدقت عليه أن تزحزحه عن موقفه ولكنه لزم ذلك الموقف مثل الجبل الصامد محببا جميع المحاولات الرامية إلى تثنيته عن أداء رسالته<sup>(١)</sup>. وإلى هذا يشير القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نُبْتَئَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء].

ولقائل أن يقول: لقد بعث الله محمداً ﷺ لتبليغ الرسالة وإقامة الدولة التي تطبق مبادئ هذه الرسالة وتسير السير الحثيث نحو أهدافها، وما إن قرشنا تعرض الملك ورئاسة الدولة على محمد، فلماذا لم يقبلها؟ وهنا لا بد لنا من إيضاح عدة نقاط سياسية هي على غاية من الأهمية: أولها: إن أية دولة لا تقوم على قاعدة شعبية مؤمنة بها ومخلصة لها تنتهي حيث تبدأ ولن تتمكن من الوقوف منتصبة القامة، وهذه القاعدة لم تتوفر بعد للدولة التي يتغيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك رفض رسول الله الملك. ثانيها: إن الدولة بحاجة إلى أجهزة بشرية هي أشد ما تكون إيمانا وأكثر ما تكون إخلاصا، وفي الوقت الذي عرض على رسول الله الملك لم يكن رسول الله قد أعد الأجهزة الكافية التي يطمئن إليها لإدارة هذه الدولة وتولى أمرها، ولا تقوم دولة بسواعد من لا يؤمن بها ولا يخلص لها. ثالثها: إن قيام الدولة في وسط أعدائها وهي عاجزة عن بسط سلطانها عليهم هي مجارفة بسمعة هذه الدولة، وطالما أن رسول الله غير قادر في هذه المرحلة من بسط سلطانه على قريش فمن الخير أن يؤخر قيام الدولة حتى يصبح قادرا على ذلك. رابعها: ثم إن رسول الله يريد لها دولة من صنعه هو، من صنع أبناء الإسلام، لا دولة صنيعا لأعداء الإسلام، ويريدها رئاسة يصنع

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠١ .

المسلمون له عرشها بأيديهم لا رئاسة يكون فيها أجيراً لأعداء الله ومحاربي مبادئه، لأن دولة هذا شأنها لا تستطيع ممارسة سيادتها على الوجه الأكمل، وإقامة مبادئها على الوجه الذي تحب. ومن أجل هذا كله رفض رسول الله ﷺ الملك الذي عرضه عليه المشركون<sup>(١)</sup>.

نتائج هذه المفاوضات: انصبت محاولات قريش بعد فشلها في سحب حماية أبي طالب لابن أخيه على العمل على تفريق صف بني هاشم وجعلهم لا يقفون وقفة موحدة في الدفاع عن رسول الله محمد ﷺ ولجحت خطبتهم في جذب أبي لهب إلى صفهم وفصله عن الصف الهاشمي إلى صف بني أمية المعادي للإسلام ولرسول الله محمد ﷺ، وأبو لهب هو الأخ الأصغر لأبي طالب وكان قد تزوج إحدى أخوات أبي سفيان زعيم بني أمية ووقف ضد ابن أخيه وأسرف في عداوته له حتى أنه فسح خطبة أولاده لبنات رسول الله ﷺ الاثنتين رقية وأم كلثوم ولا شك أن العامل القوي في موقفه المنحاز مع بني أمية ضد بني هاشم كانت مصالحه المادية التجارية التي كانت مع بني أمية<sup>(٢)</sup>.

أدى فشل محاولات قريش للفصل بين رسول الله محمد ﷺ وعشيرته وآله من بني هاشم والمطلب إلى قيام تجمع قريش بضم جميع بطون هذه القبيلة ما عدا هاشم والمطلب وكان الهدف من هذا التجمع القيام بعمل قرشي موحد ضد محمد وحماته من أسرته وبالتالي وضع حد لانتشار الدين الإسلامي الجديد<sup>(٣)</sup>. فانحازت بذلك بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع بني أمية وقريش<sup>(٤)</sup>.

لما رأى المؤمنون من المشركين ما رأوه من صمود رسول الله على المبدأ، ورفضه جميع ما عرضه عليه من المغريات لأنها لا تنسجم مع مخططة المرسوم لإقامة الدولة الإسلامية، قرروا العودة إلى شن الحرب النفسية، لعلهم يتوصلون بذلك إلى تحطيمه نفسياً، وذلك بطرح بعض المطالب بأسلوب الساخر المستهزئ المشعر بضعف رسول الله ﷺ وعجزه عن تحقيق أى شيء، و يتمثل ذلك بما يلي:

قالوا: يا محمد، إن كنت غير عاقل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلدًا، ولا أقل ماءً، ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٢.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٤١٦.

(٣) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٤١٦.

(٤) سيرة ابن إسحاق ص ١٥٩ - البداية والنهاية ٣ / ٨٥.



منزلتك من الله، وإنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم رسول الله: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغت ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فسل لنفسك، ما نعرف به فضلك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنا، وسله فليجعل لك جناحا وقصورا وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغي. فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم، وتلتبس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا فيما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. تأمل المستوى الفكري الذي يناقش به الرسول ﷺ. والمستوى الفكري الذي يناقش به المشركون. إن رسول الله محمد ﷺ عرض عليهم المبادئ المنزلة عليه من الله، وبين لهم وجه سموها على كل المبادئ التي عرفوها، فكان من المفروض أن يناقشوه في صلاحية تلك المبادئ، أو وجه صحتها، ولكنهم لم يفعلوا، بل طلبوا منه الإتيان بالمعجزات، وهذا اعتراف ضمنى منهم أنهم عاجزون عن إيجاد ثغرة ينفذون منها إلى هذه المبادئ إن هم ناقشوها بل هو اعتراف منهم بانهم فكرياً أمام رسول الله. أما المعجزات، فإنها لا تكون لأولى العقول الكبيرة، ولكن لمن دونهم من الناس، لأن أصحاب العقول الكبيرة يناقشون على مستوى المبادئ، وهذا ما لم يتوفر في المناقشين للرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما رعمت أن ربك إن شاء فعل، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل». ثم توج هؤلاء المؤمنون من المشركين حربهم النفسية بإنذار الرسول بالتصفية الجسدية إن أصر على موقفه فقالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له «الرحمن» وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعدنا إليك يا محمد، وأنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهاك أو تهلكنا. فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، وهو ابن عمته وكان كافراً فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٥٣.

سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك! . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف عنه رسول الله إلى أهله حزينا أسفاً، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباحثتهم إياه<sup>(١)</sup>.

لم يكن محمد بالرجل العادي الذي تؤثر فيه وسائل الإضعاف النفس فتحرفه عما قرر المضي فيه، لأن الله تعالى أعده إعداداً خاصاً لاثقاً بحمل الرسالة التي أنزلها عليه . وهو قادر على مواجهة الصعاب التي تواجهه دون أن تنال منه . وقد علم أعداء رسول الله محمد ﷺ هذا عندما جلس إليهم وناقشهم، لذلك وجدوا أن لا وسيلة للخلاص منه غير قتله، حيث قال أبو جهل لزعماء قريش: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . قالوا والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد . فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان بمكة، وكانت القبلة إلى بيت المقدس بالشام، فكان إذا صلى، صلى بين الركنتين اليماني والأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام . فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه مرعوباً، قد يبست يده على حجره، حتى قذف الحجر من يده . وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته (أصل العنق) ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن ياكلني<sup>(٢)</sup>!

ما ذكر في إسلام حمزة بن عبد المطلب عم الرسول يوضح مقدار الأهمية التي كانت تعلقها التقاليد القبلية أو العشائرية على هذه القضية من الحمية والتأزر والتكاتف . فقد لقي رسول الله محمد ﷺ مرة من المرات وهو جالس عند «الصفاء» إهانة شديدة وشتماً مقذعاً من أبي جهل وسمعت هذه الإهانات وشاهدت الحادث مولاة لعبد الله بن جدعان كان منزلها قريباً من «الصفاء» . وصادف بعد قليل أن مرة حمزة عم رسول الله محمد ﷺ قرب منزل المولاة وهو عائد من صيد ومعه قوسه وسلاحه فحدثته المولاة بحديث ابن أخيه وما وقع له على يد أبي جهل، فاستشاط حمزة غضباً وأسرع إلى حيث كان أبو جهل ومعه رجال قريش وضربه بالقوس ضربة شجب رأسه وأعلن للجميع أنه مسلم منذ الساعة وأنه لن يسكت على إهانة توجه لابن أخيه أو لغيره من المسلمين<sup>(٣)</sup>.

(١) د . محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٤ .

(٢) د . محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٥ .

(٣) الطبري - ج ٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

لما أيقن المؤتمرون من المشركين أن رسول الله محمد ﷺ لن تلين له قناة، ولن ينزع عما يدعو إليه، وأنهم مع ذلك غير قادرين على اغتياله، وتجربة أبي جهل أكبر شاهد على ذلك، فكروا ملياً فوجدوا أن في تحويل أنظار الناس عن رسول الله محمد ﷺ ودعوته ما يحقق هدفهم، وتوجهت أنظارهم نحو القرآن الذي كان يفعل في النفوس فعل السحر وقرروا أن يطرحوا للناس بديلاً عن القرآن ليحولوا أنظارهم عنه، وهذا ما حدث، إذ قال النضر بن الحارث، أحد أعضاء المؤتمر: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به قلت «ساحر» لا، والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفتهم وعقدتهم. وقلتم «كاهن» لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم «شاعر» لا والله ما هو بشعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه. وقلتم «مجنون» لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم! وكان النضر بن الحارث من أذكى قريش وعلماؤها، ومن كان يؤذى رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلقه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول: بماذا هو أحسن حديثاً مني. وفشلت محاولة المؤتمرين من المشركين بطرح هذا البديل الرخيص، لأنه فشل في تفريق الناس عن القرآن واجتذابهم إليه<sup>(١)</sup>.

غاب عن هؤلاء أنه مهما تعددت وسائل الصد والإيذاء فإن ذلك لا يزيد المؤمن إلا ثباتاً، ولا صاحب الدعوة إلا مضياً، لأن ذلك الأذى بالنسبة إليه كالمن الذي يأكل الحديد، ليعود به السيف أكثر مضاء. ولما فشلت هذه المحاولة أيضاً عاد المؤتمرون إلى قرار استئناف وسائل القمع المادية من قتل وتعذيب، فوثبت كل قبيلة على من استضعفوا فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم. وكان من هؤلاء الذين نالهم التعذيب بلال من رباح الحبشى، كان عبداً لبعض بنى جمح، وكان أمية بن خلف الجمحى يخرج في حر الظهيرة إلى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ويقول له: والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فلا يزيد بلال، وهو في هذا البلاء، على أن يقول: أحد أحد، فمر به أبو بكر الصديق وهو على هذه الحال، فقال لأمية بن خلف، ألا تتقى الله في هذا

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٥.

المسكين. . . حتى متى هذا التعذيب؟ فقال أمية: أنت الذى أفسدته، فأنقذه إن شئت، فقال أبو بكر: أفعل، عندى غلام أسود أقوى منه وأجلد، على دينك، أعطيكه به، فقال أمية: قد قبلت، فقال أبو بكر: هو لك، وأخذ أبو بكر بلالا فأعتقه. وكان من هؤلاء الذين نابهم التعذيب زنيرة التى ذهب بصرها من كثرة ما نالها من الضرب على رأسها، وجارية بنى مؤمل التى تولى تعذيبها عمر بن الخطاب قبل أن يجد الإيمان إلى قلبه طريقاً، حتى إذا تعب من تعذيبها قال لها مستهزئاً: إنى أعتذر إليك، إنى لن أترك تعذيبك إلا ملالة<sup>(١)</sup>.

وعمار بن ياسر وأمه وأبوه، فقد كان يخرج بهم إلى رمضاء مكة ويعرضون على النار فيمر بهم رسول الله ﷺ وهم على هذه الحال فيقول: «صبراً آل ياسر، إن موعدكم الجنة» فيصبرون ويصبرون حتى ماتت سمية أم عمار بتعذيب المشركين. تعذيب وحشى تنوء بحمله الجبال الراسيات، كان يتحملة أولو القوة، وكان يضعف عن احتماله البعض، لا لتقص فيهم أو لضعف فى إيمانهم، ولكن لأنهم ما زالوا بشراً والبشر محدود الاحتمال، فكانوا إذا ما ضعف أحدهم عن احتمال التعذيب جارى معذبه على ما يريدون وقلبه مطمئن بالإيمان، ليخفف عن جسده العذاب، حتى كان أحدهم ليتفوه بكلمة الكفر مضطراً وقلبه مطمئن بالإيمان، فعن سعيد بن جبير قال: لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجمعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب الذى نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم. حتى إن الجعل (دابة سوداء كالخنفساء من دواب الأرض) ليمر بهم فيقولون له: هذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده. يا الله، قوم تحملوا كل هذا ليبقى لهم إيمانهم فى صدورهم، وليوصلوا هذا الإيمان الحار إلى أمم الأرض، ولما وصل الإيمان إلى مسلمى اليوم مروياً بدماء الأبرار باعوه للشيطان بأبخس الأثمان باعوه بالمنصب الزائل، والكلمة الجوفاء، والمال الحقير، تبا لها من صفقة!<sup>(٢)</sup>.

وعذب والد عمار، ياسر، وأمه سمية، تعذيباً موعلاً فى البربرية. الواقع إن قصة تعذيبهما تقشع لهولها الأبدان. لقد شددت رجلا ياسر إلى بعيرين. ثم عمد مضطهدوه إلى سوق البهيمتين فى اتجاهين معاكسين، وهكذا مزق جسده تمزيقاً وحشياً، وقتلت سمية بطريقة لا تقل عن هذه وحشية ولكنها أدعى إلى الحزى. وكانت لبينى جارية عمر بن الخطاب، فكان قبل إسلامه يوسعها ضرباً حتى يكمل وكان من دأبه بعد ذلك ان يقول: «سوف اتركك الآن. لا إشفافاً عليك، ولكن لأنى تعبت من ضربك» وحتى المؤمنون من ذوى المعتد النبيل لم ينجوا من التعذيب. كان أهلهم وعشيرتهم هم الذين ينزلون بهم ضروب الأذى. فعثمان بن عفان كان ينتسب إلى بيت كريم ويحتل منزلة اجتماعية

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٦.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٦.

رفيعة. ومع ذلك، فقد أوثقه عمه بحبل وضربه ضرباً مبرحاً. أما معاملة عمر لاخته وصهره فقد سبقت منا الإشارة إليها. والزبير لف في حصيره وأكره على استنشاق الدخان. وابو بكر نفسه لم ينج من الأذى. لقد أخضع المسلمون جميعاً، من غير تمييز، لكل ضرب من ضروب القسوة يستطيع المرء أن يتخيله، ولكن أيما محنة مهما تكن لم تقو على تجريد قلوبهم من حب الإسلام. وذهل المكيون أنفسهم لهذا الولاء العنيد الذي تكشفوا عنه. ولكن ثباتهم هذا ورث غيظ معذبيهم فلجأوا إلى اضطهادهم على نحو أقسى من ذي قبل وأعنف<sup>(١)</sup>.

كان على رسول الله ﷺ أن يتخذ تدبيراً لإنقاذ جنود الدعوة بعد أن اشتد عليهم الطلب، واستبد بهم البطش، فأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن لها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه. واستجاب رسول الله ﷺ لأمر الرسل فخرجوا إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة.

الوجه الأول: لأن فى هجرة المسلمين إلى الحبشة إنقاذاً للدعوة من أن تجهض فى أيامها الأولى، لأن هؤلاء المسلمين إن بقوا فى مكة وهم يتزايدون يوماً بعد يوم فستشعر قريش بخطورهم عليها، وليس ببعيد أن تقوم بحرب استئصال لهم باسم حماية الآلهة، وسيؤيدها العرب كلهم فى ذلك، ولكنهم إذا هاجروا فسيبقى رسول الله محمد ﷺ فى مكة ضعيفاً لا يؤبه له، فى نظرهم، وسترافق هذه النظرة الاستهانة به وبدعوته. الوجه الثانى: انطلاق صوت الإسلام على أيدى دعاة مؤمنين إلى خارج الجزيرة العربية وهذا كسب لا يستهان به. وفى اختيار رسول الله محمد ﷺ إلى الحبشة بالدات لتكون مهجر أصحابه على أن رسول الله قد درس الموقف جيداً، وعرف أحوال دول العالم آنذاك، وتبين له من دراسة الموقف أن أنسب مكان للهجرة حالياً هى الحبشة لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وبذلك يظهر لنا أن رسول كان يفكر على مستوى دولة، ويعمل على مستوى دولة قبل أن تكون دولة، بينما يظهر للناس مجرد محدث أفراد. وإذا كانت كتب السيرة قد أطلقت على السنوات الثلاث الأولى من فجر الدعوة الإسلامية اسم «الدعوة السرية» فإن لنا أن نطلق على العهد المكى كلة: دور التخطيط السرى أو العمل السرى لقيام الدولة الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

أطل العام الخامس للدعوة المحمدية وقد جمع الرسول حوله عصابة مؤلفة من خمسين صحابياً متفانيًا فى ولائه له. كان إيمانهم المشترك قد جعل منهم جماعة صغيرة مترابطة لم تزدها اضطهادات المكيين إلا تماسكاً وإلى هذا، فقد نمت قوتهم العددية يوماً بعد يوم. وكان أهل الحبشة وملكهم الملقب بالنجاشى نصارى. وهكذا استعد أول فريق من المهاجرين، وعدتهم أحد عشر، للإبحار إلى الحبشة، وقد اصطحب أربعة منهم روجاتهم، وفى جملتهم عثمان وروجه رقية، بنت الرسول، وفى

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٨٦ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٧ .

شهر رجب من السنة الخامسة للدعوة، فصل القوم من مكة، وبعضهم راكب وبعضهم راجل، حتى إذا بلغوا الشجر أبحروا على عجل، مغادرين شواطئ وطنهم الجميل التماساً للسلامة في أرض أخرى<sup>(١)</sup>.

ولكن لم يستقر بهم المقام طويلاً في الحبشة حتى وردتهم أنباء تفيد أن أهل مكة قد أسلموا وانضوا تحت قيادة رسول الله محمد ﷺ، مما جعل هؤلاء المهاجرين يسرعون إلى العودة لمكة ليكونوا عوناً لرسول الله ﷺ في المرحلة المقبلة، ولكن ما إن عادوا حتى وجدوا أهل مكة ما زالوا على كفرهم، وأن بطشهم للمسلمين لم يتوقف لحظة، فأمرهم رسول الله ﷺ بالعودة إلى الحبشة وأمر عليهم جعفر بن أبي طالب، لأنه لا يجوز أن يبقى المسلمون في أرض لا أمير لهم يجمع كلمتهم، ويوحد مساعيهم. خرجوا من مكة وخرج معهم جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه. وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه. فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً. فأقاموا في الحبشة آمينين، يدعون إلى الله تعالى بلسان حالهم لتشهد الدنيا كلها أن الإسلام صنع منهم خلقاً آخر. أرايت يا أخى المسلم كيف هجر هؤلاء الأهل والأوطان، وتركوا المال والمتاع لتسلم العقيدة لأنها التعبير الصادق عن إنسانية هذا الإنسان، إنهم علموا الدنيا بأسرها أن هناك ما هو أسمى من المال ومن الزوجة، ومن المتاع، إنها العقيدة التي تعمر الصدر باليقين الذى لا أحلى منه ولا أجمل. فروا من مكة دار الكفر التى تفننت فى تعذيبهم إلى الحبشة دار الكفر التى أملوا أن يجدوا فيها من الأمن والسلام ما يمكنهم من إقامة شعائر دينهم<sup>(٢)</sup>.

فلما رأى المؤمنون من قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمانوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا داراً وقراراً، قرروا أن يعيشوا منهم رجلين من قريش إلى النجاشى، ليخرج المسلمين من بلاده التى وجدوا فيها الأمن، ويردهم إليهم ليفتنوهم عن دينهم وما إن تسامعت قريش بارتحالهم حتى وجهت رجالها على جناح السرعة ابتغاء صدهم عن سبيلهم. بيد أن المراكب، ويا لحبيبة قريش، كانت قد أقلعت، فتعين على مطاردتهم أن يرجعوا بخفى حنين. ولكن هذا لم يزد القرشيين إلا غيظاً. لقد كانوا يحرصون على أن لا يجد الإسلام موطن قدم فى أيما موطن آخر. فعقدوا العزم، آخر الأمر، على أن يوجهوا إلى النجاشى وفداً يسأله أن لا يسبغ على المسلمين حمايته وأن يسلمهم إلى المكيين. واختير عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص لهذه السفارة، فمضيا إلى الحبشة ومعهما هدايا نفيسة. فكانت أولى الخطوات التى قاما بها لدن بلوغهما أرض الأحباش أن عمدا إلى التأثير فى مشاعر الطبقة الاكليركية. لقد قالوا لهم ان المسلمين ابتدعوا دينا معادياً للنصرانية

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٥٨ .

أيضاً، وعززا استشارتهما لاحقاد تلك الطبقة الدينية بإغداق الهدايا الثمينة على رجالها. وهكذا وفقا إلى إقناع رجال الدين بأن يصطنعوا نفوذهم لدى الملك لتيسير مهمتهما، ثم اتخذنا سبيلهما إلى بلاط النجاشي. شرحا وجهة نظرهما القائلة بوجوب رد المهاجرين المسلمين إلى قومهم، أولئك المهاجرين الذين زعم السفيران أنهم ابتدعوا ديناً يتعارض مع ديانة العرب التقليدية ومع المسيحية سواء بسواء<sup>(١)</sup>.

لندع أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ تحدثنا عن تفصيل ما جرى<sup>(٢)</sup>.

قالت أم سلمة: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً اتتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم. فجمعوا له أدما كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرجنا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، وخير جار، فلم يبق من بطارقتهم بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا (أى أبصر به) وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي.

فصالت بطارقتهم حوله: صدقاً أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهم فليردوهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله (أى لا والله)، إذا لا أسلمهم إليهم، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى، حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهم. ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسننت جوارهم ما جاوروني. ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٨٦.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٥٩.

للرجل إذا جتتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟.

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القسوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، عدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك! . فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟، فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه على. فقرأ عليه صدرًا من «كهيعص». قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته. وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم! ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة! انطلقا. فلا والله ولا أسلمهم إليكما ولا يكادون!

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتسبه غداً بما استأصل به خضراءهم! فقال له عبدالله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - : لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لا أخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبدًا. ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قبولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن! . فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسول وروحه وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي (أي أنتم أحرار)، من سبكم غرم، من سبكم غرم! ما أحب أن لى دبراً (الجليل)



من ذهب وإنى آذيت رجلا منكم! ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها. قالت أم سلمة: فخرجنا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار حتى قدمنا على رسول الله ﷺ.

بين أن المراد من هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة<sup>(١)</sup> قول رسول الله محمد ﷺ لأصحابه لما رأى المشركين يؤذونهم ولا يستطيع أن يكفهم عنهم «إن بالحبشة ملكا لا يظلم عنده أحد فلو خرجتم إليه حتى يجعل الله لكم فرجا»<sup>(٢)</sup>. وإذا كان مهاجرة الحبشة قد فروا بدينهم إلى الله امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ، فإنهم لم يتوانوا هناك عن شرح مبادئ الإسلام بما تسمح لهم به ظروفهم مما جعل أهل الحبشة يرسلون وفدًا لرسول الله للتأكد مما يقوله هؤلاء. قال ابن إسحاق: ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه فى المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله عما أرادوا دعاهم رسول الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمر، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقال لهم: خبيكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخير الرجل، فلم تظمنن مجالسكم عنده حتى فارقتن دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أخرج منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل من أنفسنا خيراً. وجدير بالذكر أن القرشيين استشعروا قلقاً بالغاً بسبب من هجرة المسلمين إلى الحبشة. لقد تعقبوهم بادئ الأمر حتى الشجر الذى أبجروا منه لكى يلقوا القبض عليهم، حتى إذا أخفقوا تبعوهم إلى بلاد النجاشى. فما الذى هاج قلقهم إلى هذا الحد؟ أتكون دعاية المسلمين المناهضة للوثنية هى التى أثارته حفيفة قريش هذه الاثارة كلها؟ ولكن المهاجرين كانوا الآن أبعد من أن يؤذوا مشاعرهم من طريق الطعن على آلهتهم. والواقع أن العداء الذى أثارته الخلافات الدينية كان قد أمسى الآن شخصياً. فلم يستطع القرشيون أن يطبقوا التفكير فى إمكان نجاح المسلمين فى ما وراء البحار وهم الذين أخرجوهم من منازلهم وديارهم. كانوا قد عقدوا العزم على إهلاكهم، ومن أجل ذلك اجتازوا الطريق كلها إلى بلاط النجاشى للإيقاع بهم هناك. ومن أجل هذا السبب نفسه لم يدعوا النبى وأصحابه يرتاحون، حتى فى المدينة، دار هجرتهم فى ما بعد<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح البخارى مع فتح الباري - ١٨٦ / ٧ .

(٢) الطبري فى تاريخ الأمم - ٢ / ٢٢١ وأخرجها عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة - المصنف - ٥ / ٣٨٤ - رقم ٩٧٤٣ ونقلها ابن كثير عن الواقدي - البداية والنهاية ٣ / ٦٤ .

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٩٠ .

ولم يكن في المدينة أيما سلطة تحمي المسلمين من أعدائهم القرشيين المتعطشين للدم. وأما ما جراًهم على التفكير بإبادتهم بحد السيف. فإذا بغريزة حفظ الذات تدفع المسلمين إلى الرد على القوة بالقوة دفعاً عن أنفسهم. ومن هنا حدثت تلك المعارك التي خاض المسلمون غمارها كتدبير دفاعي محض. إن قریشاً لم تدعهم وشأنهم، حتى بعد أن فصلتهم عن أهلهم وأخرجتهم من ديارهم. وهكذا لم يكن للمسلمين مناص من الدفاع عن أنفسهم ومواجهة مطاردتهم على نحو يليق بالرجال. ومع ذلك فهناك نقاد يتعمدون عن هذه الحقائق التاريخية الثابتة، فيزعمون أن النبي كان هو البادئ في شن هذه الحرب، ومن أجل ذلك يصفون الإسلام بأنه دين قام بالسيف والواقع ان أيما شيء لا يمكن أن يكون أبعد من ذلك عن الحقيقة فالأحداث المتصلة بالهجرة إلى الحبشة، تلقى ضوءاً كافياً على هذه المراقبة المراجحة، وهي أن القرشيين، أيًا ما كانت التعاليم الإسلامية، وسواء أمثلت في نظرهم هرطقة أم لم تمثل، كانوا مصممين على إبادة الجماعة الإسلامية عن بكرة أبيها، بأى ثمن<sup>(١)</sup>. علما بأن أهل السير ذكروا أن الهجرة الأولى كانت في شهر رجب من سنة خمس من المبعث<sup>(٢)</sup> وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة وقيل وامرأتان وأنهم خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار<sup>(٣)</sup>.

وحين عاد الوفد القرشي من الحبشة بخفي حنين تخطى غيظهم كل حد. لقد واصلوا اضطهادهم للمسلمين في احتياج مضاعف. كانوا حتى ذلك الحين يشهدون صبر المسلمين على هذه المحن القاسية في دهش عظيم. ولكن الهجرة إلى الحبشة أعطتهم برهاناً قاطعاً على أن المسلمين مستعدون لمختلف ضروب المخاطر، ولتحمل كل لون من ألوان التعذيب من أجل عقيدتهم، وعلى أنهم لن يحجموا عن خوض غمار المخاطر كلها في سبيل الله. وفوق هذا، فعندما تسامع سائر المسلمين في مكة بالرعاية الكريمة التي أسبغها النجاشي على إخوانهم شخص عدد منهم في العام الذي تلا إلى الحبشة. وتعرف هذه الهجرة بالهجرة الثانية إلى الحبشة. وبذل القرشيون قصارى جهدهم لكبح جماح هذه الهجرة، ولكن على غير طائل. وبإستثناء الأبطال علا الحبشة مئة مسلم ومسلمة، رجالاً ونساء. ولقد استقروا هناك، جميعاً، ما عدا عثمان وروجته الذين عادا إلى مكة بعيد ذلك. ولم يلتحق المهاجرون بإخوانهم المسلمين في المدينة إلا بعد انقضاء سبع سنوات على هجرة الرسول من مكة. فسقد نص صلح الحديبية في العام السادس للهجرة على عقد هدنة بين المسلمين والقرشيين مدتها عشر سنوات، فأتاح ذلك للمسلمين قدراً من السلامة في أرض العرب، ويسر للمهاجرين إلى الحبشة سبيل العودة إلى أهلهم وعشيرتهم. وإن فيه كذلك لدليلاً على الحقيقة القائلة

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٩١.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٧ / ١٨٦.

(٣) سيرة ابن إسحاق بتحقيق سهيل - ص ١٧٤ - البداية والنهاية ٣ / ٦٤

بأن المسلمين، حتى فى المدينة، لم ينعمو بالأمن حتى السنة السابعة للهجرة، عندما زودهم صلح الحديبية بفترة من الراحة قصير. ولم ينس المسلمون عطف النجاشى عليهم فبادلوه إحساناً بإحسان، وتفضيل ذلك أن نزاعاً نشب بين النجاشى، خلال إقامتهم فى مملكته، وبين إحدى الدول المعادية، فلم يكن منهم إلا ان وضعوا أنفسهم تحت تصرف جيشه. ليس هذا فحسب، بل لقد دعوا الله ان ينصره على عدوه. وهذا يظهر أى قوم معترفين بالجميل كانوا. إن شعارهم كان، منذ تلك الفترة المبكرة، هو الآية القرآنية التى تقول: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن]. ومن الاحداث المتصلة بالهجرة الأولى إلى الحبشة حادثة يجمل بنا أن نقف عندها. فبعيد هذه الهجرة بقليل نزلت على الرسول سورة «النجم» السورة ٥٣ التى وردت فى خاتمتها الآية التى تأمر بالسجود لله وكانت هذه أول مرة اصطنع فيها المسلمون «سجدة التلاوة» خلال تلاوة القرآن الكريم، تلك السجدة الشائعة اليوم بين المسلمين. ففيما كان الرسول يتلو هذه السورة سجد حالما انتهى إلى الآية التى تقول: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم] وتذهب بعض الروايات الموثوقة إلى أن وثبى المكين الذى شهدوا مجلس النبى ذلك اليوم شاركوا فى السجود، ذلك بأنهم آمنوا بالله برغم عبادتهم الاوثان<sup>(١)</sup>.

مقاطعة الرسول ومناصريه من قومه: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أصابوا أمناً واطمئناً فى الحبشة، وأن مساعيهم فى إعادتهم إلى مكة قد فشلت، وأنهم لا يستطيعون إمعان الأذى برسول الله ﷺ بسبب حماية أهله من بنى هاشم وبنى المطلب له، اتفق كافة زعمائها على مقاطعة رسول الله ومن يناصره من بنى هاشم وبنى المطلب لا يبيعوهم ولا يشترى منهم، لا يزوجهم ولا يتزوجون منهم، وكتبوا بذلك كتاباً فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة، تأكيداً للعزم على الالتزام بها. وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فدعا عليه رسول الله فشلت بعض أصابعه. ونفذت قريش المقاطعة، والتزمت بما فى الصحيفة، وانضم إلى قريش أبو لهب عم رسول الله ﷺ. واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات، أصاب الجهد فيها رسول الله وقومه إذ كان لا يصل إليهم من ضرورات الحياة غير ما يرسله إليهم بعض الأصحاب سراً. ولكن الناس دائماً يتعاطفون مع المظلوم حتى ولو كانت مصالحهم تملئ عليهم الوقوف فى صف الظالم، فترى أيديهم فى واد وقلوبهم فى واد آخر. كان ذلك فى السنة السابعة للدعوة، وكانت كثرة المسلمين قد وفقت إلى الفرار بأنفسها إلى الحبشة. وكان حمزة وعمر قد اعتنقا الإسلام، وكان أبو طالب قد رفض، صراحة، ان يخذل الرسول نزولاً عند مطلب قريش. وباستثناء أبى لهب كان بنو هاشم كلهم قد عقدوا العزم على أن ينصروه ويقاتلوا دفاعاً عنه حتى الرجل الأخير. وفوق هذا، فقد راح نور الإسلام ينتشر من قبيلة إلى قبيلة.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٩٣ .

ومن أجل ذلك قرر القرشيون أن يفرضوا حرمانا اجتماعيا على بنى هاشم<sup>(١)</sup>، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم شيئا، وبذلك قطعت قريش عن بنى هاشم كل أنواع المؤن وكانوا لا يخرجون إلا في موسم الحج وبلغ بهم الجهد حدا لا يطاق وكان الناس في مكة يسمعون أصوات صبيانهم الجائعين<sup>(٢)</sup>. وكان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث<sup>(٣)</sup> فأقاموا على ذلك سنتين<sup>(٤)</sup> أو ثلاثا في حين جزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين<sup>(٥)</sup>.

فلما سمع بنو هاشم بهذا شخصوا إلى موطن منعزل من مكة يعرف بالشعب. ولكن أبا جهل لم يدخر جهدا للثبوت من تنفيذ المقاطعة تنفيذاً دقيقاً. فحين حاول حكيم ابن حزام، مثلا أن يحمل بعض الزاد إلى خديجة، وكانت من أقربائه الأذنين، اعترضه أبو جهل وصدّه عن سبيله. ولكن عزم بنى هاشم لم يتزعزع البتة طوال تلك المحنة القاسية. لقد احتملوا ذلك كله في بشر وابتهاج كرامة للرسول، وهو شيء ما كان خليقا بهم أن يفعلوه لو لم يكنوا له احتراما عميقا الجذور. وخلال فترة المقاطعة لم يتعد نشاط الرسول التبشيري جذران الشعب الأربعة. أما في موسم الحج، وليس يحل فيه سفك الدم عند العرب، فكان من دأبه أن يمضى إلى الكعبة ويدعو الناس المجتمعين ثمة من كل حذب وصوب إلى الدخول في دين الله. فكان أبو لهب يتبعه مثل ظله، ويحذر الناس من قبول رسالته. كان يقول لهم ان محمدا كذاب. وان عليهم أن لا يصدقوه. وهكذا كان الناس ينتهرون الرسول، حيثما مضى لأداء رسالته، متسائلين لم نبذه أهله أنفسهم إذا كان صادقا في دعواه؟ وعلى الجملة، فقد كانت هذه الفترة محنة كبرى لبنى هاشم وتعطيل لكل نشاط دعوى. وفي غضون ذلك نشأت بين القرشيين معارضة للباساء التي فرضت على بنى هاشم. كان أصحاب القلوب الرقيقة من القرشيين قد شعروا بقسوة المقاطعة وفدحها، وما هي إلا فترة حتى شجبتها بعضهم صراحة. وهكذا أجمع خمسة منهم أمرهم هشام بن عمرو، وزهير ابن أبى أمية، والمطعم بن عدى، وأبو البختری بن هشام، وزمعة بن الأسود وتعاهدوا على رفع الحرم وتمزيق الصحيفة إربا إربا. وفي غضون ذلك تجلت علامة من العلامات الإلهية<sup>(٦)</sup>.

والضيق الذى أصاب بنى هاشم وبنى المطلب من جراء تلك المقاطعة الظالمة التى فرضها مؤتمر المشركين، والأذى الذى أصاب رسول الله وقومه خلال السنوات الثلاث حرك بعض الضمائر فجعلها تتعاطف مع المظلومين رغم أنها لم تؤمن بما يدعو إليه رسول الله ﷺ.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠١ .

(٢) ابن سعد - ج ١ ص ٢٠٩ .

(٣) فتح الباري - ٧ / ١٩٢ .

(٤) نقل الذهبي وابن كثير رواية ابن إسحاق ص ١٥٩ ، البداية والنهاية ٣ / ٨٥ .

(٥) رواية موسى بن عيسى عن الزهري أخرجه البيهقي في الدلائل ٢ / ٣١٢ وابن عبد البر في الدرر ص ٣٩ والذهبي في السيرة النبوية ص ٢٢١ .

(٦) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠١ .

وسارع أولئك الذين استشعروا قسوة المقاطعة وفدحها. فتقلدوا سلاحهم ومشوا مجتمعين إلى باب الشعب وأعلنوا على رؤوس الأشهاد معارضتهم لعهد المقاطعة. ثم انهم أخرجوا المسلمين من الشعب وأرسلوهم إلى بيوتهم. فلم يؤانس أيما امرئ في نفسه الجراة على إبداء أيما مقاومة، وكانت المقاطعة قد استمرت ثلاث سنوات، ويعيد مغادرة الشعب مباشرة، لحق عم النبي أبو طالب، الذي كان حتى تلك اللحظة دعامة وسناده، بالرقيق الأعلى. صحيح انه لم يعتنق الإسلام، ولكن الرسول الكريم كان يكن له حبًا عميقًا. وهكذا كانت خسارته إياه صدمة قوية له. وقال رسول الله محمد ﷺ: «ما نالت مني قریش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»<sup>(١)</sup>. وعن ابن عباس قال رسول الله محمد ﷺ: «ما أغنيت عن عمك»<sup>(٢)</sup> عن عمرو بن دينار قال قال النبي ﷺ: «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فلا أزال استغفر لأبي طالب حتى ينهاني عنه ربي»<sup>(٣)</sup>. وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت الآية<sup>(٤)</sup> ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾، ونقل ما أخرجه الحاكم<sup>(٥)</sup> وابن أبي حاتم<sup>(٦)</sup> من طريق أيوب بن هانئ عن مسروق عن ابن مسعود قال: «خرج رسول الله محمد ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فاجاه طويلاً ثم بكى، فبكينا لبكائه فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، واستأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ [التوبة]<sup>(٧)</sup>. ولكن المصائب، كما يقولون، نادرًا ما تأتي فرادى. فما هي غير فترة يسيرة حتى توفيت أيضًا السيدة خديجة، زوجته الامينة وصديقتها الأكثر وفاء وإخلاصًا. كانت طوال عهده بها قد خدمته من صميم فؤادها، وكانت أبدًا مصدر سلوان له لا ينضب، في لحظات الحزن والاسى. ولقد منى بوفاها بخسارة لا تعوض. وإنما أصيب الرسول بكلتا هاتين الصدمتين في العام العاشر للدعوة، ذلك العام الذي عرف بسبب من ذلك، في التاريخ الإسلامي، بـ «عام الحزن» وبفقدان هذين المعزيين والنصيرين الكسبيين تعين على الرسول الكريم أن يواجه مصاعب أدهى وأمر. لقد آذنت وفاتهما باستهلال عهد من البلاء جديد<sup>(٨)</sup>.

عجبًا لتلك الأحداث كيف تنقلب ضد رغبة صانعيها. . ولا عجب. . إنه صنع العزيز الحكيم: ﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال]. صحيح أن المقاطعة التي فرضتها قریش بتلك الصحيفة الظالمة قد ألحقت أذى كبيراً برسول الله ويقومه، ولكنها جلبت للدعوة

- 
- (١) ابن هشام - القسم الأول - ص ٤١٦.  
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٧ / ١٩٣ - حديث رقم ٣٨٨٣.  
(٣) الطبري - جامع البيان - ١١ / ٤١ - ٤٢.  
(٤) فتح الباري ٨ / ٥٠٨ - جامع البيان للطبري - ١١ / ٤٢.  
(٥) الحاكم المستدرک مع التلخیص - ٢ / ٣٣٦.  
(٦) أبي حاتم - تفسير القرآن ٢ / خ رقم ٢٨٤ ورقة ١٠٢ - الدرر المنثور ٤ / ٣٠٢ - ٣٠٣.  
(٧) شرح النووي ٧ / ٤٥.  
(٨) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠٣.

خيراً كثيراً، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالكافر عن غير قصد منه . فهي منعت ذوى الأغراض الدنيئة من الانتساب لهذا الدين ، إذ ليس فيه مطمع دنيوي لطامع ، فلم يقبل عليه إلا من كوى قلبه حر الإيمان فلم يطق صبراً على فراقه، ولو كان فى فراقه الأمن والسلام، وكل دعوة يتاح لذوى الأغراض الاندساس بين صفوفها فإن مالها إلى البوار لا محالة، لأنهم لا يلبثون ان ينحرفوا بها عن أغراضها جرياً وراء مصالحهم، وتحقيقاً لأغراضهم، ضارين بأهدافها الأرض . وهذا العذاب الذى كان ينال رسول الله وأصحابه المؤمنين به كان الضمان الأكيد لنظافة المنتسبين للإسلام . إن كثيراً من المشركين - وهم الأعداء التقليديون للرسول محمد ﷺ ولدينه عندما رأوا ما أحاط بالرسول وبمن معه من الضيق والشدة فى الشعب قد انقلبوا إلى صفه، وأصبحوا من المدافعين عنه، وهذا ما أدى إلى تمزيق الصحيفة الظالمة، وبذلك وجدت الخلخلة فى صفوف المشركين، فلم تعد كلمتهم واحدة، وظهر لأول مرة من يرفع صوته معترضاً على مضابفة رسول الله محمد ﷺ وأصحابه وقومه، وهذا سيستتبع حتماً نقاشاً يمتد، ويمتد، حتى يتناول أمر العقيدة، وكل نقاش حول العقيدة ستخرج منه العقيدة الإسلامية ظافرة منتصرة ولا بد هذه هى النتائج التى تمخضت عنها المقاطعة، فتأمل . شعرت قريش بضعف موقفها بعد أن ظهرت الخلخلة فى صفوفها، وتعاطف بعض زعمائها مع رسول الله محمد ﷺ، وهذا نذير شؤم بالنسبة إليها، لأنها طلائع الفشل، خاصة وأن جهود هؤلاء المتعاطفين قد أثمرت ما يريدون من إنهاء المقاطعة وتمزيق الصحيفة . خاصة وأن اثنين من كبار رجالها وأقواهم وأشدهم شكيمه قد آمنوا بمحمد وأعلنوا ولاءهم له، هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وخاصة أيضاً أن أمر محمد قد فشا فى القبائل كلها، ولم يعد بالإمكان التحكم بالمارد ومنعه من الانطلاق<sup>(١)</sup> .

ولذلك رأى زعماء قريش أن من الحكمة مهادنة رسول الله محمد ﷺ، فيكيف عنهم ويكفون عنه، يعبد ربه بكل حرية، ويعبدون أصنامهم، لا يعيب عبادتهم ولا يعيبون عليه عبادته . مشى القوم إلى أبى طالب - وكان مريضاً - فكلموه فى الأمر الذى اجتمعوا عليه وقالوا له: يا أبا طالب إنك منا حيث علمت، وقد حضرنا ما ترى من المرض، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكفر عنا ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث أبوطالب إلى رسول الله فجاءه، فقال: يا ابن أخى، هؤلاء أشرف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك . فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم . فقال أبوجهل: نعم . وأبيك وعشر كلمات، قال: «تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه» . فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجيب، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا

(١) د . محمد رواس قلمه جي - المرجع السابق ص ٦٥ .

على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا<sup>(١)</sup>، وأنزل الله سبحانه في ذلك: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا وَاوَاثِ حِينَ مَنَاصِرٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِثْلَقٌ ۝٧﴾ [ص].

ولكن أبا طالب لم يلبث أن توفي بعد مدة يسيرة، ثم توفيت خديجة زوج رسول الله ﷺ بعده بأيام، واشتد الحزن برسول الله ﷺ. واستطالت الأيدي والألسن عليه بعد ذهاب ناصره وحاميه أبا طالب، ونال المشركون من رسول الله ما لم يكونوا يستطيعونه في حياة عمه. كان أبو طالب شخصية فذة، استطاعت أن تجمع كلمة بني هاشم والمطلب وتقف بهم سداً منيعاً يحمي رسول الله محمد ﷺ من أن يناله المشركون بأذى يذكر، ولكن بعد وفاة أبا طالب تهدم ذلك الحاجز الذي أقامه لحماية رسول الله محمد، وأصبح في مواجهة مباشرة مع كفار قريش، ولذلك نالوا رسول الله بالوان من العذاب منها:

كان على الرسول الآن أن يواجه، في أداء رسالته، عقبات أعظم من تلك التي واجهها في ما مضى. فقد انحسر الآن بعد وفاة أبا طالب وخديجة كل كبح قدر لهما أن يفرضاه على خبث قريش ونزوعها إلى الشر، ذلك بأن أيدي القرشيين أمست منذ اليوم طليقة، فهم يستطيعون أن يخاشنوا الرسول ما شاء لهم حقدهم وضعفيتهم. ولكن إيمان الرسول بالنصر المطلق لم يتزعزع، برغم الوضع المظلم، البتة. وفيما كان في بعض الطريق، ذات يوم، رمى أحد سفهاء قريش على رأسه تراباً، حتى إذا انقلب إلى داره انشأت ابنته فاطمة تغسل رأسه وتذرف الدمع، في الوقت نفسه، جزعاً على أيها الحبيب من هذا البلاء. فواساها الرسول قائلاً: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك!» إلى هذا الحد كان إيمانه بنجاح رسالته النهائي راسخ الجذور، في وجه هذه المعارضة العنيدة! ولم تراوده في أيما لحظة فكرة الشخوص، مثل سائر صحابته، إلى الحبشة حيث كان خليقاً به ان يجد مفرعاً آمناً. ولم يخامر اليأس، لحظة، من اخراج الأرض التي ولد عليها من الظلمات إلى النور<sup>(٢)</sup>.

وكان أبو لهب - عم رسول الله - وامراته أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبا سفيان من أشد الناس أذى لرسول الله، فكانت أم جميل تحمل الأشواك وتطرحها في طريق رسول الله، بل وباعت عقدها الثمين لتنفق ثمنه في أذى رسول الله محمد ﷺ، فأنزل الله تعالى فيها وفي زوجها: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد]. ولما سمعت أم جميل ما نزل من القرآن

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٦٦.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠٦.

فيها وفي زوجها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها حجر ملء الكف، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك فقد بلغني أنه يهجونى! والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى. أما أمية بن خلف، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولمزه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) الذي جمع مالا وعدده (٢) يحسب أن ماله أخذه (٣) كلاً لينبذ في الحطمة (٤) وما أدراك ما الحطمة (٥) نار الله الموقدة (٦) التي تطلع على الأفئدة (٧) إنها عليهم مؤصدة (٨) في عمد ممددة (٩) [الهمزة]. ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلهمتا أو لنسبن إلهك الذى تعبدا فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ (١٠٨) [الأنعام]. فكف رسول الله ﷺ عن سب آلهمتهم وجعل يدعو إلى الله. ولما أنزل الله تعالى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١) لا تكون من شجر من زقوم (٥٢) [الواقعة]، قال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تدررون ما شجر الزقوم التى يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يشرب بالزبد، والله لئن استمسكنا بها لتترقمنا - أى لبستلعتها - ترقماً، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ (١٣) طعام الأثيم (١٤) كالمهل يبغي في البطون (١٥) كغلي الحميم (١٦) [الدخان]، أى إن شجرة الزقوم ليست كما يقول ذلك الطاغى، وإنما هى شأن آخر (١٧). أما الأخنس بن شريق الثقفى فإنه كان من أشراف القوم ومن يستمع منه، فكان يصيب من رسول الله ﷺ ويرد عليه فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١٠) همار مشاء بنميم (١١) مناع للخير معتد أثيم (١٢) عتل بعد ذلك زيم (١٣) [القلم]. أما الوليد بن المغيرة فإنه قال: أينزل الوحي على محمد وأترك، وأنا كبير قريش وسيدها ويتسرك أبو مسعود سيد ثقيف، ونحن عظيمي القريتين (مكة والطائف) فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٢١) أ هم يقسمون رحمت ربك نحن سمنا بينهم ميسهم نبي أنحياة الدنيا ورفعا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون (٢٢) [الزخرف]. وكان أبى بن خلف، وعقبة بن أبى معيط، متصافين، حسنا ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبيًا، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغنى أنك جالست محمداً وسمعت منه، وجهى من وجهك حرام أن أكلمك، واستغلظ من اليمين، إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأت فتستغل في وجهه! ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبى معيط لعنه الله تعالى ونزلت فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً (٢٩) [الفرقان]. ووضع

(١) د. محمد وواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٦٨.

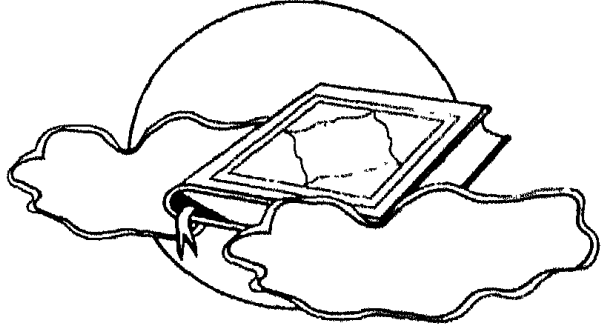


على رأسه مرة أمعاء جزور وهو ساجد. ومشى أبى بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد بلى وتكسر فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ثم فته في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار، فأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس]. كان جيران رسول الله ﷺ من المشركين، أبو لهب والحكم بن أبى العاص، كانوا لا يتوانون أن يوقعوا الأذى برسول الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا كان أحدهم إذا رآه يصلى طرح عليه ما تصل إليه يده من النجاسات، وإذا ما أوقد نارا تحت قدر ليطنخ ما يأكله طرحوا له فى القدر الأقدار والنجاسات فى داره عليه الصلاة والسلام، وكان كثيرا ما يخرج تلك الأقدار من بيته، فيقف بها على بابها ويقول: يا بنى عبد مناف، أى جوار هذا؟! ثم يليقه فى الطريق جانبا<sup>(١)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٦٩ .



# الفصل الرابع



من الخروج إلى الطائف  
حتى الهجرة الشريفة  
إلى المدينة المنورة



الخروج إلى الطائف: لقد ضاقت الدنيا برسول الله ﷺ بعد وفاة أبي طالب وزوجته خديجة، إذ كان للأول فضل دفع الأذى الجسماني عن رسول الله، وللثانية فضل تطيب نفس رسول الله وتفريج كربيه بما تبذله له من نور الكلام، وما تدخله في قلبه من يقين الطمأنينة، وما تغرسه في ثنايا إرادته من روح التصميم. فأصحابه قسم منهم هجر الأهل والوطن إلى بلاد الحيشة، والقسم الآخر يناله ما يناله من التنكيل على أيدي عتاة قريش، حتى هو عليه الصلاة والسلام لم يسلم من قاذع الكلام وسيء التصرفات، لا لشيء إلا لأنهم عبدوا إلهها واحداً وكفروا بما عداه من الآلهة المزيفة. لقد كانت قريش تقبض على السلطة، وكان رسول الله يقبض على الإيمان، وبدا الرسول حتى الآن أنه لا ينفع في الدنيا إيمان ولا حق ما لم تدعمه السلطة. وفكر رسول الله ﷺ أنه لو استطاع أن يجد الأرض الآمنة التي تمكنه من جمع أصحابه وإقامة السلطة فيها لاستطاع أن يجد للعقيدة المناخ المناسب في ظل السلطة، وفيه تستطيع أن تنمو وترعرع. استعرض رسول الله في مخيلته المناطق التي يمكنه أن يقيم سلطته فيها، فوجد أن الطائف هي أحسن مكان لذلك، لأسباب منها<sup>(١)</sup>:

إن في الطائف ثقيفاً وفيها بعض أخواله عليه الصلاة والسلام وهم أقرب لأن يبذلوا له الحماية، ويحيطوه بالرعاية؛ ولأن هناك مصاهرة بين أحد رعماء الطائف وقريش، ومن عادة العرب رعاية هذه الصلة. فظن رسول الله أنه إذا ما خرج إلى الطائف ودعا أهلها إلى الإيمان به ونصرته على أساس الإسلام والقيام معه للوقوف في وجه من خالفه من قومه، فإن أهلها لن يترددوا في قبول ما جاءهم به، لأنه الحق، ويجب أن يكون الحق رائد الإنسان، ونصرته مطلباً من مطالبه. وأيضا الطائف بلد زراعي، كثير الخيرات، ولو قدر الله له أن يحتضن الدعوة الإسلامية ويأوي أهلها، لوجد رسول الله وأصحابه بحبوحة من العيش تساعد على نشر الدعوة، وإقامة الدولة التي ستحتاج إلى كثير من المال لتسليح جندها وإقامة مرافقها، وكانت الطائف أصغر من مكة وهي مثلها مركز تجاري له أوثق الصلات بتجارة اليمن وتعمل بالتجارة وبالتعاون مع قريش أحيانا وذات مناخ الطف من مناخ مكة وكانت مشهودة بخصبها وجودة محصولاتها، وكان بعض ثروة قريش يمتلكون الأراضي فيه ويمضون فيها فصل الصيف<sup>(٢)</sup>. والطائف بلد في أعالي الجبال، والجبال تؤمن الحماية لمن يأوي إليها بما فيها من التضاريس، ولذلك رأينا الثورات كلها تلجأ إلى الجبال تحتوى بها إلى أن يصلب عودها. والطريق إلى الطائف طريق جبلي أيضا كثير الالتواءات والتضاريس، يؤمن الحماية لسالكه، لأنه يستطيع أن يختفي بسهولة بين تضاريسه، وهذا مفيد لأصحاب رسول الله عندما يريدون الانسحاب من مكة إلى الطائف. والطائف بلد ذو حصون، ولذلك استخدم رسول الله عند حصاره المنجنيقات

(١) د. محمد رواس قلمه جي - المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) د. نيه هائل - المرجع السابق ص ٤٩ .

لتهديم حصونه، ولو قدر للدولة الإسلامية أن تقام في الطائف لما استطاع أعداؤها النيل منها، لما في مدينة الطائف من حصون ولما تمتاز به من موقع استراتيجي دفاعي يجعل من العسير إذلالها وقهرها. لهذه الأسباب توجهت أنظار رسول الله إلى الطائف دون غيرها. فقد كان رسول الله ﷺ على مثل اليقين من ان الجزيرة سوف تدرك، ذات يوم، حقيقة الإسلام. إن عينه استطاعت، برغم ما اكتنفه من ضباب الأحداث الموثمة، أن تلمح شعاع أمل. كان الإيمان بأن أعداءه الألداء سوف يصبحون، ذات يوم، أصدقاءه المتسفانين، عميق الجذور في فؤاده. بيد أن قسوة قلوب المكيين اكرهته على الالتفات نحو الطائف، حيث رجا أن يعيره القوم أذنا واعية. مضى إلى هناك، يصحبه زيد<sup>(١)</sup>. خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف بنفسه ليكلم سادة ثقيف، ولما انتهى إليها، عمد عليه الصلاة والسلام إلى ثلاثة أخوة هم يؤمنذ سادة ثقيف وأشرفها: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبیب بن عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولا من الله كما تقول! لانت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه ذلك عنه لثلاثا تزداد جراتهم عليه وأذاهم له.

ذكر موسى بن عقبة أنه لما مات أبو طالب توجه النبي ﷺ إلى الطائف رجاء أن يجيبوه فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم وهم أخوة عبد ياليل وحبیب ومسعود بن عمرو فعرض عليهم نفسه وشكى إليهم ما انتهك منه قومه فردوا عليه أقبح رد<sup>(٢)</sup>. كما أشار إلى ذلك ابن إسحاق<sup>(٣)</sup>.

فلم يفعلوا، ولكن الأخوة الثلاثة أعاروه، ويا لحبيسته المريرة، أذنا صماء. ولبت ثمة نحواً من عشرة أيام بلغ خلالها رسالته أناساً كثيرين، ولكنهم ردوه، واحداً بعد آخر، رداً قبيحاً. لقد سخروا منه، في كل مكان، قائلين أن عليه، إذا كان صادقاً في دعواه، أن يقنع عشيرته الأقربين أولاً. وأخيراً سألوه أن يفارقهم، حتى إذا غادر البلدة أغروا به سفهاءهم فتبعوه ساخرين صائحين. لقد اصطفوا على الطريق من جانبيها حتى مسافة بعيدة، ورشقوه بالحصى على رجليه. وحين سال الدم منه وعجز عن مواصلة السير، حاول أن يجلس فأقبل عليه أحد السفهاء فرفعه من يده وصاح به:

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠٥.

(٢) رواية موسى بن عقبة في «المغازي» عن ابن شهاب أخرجهما بتسامها البيهقي - الدلائل: ٢ / ٤١٤ - ٤١٦ وكذلك أخرجهما الذهبي في السيرة النبوية ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) رواية ابن إسحاق نقلها عنه ابن هشام ١ / ٤١٩ - ٤٢١ وكذلك ابن عبد البر - في الدرر ص ٥٠ - ٥١.

«تابع سيرك، فليس لك حق في الاستراحة هنا» وظل على هذه الحال، حتى اجتاز ثلاثة أميال كاملة، وأمطر بوابل من الحجارة إثر وابل، إلى أن تلطخت نعلاه نفسها بالدم وأخيراً، بعد أن تركه معذبوه وشأنه، جلس إلى ظل شجرة في حديقة التماسا لشيء من الراحة. ورثا لحاله صاحب تلك الجنيئة، عتبة ابن ربيعة، برغم أنه كان كافرًا، فبعث له بقطف من عنب الحائط مع مولاه المسيحي عداس. فبسط الرسول يده إلى قطف العنب ونطق بهاتين الكلمتين: «باسم الله»، وهما كلمتان يفترض في كل مسلم أن يرددهما كلما باشر عملاً من الأعمال. ودهش العبد المسيحي لدن سماعه هاتين الكلمتين، وقال: «هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد!» فسأله الرسول عن بلده ودينه، فلما علم أنه مسيحي من نينوى قال له: «أمن بلدة الرجل الصالح يونس بن متى؟» فسأله عداس: «وما يدريك ما يونس بن متى؟» فقال الرسول: «ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى» فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه، وبلغه رسول الله محمد ﷺ رسالة، فشرح الله صدره للحق، على التو. وإذا ألقى الرسول ان البشر يردونه في كل بقعة، توجه إلى الله العلى القدره يلتمس منه العون في غمرة عجزه المطلق ذاك. ولكن صلواته لم تكن تعبيراً عن مشاعر القنوط والفجيعة، فقد كانت هذه المشاعر غريبة عليه بالكلية. كان قلبه أحفل بالإيمان في العون الألهى من أن يجار قائلًا: «إلهى! إلهى! لم خذلتنى؟» لا، لقد خاطب الله على النحو التالي<sup>(١)</sup>.

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين. انت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أو إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحمل على سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!» ألا ليت كان ثمة فى بعض الصدور البشرية قلب رقيق لكى يدرك صفاء الروح التى اطلقت العنان لمشاعر فى مثل هذا السمو كله، وسط ظروف فى مثل هذه القسوة كلها! وهل يتصور العقل أن فى ميسور دجال من الدجالين أن يصدر قلبه عن هذه الاحاسيس النبيلة إلى هذا الحد، وبخاصة حين يعبر عنها بعد معاناة هذا البلاء العظيم مباشرة؟ يا للهدوء الاعجوبى الذى احتمل به كل هذه المشاق التى لا يطيقها أى إنسان على وجه الأرض البتة! أجل، لقد احتمل، بثبات مذهل، جميع تلك المصاعب التى كان خليقاً بها ان تغرى أيما امرئ آخر بالانتحار. أى إيمان راسخ بالله كان إيمانه، وأى اذعان بهيج للمشيئة الإلهية كان اذعانه، وأى سعادة روحية محضة كانت سعادته! إن هذه كلها، كذلك قال، لم تكن شيئاً مذكوراً ما دام يتمتع برضا الله وارتياحه.

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٠٧.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يش من خير ثقيف، حتى إذا كان بوادي نخلة قام من جوف الليل يصلي، فمر به سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولسوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وقد قص الله علينا خبرهم في القرآن، فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ صَرَقْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٧﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف].

نقل عن البيهقي قوله: حديث ابن عباس حكى ما وقع في أول الأمر عندما علم الجن بحالة رسول الله محمد ﷺ وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود<sup>(١)</sup>، كما أوضح الحافظ أن البيهقي بهذا أشار إلى ما أخرجه أحمد والحاكم<sup>(٢)</sup> من طريق زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود «هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخل، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، وكانوا سبعة أحدهم زبيعة»<sup>(٣)</sup> وهذا يوافق حديث ابن عباس.

لقد كان إيمان الجن برسول الله بعد أن ناله ما ناله على أيدي ثقيف تسلية أنسته آلامه، وكان تأكيداً جديداً لرسول الله بأن الله تعالى لن يتركه، بل هو معه دائماً، يجعل له من الأحزان ضياءاً، وس الآلام عزاء. فإيمان الجن تأكيد جديد لرسول الله بأن أهل الأرض إن تخلوا عنه وآذوه ففى العوالم الأخرى من الجن والملائكة ما يشد أزره وينصره ويدعو بدعوته. وإيمان الجن أيضاً أمل جديد لرسول الله فى تحول طائفة من العتاه الكافرين إلى الإيمان بالله وبرسوله، كما تحول الجن - وهم فى أصلهم من شرار خلق الله، من نسل إبليس اللعين - إلى مؤمنين، بل إلى دعاة لهذا الدين الجديد الذى يدعوا إليه رسول الله. وسار رسول الله أدراجه إلى مكة حتى وصل إلى حراء، المكان الذى وجد فيه الإشراق الروحى أول ما وجد، ونزلت عليه منه أول آيات القرآن الكريم، وأخذ يفكر، كيف يدخل مكة؟ إن ريانيتها له بالمرصاد بعد أن علموا بنشاطه الجديد، وفشله الجليد، ولذلك رأى أنه لا يستطيع أن يدخل مكة دون أن يبذل له الحماية بعض أولى الشوكة فيها. فبعث إلى الاخنس بن شريق ليجيره، فقال له معتذراً: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال له معتذراً: إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فأجابه إلى ذلك، ثم تسلم المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث لرسول الله: أن أدخل، فدخل رسول الله فطاف بالكعبة وصلى عندها، ثم انصرف إلى منزله لا يجزؤ أحد أن ينال منه<sup>(٤)</sup>.

(١) البيهقي - الدلائل: ٢ / ٢٧٧ وزاد بعد قوله كما حكاه عبد الله مسعود ورأى آثارهم وآثار نيرانهم.

(٢) الحاكم - المستدرک مع التلخیص ٢ / ٤٥٦ - جامع البيان ٢٦ / ٣١.

(٣) فتح الباري - ٧ / ١٩١.

(٤) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٧٤.



وما هي غير أيام قليلة حتى انقلب إلى مكة بعد أن تعهد المطعم ابن عدي بأن يمنعه من عدوه. وهناك ارتقب أن يرشده الوحي الإلهي إلى السبيل التي يحسن به أن يسلكها: أيهاجر من مكة أم يقيم فيها؟ حتى إذا دخل الناس في موسم الحج، عرض نفسه على كل قبيلة من القبائل التي تقاطرت إلى هناك من أقطار بلاد العرب جميعاً، يدعوها إلى الحق، ويخبرها انه نبي مرسل ويسألها أن تصدقه ولكنه كان كلما مخاطب جماعة منهم، شارحاً لها المبادئ الإسلامية تبعه أبولهب، سائلاً الناس ان لا يصدقوه، لأنه مبتدع يريد الاطاحة بسطان «اللات» و«العزى» الروحي. وهكذا لم يوفق إلى اثاره اهتمام القوم إلا قليلاً. وردته بعض القبائل ردّاً قبيحاً ولكنه لم يأس. وعبرت إحدى القبائل عن إعجابها بتعاليمه، ولكنها اعتذرت بعجزها عن التنازل لدين آباؤها دفعة واحدة. وتساءلت قبيلة أخري بنو عامر هل سيكون لهم في حال انتصاره نصيب في الملك الذي سيتم له إذا ما أيدته ودخلت في دينه، فأجابهم الرسول بقوله ان الله يؤتي الملك من يشاء فولوا عنه وجوههم وردوه كما رده غيرهم. وهذه الحادثة، برغم تفاهتها، تغني عن مجلدات تؤلف في نزاهة النبي و إخلاصه، فلو كان السلطان الشخصي هو هدفه، كما رعم الزاعمون في كثير من الأحيان، اذن فما الذي كان يمنعه من اكتساب قبيلة برمتها بمجرد إعطائها وعداً بتحقيق ما طلبت؟ ولكن الواقع هو أن الفوز بالسلطة الزمنية لم يكن في أيما يوم هدف جهوده. كان قلبه يتفطر في جوانحه أسى على تفسخ البشرية وانحطاطها. وكان السمو بالإنسان في مراقى انسانيته هو هدف حياته الاوحد. وكان يتطلع في لهفة إلى العون الإلهي، وهو عون لم يشك الرسول لحظة في انه آت لا محالة، أما متى سيتم ذلك فهذا ما لم يستطع تحديده<sup>(١)</sup>.

**الإسراء والمعراج معجزتان:** بعد أن أصاب رسول الله ما أصابه من الأذى الجسدي بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يدفع عنه الكثير من الأذى بما له من مكانة وشرف في مكة، وبعد أن أصابه ما أصابه من التعب النفسى بعد وفاة روجه خديجة التي كانت البلسم الذي يداوى الجراح التي يصيبها المشركون من رسول الله، وبعد ما أصابه من خيبة الأمل بعد خروجه إلى الطائف، أراد الله أن يكرمه بهذه الرحلة المباركة - رحلة الإسراء والمعراج - وكان الله عز وجل يقول له: يا محمد إن ضاقت بك الأرض فقد اتسعت لك السماء، وإن عاداك أهل الأرض، فإن أهل السماء يرحبون بك، وإن أهانك أهل الأرض، فإن مكانك عند الله عظيم. وإن الذي علينا أن نذكره دائماً ولا ننساه هو أن حادثة الإسراء والمعراج معجزة وقعت لرسول الله ﷺ. وعندما نقول «معجزة» فإنما نعني بذلك تعطل القوانين الكونية، وعندها تحترق كل الأسئلة والاستفسارات: كيف استطاع رسول الله أن يقطع تلك المسافة الشاسعة بين مكة وبيت المقدس في دقائق؟ وكيف احتمل جسمه الشريف تلك الحرارة الهائلة المتولدة من احتكاك جسمه بالهواء؟! وكيف استطاع التخلص من الجاذبية الأرضية والعروج إلى السماء

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠٨ .

بلاواسطة؟ وكيف عاش بلا هواء بعد تجاوزه الغلاف الهوائي المحيط بالأرض؟! كيف... وكيف...  
 وألف كيف... ورسول الله قطع هذه الرحلة بلا أجهزة وإقية، ولا معدات مساعدة، لأن هذه الأسئلة  
 كلها ترد أن الأمر قد تم على سنن القوانين الكونية... أما إنه قد تم خارج أطر هذه القوانين، بقدره  
 القادر على كل شيء، فإن هذه الأسئلة كلها لا تلبث أن تذوب في غمرة الإيمان بالله القادر على كل  
 شيء. وطالما أن المعجزة خروج على القانون الكوني وتعطيل له، فإن هذا لا يتأتى لنبي ولا لغيره من  
 المخلوقات، وإنما هو لمن وضع تلك القوانين جل شأنه، فالنبي لا يصنع المعجزات ولكن الله تعالى  
 هو الذي يجريها على يديه، وشتان ما بينهما. وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة في كتابه الكريم في  
 الحوار الذي سجله القرآن الكريم بين المشركين من جهة، ورسول الله تعالى من جهة أخرى فقال  
 المشركون للرسول: ﴿... إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ  
 ﴿١٠﴾ [إبراهيم]، أى معجزة ظاهرة، فأجابهم رسل الله تعالى: ﴿... إِنَّ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ  
 اللَّهَ يُمِنُ عَلَيَّ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴿١١﴾ [إبراهيم]. وبذلك  
 نقر نهائياً أن المعجزة ليست من صنع الرسل، ولكنها من صنع الله تعالى<sup>(١)</sup>.

عن ابن شهاب قال: قال أنس بن مالك: «كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله  
 محمد ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي»<sup>(٢)</sup> وقد أشار إلى أن شرحه قد ورد في «أوائل<sup>(٣)</sup> الصلاة»<sup>(٤)</sup>.

### أنواع المعجزات:

ونحن لو استقرنا المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي رسوله الكرام لامكننا تصنيفها  
 إلى صنفين: الأول: المعجزات المادية: وهي المعجزات المرئية أو الملموسة كانشقاق القمر ونبع الماء من  
 بين أصابع الرسول عليه الصلاة والسلام ورده العين المقلوعة سليمة، ونحو ذلك. وهذا النوع من  
 المعجزات يحدث ثم ينقضى، فلا تتجاوز آثاره الزمن الذي حدثت فيه، ولا تبقى بقاء الأيام. الثاني:  
 المعجزات المعنوية: وهي المعجزات التي لا ترى بالعين الباصرة، ولكن بالعين الواعية، ولا تلمس  
 باليد، ولكنها تلمس بالفكر والقلب والوجدان. ويأتي القرآن الكريم في قمة المعجزات المعنوية فهو  
 أعظمها أثراً وهو المعجزة الباقية لرسول الله ﷺ، ثم يليه معجزة الإسراء والمعراج التي أخير بها رسول  
 الله ﷺ، وقد كان لهاتين المعجزتين أثر كبير في رسم المنهاج الجديد للحياة الإنسانية المقبلة. كل  
 معجزة تحدث لنبي لا بد وأن يكون لها هدفان، هدف عام وهدف خاص أما الهدف العام: فهو إقامة  
 الدليل على أن الرسول الذي أظهرت على يديه المعجزة صادق فيما يدعيه، ويدعو إليه، وبذلك تكون  
 المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى: صدق عبدي في كل ما يبلغ عنى. وأما الهدف الخاص: فإنه

(١) د: محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٧٧.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في باب إدريس عيسى السلام صحيح البخاري مع فتح الباري ٦ / ٣٧٤ - ٣٧٥ حديث رقم ٣٣٤٢.

(٣) فتح الباري ١ / ٤٥٩ - ٤٦٤ شرح حديث رقم ٣٤٩٠ باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء.

(٤) فتح الباري ٦ / ٣٧٥

يتمثل في الأثر الذي تتركه هذه المعجزة، وبقدر ما يعظم الأثر، بقدر ما تعظم تلك المعجزة. إن أعظم المعجزات أثرا هي القرآن الكريم، ثم تتلوه معجزة الإسراء والمعراج، فترتيب الإسراء والمعراج بين المعجزات هو الثاني بعد القرآن الكريم ونستطيع أن نجزم بأن حادثه الإسراء والمعراج هي حادثة مبرمجة، أعنى أنها داخلة ضمن برنامج خاص أحكمه الله تعالى، وجعل له دلالة، ويكشف هذا البرنامج وهذه الدلالات من درس بأمعان سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام. فكيف حدثت معجزة الإسراء والمعراج، وما هي دلالاتها وأبعادها: في ليلة من الليالي المشرقة بالأنوار الإلهية، وبينما كان الرسول الله متوسدا فراشة بين النائم واليقظان أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بالبراق، وهي الدابة التي كان يحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها، فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى، في نفر من الأنبياء قد جمعوا له. فأمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم. ثم أتى بإناءين إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر، فقال له جبريل عليه السلام: هديت للفطرة وهديت أمتك يا محمد<sup>(١)</sup>. أوضح أن المراد في ليلة الإسراء قال البخاري إلى أن المعراج كان في ليلة الإسراء<sup>(٢)</sup>. وكانا في ليلة واحدة في يقظة رسول الله محمد ﷺ وهذا هو المشهور عند الجمهور<sup>(٣)</sup>.

يروى لنا الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري قصة معجزة المعراج كما سمعها من رسول الله فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى بالمعراج ولم أر شيئا قط أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا خضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك» يقول رسول الله ﷺ حيث حدث بهذا الحديث: ﴿... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ [المائدة: ٣١]. فلما دخل بي قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا محمد. قال: أو قد بعث؟ قال: نعم. قال: فدعا لي بخير وقال. ولما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بنى آدم، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويسر به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويقول لبعضها إذا عرضت عليه: أف، ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب! وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها وكرهها وساء ذلك، وقال: روح خبيثة خرجت من

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٧٨.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري: ١ / ٤٥٨.

(٣) فتح الباري: ١ / ٤٥٩ - ٤٦٠.

جسد خبيث! ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار (حجر مقدار الكف)، يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أديبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما. ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط، بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة (العطاش) حين يعرضون على النار، يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن (الضعيف)، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن. ثم رأيت نساء معلقات بشديهن، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجل من ليس من أولادهن. ثم أصعدنى إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا. ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا أخوك يوسف بن يعقوب. ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة، فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية، عظيم العثون (اللحية)، لم أر كهلا أجمل منه، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا المحبب قومه هارون بن عمران. ثم أصعدنى إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدم طويل أقى، كأنه من رجال شنوءة، فقلت له: من هذا يا جبريل؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أصعدنى إلى السماء السابعة، فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة، لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم.

أقول: ثم دخل رسول الله سدره المنتهى، وإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، وفرض فيها على رسول الله وعلى أمته الصلاة، خمسين صلاة فى اليوم والليلة بعد أن كان ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء، كما كان يفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام.

يقول عليه الصلاة والسلام: «ثم دخل بى الجنة فرأيت فيها جارية لعساء (التي يضرب لون شفتها إلى السواد قليلا) فسألتها: لمن أنت؟ وقد أعجبتنى ورأيتها، فقالت: لزيد بن حارثة». فبشر بها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة. قال رسول الله ﷺ: «فأقبلت راجعا، فلما مررت بموسى بن عمران، ونعم الصاحب كان لكم، سألنى كم فرض عليك من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة كل يوم، فقال ان الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك، فرجعت فسألت ربي أن يخفف عنى وعن أمتى، فوضع عنى عشرا، ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لى مثل ذلك، فرجعت، فسألت ربي فوضع عنى عشرا، ثم انصرفت، فمررت على موسى فقال مثل ذلك، فرجعت فسألته، فوضع عنى عشرا، ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك، كلما رجعت

إليه قال: فأرجع فأسأل، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة، ثم رجعت إلى موسى، فقال لى مثل ذلك، فقلت: قد رجعت ربي وسألته حتى استحييت منه، فما أنا بفاعل. فمن أداهن منكم إيماناً واحتساباً لهن، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة». وقد فرض الله الصلاة فى السماء ليدل على أهميتها التى لا تدانيها أهمية، شرعت فى السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدنت بهم شهوات النفوس، ويسمو بنفوسهم كل يوم خمس مرات.

وقد فرضت الصلاة فى المعراج<sup>(١)</sup> وهنا تكمن أهمية الصلاة لأنها فرضت من الله سبحانه وتعالى، وقال ابن حجر: والحكمة فى وقوع فرض الصلاة ليلة المعراج أنه لما قدس ظاهراً وباطناً حين غسل بماء زمزم بالإيمان والحكمة، ومن شأن الصلاة أن يتقدمها الطهور ناسب ذلك أن تفرض الصلاة فى تلك الحالة وليظهر شرفه محمد ﷺ فى الملأ الأعلى، ويصلي بمن سلفه من الأنبياء وبالملائكة، ولينا جى ربه، ومن ثم كان المصلي يناجى ربه جلّ وعلا<sup>(٢)</sup>. وقال ابن عباس: «يأمرنا النبي ﷺ بالصلاة والصدق والعفاف...»<sup>(٣)</sup>.

وهنا ثلاث نقاط يجدر بنا الوقوف عليها لأن لها مدلولاتها السياسية والاجتماعية والروحية البعيدة المدى، النقطة الأولى: الإسراء إلى بيت المقدس بالذات والصلاة فيه، والنقطة الثانية: صلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء إماماً، واقتداء الأنبياء به، والنقطة الثالثة: اختياره ﷺ كأس اللبن دون كأس الخمر، وقول جبريل له: هديت للفطرة وهديت أمتك. هذه النقاط الثلاث بالذات<sup>(٤)</sup>:

إن قيادة العالم حتى حدوث معجزة الإسراء والمعراج كانت بيد بنى إسرائيل، لأن البقية الباقية من الأديان السماوية، وهى اليهودية والمسيحية، هى ديانات إسرائيلية، ولكن الناس الذين حملوا هذه الديانات لم يعودوا أهلاً للقيادة، لعبثهم بالمبادئ، وبيعهم إياها بأبخس الأثمان، حيث حرفوا الأديان، وشوهوا معالمها، فلا المبادئ بقيت صالحة لقيادة العالم، ولا حاملو المبادئ بأهل لهذه القيادة، لذلك كان لابد من انتزاع عصا القيادة من أيديهم وتسليمها لقوم آخرين يختارهم الله تعالى لحمل الأمانة. وكانت هذه النقطة - نقطة الاتفاق على المبادئ الحاكمة، ونوعية الرجال الحاكمين، لابد من الاتفاق عليها، وإرساء قواعدها قبل البدء بتأسيس الدولة الإسلامية التى وضع رسول الله ﷺ حجر الأساس فيها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة. ونحن نعلم أن إحكام بناء الدولة لا يمكن ان يتم إلا بتوفر أمرين اثنين:

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢ / ٢٠٩ - ٢١٥ باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات، صحيح البخاري مع فتح الباري: ١ / ٤٥٨ رقم ٣٤٩ باب كيف فرضت الصلاة وفي ما جاء فى زمزم.  
(٢) فتح الباري ١ / ٤٦٠، فتح الباري ٧ / ١٩٦ - ٢٠١ باب حديث الإسراء.  
(٣) أخرجه البخاري فى باب كيف فرضت الصلوات فى الإسراء مع فتح الباري: ١ / ٤٥٨.  
(٤) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٨٠.

الأمر الأول: المبادئ والنظم المحكمة المتمشية مع الفطرة البشرية، لأن المحكوم بها لا يشعر بأنه مقهور بها، بل موجه لما فيه خيره وسعادته. والأمر الثاني: الأيدي النظيفة الأمينه المخلصة التي تتولى تطبيق هذه النظم.

ومن هنا كان اختيار رسول الله ﷺ لفتح اللب الذي يمثل الفطرة، وقول جبريل عليه السلام له هديت للفطرة وهديت أمتك، إن ذلك يعني: أن النظم التي ستنزل عليك لتقيم دولة الإسلام على أساسها، وتحكم بها بين الناس أنت وأمتك من بعدك هي الفطرة التي لا يجد الناس حرجاً بالأخذ بها، والفطرة قد ينحرف بها صاحبها، ولكنها تبقى دائماً لا تتبدل وهذه النظم التي ستنزل عليك يا محمد باقية بقاء الفطرة، والفطرة باقية ما بقي الإنسان، فهي باقية ما بقي الإنسان.

وتقدم رسول الله وصلاته بالأنبياء إماماً، وإقرار الأنبياء له على ذلك واقتداؤهم به، وهو تحول سياسي جذري، نزعته به القيادة من أيدي بني إسرائيل، وأسلمت إلى الأمة المحمدية وأبطل به العمل بقيم محرقة مهترئة، لتحل محلها قيم أخرى جديدة عادلة فطرية، تلك هي «القيم الإسلامية». وهذا التحول هو تحول مشروع باركه ممثلو الأمم وعقلاؤهم المعصومون، وهم الأنبياء، ولهذا فإن كل اعتراض عليه يعتبر اعتراضاً غير مشروع، وكل مقاومة له تعتبر مقاومة مردودة، تريد أن تنصر الباطل وتطفئ الحق، وهي خروج على القانون، ومقاومة هذا شأنها لا بد وأن تنال ما تستحق من القمع. كانت هذه هي الأرضية الفلسفية السياسية التي أعطت الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله في المدينة المنورة الحق في قمع وتصفية جميع حركات المقاومة التي ظهرت في وجه الدولة الإسلامية وفي وجه انتشار مبادئها التي قامت من أجلها، وأخص منها بالذكر المقاومة اليهودية في المدينة المنورة وما حولها، فقد وضع رسول الله ﷺ برنامجاً دقيقاً لتصفيتها، وبدأ بتنفيذ هذا المخطط من العام الثالث للهجرة. وإن الإسراء برسول الله إلى بيت المقدس خاصة وصلاته فيه إماماً بالأنبياء، وعروجه منه إلى السموات يعني أن بيت المقدس جزء من أراضى الدولة الإسلامية المرتقبة، لأن صاحب البيت هو صاحب الحق بالإمامة في الصلاة، فتقدم رسول الله إماماً بالصلاة في بيت المقدس دليل على أنه هو صاحب البيت دون غيره، وأن اقتداء الأنبياء به في الصلاة يدل على إقرارهم بأن بيت المقدس بقعة من جملة البقاع الإسلامية التي ترفرف عليها أعلام الشريعة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

عن ابن مالك قال رسول الله محمد ﷺ: «ثم دخلت بيت المقدس، فجمع لي الأنبياء، فقدمني: جبريل حتى أمتهم»<sup>(٢)</sup>. وفي الحديث عن الحاكم: «إنه صلى ببيت المقدس مع الملائكة وأنه

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٨١.

(٢) رواية يزيد بن أبي مالك - النسائي - سننه شرح السيوطي ١ / ٢٢٢ ونقلها ابن كثير في التفسير: ٦ / ٣.

أتى هناك بأرواح الأنبياء فأتوا على الله، وفيه قول إبراهيم «لقد فضلكم محمد»<sup>(١)</sup> وعن أنس «ثم بعث له آدم فمن دونه فأمهم تلك الليلة»<sup>(٢)</sup>.

إن صلاة رسول الله بالأنبياء على اختلاف قومياتهم وألوانهم يعنى أن الدولة الإسلامية تظل بمبادئها جميع المؤمنين، فلا تفرق بين أسود وأبيض، ولا بين عربى وأعجمى. . . تدوب القوميات كلها فى بوتقة الإيمان ثم تسكب فى قوالب الامتثال لشريعة الله عز وجل وان فرصة التفوق والتسامى متاحة فى هذه الدولة للجميع على قدر متساو، وإن أبواب الدولة مفتحة للارتقاء بمن يظهرون التفوق، كإتاحة الفرصة أمام جميع المصلين على قدر متساو للتسامى، وإن أبواب السماء مفتحة لاستقبال أعمال المتسامين. وبذلك تكون معجزة الإسراء قد وضعت أساساً جديداً لبناء المجتمع الجديد المزمع إنشاؤه فى ظل مبادئ الإسلام ودولته. لا بد لنا من أن نذكر أن معجزة الإسراء والمعراج قد حدثت على أعقاب سلسلة من المآسى حلت برسول الله محمد ﷺ، منها موت عمه أبى طالب الذى كان يذب عنه أذى قريش، وموت زوجته خديجة التى كانت تزيد فيه روح التصميم قوة ومضاء، واشتداد أذى قريش ومن معها عليه، حتى سمي بذلك العام بـ «عام الحزن» فأراد الله تعالى أن يسلى رسوله فكانت هذه الرحلة المباركة التى صلى فيها رسول الله بالأنبياء إماماً فى بيت المقدس، وكان الله تعالى يقول لنبيه وحبيبه: يا محمد إن المستقبل لك ولأمتك بعدك، حتى إن حدود دولتك لتتجاوز بيت المقدس، وحتى إن ميراث الأديان السابقة ليكون فى كنفها<sup>(٣)</sup>.

وكان رسل الله يقولون له وهم يصلون خلفه: امض إلى ربك ونحن معك، وكان ملائكة الله فى السماء تقول له وهو يعرج فيها: إن ضاقت بك الأرض فالسما قد فتحت صدرها إليك، ولئن أذاك جهلة وطغاة أهل الأرض فأهل السماء يقفون فى استقبالك. كل هذا جعل روحاً جديدة تسرى فى رسول الله وفى المؤمنين، فما إن عاد رسول الله من رحلته المباركة تلك جعل يعرض الإسلام على القبائل الوافدة إلى الحج بكل همة ونشاط.

وما أن عاد رسول الله من رحلته المباركة إلى بيته فى مكة حتى أوى إلى فراشه ثم لم يلبث أن غدا على قريش فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الكذب البين! والله إن القافلة لتسير شهراً من مكة إلى الشاة مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيزهد ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! وارتد كثير من ضعفة الإيمان عن كان قد أسلم، وآمن بذلك وصدق كثير. وكان ممن آمن وصدق أبوبكر الصديق رضى الله عنه، فقد ذهب الناس إليه فقالوا له: هل لك يا أبابكر فى صاحبك، يزعم أنه قد

(١) الحديث أورده الهيثمي فى مجمع الزوائد: ١ / ٧٢ - ٧٧ والطبري فى جامع البيان: ١٥ / ٨ والبيهقي فى الدلائل: ٢ / ٤٠٠

- ١١٠ نقلًا عن أبى عبد الله الحافظ (الحاكم) وابن كثير فى تفسيره مطولاً: ٣ / ٧١.

(٢) رواية عبد الرحمن بن ماشم عن أنس أخرجه الطبري فى جامع البيان: ١٥ / ٦ وكذلك أخرجه البيهقي فى الدلائل: ٢ / ٣٦٢.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٨١.

جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة! فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه؟ فقالوا: بلى. ها هو ذلك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه! فهذا أبعد مما تعجبون منه<sup>(١)</sup>.

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم قال: يا نبي الله فصفه لي، فإني قد جئته. فقال رسول الله ﷺ: فرفع لي حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله. حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذ سماه «الصديق» رواية أم سلمة عن رسول الله ﷺ (قال تسألوني عن أشياء لم أثبتها فكربت كرباً لم أكرب مثله قط، فرفع الله لي بيت المقدس أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم به)<sup>(٢)</sup>. وعن ابن عباس<sup>(٣)</sup> «فجئء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار عقيل فنعتته وأنا أنظر إليه) وهذا أبلغ في المعجزة ولا استحالة فيه، فقد أحضر إليه وما ذلك في قدرة الله بعزيم<sup>(٤)</sup>، أما عن ابن سعد<sup>(٥)</sup> «فخيّل إلي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته) كما ورد نظيره في حديث (أريت الجنة والنار)<sup>(٦)</sup> وحديث ابن أوس<sup>(٧)</sup> (جئء بالمسجد) حيث ورد فيه «ثم مررت بعير لقريش - فذكر القصة - ثم أتيت أصحابي بمكة قبل الصبح، فأتاني أبو بكر فقال: أين كنت الليلة؟ فقال: إنني أتيت بيت المقدس، فقال إنه مسيرة شهر فصفه لي، قال ففتح لي شراكاً كأنني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه<sup>(٨)</sup>». كما أشار إلى أنه وقع في حديث أم هانئ أيضاً أنهم (قالوا له كم للمسجد من باب؟ قال ولم أكن عددها، فجعلت أنظر إليه وأعدّها باباً باباً)<sup>(٩)</sup>. ووصف رسول الله ﷺ لأصحابه من لقبه من الأنبياء فقال:

أما إبراهيم: فلم أر رجلاً أشبه قط بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه. وأما موسى: فرجل آدم طويل ضرب جعد أفنى (العالي قصبة الأنف) كأنه من رجال شنوءة (قبيلة الأزدي) وأما عيسى بن مريم: فرجل أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه (جمع خال أي

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٨٢.

(٢) رواية عبد الله بن الفضل عن أم سلمة صحيح مسلم بشرح النووي: ٢ / ٢٣٨.

(٣) حديث ابن عباس أخرجه أحمد في المسند: ١ / ٩٣ - البيهقي في الدلائل: ٢ / ٣٦٤، وابن كثير في التفسير ٣ / ١٥

والطبراني في المعجم الكبير، ١٦٨٨ رقم ١٢٧٨٢.

(٤) عمدة القارئ: ١٤ / ٤ فتح الباري ٧ / ٢٠٠.

(٥) حديث أم هانئ عن ابن سعد - الطبقات: ١ / ٢١٥.

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري: ١١ / ٢٩٥ رقم ٦٤٦٨.

(٧) حديث شداد بن أوس عند البزار - الهيثمي - الاستار ١ / ٣٦ - ٣٧ رقم ٥٣.

(٨) الطبراني - المعجم الكبير ٧ / ٢٤٠ - ابن كثير في التفسير ٣ / ١٤.

(٩) فتح الباري: ٧ / ٢٠٠.



شامة) كأنه خرج من ديماس (الحمام)، تخال رأسه يقطر ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى .

إن حادثة الإسراء والمعراج التى امتحن الله سبحانه بها الناس فأمن بها من آمن وكذب من كذب كانت قبل الهجرة بسنة، يعنى أنها كانت قبل إعلان قيام الدولة الإسلامية بسنة، وهنا يبدو لنا أهمية هذا التوقيت. إنها احدثت فى مكة هزة عنيفة، ونشاطاً غير عادى، فالتقاش فيها يدور بين كافة الفئات، ويستتبع هذا النقاش حول المبادئ التى نزلت على رسول الله محمد ﷺ، ونتيجة لهذا النقاش وذاك يدخل فى الإسلام أناس ويخرج منه أناس وكان هذا ضرورياً قبل إعلان قيام الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، بل يقول: إن كشف العناصر كان لا بد منه ليعلم رسول الله محمد ﷺ عندما يعلن إقامة الدولة الإسلامية من العناصر يمكن الاعتماد عليه فى بناء هذه الدولة، ومن منهم يجب استبعاده، من منهم يصلح أن توكل إليه فى بناء دولة الإسلام مهمة من الدرجة الأولى ومن منهم يصلح أن توكل إليه مهمة من الدرجة الثانية. ولما أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة وأمره بإقامة دولة الإسلام فيها كان سهلاً على رسول الله وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب. ولذلك آتت الدولة أكلها فى أقصر زمن عرفه التاريخ لدولة أن تؤتى أكلها طيباً مباركاً<sup>(١)</sup>.

الهجرة إلى المدينة المنورة: عاد رسول الله ﷺ من رحلته المباركة، رحلة الإسراء والمعراج، وقد شحنت عزيمته بقوة جديدة تتحطم عليها الشم الراسيات، وبدأ نشاطه فى الدعوة إلى الله، منتظراً موسم الحج، حيث يكثر القادمون من القبائل إلى مكة. وما أن حل الموسم ووفدت القبائل ووجوه الناس حتى أخذ عليه الصلاة والسلام يطوف عليهم فى أماكن نزولهم فى منى، يعرض عليهم أمره، ويطلب منهم أمرين اثنين: أولهما: الإيمان بالله تعالى وحده ونبذ ما سواه، من الألهة المزيفة، والإيمان بمحمد رسول الله، والثانى: حماية رسول الله والدفاع عنه والوقوف فى وجه من عاداه حتى يبلغ رساله ربه. فسأتى رسول الله كندة، وكانت تضرب خيامها فى زاوية من زاويا منى وفيهم سيد لهم يقال له «مليح»، فدعاهم إلى الله تعالى، وطلب منهم الإيمان والنصرة والحماية، فأبوا ذلك عليه، فلم يستجيبوا له. ثم أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له «بيحرة ابن فراس»: والله لو أتى أخذت هذا الفتى من قريش لاكلت به العرب! ثم قال له: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أكون لنا الأمر من بعدا قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه. وبذلك يعلن رسول الله إنه لا يقبل بين صفوف الدعوة انتهازياً ولا نفعياً<sup>(٢)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٨٣.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قریش، هو أحد بنى طالب، يزعم أنه نبى، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا! فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بنى عامر هل لها من تلاف، هل لذناهاها من مطلب! والذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلى قط، وإنما لحتى، فأين رأيكم كان عنكم؟ ثم قصد عليه الصلاة والسلام بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن من العرب أقبح عليه ردًا منهم. وجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن مطلب «النصرة» يقف حجر عثرة فى وجه الاستجابة إليه، فرأى عليه الصلاة والسلام أن من السياسة طى هذا المطلب مؤقتًا إلى أن تتشرب القلوب الإيمان وتشعر بحلاوته، والاكتفاء بالعودة إلى الإيمان بالله تعالى الواحد، ونبد عبادة ما سواه، لأن مطلب «النصرة» يعنى معادة قریش التى تعادى رسول الله ﷺ، والعرب على غير استعداد لمعاداة قریش ذات المكانة فى قلوبهم من أجل رسول الله محمد ﷺ أو من أجل دعوته التى لم تدخل قلوبهم بعد، وهذا ما حصل بالفعل، فقد أخذ رسول الله يدعو إلى الإيمان دون أن يذكر شيئًا عن النصره. وبذلك اتصل رسول الله محمد ﷺ بعدد من القبائل العربية وعرض عليهم الإسلام وهم «كندة» و«بنو كلب» و«بنو حنيفة» و«بنو عامر»<sup>(١)</sup>.

ولكن رسول الله لم يلبث أن تحولت أنظاره عن القوم كلهم وتركزت حول أهل المدينة المنورة لأسباب منها: إن أهل المدينة المنورة يعيشون لجوار اليهود، واليهودية دين سماوى، فلا بد من أن يكون عندهم من التفتح الفكرى بتأثير الجوار ما يجعلهم أكثر من غيرهم قبولًا للإسلام، لأن أصول الأديان واحدة. إن أرض المدينة المنورة تعتبر أصلح أرض لإقامة الدولة الإسلامية - وهى الدولة التى يعمل محمد صلوات الله عليه لإقامتها لىتمكن من تطبيق شريعة الله تطبيقًا كاملاً. وإنما كانت المدينة أنسب أرض لأن رسول الله يعلم أن المدينة يقيم فيها طائفتان من الناس: العرب الوثنيون، واليهود الكتائبون، وبينهما نزاع وتطلع إلى السيادة، فإذا استطاع رسول الله أن يجذب إليه وإلى مبادئه إحدى هاتين الطائفتين أمكنه السيطرة على الموقف، وامتلاك رمام الأمور، وقدر رسول الله أن العرب سيكونون أعون له من اليهود، لأن الحقد القومى لليهود، باعتبارهم من بنى إسرائيل، سيمنعهم من الانضواء تحت راية رجل من العرب. ولذلك فإنه عليه الصلاة والسلام ما إن سمع بأن نفرًا من أهل المدينة - الخزرج - ينزلون عند العقبة حتى أسرع إليهم، وعرض عليهم الإسلام، دون أن يذكر شيئًا عن الحماية، لأنه قدر أن طلب الحماية سيحول بينهم وبين الإسلام، وخاصة أن الخزرج كانت غارقة

(١) ابن هشام - القسم الأول - ص ٤٢٣.

فى بحر من الدماء فى نزاعها مع الأوس، القبيلة العربية الثانية التى تسكن المدينة المنورة، فهى لا تقبل أن تزيد مشاكلها بمناسبة قريش أيضا العداة<sup>(١)</sup>.

وكان الخزرج وغيرهم من أهل المدينة يعلمون أنه قد قرب زمن بعثة نبى، وقد حصل عندهم هذا العلم من اليهود الذين يعيشون معهم فى المدينة المنورة، فقد كان اليهود يهددون العرب أيضا ويقولون لهم: إن نبيا الآن قد أظلم زمانه، وإننا إذا ما بعث ستبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم. وفيما الرسول يبشر مختلف القبائل بالإسلام، خلال موسم الحج، التقى مصادفة ببضعة رجال من الخزرج، إحدى قبائل المدينة. وبعد أن استيقن أنهم خزرجيون، سألهم ما إذا كانوا من عشراء اليهود، فأجابوه نعم. ثم إنه بسط لهم رسالة الإسلام. وإذا كانت لهم صلة بالأوس والخزرج، وإذا كانوا قد عاشوا فى المدينة التى اشتمل سكانها على عدد من اليهود كبير، فقد سبق لهم أن سمعوا ظهور النبى الموعود الذى تنبأت به كتب اليهود المقدسة أمسى قريبا. وهكذا فإن دعوى الرسول أنه هو ذلك النبى الموعود لم تكن مفاجأة لهم البتة. وبفضل التعاليم الإسلامية التى شرحها الرسول لهم، وهى تعاليم ذات جمال فطرى، من ناحية، وبفضل توقعهم مجيء ذلك النبى، من ناحية ثانية، وقع فى نفس أولئك الخزرجيين أنه كان هو النبى حقا. ولذلك فإنه ما أن كلم رسول الله ﷺ أولئك النفس من الخزرج. ودعاهم إلى الله، حتى قال بعضهم لبعض: تعلمون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، لأنهم إن سبقوكم إليه ليقتلنكم قتل عاد وإرم. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا وهم ستة نفر من الخزرج<sup>(٢)</sup>. فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

يعتبر سكان «يثرب»-«الأوس» و«الخزرج» - من القبائل اليمينية القوية ولا غرو فقد برهنوا على شدة بطشهم وقوة بأسهم فى الحروب التى لم تكن تهدأ نائرتها ولم تنطفئ نارها بينهم، وقد جاء اليهود من بني «قريظة» و«بني النضير» بعد أن طردهم المسيحيون فى فلسطين نتيجة لأعمالهم الخسيسة وسوء معاملتهم مما أدى إلى اضطهاد إمبراطور الرومان أدريان HADRIAN لليهود وأمر بطردهم من فلسطين فجاءوا إلى ديار العرب كسلاجين واستوطنوا عند العرب دون أن يتركوا أعمالهم وتصرفاتهم البديئة كما أقام اليهود القادمون من فلسطين فى «فدك» و«تيماء» ووادي القرى و«خيبر» دون أن يتخلوا

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٨٤.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٨٥.

عن انتمائهم إلى بني إسرائيل أو الديانة اليهودية برغم اختلاطهم بالعرب<sup>(١)</sup>. وصلت قبائل «الأوس» و«الخزرج» من اليمن إلى «يثرب» ولما تكاثرت عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئاً فشيئاً علماً بأن الأوس والخزرج من القبائل اليمنية القوية والتي استطاعت أخيراً انتزاع السلطة والحكم كله إلى أيديهم<sup>(٢)</sup>.

إن كثرة الحروب الداخلية بين أهل المدينة جعلت منها مدينة محاربة، يعنى أن أهلها عندهم القدرة على حماية الدولة الإسلامية. وإن موقعها بين حرتين الويرة في الغرب، وواقم في الشرق، وأحد ولسع في الشمال وجبل عير في الجنوب الغربي يجعلها مدينة محصنة يصعب على العدو اقتحامها. إن المدينة بلد زراعى غني بموارده، ويحقق لاهله الاكتفاء الذاتى إلى حد كبير، وبذلك يستطيع الصمود أمام الحصار فيما لو حوصروا، ويستطيع تأمين الموارد المالية الكافية اللازمة لنفقات الدولة الإسلامية. والمدينة واقعة على طريق المسافر من مكة إلى الشام، فإذا ما أقيمت دولة الإسلام فيها استطاعت هذه الدولة قطع طريق التجارة على مشركى مكة، وفرض الحصار الاقتصادى عليها، وقطع طريق تجارة الشام على قريش وهو ضرب لتجارة اليمن أيضاً، لأن تجار قريش كانوا يحملون سلع اليمن إلى الشام وبالعكس، فإذا ما امتنعت عليهما تجارة أحد القطرين الشام أو اليمن امتنعت أو تأثرت بذلك تجارتهم فى القطر الآخر. وسبب تقبل المدينة المنورة الإسلام بهذه السرعة ثلاثة أمور<sup>(٣)</sup>:

الأول: وضوح عقيدته، واتفاقها مع الفطرة، وخلوها من التعقيد، وهذا ما جعلها تحتل القلوب عندما خلت القلوب من الأغراض الدنيئة. الثانى: إن أهل المدينة يعيشون مع اليهود، واليهود أرباب دين سماوى، فلا بد وأنهم قد اطلعوا على ملامح الدين السماوى، ورأوا الفرق بينه وبين وثنيته، ولكن الذى منعهم من الدخول فى اليهودية ما كانوا يجدونه من تعاليم اليهود وخطرتهم، لا اعتبارهم أنفسهم أنهم شعب الله المختار، واعتبار اليهودية دين الخاصة والصفوة من الناس، وليس بدين الرعاى. ولا بد أن يكون قد صدر كثير من التصريح والتلميح تعبيراً للوثنيين على عبادتهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر، ولا تصنع خيراً ولا تصنع شراً، فكانت الرغبة موجودة فى نفوس وثنى المدينة فى التخلص من هذا الوضع، ولكن ما هو الدين البديل؟ فلما وصلتهم مبادئ الإسلام وجدوها البديل الذى يفوق الوثنية واليهودية معاً، فلم يتأخروا عن الإيمان به. الثالث: إن المدينة كانت تعيش فى بحر من الدم يعود تاريخه إلى ما قبل مائة وخمسين عاماً، وكانت آخر دفقة من الدم أصاب رشاشها كل بيت من بيوت المدينة هى دفقة حرب بعثت التى أطاحت برؤوس أكثر زعماء المدينة من أوس وخزرج. وكان كل من الفريقين يريد - ضمناً - أن يضع حداً لإراقة الدماء، ولكن

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ج١ ص ٩٢.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - نفس المرجع ج١ ص ٩٢.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٨٦.

الأوس ترفض أن تتنازل للخزرج، والخزرج ترفض أن تتنازل للأوس، لما يرون في هذا التنازل من المعرة، فلما جاءت دعوة رسول الله محمد ﷺ نظر الفريقان إليه على أنه المخلص الذي أرسله الله ليخلص المدينة من الخلافات التي جعلتها بحرًا من الدم. وجد الأوس والخزرج في الدين الإسلامي الجديد ما يوحد كلمتهم، كما وجدوا في شخصية الرسول بغيتهم المنشودة إذ عرفوه رجلاً من أكرم بيوتات قريش وسادتها، ثم هو ابن أمنة من بني النجار أحد بطون قبيلة «الخزرج» اليمنية، ومع ذلك فهو نبي يستطيعون أن يطاولوا اليهود بما ينزل عليه من وحي<sup>(١)</sup>.

بيعة العقبة الأولى على التوحيد: حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على نحو بيعة النساء، وهي بيعة على الأخذ بمبادئ الإسلام، وليس فيها ذكر للقتال دفاعاً عن رسول الله وقد ذكر لنا عبادة بن الصامت رضى الله عنه تفاصيل هذه البيعة ونصها، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر». وأن المدقق في هذا البيعة يرى أنها تشتمل ثلاثة أمور هي: الإيمان بالله الواحد، ونبذ ما سواه. الاستقامة في السلوك. الأخذ بالحق المتدفق على لسان الرسول من قرآن وسنة، ومدار الإسلام على هذه الأمور الثلاثة. وليس فيها ذكر للقتال دفاعاً عن رسول الله ولا عن دينه<sup>(٢)</sup>.

تذكر كتب السيرة أنه لما أراد القوم المبايعون العودة إلى بلدهم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة، فكان يصلى بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره أن يؤم بعضهم بعضاً لما بينهم من الخلاف والدماء. والحقيقة أنه كانت لمصعب مهمة أخرى سياسية سرية، هي: أولاً: الاطلاع عن كثب على مجتمع المدينة المنورة وأحواله، ومعرفة حقيقة شعوره تجاه الدعوة والداعي، والتبديل الذي يطرأ على هذا الشعور، ومعرفة الصديق والعدو، ومن المؤتلف من الناس ومن المختلف، والعوامل التي تؤثر في تلك المدينة، وليعود فيعطى رسول الله الصورة الواضحة الصادقة لهذه المدينة التي توجهت أنظار رسول الله إليها لتكون قاعدة لإقامة دولة الإسلام فيها، وليخرج رسول الله بتقدير صحيح للموقف فيها ليتصرف بسرعة وبدقة عندما يحين وقت الرحيل إليها. ثانياً: إعداد المؤمنين من أهل المدينة لقبول بند «النصرة» الذي طواه رسول الله ﷺ موقتاً.

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ٩٢.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٩٠.

بيعة العقبة الثانية على النصره: رحل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة مع رهط المدنيين الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان، ومكث فيها عامًا كاملًا يصلى بالمسلمين إمامًا، ويدعو الناس برفق وأناة إلى التوحيد ويعمق الإيمان في قلوب المؤمنين، ويغرس فيها الفداية، وبين أن الإيمان إن لم يكتنفه سلطة تحميه فلن يستطيع أن يؤدي رسالته الإصلاحية في الحياة، وأن عليهم أن ينالوا شرف حماية الإيمان الذي حملوه في صدورهم، وحماية كل داع إليه، وبعد عام - وفي موسم الحج - رجع مصعب بن عمير إلى مكة المكرمة مع من خرج من أهل المدينة المنورة إلى مكة، ولقى مصعب رسول الله ﷺ ليلا على انفراد، ووضع بين يدي رسول الله جميع المعلومات التي حصل عليها عن المدينة المنورة وأهلها، وأعلم رسول الله أن المؤمنين من أهل المدينة أصبحوا على قناعة تامة بوجود حماية رسول الله ونصرته. وعلى ضوء هذه المعلومات التي وضعها مصعب بين يدي رسول الله استطاع عليه الصلاة والسلام أن يخرج بتقدير دقيق للموقف، وكانت جملة هذا التقرير: أنه سيتواجد في المدينة المنورة ثلاث فئات: الفئة الأولى: العرب من أهل المدينة، وهذه الفئة قد استحكمت بينها العداوة، وأكلتها الحروب. الفئة الثانية: اليهود، وهي فئة غير مأمونة، قد امتلات نفوسها حقدًا على الدين الجديد - الإسلام - وهي تحاول إجهاضه بأساليبها الدنيئة - ولا أمل في اجتذاب هذه الفئة إلى حظيرة الدولة الإسلامية وإخلاص الولاء لها. والفئة الثالثة: المهاجرون الذين سيقدّمون إلى المدينة المنورة، وهي فئة أشد ما تكون ولاء للدولة التي ستقوم في المدينة، ولكن الفقر قد خيم على هذه الفئة لأنها تركت كل ما تملك في مكة وتجمعت في المدينة لتساهم في بناء صرح الدولة الإسلامية على أرض المدينة المنورة<sup>(١)</sup>.

وقدر رسول الله أن أمر الدولة الإسلامية التي ستقام في المدينة المنورة لن يستقيم مع اليهود إلا بالقوة لأنهم فئة حاكمة. كما قدر أن قريشًا لن يروقها قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وفي الوقت نفسه فإن من أهداف الدولة الإسلامية محو الشرك واجتثاث جذوره، وهذا سيؤدي إلى الصدام المسلح بينها وبين السلطات التي تحمي الشرك. وبناء على هذا التقدير للموقف فقد اتخذ رسول الله ﷺ قرارًا على درجة من الخطورة والسرية، وهذا القرار وإن كان قد ألح إليه إلا أنه لم يفصح عنه في يوم من الأيام لئلا يتفشى أمره، ويتعذر تنفيذه، ويتلخص هذا القرار بما يلي: إجماع عملية الهجرة - وهي تعنى: تجميع القوة المؤمنة في الأرض التي ستقام فيها دولة إسلام. معالجة الوضع الداخلي في المدينة المنورة للعرب الأنصار، ولليهود، وللمهاجرين. تصفية أعداء الدولة الإسلامية بعد استكمال الاستعداد لهذا الأمر الهام.

لكي تتم عملية الهجرة لا بد من أن تتم سلامة ثلاثة أمور: سلامة الخروج من مكة المكرمة. السلامة أثناء الطريق إلى المدينة المنورة. سلامة الوصول إلى المدينة المنورة إلى أن يتم الاستقرار فيها.

(١) د. محمد وواسر، قلعه جي - نفس المرجع ص ٩١.

ولضمان ذلك كله فقد اتخذ عليه الصلاة والسلام قرارا بتكوين: مهمة هذه الجماعة إنجاح عملية وصول رسول الله - إلى المدينة المنورة، وحفظ سلامته فيها، وقمع كل تحرك يراد به إجهاض الهجرة.

أما تكوينها: فهي تتكون من فئتين: الفئة الأولى: فئة أهل المدينة الذين أسلموا وقدموا إلى رسول الله. بعد أن يبذلوا لرسول الله ﷺ البيعة على الحماية والنصرة، (الأنصار). الفئة الثانية: فئة المؤمنين من أهل مكة (المهاجرين) الذين سيرحلون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة<sup>(١)</sup>.

#### بيعة العقبة الثالثة، ورحيل جماعة الحماية الأولى:

كان على رسول الله ﷺ أن يتحرك بسرية تامة لئلا يكتشف أمر تحركه، وعندئذ تفسد خطته. ولذلك واعد المؤمنين من أهل المدينة المنورة للاجتماع بهم وأخذ البيعة منهم عند العقبة، حين يمضي من ثلث الليل من ثانی أيام التشريق فخرج المؤمنون إلى ذلك الموعد مستخفين يتسللون تسلل القطاط حتى اجتمعوا عند العقبة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا، ومعهم امرأتان من نساءهم، نسيبة بنت كعب المازنية، وأسماء بنت عمرو بن عدی. وحضر رسول الله ومعهم عمه العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه فيما يبدو للناظر، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. ونظر رسول الله فرأى الجمع غفيرا، وليس من الحكمة أن يتوجه بالكلام إلى كل هذا الجمع، إذ من المحتمل أن يخرج منهم من لا يعي تمام الوعي أبعاد كلام رسول الله فيفسد الأمر به، كما أنه لا بد وأن يستمع إلى رأى من يريد أن يقول شيئا منهم، ولو فعل ذلك لطلال به المقام، والأمر لا يحتمل التطويل، فما إرادة رسول الله يجب أن يتم بأقصى سرعة لئلا ينتبه المشركون إلى اجتماعهم فيفسدو عليهم أمرهم. ولذلك طلب رسول الله من الجمع أن يخرجوا منهم اثني عشر نائبا - نقيباً - ليكلّمهم ويكلّموه، فأخرجوا له اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج. فلما جلسوا كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمى هذا الحى من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمد منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه، ومنعه فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، وللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده. إننا نرحب باصطحابكم إياه شريطة أن تكونوا على استعداد للصمود فى وجه المقاومة المشتركة من جانب العرب وغير العرب» فأجاب أهل المدينة، الذين عرفوا بعد فى التاريخ الإسلامى بالأنصار: سمعنا ما قلت، فتلكم يا رسول الله، فنخذ لنفك ولربك ما أحببت فأجاب محمد بعد ان تلا القرآن ورغب فى الإسلام: «أبايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم».

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٩٢.

فقالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتلكم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحبب. فطلب رسول الله منهم البيعة على الإيمان والنصرة، فبايعوه. قال لهم النبي: «أخرجوا لى منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء. فاختر القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فقال النبي هؤلاء النقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي. وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا: «بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»<sup>(١)</sup>. ورجع الأوس والخزرج إلى مضاجعهم فباتوا ليلتهم حتى الصباح، وعلمت قريش بأنباء المفاوضات بين محمد و«الأوس والخزرج» فجاء فريق منها إليهم ويهددوهم، فأنكر بعضهم ما كان حقنا للدماء وتفاديا للشر وخرجوا يريدون بلدهم فتعقبهم القرشيون وقبضوا على بعضهم وضربوهم وعذبوهم<sup>(٢)</sup>.

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثر علينا وألا ننارح الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم. وكان البراء بن معرور أشد الناس حماساً، فكان أول من أخذ بيد رسول الله وقال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك منه أرزنا (النساء)، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كإبراً عن كإبر». وتبعه أبو الهيثم بن التيهان، فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟». فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم (إهدار الدم)، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم!». ثم بايع الناس جميعاً. وكانت هذه البيعة «بيعة العقبة الثالثة» وبهذه البيعة يكون رسول الله قد كون الفتنة الأولى من جماعة الحماية في المدينة المنورة. وبهذه البيعة أخذت خيوط نور تظهر في الأفق السياسى، تشير إشارة غير خفية للمخطط السياسى للرسول عليه الصلاة والسلام، وإن رسول الله لا يهدف بالهجرة من مكة إلى المدينة المتخلص من العذاب والاستهزاء، ولكنه يهدف إلى إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن تشرق عليه وتنظمه دولة تستمد نظامها من الله، تلك هى دولة الإسلام<sup>(٣)</sup>.

ثم قال رسول الله ﷺ انهضوا إلى رحالكم: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذى بعثك بالحق، إن شئت، لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فانا! فقال رسول الله ﷺ: لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم. ورجع القوم إلى مضاجعهم فناموا، وما أن أشرق الصباح حتى غدت عليهم جلة قريش فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١١١.

(٢) ابن هشام - القسم الأول - ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٩٣.



من بين أظهرنا، وتبايعونه على حاربنا، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم! . فانبعث من هناك من مشركى القوم جماعة يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه، وقد صدقوا، لم يعلموه، لأن المؤمنين إنما فعلوا ما فعلوه من أمر البيعة خفية عنهم وحث الأنصار قومهم من أهل المدينة على الإسراع فى الرحيل إلى المدينة المنورة بعد أن قضوا نسكهم، فرحلوا. فواضح إذن أن الرسول إنما توجه إلى المدينة بدعوة من أهلها أنفسهم. وكان مألوقا فى بلاد العرب، كلما انضم عضو من قبيلة ما إلى قبيلة أخرى أن يأخذ أفراد القبيلة الأخيرة على أنفسهم عهداً بحمايته، إذ كان العرف يقضى بأن تكون القبيلة مسؤولة عن حماية أبنائها دون غيرهم من الناس. ويستفاد من الحدث الذى وصفنا فى السطور السابقة أن الرسول علم علم اليقين، كما علم العباس، أن المكيين لن يدعوه وشأنه حتى فى المدينة نفسها. ومن هنا كان لابد من أخذ العهد على «الأنصار» بأن يمنعوا الرسول إذا ما شن أعداؤه هجوماً على المسلمين. وكان هذا التوقع فى محله، ذلك بأن المكيين كانوا قد قدموا براهين كافية على خبثهم حين ذهبوا إلى حد تعقب المهاجرين المسلمين حتى بلاد الحبشة نفسها. وإنما يعرف هذا ببيعة العقبة الثانية، التى تمت فى العام الثانى عشر للدعوة. وإذا أحيط التفاهم الذى تم الوصول إليه والبيعة التى أخذت بشار من الكتمان كثيف، فإن أحداً لم يطلع عليهما غير العباس وقلّة قليلة من المسلمين. وحتى أهل المدينة غير المسلمين لم يعرفوا ما الذى حدث على وجه الضبط<sup>(١)</sup> وهكذا عجز المكيون عن الفور بأية معلومات حتى من هؤلاء. وذلك عندما اجتمع «الأوس والخزرج» برسول الله محمد ﷺ فى العقبة بعد أداء الحج وكان معه عمه العباس وكان لا يزال على الشرك: «فلما جلس، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج! إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتكموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده»<sup>(٢)</sup> فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله فتلى القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ثم قال: أبايكم على أن تمنعوني بما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذى بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أرننا (نساءنا) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة<sup>(٣)</sup> (السلاح عامة والدروع خاصة).

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١١١ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) الطبري - ج ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

ولكن قريشاً لم تقعد عن تقصى خبر اجتماع أهل المدينة برسول الله، فلما تأكد لهم الخبر خرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادَةَ بأذخر (موضع قريب من مكة)، والمنذر ابن عمر، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير، فرق له رجل ممن كان معهم فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش حوار ولا عهد؟ قال سعد: بلى والله، لقد كنت أجير لجبير ابن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم بيلادى، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، فهتف سعد باسمهما وذكر جوارهما، وهرع الرجل الذى رقى له يبسح عنهما، فوجههما فى المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالابطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً. قالوا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادَةَ. قالوا: صدق والله، إن كان ليجير لنا تجارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده! قال: فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم فانطلق.

**رحيل جماعة الحماية الثانية:** ولما أطمأن رسول الله محمد ﷺ إلى بيعة الأنصار وإخلاصهم. أمر من كان من المسلمين فى مكة بالخروج إلى المدينة سرّاً، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ليكونوا معهم جماعة الحماية التى أوكلت إليها مهمة إنجاح انتقال القيادة إلى المدينة المنورة، وقال لهم: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها». فخرجوا جماعات جماعات وأقام رسول الله محمد ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة. فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله محمد ﷺ، من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله محمد ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجراً. ولا يبعد أن يكون قد أوكل إليه رسول الله مهمة خاصة يقوم بأدائها فى المدينة المنورة. ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة، عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، ثم عبدالله بن جحش، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش. ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى، حتى قدما المدينة ثم تتابع المهاجرون. وأقام رسول الله محمد ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس وفتن، إلا على بن أبى طالب، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق، رضى الله عنهما وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله محمد ﷺ فى الهجرة فيقول له رسول الله: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله صاحبه، ولذلك ابتاع راحلتين واحتبسهما فى داره يعلفهما إعداداً لذلك<sup>(١)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٩٤.

ومنذ ذلك الحين هاجر صحابة الرسول إلى المدينة، جماعات صغيرة، في كتمان تام عن المكيين. وأخيراً حان الوقت الذي خلف فيه الرسول في مكة وليس معه غير اثنين من أصحابه، أبو بكر وعلي، بعد أن وصل سائرهم إلى المدينة. وهكذا يتضح كيف يتصرف القائد الأعلى لحماية أصحابه وأنه بعثهم مهاجرين إلى المدينة وبقي وحيداً مع أبو بكر وعلي حتى يطمئن على خروج جميع أصحابه وبسلام ثم يخرج أخيراً مع أبي بكر ويبقى الإمام علي وحيداً لحماية خروج رسول الله محمد ﷺ وآخر من يخرج من مكة مهاجراً هو الإمام علي بن أبي طالب بعد أن أطمأن بخروج الرسول ﷺ وأبي بكر بسلام من مكة.

وهذه الواقعة تلقى ضوءاً إضافياً على ما صدر الرسول من إيمان بالله وطيد. كانت عداوة المكيين له تتعاظم حدتها يوماً بعد يوم. ذلك بأن ترسخ الإسلام التدريجي في المدينة أذكى غيظهم وأرته وإذا كان الرسول وحيداً، أو يكاد، وسط أعدائه الألداء فقد تعرض لخطر عظيم. ومع ذلك فإنه لم يقلق على نفسه بقدر ما قلق على أصحابه، الذين بعث بهم إلى موطن آمن على حين تخلف هو وسط عدوه المتعطشين إلى الدم. كان محاطاً من جميع أقطاره بمثل أولئك الأعداء، الذين لم تزدهم هجرة المسلمين إلى المدينة ورسوخ قدمهم هناك إلا ضراوة على ضراوة. وفي هذا دليل لا يتهم على عمق إيمان الرسول بالرعاية الإلهية. لقد كان في طوره أن يشخص إلى المدينة قبل أي امرئ آخر. وما كان أحد من أصحابه ليتذمر من مثل هذا المسلك، إذ كان كل منهم يعلم أن سلامة دينهم، الإسلام، الذي كانوا على استعداد للتضحية من أجله بكل ما يملكون، رهن بسلامة الرسول. ولكن حبه العميق لصحابته أورثه قلقاً عليهم أعظم من قلقه على نفسه وهكذا وجههم جميعاً إلى المدينة، وبقي هو في مكة - يحيط به أعداء الألداء، مظهرًا بذلك بالغ حرصه على سلامة أصحابه، وثقته الرطيدة بالمعهد الإلهي في ما يتصل بسلامته الشخصية<sup>(١)</sup>.

ومرت الأيام. وأطل العام الثالث عشر للدعوة، والرسول - وليس معه من صحابته غير أبي بكر والإمام علي - متلبث بمكة وسط أعدائه. كان سائر صحابته قد ودعوا ديارهم وفزعوا إما إلى الحبشة وإما إلى المدينة. ولكن محنة الرسول الكبرى لم تكن قد أزفت بعد. وإذا غودر على هذا الحال، سأله أبو بكر غير مرة أن يهاجر إلى المدينة، ولكن الرسول أجابه بقوله إن الله لما يأمره بذلك بعد. وهنا أيضاً كانت تكمن حكمة إلهية تجلت في قرار قريش النهائي. فحتى ذلك الحين، كان المكيون قد بذلوا جهوداً فردية للتخلص من الرسول، وكانت تلك الجهود كلها قد منيت بالإخفاق. لقد قاوموه أشد مقاومة، واضطهدوه أقسى اضطهاد. ولكن كأس جرائمهم كانت ما تزال في حاجة إلى قطرة واحدة حتى تطفح. وأخيراً أزفت الساعة. وإذا ألفوا الرسول وحيداً، أو يكاد عقدوا مؤتمراً كبيراً في دار الندوة، حيث تعودوا أن يناقشوا مختلف القضايا القومية ويتوا فيها<sup>(٢)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١١٢.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١١٢.

انتقال القيادة إلى المدينة المنورة: نقل ما رواه أحمد<sup>(١)</sup> والطبراني<sup>(٢)</sup> من حديث ابن عباس قال: (تساورت قريش فقال بعضهم: إذا أصبح محمد فأثبتوه بالوثاق) الحديث<sup>(٣)</sup>، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال] - بين ابن حجر أنه وصله ابن أبي من طريق ابن جريج عن عطاء عنه<sup>(٤)</sup> في قوله (ليثبتوك يجبسوك)<sup>(٥)</sup>. ولما رأت قريش أن رسول الله محمد ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أن أصحاب رسول الله محمد ﷺ قد حلوا داراً آمنة، ووجدوا فيها من يحميهم ويدافع عنهم، ولذلك حرصوا على عدم خروج رسول الله إليهم، إلى المدينة المنورة، لأنهم قدروا أنه إذا ما خرج إليها لا يلبث أن يجمع أصحابه ويهاجمهم بهم. وتنادى زعماء قريش للاجتماع في دار الندوة - وهي دار قصى بن كلاب التي كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها - للتشاور فيما يصنعون لمنع رسول الله محمد ﷺ من الخروج من مكة. واجتمع القوم في دار الندوة فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإننا والله ما نأمنه على الرثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فاجمعوا فيه رأياً. فاقترح البعض حبسه، وتركه في محبسه حتى يموت. . ولكن الحاضرين لم يوافقوا على هذا الرأي لأن أصحاب رسول الله محمد ﷺ لا بد وأن يعلموا بمكان حبسه، ولا بد من أن يهاجموا هذا المكان ويستخرجوا رسول الله محمد ﷺ منه. واقترح البعض إخراجه من مكة ليذهب إلى أى البلاد شاء، ولا ضمير على قريش من ذلك طالما قد بعد خطره عنهم، ولكن الحاضرين لم يوافقوا أيضاً على هذا الرأي، لأن محمداً إذا خرج من مكة ولقى الأمن في أى بلد كان فإنه لا يلبث أن يجمع الناس حوله بما آتاه الله من قوة في الحجّة وحلاوة في المنطق وتأثير في النفوس، ثم يهاجم بهم مكة. وانتفض من بين القوم أبو جهل بن هشام فقال: والله إن لى رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: إن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالدية، وأمر الدية علينا يسير. واستحسن الحاضرون هذا الرأي، وعزموا على تنفيذه. وتم تعيين الرجال الذين سيقفون بباب رسول الله محمد ﷺ ويبطشون به عندما يخرج، كما تم تعيين الوقت الذي يفدون فيه لمحاصرة بيت رسول الله محمد ﷺ. وعلم رسول الله محمد ﷺ بطريقة ما بكل ما اتفق عليه المتآمرون، وما عزموا على تنفيذه،

(١) أحمد - المسند - ١ / ٣٤٨.

(٢) الطبراني - المعجم الكبير - ١١ / ٤٠٧ - الحديث رقم ١٢١٥٥.

(٣) حديث ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٥ / ٣٨٩ - الحديث رقم ٩٧٤٣ - وعن ابن الجوزي في كتابه الوفا بأحوال المصطفى ١ / ٢٩٩ - ٢٣٠.

(٤) ابن أبي حاتم - تفسيره - مخطوط ورقة ٢٤٠.

(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٨ / ٦ ٣ كتاب التفسير.

وكان عليه - صلوات الله وسلامه عليه - أن يتصرف بسرعة وذكاء ليحبط المؤامرة الدنيئة، وينجح بخروجه من مكة سالماً ليكمل مسيرة الإيمان التي بدأها<sup>(١)</sup>.

وأسرع رسول الله محمد ﷺ إلى أبي بكر في بيته وأسر إليه أن الله تعالى قد أذن له بالهجرة إلى المدينة المنورة، فطلب أبو بكر من رسول الله أن يصحبه معه في هذه الرحلة المباركة وقال له: الصحبة يا رسول الله، فقال رسول الله: «الصحبة»، ففرح أبو بكر لذلك، ثم قال: يارسول الله إن هاتين راحلتان قد اشتريتهما وأعددتهما لمثل هذا اليوم. ثم تحركا إلى عبدالله بن أريقط - وكان مشركاً خبيراً بطرق الصحراء - فاستأجراه ليدلهما على الطريق، ودفعوا إليه الراحلتين، وطلبا منه أن يوافي بهما إلى المكان وفي الزمان الذين يخبراه بهما بواسطة رسول يأتيه من عندهما، ثم خرجا من عنده. وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يلزم بيته فلا يغادره، وعاد رسول الله ﷺ إلى بيته. وفي الساعة الموعودة قدم من أوكلت إليهم قريش حصار بيت رسول الله ﷺ ووقفوا على بابه، حتى إن رسول الله ﷺ ليسمع حديثهم، وكان على رسول الله ﷺ أن يموء عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقال لعلي بن أبي طالب - وكان معه في المنزل -: «يا عم نم على فراشي وتسج (غط بدتك ورأسك حتى لا يرى منك شيء تعرف به) ببردى هذا الحضرمي، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم». وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ حتى إذا ما نظر أحدهم من ثقب الباب ظن أن رسول الله ما زال نائماً في مكانه<sup>(٢)</sup>.

أشار موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: «فرقد عليُّ على فراش رسول الله محمد ﷺ يوري عنه، وباتت قريش تختلف وتأمُر أيهم يهمل على صاحب الفراش فيوثقه، حتى أصبحوا فإذا هم بعلي، فسألوه، فقال: لا علم لي، فعلموا أنه فر منهم<sup>(٣)</sup>. كما أن ابن إسحاق ذكر نحوه وزاد<sup>(٤)</sup>: أن جبريل أمره أن لا يبيت على فراشه، فدعا علياً فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرده الأخضر، ففعل، ثم خرج النبي ﷺ على القوم ومعه حفنة من تراب، فجعل ينشرها على رؤوسهم<sup>(٥)</sup> وهو يقرأ «يس» إلى قوله تعالى: «فهم لا يبصرون». سورة يس آيات ١ - ٩.

وما هي إلا لحظات حتى أخذ الله على أبصارهم، واستل منهم الشعور، فخرج رسول الله من بينهم وهم لا يرونه ولا يشعرون بخروجه، ولم ينس عليه الصلاة والسلام أن يأخذ حفنة من تراب وينشرها على رؤوسهم، ليعلمهم أن تدبير الله فوق تدبيرهم، ثم يخرج من بينهم وهو يتلو قوله

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٩٥.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٩٦.

(٣) نقله ابن هشام عن ابن إسحاق - السيرة النبوية ١ / ٤٨٢ - ٤٨٣ - والبيهقي في الدلائل - ٢ / ٤٦٩ - ٤٧٠، وابن كثير في البداية والنهاية ٣ / ١٧٤ - ١٧٥.

(٤) رواية ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي - الدر المنثور - ٧ / ٥٤٤ - ٥ / ١٠٤.

(٥) ابن كثير - البداية والنهاية ٣ / ١٧٥ - والروض الأنف ٢ / ٢٢٩.

تعالى: ﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس].

فأتاهم آت من لم يكن معهم فقال: «ما تنتظرون هاهنا؟» قالوا: محمدًا. قال: «خبيكم الله! والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟» فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ﷺ فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقتنا الذى حدثنا. توجه رسول الله فور خروجه من بيته إلى بيت أبى بكر الصديق وأمره بالخروج فوراً، فخرجا من نخوخه فى ظهر بيت أبى بكر. خرج رسول الله مع صاحبه أبى بكر، دون أن يعلم أحد بخروجهما غير الإمام علي بن أبى طالب وأهل بيت أبى بكر. ولم ينس رسول الله أن يطلب من أبى بكر أن يأمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس فيهما ثم يأتيهما بالأخبار إلى غار ثور فى المساء، ويأمر غلامه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاراً فيمر بها عليهما فى المساء، ويأمر ابنته أسماء بأن تحمل لهما ما يتيسر لها من الزاد<sup>(١)</sup>، وقد أشار فى رواية هشام بن عروة عند ابن حبان (فركبا حتى أتيا الغار وهو ثور، فتواريا فيه)<sup>(٢)</sup>.

حيطة وحذر: خرج رسول الله مع أبى بكر الصديق من مكة مستخفياً لا يعلم أحد بخروجهما إلا من أناط به رسول الله ﷺ مهمة تستلزم معرفته بخروجهما، وتوجها إلى غار كانا قد عيناه من قبل فى جبل ثور، فأقاما فيه ثلاث أيام. وهكذا فإن الغارين يحتلان مركزاً هاماً فى الإسلام. ففى غار حراء هبط الوحي أول ما هبط على الرسول الكريم، وها هو الإسلام يولد الآن من جديد فى غار ثور. إن الهجرة يوم مشهود فى تاريخ الإسلام إلى درجة جعلت المسلمين يستهلون تقويمهم بها. ومن هنا، ففى طوق المرء أن يقول ان الإسلام انبثق من هذين الغارين. وفى اليوم التالى، عند انبثاق الفجر، ذهل القرشيون إذ ألفوا عليا غادر فراش الرسول. وأجريت تحريات دقيقة فى كل مكان، ووضعت جوائز ضخمة. وانتهت جماعة من مطاردى الرسول وصاحبه، المتعقبين آثارهما، إلى فم الغار نفسه. حتى إذا سمع أبو بكر وقع أقدامهم، تملكه الأسى، لا جزعاً على نفسه، ولكن جزعاً على الرسول الذى كانت حياته أعز عنده من حياته هو. يا لها من لحظة حرجة! كان سيف العدو المتعطش إلى الدم مصلتاً فوق رأسيهما<sup>(٣)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٩٦.

(٢) فتح الباري - ٧ / ٢٣٦.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١١٦.

وكانت نظرة واحدة يختلسها ذلك العدو إلى داخل الغار كافية لأن تجعل الصاحبين يوقنان انهما لا بد هالكان، وان جسديهما لا بد سيمزقان إرباً إرباً. وفي مثل هذه الحالة يغور أشجع الأفتدة، ويذهل أرجح العقول وأشدّها هدوءاً. إن العدو لمصمم على قتلها، وان الموت ليحقد إليهما في وجهيهما. وليس إلى الفرار سبيل، ولم تبق ثمة حماية أرضية، في هذه الساعة البالغة الحرج، الراشحة باليأس المطلق، انطلقت هذه الكلمات، دون غيرها، من شفّتي الرسول: «لا تحزن، ان الله معنا!». . . كلمات تنبئ عن قلب عامر بالطمأنينة والسكينة. وليس من ريب في أن هذا الصوت لا يمكن أن يكون منطلقاً من باطن ذلك بأن قلب مخلوق بشري فإن الرسول، ما كان في ميسوره أن يحتفظ - من غير ما عون إلهي - بمثل هذا الهدوء المطمئن، في مثل هذه الاحوال الخطرة حتى التطرف. إنه لم يكن صوتاً منبعثاً من باطن، لا، لقد كان هو الصوت العلوي، صوت الله، رب العالمين، أقبل ليواسي ويطمئن قلباً معذباً في سبيله. ومن غير الله، العليم بكل شيء، يستطيع أن يؤكد أن الأعداء، برغم وصولهم إلى فم الغار نفسه. لن يستطيعوا أن يدركوهما؟<sup>(١)</sup>.

﴿إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة].

كان عبد الله بن أبي بكر يخالط قريشاً طيلة نهاره ويسمع ما يقولون عن رسول الله محمد ﷺ، فإذا أظلم الليل خرج إلى غار ثور ليقص على رسول الله ما تكلمت به قريش، وكان عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - يرعى غنم أبي بكر مع رعيان أهل مكة، فإذا ما أمسى المساء سار بغنمه إلى قرب غار ثور فبات هناك، ليتيح لرسول الله ولأبي بكر أن يحلبا من الغنم ويلذبا منها ما يحتاجان إليه، فإذا طلع الفجر قفل عبد الله بن أبي بكر راجعاً إلى مكة، وسار عامر بن فهيرة بالغنم خلفه ليخفي أثره. حتى إذا مضت ثلاثة أيام، وسكن الطلب عن رسول الله ﷺ أتاهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحتين لهما، وبراحلة له، وأتتهما أسماء بالزاد، فركب الدليل راحلته، وركب رسول الله راحلة وركب أبو بكر راحلة وأردف خلفه غلامه عامر بن فهيرة لعلهما يحتاجان إليه في الطريق. أما قريش فقد جن جنونها عندما علمت بإفلات رسول الله من قبضتها، وأخذت تستعمل كل وسيلة تستطيعها.

ونقل عن الواقدي أنه ذكر أن قريشاً بعثوا في أثرهما قاتنين: أحدهما كسر بن علقمة، فرأى كرز على الغار نسج العنكبوت فقال: «هنا انقطع الأثر»<sup>(٢)</sup>. وقال ابن عباس<sup>(٣)</sup>: «استاجر المشركون

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١١٧.

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية - ٣ / ١٨٠.

(٣) الدر المنثور - ٤ / ١٩٦ - ١٩٧.

رجلا يقال به جرر بن علقمة الخزاعي ففقالهم الأثر حتى انتهى إلى ثور وهو بأسفل مكة فقال: انتهى هنا أثره فلا أدري أخذ يمينا أم شمالا أم صعدا الجبل، فلما انتهوا إلى فم الغار قال أمية بن خلف: ما أربكم إلى الغار إن عليه عنكبوتا كانت قبل ميلاد النبي ﷺ<sup>(١)</sup> فنهى الرسول ﷺ عن قتل العنكبوت وقال إنها جند من جنود الله<sup>(٢)</sup>.

الطريق الذي سلكه الرسول ﷺ إلى المدينة: ولم يغب عن بال رسول الله أن يوجه الدليل لأن يسلك بهم طريقا غير الطريق الذي يسلكه الناس عادة، فسلك بهما عبد الله بن أريقط طريق أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل.

أما قريش فقد جن جنونها عندما علمت بإفلات رسول الله ﷺ من قبضتها، فأخذت تستعمل كل وسيلة تستطيعها للعثور عليه، فهذا أبو جهل يتوجه مع مجموعة من رجال قريش إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت لا أدري والله أين أبي. فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشا خبيثا - فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها، ثم انصرفوا. وأخذوا يبحثون عنه في كل مكان، فلما أعياهم البحث خصصوا جائزة قدرها مائة ناقة لمن يرد عليهم محمداً وكان بين الذين انطلقوا للبحث عنه، طمعا في الجائزة، رجل اسمه سراقه بن مالك بن جعشم. فأنباه رجل من قريش أنه رأى ركبة ثلاثة متجهين إلى المدينة. وكان سراقه رجلا قوى البنية ومن غير أن يشعر بذلك أحدا، لبس درعه، وامتنى صهوة فرس جد رشيق وانطلق يطاردهم. وفي بعض الطريق كبا الفرس، فألقى بسراقه من فوق ظهره. وحين استقسم بالألزام ليرى ما إذا كان عليه ان يواصل المطاردة أم لا، جريا على مالوف عادة القوم في مثل تلك الأحوال، جاءه الجواب بالنفى. ولكنه لم يبال بالندير، فواصل الطراد، ولكن الفرس كبا من جديد، وجاءت نتيجة الاستقسام بالنفى كرة أخرى. ومع ذلك فقد امتنى صهوة فرسه وانطلق به بأقصى السرعة حتى أمسى على مقربة من الرسول دانية، وكان على وشك أن يرميه بسهم عندما كب الفرس كرة ثالثة، وغاصت قوائمه هذه المرة في الرمل. وفي حديث سراقه عن هذه الحادثة، بعد، قال: «عندئذ تجلى لى أن الله قضى بأن تنتصر قضية الرسول» وهكذا طرح نية القتل، وأقبل على الرسول بقلب نادم، وسأله أن يغفر له، فلا يعاقب على فعلته حتى ينتهى الرسول إلى مقام السلطة. فكتب له الرسول العهد الذى طلبه<sup>(٣)</sup>.

وكان الصحابة يحتفظون فى متناولهم، على نحو موصول، بأدوات الكتابة من أقلام وحبير لكى يدونوا الوحى الإلهى حال نزوله على الرسول. ليس هذا فحسب، بل لقد بشر سراقه بأنه سوف

(١) الروض الأنف - ٢ / ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) نقله الهيثمي ورواه البزار والطبراني - مجمع الزوائد ٦ / ٥٥ - ٥٦.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٦٧



يلبس دمالج كسرى الذهبية فى يوم من الايام وكانت هذه رؤيا رائعة للحادثة التى كان مقدرًا لها ان تقع بعد اربع وعشرين سنة تقريبًا، وهى حادثة تستعصى على ملكة التخيل عند الإنسان، وبخاصة إذا كان صاحبها رجلاً ينجو بنفسه من القتل. ففى مثل هذه الحال اليائسة يعلن الرسول، وحياته تتأرجح فى الميزان، النبأ السعيد القائل بأن مملكة الاكاسرة سوف تؤول إليه. وقد تحققت نبوءة الرسول تلك، فى خلافة عمر، عندما سقطت فارس فى أيدي العرب، واستدعى سراقه ليحلى معصماه بدمالج الاكاسرة. لا نستطيع أن نمر بهذه الحادثة دون أن نعبر عن إعجابنا بتلك الثقة التى لا حدود لها بالله تبارك وتعالى، إنسان طريد شريد يلاحقه الموت فى كل مكان يعد أعرابيا بسوارى كسرى أعظم ملوك الأرض! . هذا الوعيد يلقي ضوءاً يكشف لنا عن بعض مخطط الرسول السياسى والعسكرى. إن هذا التصريح من الرسول ﷺ بأن الله سيلبس سوارى كسرى أعرابيا يعنى: أن صدامًا مسلحًا سينشب بين الدولة الإسلامية ودولة فارس، وأن النصر فى ذلك الصدام سيكون للدولة الإسلامية، ولكن متى سيحدث هذا الصدام؟ إن رسول الله وضع الدولة الإسلامية فى وضع لا بد فيه من حدوث هذا الصدام، وقد حدث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>.

وإنما يرجع ثبات الرسول الأعجوبى، الذى أظهره وسط تلك المخاطر الغامرة، إلى ما كان ينزل عليه بين الفينة والفينة، من الوحي الإلهى قصد به إلى التسرية عنه. وكان قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص] (أى إلى مكة) تعزية أخرى تلقاها الرسول خلال هجرته إلى المدينة. والواقع، ان الهجرة لم تكن شيئًا غير متوقع عنده. فقد أعلم منذ عهد بعينه أنه سوف يضطر إلى مغادرة مكة، وأن نجم الإسلام سوف يبرز من موطن أخسر. والقرآن الكريم حافل بالنبوءات التى تفيد هذا المعنى فلحظة كانت عاصفة المقاومة فى ذروة قوتها، ومحنة الرسول فى أوج قسوتها، نزل الوحي بأن الإسلام لا بد ان يتنصر آخر الأمر، وحتى ولو أفرغ أعداؤه كامل قواهم فى قتاله. والحق أن قصص الانبياء السابقين، والمعارضة التى جابهوها، ولجأهم النهائى، كما رواها القرآن الكريم، إنما نزلت فى هذه الفترة من حياة الرسول كضرب من العزاء لتشييته فى وجه ضروب البلاء التى قاساها. وقبيل الهجرة رأى فى ما يراه النائم أنه هاجر إلى موطن غنى خصب. ولم يكن ذلك الموطن غير المدينة، التى لا تزال إلى اليوم شهيرة بجنائها. إن السابقين من المسلمين لم يغفلوا عن إدراك أثر الهجرة فى انتصار الإسلام؛ لقد علموا علم اليقين أن ذلك الانتصار كان رهناً بتلك الحادثة الحاسمة. وهكذا اعتبروها مولدًا للإسلام، فإذا بالتقويم الإسلامى - كما سبقت منا الملاحظة - يبدأ لا من النداء الإلهى الأول الذى تلقاه الرسول فى غار حراء، ولكن من هجرته إلى المدينة. من أجل ذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الحادثة بوصفها شاهدًا على أن يد الله السعفة كانت من وراء الإسلام، وانها كانت أيضا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١١٨ .

ضمائناً لانتصاره النهائي. فهو يقول ما تفسيره: إن لم ينصره المكيون فقد نصره الله في محنته العظمى عندما تعين عليه أن يغادر مكة وليس معه غير رفيق واحد، ولقد تعين على الرفيقين أن يفزعا إلى غار، ولكنهما لم ينعما بالأمن حتى في ذلك الغار<sup>(١)</sup>.

كان المطاردون قد اقتصبوا آثارهم، فانتهبوا إلى فم الغار نفسه. قال ابن عباس<sup>(٢)</sup>: «كان المشركون يرمون علياً وهم يظنون أنه النبي ﷺ فجاء أبو بكر فقال: يا رسول الله، فقال له علي: إنه انطلق نحو بئر ميمونة فأدركه، قال فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار»<sup>(٣)</sup>، كما أشار ابن حجر إلى أن أصله في الترمذي<sup>(٤)</sup> والنسائي<sup>(٥)</sup> ونقل الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وقال علي أبي بكر<sup>(٦)</sup>. وكان رفيقه قد خشى أن يدركهما القوم فابتأس وحزن. ولكن الرسول وأسى صديقه، في تلك اللحظة الحرجة، وسأله أن لا يحزن لأن الله معهما. ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] وهذا الإيمان الوطيد العميق الجذور في العون الإلهي كان في الحق هو سر تفاؤله في أشد الأحوال قسوة وأدعائها إلى اليأس. إن أيما لفتة قنوط أو خيبة لم تند من شفتيه قط. يا للمغايرة! لقد عرفت الدنيا نبياً لم يكذب يواجه مثل هذه العقبات القاهرة حتى أطلق كلمات الخيبة، قائلاً إنه يؤثر أن يلتحق بآبائه وأجداده. وعرفت نبياً آخر عبر عن يأس مماثل في حال من العجز المطلق فقال: «إلهي! إلهي! لم خذلتني؟» أما محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فلم يعرف أيما قنوط، أو يأس، أو فزع. كان كلما نابت الخطوب وادلهمت توجه قلبه بالأمل. وفي هذه الساعة من ساعات العجز الأقصى، حين بدأ - من الزاوية البشرية - أن الرسول قد حرم الأمن حتى في مفزعه الأخير بغار ثور، هتف بقلب مفعم بالأمل والثقة: «إن الله معنا». وخلال الفترة المكية، المستدة على ثلاث عشرة سنة ونيف، تعين على الرسول أن يعمل في وجه مقاومة من أعنف المقاومات وأمرها. لقد خلقت قوته الروحية نحواً من ثلاثمئة عملاق من عمالقة الروحانية، الذين لم يتزعزع إيمانهم به لحظة واحدة، والذين نصره برغم ضروب التعذيب المبرحة، والذين هجروا بيوتهم وممتلكاتهم ولكنهم لم يهجروه هو. والواقع أن الانقلاب العجيب الذي أحدثه في فترة قصيرة لا تزيد على ثلاث عشرة سنة، برغم المعارضة الموحدة التي أبدتها الأمة كلها، قد انتزع إعجاباً عصياً حتى من ناقد مثل السير ولیم ميوير الذي رسم الصورة التالية لصحابته<sup>(٧)</sup>:

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١١٩.

(٢) الحاكم المستدرک مع التلخیص - ٣ / ١٣٢ - ١٣٤ - أخرجه أحمد والحاكم لابن عباس من طريق عمرو بن ميمون

(٣) أحمد - المسند - ١ / ٣٣٠ - ٣٣١.

(٤) الترمذي في سننه عن ابن عمر: ٥ / ٢٧٥ - رقم ٣٧٥٢.

(٥) النسائي - فضائل الصحابة - حديث ٤ - رقم ٣ وعند الطيالسي ج ٤٢ رقم ٣١٤.

(٦) عن طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس أخرجه البيهقي في الدلائل ٢ / ٤٨٢ والسيوطي - الدر المنثور: ٤ / ٢٠٧.

(٧) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٢٢.

«فى فترة قصيرة إلى هذا الحد كانت مكة قد انشقت، بسبب من هذه الحركة الرائعة إلى حزين كانا قد نظما صفوفهما، غافلين عن المعالم القديمة للقبيلة والأسرة، فى صراع تقابلا فيه على نحو مهلك. ولقد صبر المؤمنون على الاضطهاد بروح متأنية متسامحة، وعلى الرغم من ان الحكمة كانت تقتضيهم اتخاذ هذه الموقف، ففى إمكاننا أن نعتزف لهم، فى غير ما تحفظ، بفضيلة الحلم الراشح بالشهامة وكرم الاخلاق. كان مئة رجل وامرأة منهم قد هجروا ديارهم، مؤثرين ذلك على ترك إيمانهم الغالى، والتمسوا الأمن والسلامة، ربما تهدأ العاصفة، فى منفى ببلاد الحبشة. وها إن عدداً منهم أكبر من ذلك، وفيهم الرسول نفسه، يهاجرون الآن من مدينتهم الحبيبة بيتها الحرام، الذى كان عندهم أقدس بقعة على الأرض، ويفزعون إلى المدينة. وهناك كانت التعويذة العجيبة نفسها تنشىء لهم، طوال سنتين أو ثلاث سنوات، جماعة متأخية مستعدة لان تحمى الرسول واتباعه بدمانها. كانت الحقيقة اليهودية قد تزدت فى آذان أهل المدينة منذ عهد طويل، ولكنهم لم يستيقظوا هم أيضا من سباتهم وينطلقوا فجأة إلى حياة جيدة قويمة إلا بعد ان سمعوا بيان الرسول العربى الآخذ بمجامع القلوب. وقد وصف القرآن الكريم نفسه فضائل المسلمين فقال:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۖ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۖ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۖ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۖ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۖ﴾ [الفرقان].

والواقع أن هذه ومثلات غيرها من الآيات القرآنية التى تصف شمائل الصالحين لا ترسم صورة خيالية. إنها تقدم إلينا وصفًا حقيقياً لحياة صحابة الرسول. وإنما كان الفضل فى هذا التحول الأعجوبى للسلطان الروحى الذى تكشف عنه رجل فرد. ففى فترة قصيرة إلى حد غريب سما إلى ذروات الاخلاق العليا مشات من الناس الغارقين فى الرذيلة والخرافة، المستسلمين لاحت أشكال الوثنية، المكبلين بأصفاة أقلد العادات الاجتماعية وأشدّها قسوة. لقد نفخ فيهم روحاً جديدة، فإذا بهم يتشبثون بمبادئ الحق والفضيلة والإحسان إلى الناس، تلك المبادئ التى ارتضوها، وبعضون عليها بالنواجذ، برغم ما لقوة من إعنات ليس أظف منة. لقد غرس فيهم حس المسبورية والكرامة الإنسانية. كان ههنا، فعلا، أعظم محسن للإنسانية. وأتم الرسول وصاحباه الرحلة إلى المدينة فى ثمانية أيام - وهى رحلة تستغرق عادة أحد عشر يوماً - فبلنساها فى الثانى عشر من ربيع الاول، من

السنة الثالثة عشرة للبعثة، الموافق للثامن والعشرين من يونيو عام ٦٢٢ للميلاد. وكانت أبناء اختفائه من مكة قد سبقته إلى هناك، ولكن اختبائه ثلاثة أيام في الغار لم يعرف به أحد. كانت البلدة تتوقع وصوله في لهفة. ففي كل صباح كان جماعة من أشد المؤمنين حماسة يخرجون للقاء سيدهم، مجتازين أميالا من الطريق المفضية إلى مكة. وأخيراً انقضت ساعات الارتقاب الناقد الصبر، بما انطوت عليه من ملل وسأم، وأطل الزائر العظيم على أفق المدينة. وعلى مسافة ثلاثة أميال من البلدة يقع موطن يعرف بقباء، ويعتبر ضاحية المدينة، هناك أقامت عدة أسر من الأنصار، كانت أسرة عمرو بن عوف أبرزها وأوجهها. وقبيل دخول الرسول المدينة، قبل دعوة عمرو هذا، فخرج على قباء. وكان عدد من المهاجرين يقيمون هناك أيضا. فتدفق المسلمون من يثرب إلى قباء، زرافات زرافات ليلقوا زعيمهم المبجل. ومكث الرسول، ثمة، أربعة عشر يوماً<sup>(١)</sup>.

وصف جغرافيو العرب الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة ومزحشة لا يصادف فيها المسافر ما يخفف عنه السفر من زرع وماء ويتخللها طريقان أحدهما شرقي محار لبلاد نجد والآخر غربي محاذ لساحل البحر الأحمر، وقد اختار الدليل الطريق الثاني بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق المألوفة تماما بل كان يلتوي هنا وهناك تفاديا من أن يلحقهم من يقفوا أثرهم من القرشيين ممن كانوا يطمعون في الحصول على الجائزة التي قررتها قريش لمن يأتي بالرسول محمد ﷺ وهي مائة ناقة لمن يدلهم عليه أو يأتي به<sup>(٢)</sup>.

بلغ مجموعات الحماية التي أرسلها رسول الله إلى المدينة قبله، نبا خروج الرسول ﷺ من مكة، فجلسوا ينتظرون قدومه إليهم، فكانوا يخرجون إلى مشارف المدينة، إلى قباء ينتظرون قدومه، ويبقون هناك إلى الظهيرة، ولما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله، كان الناس قد دخلوا بيوتهم من حر الظهيرة، وإذا بصوت يهودى ينادى يا بنى قيلة هذا جدكم قد جاء، فخرجوا إلى رسول الله، وأكثرهم لا يعرفه، فلم يفرقوا بين رسول الله وأبى بكر حتى رأوا أبا بكر يظله من الشمس، فعرفوا أنه رسول الله. نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن هدم، وكان يجلس للناس فى بيت سعد بن خيشمة، لأنه كان أعزباً، ولهذا حدث التباس في بعض المصادر حول قضية نزوله وذهب البعض إلى القول بأنه نزل على سعد لا على كلثوم<sup>(٣)</sup>، ونزل أبو بكر الصديق على حبيب بن إساف. ولم يلبث الإمام علي بن أبى طالب أن لحق برسول الله في قباء بعد أن بقى في مكة بعد خروج رسول الله منها ثلاثة أيام، رحل بعدها إلى المدينة المنورة، ولحق برسول الله في قباء، ونزل مع رسول الله على كلثوم بن هدم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ (٧٧) [الأنفال].

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ٩٩ .

(٣) ابن هشام - القسم الأول ص ٤٩٣

أسس الرسول أول مسجد في الإسلام، وقد عرف بمسجد قباء. وإلى هذا المسجد يشير القرآن الكريم بقوله، في السورة التاسعة ﴿... لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة] ولقد بناه الرسول وصحابته بأيديهم، فكانوا يشاغلون كلهم في بنائه وكانهم عمال عاديون. وبعد ذلك دخل الرسول إلى المدينة، التي لبست جميع أحيائها بحلة التهلل والابتهاج. وانطلق القوم لتحيته، وقد ارتدوا أبهى ملابسهم. وصعدت النسوة إلى سطوح منازلهم، وغنين بصوت واحد ترحيبًا بالزائر النبيل. كان كل امرئ راغبًا في أن يقيم الرسول في بيته هو. ولكن الرسول ألقى لناقته خطامها، تاركًا إياها تفضى على هواها، وقال للحشود المتلهفة المتحلقة من حوله، إنه سوف ينزل حيث تبرك تلك الناقة. ومضت الناقة في سبيلها حتى وصلت إلى مربد قبالة بيت أبي أيوب خالد بن زيد الانصاري وثمة بركت. وكان المربد لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل ابنا عمرو فقدماه للرسول، بالمجان لبناء مسجد عليه، ولكنه لم يرتض أن يقبله من غير ثمن وهكذا تعين عليهما أن يقبلا الثمن. فكان أول عمل تم هناك هو بناء المسجد، وقد شيده الرسول وأصحابه بأيديهم. والواقع ان كل امرئ اعتبر هذا العمل التطوعى فخراً له وشرقاً، فكانوا يرددون مع الرسول، وهم يرفعون قواعد المسجد: «اللهم، لا سعادة إلا سعادة الدار الآخرة. اللهم، انصر المهاجرين والأنصار!» وكان المسجد يتسم بالبساطة الكاملة: فقد بنيت جدرانه الأربعة من الأجر ودعم سقفه يجذوع النخيل، وغطى بسعف الشجر نفسه. ولم يكن قادراً، بوصفه هذا، على أن يذود المطر عن أرضه غير المعبدة، فهو يجعلها موحلة. وللتغلب على هذه العقبة، فرشت أرضه بالحصى، وفي رواية من الفناء أقيم ضرب من المنصة المسقوفة لإيواء من لاسكن لهم ولا أسرة<sup>(١)</sup>.

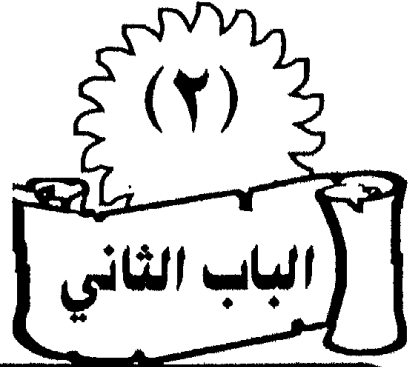
عرف الدين أقاموا هناك بأهل الصفة. وكان هذا، إذا جاز التعبير، ضرباً من المدرسة الدينية ملحقاً بالمسجد، ذلك بأن هؤلاء القوم كرسوا وقتهم لدراسة الدين. وفي محاذة المسجد بنى مسكنان لأسرة الرسول. كان المسلمون، خلال مقامهم في مكة، ولا يستطيعون إقامة الصلاة على رؤوس الأشهاد جماعة. أما وقد أجازت حال السلم في المدينة إقامة الصلوات جهاراً فقد درست ذات يوم مختلف الطرائق التي استطاع بها دعوة المؤمنين إلى الصلاة في مواقيتها. وفي الليلة نفسها كان عمر بن الخطاب قد رأى في ما يرى النائم رجلاً يردد «الله أكبر! الله أكبر!» - أى نص الأذان الذى أمسى منذ ذلك الحين ملء الأسماع. وفي صباح اليوم التالى قص رؤياه على الرسول. وكان صحابى آخر قد رأى الرؤيا نفسها أيضاً. فلم يكن من الرسول إلا ان تبنى هذا النص أذاناً رسمياً. وأقيمت هنا أول صلاة جمعة جامعة يوم غادر الرسول قباء ودخل مدينة يثرب<sup>(٢)</sup> ما إن وضع رسول الله قدميه فى المدينة المنورة، وشرع فى إقامة صرح الدولة الإسلامية فيها حين فرض الهجرة على كل مسلم أينما

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٢٥.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٢٦.

كان من غير أصحاب الاعذار، لأن الدولة بحاجة إلى إمكانيات وعطاءات كل مسلم من جهد ومال وليكون المسلمون جميعًا تحت ولاية وحماية الدولة الإسلامية، غير مستضعفين في الأرض: ﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا...﴾ (٧٢) [الأنفال]، وبناء على ذلك فقد تلاحق المهاجرون إلى رسول الله حتى قال ابن اسحاق: «ولم يبق منهم في مكة أحد إلا مفتون أو محبوس» حتى إن بعض الأسر والعائلات قد أُرعبت فخرجت برمتها إلى رسول الله وتركت بيوتها في مكة خالية.

# معارك وغزوات الدولة الإسلامية الأولى



## الفصل الخامس

بناء الدولة الإسلامية في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر

## الفصل السادس

معركتي أحد والأحزاب

## الفصل السابع

من هدنة الحديبية إلى فتح مكة

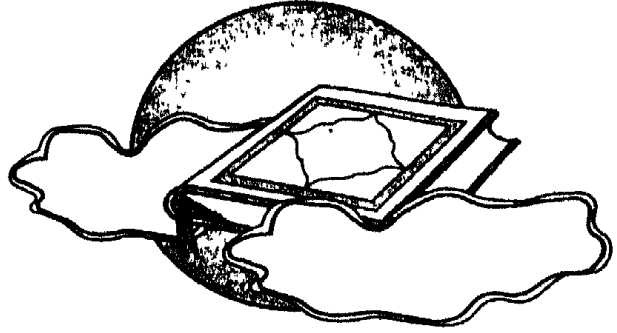
## الفصل الثامن

رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية





# الفصل الخامس



بناء الدولة الإسلامية الأولى  
في مدينة رسول الله  
محمد ﷺ ومعركة بدر



## بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ

ما إن وصل رسول الله محمد ﷺ المدينة المنورة حتى بدأ يعد العدة لإعلان قيام الدولة الإسلامية ككيان سياسى بين الكيانات السياسية فى العالم، وكسلطة وليه الجميع من يستظلون بظلها ويعيشون بكنفها، ومهيمنة عليهم: وقد بدأ عليه الصلاة والسلام ببناء المسجد باعتباره المقر الرسمي للدولة، منه تصدر القوانين، وفيه تناقش الامور، ومنه تزداد البلاغات، وفيه يفصل فى الخصومات، واصبحت يشرب معقل الإسلام والمسلمين وغدت تعرف باسم مدينة النبي ﷺ وتسمى اليوم المدينة المنورة لوجود قبر الرسول محمد ﷺ وقد ذكر ياقوت تسعة وعشرين اسما منها المدينة - طيبة والمدينة المحبوبة والمحبوبة ويثرب والناحية المباركة والعاصمة والشرفية<sup>(١)</sup>. بعد أن دخل رسول الله المدينة المنورة وأرمع على إقامة دولة الإسلام فيها، كان عليه أن يوجد الأمن والاستقرار فى الداخل، ليتفرغ هو ومن حوله من المسلمين لبناء دولة الإسلام، ولئلا تشغلهم أو تعوقهم القلاقل الداخلية عن بناء دولة الإسلام التى تعتبر الحامى الحقيقى لدين الله، وكان فى المدينة الانصار الذين أكلتهم الخلافات التى استحكمت بين أوسهم وخزرجهم، وكان فيها اليهود وهم فئة غير مأمونة الجانب، وقد امتلأت نفوسهم حقدًا على الدين الجديد، وهم يحاولو إجهاضه بأساليبهم الدنيئة المعروفة، وكان فيها المهاجرون الذين قدموا من مكة المكرمة فرارًا بدينهم إلى الله<sup>(٢)</sup>.

استطاع عليه الصلاة والسلام بنظرة السياسى الثاقبة، وحسن تديره للأمور أن يضبط الأمور ويحبك أطرافها حبكًا جعلها طوع يديه، وكان رسول الله محمد يهتم بإسناد الأمر إلى المدير القادر عليه حريصا على تقرير التبعات فى الشئون ما كبر منها وما صغر على النهج الذى أوضحه الرسول بقوله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته». وقد كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ولكن رسول الله محمد ﷺ لم يترك أحدًا يدعي لنفسه حقا فى إقامة الحدود وإكراه الناس على طاعة الأوامر واجتتاب النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس<sup>(٣)</sup>.

شاع الإسلام بين الانصار وانتشر، ولم تبق من دورهم إلا أسلم بعض أهلها. لا يستثنى من ذلك إلا بعض البيوت القليلة، ومن المعلومات التى اجتمعت لدى رسول الله ﷺ من مصعب بن عمير وغيره، عرف رسول الله المؤتلف من القوم فى المدينة والمختلف منهم، ورأى عليه الصلاة

(١) د. محمد رواس قلمه جي - المرجع السابق ص ١١٠.

(٢) ياقوت الحموي - معجم البلدان - انظر المدينة المنورة.

(٣) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٦٦.

والسلام أن من الحكمة الإسراع فى معالجة أمر الانصار الذين استحكمت فيهم الخلافات معالجة جذرية، بتقسيمهم إلى خلايا متضامنة فيما بينها على الخير، ومسؤول بعضها عن بعض، ففعل ذلك رسول الله ووضع الجميع أمام مسؤولياتهم، فلم يفلت منهم أحد، واعتبر هذه الخلايا التي يوحد بينها الإيمان بالله تعالى، وتربط بينها الإخوة الإسلامية مسؤولة تضامنية عن درء العدوان الكافر الواقع بالدولة الإسلامية. وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد نظم المجتمع الجديد تنظيمًا جديدًا يتفق على القيم الإسلامية، ويخدم مصالح الدولة الإسلامية، وهو يختلف اختلافاً أساسياً عن تنظيمه القديم القائم على أساس العصبيات<sup>(١)</sup>. وبذلك كان قد استقبل الانصار إخوانهم المهاجرين وشاطروهم الديار والأموال ثم بذلوا لهم النفس والنفس ابتغاء رضوان الله وقد أصبح حب الانصار جزء من عقيدة الإسلام ويات بعضهم نفاقاً يزري بصاحبه<sup>(٢)</sup>. وكتب عليه الصلاة والسلام بذلك كتاباً وافق عليه جميع الأطراف ذات العلاقة، وهذا هو نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التي وجدهم عليها الإسلام) يتعاقلون (الدية) بينهم وهم يقدون عانيهم (الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، كل طائفة منهم تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (المثقل بالدين والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بنى منهم، أو ابتغى دسيعة (العظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو إفساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجبر عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين لا متناصرين عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن فى قتال فى سبيل الله على سواء وعدل بينهم. وإن كل غارية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً. وإن المؤمنين يبيء (قتله به، جعله بواء به) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله. وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وأنه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط (قتله بلا جناية توجب القتل) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه تود إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كاف، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإن من

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١١١.

(٢) محمد حامد الناصر - الحياة السياسية عند العرب - ج ١٢.

نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ»<sup>(١)</sup>.

بهذه الإخوة قام المجتمع المسلم في المدينة المنورة وضرب مثلاً رائعاً في التكافل الاجتماعي وبناء الجماعة المسلمة. لقد شاطر الأنصار إخوانهم المهاجرين المال والديار بكرم وسخاء وكانت المؤاخاة رباطاً قوياً متيناً جمع المهاجرين والأنصار بما يترتب على ذلك من حقوق وصل بل تساوت مع حقوق الإخوة في النسب<sup>(٢)</sup>. وعالج رسول الله أمر اليهود بمعاملة عقدها معهم ونص هذه المعاملة: «إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. إن هذه المعاهدة تحتوى على خمسة أمور رئيسية: اعتبار اليهود مواطنين في الدولة الإسلامية، لهم حريتهم الدينية، تحميلهم الدولة وتدافع عنهم وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق وفتح الطريق للراغبين في الإسلام. على اليهود أن يساندوا الدولة الإسلامية في رد العدوان عنها. على اليهود النصح للدولة الإسلامية، فلا يتآمرون عليها، ولا يخفون نأباً من يعلمون منه الكيد للدولة الإسلامية. تفرض الإقامة الجبرية على اليهود، ولا يجوز لهم مغادرة أماكنهم إلا بإذن من الدولة الإسلامية. السيادة للدولة الإسلامية، وإليها يرجع اليهود في فصل الخصومات التي تنشأ بينهم وبين المسلمين. حتى إذا نظم الرسول الصلوات على هذا النحو التفت إلى مسألة إعالة اللاجئين. كان معظمهم، خلال مقامهم في مكة، يحيون في رغد وسعة، بيد أنهم اضطروا بعد ذلك إلى أن يخلفوا ثروتهم وممتلكاتهم وراءهم ولما كان المهاجرون قد خرجوا من بلدهم مكة وقد تركوا فيها أموالهم، وحلوا المدينة المنورة وليس لهم فيها بيت يأويهم، ولا مال ينهض بحوائجهم، فلا بد من أن يتخذ الرسول تدبيراً اقتصادياً يحل مشكلتهم إلى جانب التدابير السياسية والاجتماعية، ولذلك آخى الرسول بينهم وبين الأنصار، فقال عليه الصلاة والسلام: «تآخوا في الله أخوين أخوين» ثم أخذ بين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «هذا أخى». فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، وعلى بن أبي طالب رضی الله عنه أخوين. وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعم رسول الله ﷺ، وريد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت. وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيار في الجنة، ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين. وانطلاقاً من هذا الإخاء جعل الواحد من الأنصار يعطى أخاه المهاجر من ماله ما ينهض بحاجته دون عد ولا حساب، وجعل الواحد منهم يرث الآخر

(١) ابن هشام - ج٢ - ص ١١٩ - ١٢٣.

(٢) محمد حامد الناصر - المرجع السابق ص ١٢٠.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال].

عمل رسول الله محمد ﷺ في هذا الجو ووضع المخططات للتجمع المدني الإسلامي الجديد في المدينة المنورة وكانت المشكلة الأولى التي واجهها هي مشكلة اقتصادية نبتت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة وغادروها بدون أمل في العودة أو استرداد ما يملكون. ولهذا كله وتوكيدا لوحدة المجتمع المدني الإسلامي أوجد الرسول محمد ﷺ نظام المواخاة<sup>(٢)</sup>. وكانت على مرحلتين الأولى المواخاة على «الحق والمؤاساة» وقد نص نظام المواخاة هذا على حق التوارث بين المتأخين دون الأرحام والمرحلة الثانية كانت المواخاة فيها بين المهاجرين أنفسهم قال رسول الله محمد ﷺ لاتباعه: تأخروا في الله أخوين أخوين ثم أخذ بيد الإمام علي بن أبي طالب فقال هذا أخي. ثم أخى بين حمزة عمه ومولاه زيد بن حارثة<sup>(٣)</sup>.

ففسخ التوارث بالإخوة الإسلامية، وجعل التوارث بالقرابة النسبية المشربة بالإسلام. وبذلك يكون رسول الله قد فرغ من إصلاح الأوضاع الداخلية ونشر الأمن والسلام في ربوع الدولة الإسلامية الناشئة. وهكذا عقد الرسول إخوة بين الأنصار والمهاجرين - إخوة فريدة في تاريخ العالم. فجمع برباط الإخاء بين المرء من المهاجرين والمرء من الأنصار. ولقد أخذ القوم بأسباب التعاطف والحب للذين بنيت عليهما هذه الإخوة الجديدة أخذًا رائعا لم يسبق إلى مثله. فأرى كل من الأنصار أخوا له من المهاجرين، فشاطره بيته، وقاسمه أمواله وأمتعته على نحو متكافئ. وكان الأنصار أصحاب زراعة، ولقد رغبوا في أن يقتسموا مزارعهم مع إخوانهم بالتساوي. وكان المهاجرون أصحاب تجارة، فهم يجهلون كاملا. وحين أدرك الأنصار ذلك قالوا انهم سوف ينهضون بالعبء كله بأنفسهم ويقدمون نصف الغلال إلى المهاجرين. فقد كانت الرابطة الجديدة من القوة بحيث أصبحت حتى صلة الدم بين الإخوة الأشقاء. وذلك أن ممتلكات أحد المتأخيين كانت، إذا ما توفاه الله إليه، لا يرثها إخوة من أبيه بل أخوة في الإيمان. ولكن القرآن الكريم حذر أن يذهب بتلك الرابطة إلى هذا إلى المدى، وأوصى بأن ينتقل الإرث، بالطريق الطبيعي، إلى ذوى الأرحام<sup>(٤)</sup>.

تجاوز التأخي بين المهاجرين والأنصار النظريات إلى التطبيق الودود والمحبة الصادقة. إن المؤمن المغترب بدينه يشعر بفرحة عجيبة تنسيه آلام معاناته من الجاهلية التي تطارده وفراقه لدياره وأهله وعشيرته إذا شعر أن إخوته في العقيدة وقفوا إلى جانبه يمسخون عنه آلامه ويخففون عليه من جراحه<sup>(٥)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١١٢

(٢) د. نبيه عاقل المرجع السابق ص ٤٣٩.

(٣) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٤٤٠.

(٤) مولانا محمد عل - المرجع السابق ص ١٢٨.

(٥) محمد حامد الناصر - المرجع السابق ص ١٢٠.

لئن كانت هذه هي روح التضحية الاصلية التي تلقى بها الانصار إخوانهم في الدين فإن المهاجرين، بدورهم، لم يستغلوا مشاعرهم الوجدانية البتة. فحين عرض على عبد الرحمن بن عوف من قبل أخيه الأنصاري أن يأخذ نصف ممتلكات هذا الأخ كلها، عبر عن شكره لهذا الكرم، واجتزا بسؤاله أن يدلّه على سوق البلدة حيث سعى في سبيل اكتساب الرزق، وما هي إلا فترة حتى أنشأ تجارة رابحة خاصة به. وعلى نحو مماثل انصرف سائر المهاجرين إلى العمل في حقل التجارة. وأما أولئك الذين لم يجدوا ما يتاجرون به فقد عملوا حمالين عاديين، وبذلك لم يقيموا أودهم وأود أسرهم فحسب، بل اقتصدوا شيئا يقدمونه إلى «بيت المال»، أو الخزانة العامة لكي ينفق في خدمة المجموع. وسرعان ما ازدهرت تجارتهم ازدهارا عظيما، فإذا بقوافل بعضهم التجارية تتألف كل منها من سبعمائة بعير. وذات يوم، وكانت السنة سنة جدب، وفد على الرسول ضيف، إذ لم يجد في بيته مؤونة ما سأل أبا طلحة، وكان من صحابته، وأن يكرم وفادته، حتى إذا مضى أبو طلحة بالضيف إلى بيته، اكتشف أن ما عنده من طعام لا يكاد يكفي أطفاله. وتفاديا لخرج الموقف أطفأ أبو طلحة الضوء، وقدم إلى الضيف أيما شيء تيسر له تقديمه، وجلس هو وزوجته إلى المائدة، مع ضيفهما - وكان هذا واجبا يفرضه حسن الضيافة - وراحا يتظاهران من طريق تحريك يديهما وفميهما، يتناول الطعام مع الضيف. وإذا كان ذلك الطعام يسيرا ما يكاد يقيم صلب الضيف وحده، فقد باتت الأسرة كلها، تلك الليلة، على الطوى. وبعد ذلك عرف المسلمون، بفضل من الله، أيام خصب وورغد، وشرعوا يحيون حياة رخية. ولكنهم سلكوا في كلتا الحالين، حال الشدة وحال الفرج، مسلكا رائعا. إنهم لم يتدمروا في الأولى البتة، ولم يبذروا ثروتهم في الأخرى على الإطلاق. لقد أنفقوها في سبيل الله: في مد يد العون إلى الفقير، والمعور، واليتيم<sup>(١)</sup>.

نظر رسول الله فوجد أن دولة الإسلام التي ستقوم بحاجة إلى كل رند مخلص، وإلى كل فكر نظيف، وإلى كل قلب وضاء، ليساعدوا في بناء دولة الإسلام لأن دولة فنية هذا شأنها تحمل رسالة النهضة والإصلاح إلى الإنسانية كلها لا بد لها من أن تستفيد من كل طاقة بشرية مخصصة لها. وتطلع رسول الله إلى السماء يطلب من ربه التسديد والتوجيه حتى لا تزل به قدم، أو يند له فكر، ولم يدم الأمر طويلا حتى نزل قول الله تعالى يفرض الهجرة إلى المدينة المنورة على كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، في أية بقعة من الأرض كان، فقال عز من قائل: ﴿... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا... ﴾ [٧٦] [الأنفال]. وأعلن الله عدم مسؤولية جماعة المسلمين عن كل مسلم لا يهاجر وينحاز إليهم، وعدم استحقاقه شيئا من فيثهم، وعدم قبول حجه إذا حج حتى يهاجر إلى الله ورسوله وينضم إلى جماعة المسلمين. بعد أن شيد رسول الله ﷺ المقر الرسمي للدولة الإسلامية، وأصلح الأوضاع الداخلية، واجتمع الناس لرسول الله، وجعلوا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٢٩ .

القيادة والحكم له . والكل له مطيعون، نستطيع القول إن الدولة الإسلامية قد قامت بالفعل ولم يبق عليها إلا أن تخطو الخطوة التالية وهي إعلان قيامها السياسي رسمياً. تذكر كتب السير أنه لما اطمأن رسول الله بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار، واستحکم أمر الإسلام فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال، وحرم الحرام، وتبوا الإسلام بين أظهر الناس المكان المرموق<sup>(١)</sup>، نشأ المجتمع المدني قويا يتحدى ضغوط الواقع الجاهلي حصينا من نزغات الدنيا وجواذبه وروابط العصبية والأهل والعشيرة إذا وقفت أمام عقيدته الجديدة واليوم كيف يستطيع المؤمنون أن يتخلصوا من ضغوط الجاهلية المعاصرة؟ إذا لم يرتفعوا إلى هذه المعاني السامية من التأخي الصادق والتعاون بلا مئة ولا إحراج، وإن التأخي يجب أن يخرج من عالم النظرية إلى عالم التطبيق وبذلك يستطيع المسلمون اليوم أن يعيدوا للمسلمين ماضيهم وأن يضعوا لبنات في طريق المستقبل، إن الإسلام كان قد صنع من العرب نماذج فريدة، أنكر الفرد فيها نفسه وقطع صلته بأبيه وبابنه وهجر المال والمتاع وأصبح له طريق جديد ووجهة جديدة إلى كيان آخر إسلامي يلتصق به ويحس أنه أصبح قطعة منه ذلك هو رسول الله محمد ﷺ والمؤمنون<sup>(٢)</sup>. إن للأذان معنى آخر ومهمة أخرى غير مهمة الدعوة للصلاة، إنه إعلان رسمي صادر عن مقر الدولة الرسمي - المسجد - وبواسطة أداة إعلام رسمية - هي المؤذن الذي عينه رسول الله ﷺ، رئيس الدولة - بقيام دولة الله في الأرض لقيادة محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بعد أن تجاوزت كل العقبات التي وضعتها العتاة الظلمة في طريق قيامها، وفاق تديير الله كل تديير، وفاقت قوته كل قوة. تأمل إن شئت أول كلمات الأذان «الله أكبر. الله أكبر» إنها تعنى أن الله تعالى أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره. «أشهد أن لا إله إلا الله» فلا سيادة في دولة الإسلام لغير الله، ولا حكم إلا له ﴿... إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ...﴾ [الأنعام]. «أشهد أن محمدا رسول الله» أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماض بها إلى أن يكمل الله دينه، بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة. «حى على الصلاة، حى على الفلاح» أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمثين العلاقة بين الإنسان وخالقه، وتمثين العلاقة بين الإنسان والإنسان على أساس من القيم الإنسانية السامية. «قد قامت الصلاة» نعم قد قامت الصلاة بقيام هذه الدولة، ولولا قيامها لما جراً أحد على عبادة الله. «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله» ثم يعود ليؤكد في النهاية الأذان أن السيادة في دولة الإسلام لله تعالى وحده، وأن الحكم فيها لشريعته<sup>(٣)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١١٧.

(٢) محمد حامد الناصر - المرجع السابق ص ١٢١.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١١٨.



سياسية الدولة الإسلامية الأولى مع القوى الداخلية والمجاورة: بعد أن تم لرسول الله ﷺ الإصلاح الداخلى ولمس الاستقرار فيه، توجه عليه الصلاة والسلام إلى تقدير الموقف الخارجى تجاه دولة الإسلام. وأول ما يجب أن يعرفه فى تقدير الموقف: الصديق والعدو. ولم يكذ الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه ومن ثم سمي هذا الدين «الإسلام» لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لإرادة الله تعالى والدين، والذين يدينون به يسمون المسلمين أى الذين يخضعون لأمر الله ورسوله وأمر الرسول بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم كما أمر بصوم شهر رمضان وحمل حقوق الملكية الفكرية والجماعية العامة وجعل للمرأة مركزا محترما لم يكن لها في السابق في الجاهلية<sup>(١)</sup>. وقد قدر رسول الله ﷺ الموقف بما يلى: أولا: الصديق: وقد تبيين لرسول الله أن الصديق فن حكم المعدوم، لأن النجاشى - ملك الحبشة - رغم إيمانه بالرسول ﷺ لا يستطيع أن يقدم للرسول أية معونة نظرا لبعده الشقة فيما بينهما، لأن شعبه على خلافه فى قضية الإيمان بمحمد كرسول من عند الله، وقد رأينا كيف أن بطارقتة قد نخرها عندما قال ما قال مثنيا على رسول الله ودعوته، فصداقته لا تعدو أن تكون صداقة شخصية لا تجدى فتيلة. ثانيا: العدو: وقد وجد عليه الصلاة والسلام أن العدو يتألف من: اليهود: فى المدينة المنورة وما حولها، لأن رسول الله حول عصا القيادة عنهم إلى غيرهم من المسلمين، ولأن دينه نسخ دينهم، فهم عدو، ولكنهم عدو ذكى داهية، ولذلك فإن تصفيه هذا العدو يتطلب تخطيطا خاصا، وهذا ما فعله عليه الصلاة والسلام، فقد جعل تصفيتهم على مراحل، على خلاف تصفيته للعرب المشركين، وقد استطاع عليه الصلاة والسلام بنظره السياسى البعيد أن يجمد عداوتهم للدولة الإسلامية، واحتمل ما ظهر منهم من محاولات خبيثة، انتظارا منه لليوم الموعود، لأن كل شىء عند رسول الله ﷺ يتم بقدر. وكانت المسألة الرئيسية التى وجه الرسول همته إليها هى إقامة علاقات ودية بين مختلف القبائل المقيمة فى المدينة. وكان اليهود يتمتعون، ههنا، بسلطان غير يسير<sup>(٢)</sup>.

والمشركون المنتشرون فى أنحاء الجزيرة العربية، وقد ظهرت عداوة هؤلاء منذ أن دعا رسول الله نبد الاصنام وعبادة الله الواحد. وكان رسول الله محمد ﷺ قد أظهر آثار الإسلام والتآخي بين المسلمين على اختلاف قبائل العرب ومراتبهم، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية فأصبحوا متساويين جميعا لا فرق بين السيد والعبد وغدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وقد ساعد الرسول محمد ﷺ على توحيد كلمة العرب تلك المساواة التى جاد بها الإسلام وتلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التى مزقت العرب وليس أدل على تلك الديمقراطية التى جاء بها القرآن الكريم من قوله عليه الصلاة والسلام «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح» وهكذا أصبح

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٠٤.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٣٠.

الدين الإسلامي دون الجنس أو القومية المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة الإسلامية والرعية ثم بين أفراد الشعب<sup>(١)</sup>.

وأفراد لا يحملون السيف في وجه رسول الله ولكنهم يعملون خلف الكواليس ويدفعون من يحمل السيف في وجهه. وفارس والروم: ورغم أن هؤلاء لم تظهر عداوتهم بعد، ولكن لا بد وأن تظهر، لأنهم لن يسره أن تقوم بجوارهم دولة حديثة قوية، يسودها العدل والإنصاف، لما لها من الخطر عليهم وعلى أنظمتهم الظالمة الجائرة، وفعلًا ما إن شعر الروم بقوة هذه الدولة الفتية حتى جمعوا لها الجموع في مؤتة، ثم في تبوك، ثم حشدوا لها الجيوش ونازلوها في أماكن عدة. وقد أشعر رسول الله أصحابه بعداوة هؤلاء، وأن الواقعة بينهم وبين المسلمين لا بد واقعة، عندما ضرب بمعوله صخرة أثناء مساعدته في حفر خندق المدينة فتطاير الشرر منه فقال: فتحت عليكم بلاد فارس. . فتحت عليكم بلاد الروم. . ولم يكن الناس آنذاك يفكرون بعداوة هؤلاء، ولكن الرسول بنظرة السياسي الثاقب أدرك هذا كله منذ أن أخذ بالتخطيط لدولة الإسلام في المدينة المنورة.

لم تعد مهمة الرسول بعد أن قدم إلى المدينة تقتصر على تبليغ الوحي والدعوة إلى دين الله فحسب بل غدا قائد الأمة الإسلامية، ورئيس الدولة الإسلامية الأولى، وعليه أن ينظم حياة جماعة من أتباعه في علاقاتهم الخاصة والعامة وفي ميادين عديدة<sup>(٢)</sup> ويعد أن انتهى من ذلك كان عليه مهمة أخرى كبرى لا تقل أهميتها عن الأولى وهي إيجاد الأمن الخارجي ومن ثم نشر الإسلام خارج حدود العاصمة الإسلامية «يثرب» ومن هنا بدأ يضع الخطط اللازمة لامية الإسلام إذ كان رسول الله محمد ﷺ مبعوثًا للناس كافة في العالم.

انطلاقًا من هذا التقدير الدقيق للموقف اتخذ رسول الله قرارًا هو على غاية من الأهمية، كما أنه على غاية من السرية، إذ ليس من المعقول أن يعلن رسول الله عن قراره هذا، لأنه يعتبر سرًا من الأسرار العسكرية والسياسية التي لا يجوز أن يطلع عليها أقرب المقرين، وقد انكشف لنا هذا القرار من دراسة سيرة الرسول ﷺ، ودراسة الحركة التي كان يحركها دولته بجميع أجهزتها. ويتلخص هذا القرار بالعمل على تصفية الكيانات السياسية لخصوم الدولة الإسلامية بمعدل كيان واحد في كل سنة، والبدء بتصفية الكيانات السياسية لليهود باعتبارهم أشد خطرًا من غيرهم، لأميرين اثنين:

الأول: إن تصفية كياناتهم السياسية يعتبر جزءًا من الإصلاحات الداخلية، فهم يعيشون بين المسلمين في المدينة المنورة، ولا يتوانون عن إشعال نار الفتنة بينهم وبين وقت وآخر. الثاني: أنهم يعتمدون أسلوب المكر والخداع والتآمر، ولذلك كان الخلاص منهم مقدمًا على الخلاص من غيرهم.

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٠٤

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٤٣٦.

ثم تصفية الكيان السياسى للمشركين . ثم البدء بتصفية الكيان السياسى لدولتى الفرس والروم ولتحقيق ذلك لابد من القيام بما يلى : المراقبة المستمرة لتحركات العدو فقد كان عليه الصلاة والسلام دائم الاستطلاع لأخبار العدو، فكان يجهز السرايا الخاصة لهذه الغاية، فقد أرسل سرية عبيدة بن الحارث فى ثمانين راكبا وعين لها خط سير معين، فخرجت حتى بلغت ثنية المرة، ثم عادت فأخبرت رسول الله بما رأت، وأرسل سرية حمزة بن عبدالمطلب فى ثلاثين راكباً إلى شاطئ البحر، وعين لها خط سير معين، ثم عادت فأخبرت رسول الله بما رأت، وأرسل سرية سعد بن أبى وقاص فى ستين راكباً حتى بلغ الخرار - من الحجاز - وعاد، فأخبر رسول الله بما رأى، وأرسل سرية عبدالله بن جحش فى نحو من ستين راكباً وزوده بمهمة رصد تحركات العدو، فذهب، ثم عاد فأخبر رسول الله بما رأى، ولم تكن مهمة هذه السرايا وأمثالها مهمة قتالية، بدليل أنها لم تقاتل عندما اصطدم بعضها بقوات قريش، وإنما كانت مهمتها استطلاعية بحتة. وبهذا الاستطلاع النشط والدائم، وبما كان يبته عليه الصلاة والسلام من العيون السرية هنا وهناك استطاع رسول الله أن يحيط علمًا بأخبار العدو، ويتصرف على ضوء ما يتجمع لديه من المعلومات<sup>(١)</sup>. تثبيت وتجميد أكبر عدد ممكن من أطراف العدو بمعدن اتفاقيات - هدنة - معها، وبذلك تتقلص قوة العدو، ويسهل القضاء عليه فى الوقت المعلوم، وقد عقد الرسول العديد من هذه الاتفاقيات نذكر من ذلك: اتفاقية جميع طوائف اليهود فى المدينة المنورة وما جاورها، واتفاقية بنى ضمرة عندما خرج فى غزوة ودان، واتفاقية بنى مدلج عندما خرج فى غزوة العشيرة. القيام ببعض المناوشات الجنايية، الغاية من ذلك إرباك العدو من جهة، وإثبات الذات وتقوية معنويات المسلمين من جهة أخرى وتدريب على القتال كمناوره حية، وفى اعتقادى أن غزوة بدر رغم ما تمخضت عنه من نتائج خطيرة هى من هذا القبيل، وكذلك غزوة ذى أمر، وغزوة الضرع، وسرية زيد بن حارثة إلى القردة، وغيرها من الغزوات. إن رسول الله لو لم يقم بمثل هذه المناوشات الجنايية التى تظهر قوة دولة الإسلام فى المدينة، لنهشت القبائل المدينة المنورة وتقاسمتها مزعاً. إن هذه الانتصارات الجزئية التى كانت يحققها المسلمون كانت تقوى معنويات المسلمين، وتعددهم نفسياً للوقائع الحاسمة التى يخطط لها الرسول بدقة وسرية فائقتين. وخلال ذلك كان رسول الله مضطراً لصد الهجمات التى توجه لدولة الإسلام، وكان من أبرز هذه الهجمات، هجوم يوم أحد، وهجوم يوم الأحزاب. تصفية الذين يعملون وراء الكواليس، ويؤججون نار الفتنة، أفرادياً، بسلسلة من الاغتيالات، أو الإعدام الفردى، وبناء على ذلك فقد أرسل رسول الله من يقتال كعب بن الأشرف، وسلام بن أبى الحقيق، وخالد بن سفيان بن يتيح، والأسود العنسى، وأبا سفيان بن حرب، وأبا عزة الشاعر، وعصماء بنت مروان، وأبا عفيك، وغيرهم فمنهم من لمحج رسول الله فى قتله ومنهم من لم ينجح. وخلال ذلك أيضا كان عليه أن يعد قواته المسلحة إعداداً يضمن لها النصر

(١) د. محمد رواس قلمه جي - المرجع السابق ص ١٢٠.

فى المعارك الفاصلة التى يخطط لها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وقد تناول هذا الإعداد ثلاث ميادين<sup>(١)</sup>:

الميدان الأول: ميدان القوة البشرية للجيش، وفى هذا الميدان عمل رسول الله على تحقيق شعار «الجيش هو الشعب» فنجح فى ذلك نجاحاً يعتبر أسطورة التاريخ، فقد كان الرجال والنساء والأطفال فى دولة الرسول محاربين من الطراز الأول، وتذكر لنا أحداث تبوك أنه عليه الصلاة والسلام عندما أعلن الاستنفار العام لم يتخلف عنه إلا الثلاثة الذين قص الله علينا قصتهم فى القرآن الكريم، وهذا يدل على أن الشعب جيش كله، وتسابق الأطفال للالتحاق بالجيش السائر إلى الحرب، لأن أمرهم أصبح معروفاً.

الميدان الثانى: ميدان الإعداد المعنوى. وقد أقامه عليه الصلاة والسلام على ثلاثة أركان: الأول: إيمان الجيش بالقضية التى يقاتل من أجلها، وقد لجم عليه الصلاة والسلام فى غرس هذا الإيمان فى القلوب، حتى كان النغم الشادى الذى تعزفه أوتار قلب كل مؤمن، فقد آمن الصحابة بالله ربا وبالإسلام نظاماً منقلاً للبشرية من الظلم الواقع بهم، الظلم السياسى، والظلم الاجتماعى، والظلم الاقتصادى، ومن الظلمات التى أحاطت بهم، ظلمات فى العقيدة، وظلمات فى العقل، فضحوا فى سبيل ذلك بكل غال ونفيس. الثانى: تحقيق كرامة المواطن فى دولة الإسلام وعلى أرض الإسلام، فلا مظلوم ولا مشرد، ولا جائع، ولا عار، ومن مات وترك مالا فلورثته ومن ترك كلا أو عيالا فعلى الدولة الإسلامية، والمسلمون سواء كأسنان المشط يسعى بدمتهم أذناهم، ولا فضل لواحد على آخر إلا بمقدار ما يكتنه من إخلاص وما يحقق من عمل صالح، إن دولة تعطى كل هذا للمواطن، وفى ذلك العصر بالذات، يفديها المواطن بدمه وماله وولده، ويدافع عن كيانها، ويبذل لامتداد ظلالها على المعمورة كل ما يملك<sup>(٢)</sup> والدفاع عن الدعوة وصد من يقف فى سبيلها حتى لا يفتن المسلمون عن دينهم أو حتى لا يخشى من يريد الدخول فى الإسلام من الدخول فيه خوفاً من عذاب أو إيذاء<sup>(٣)</sup>. الركن الثالث: هجر الفواحش والإقبال على الله، لأن الله لا يخيب من أقبل عليه: ﴿... إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد].

والميدان الثالث: ميدان إعداد السلاح والعتاد الحربى. وفى هذا الميدان عمل رسول الله على تصنيع السلاح محلياً، لئلا يتحكم به أحد فى الساعة الحرجة، وقد أرسل عروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة إلى جرش - الأردن - ليتعلما صناعة العرادات والدبابات والمنجنيقات، وهى أضخم الآلات الحربية آنذاك. وكان يحشد للعدو السلاح المؤثر الفعال، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١٢١.

(٣) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ١٥١.

مِنْ قُوَّةٍ... ﴿١٠﴾ [الأنفال] وقد استخدم الرسول الدبابات والعرادات والمنجنقات فى حروبه فى الطائف. وكانت تعتبر الخيل من أهم أدوات الجهاد. ولذلك فقد شجع الرسول على اقتنائها، وجعلها من أفضل ما يكسب الإنسان، وجعل الخير معقود بنواصيها فقال: «الخير معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» ومن هنا كان عمر يتخذ فى كل بلد قوة احتياطية من الخيل فكان له فى كل من البصرة والكوفة أربعمائة فرس. هذا هو الجيش الذى أعده محمد صلوات الله عليه وسلامه ليكون أداة لتنفيذ مخططة العسكرية، لإقامة دولة الإسلام<sup>(١)</sup>.

### معركة بدر

لم يلق المسلمون، منذ أن استقروا فى المدينة، أيما مضايقة تحول بينهم وبين إقامة شعائرتهم الدينية، فأنشئت المساجد، وأذن للصلاة فى حرية، ففىما تمتع المسلمون بكامل الحرية الدينية ضمن أسوار المدينة كانت نار الحقد ما تزال تتقد، بالعنف نفسه، فى قلوب المكيين. كانت العداوة لا تفتأ تزداد حدة وانتشاراً. وليس ذلك بعجيب، فىوم هاجرت عصابة صغيرة من المسلمين إلى الحبشة استبد الحقد بقريش إلى حد جعلها لا تدعهم وشأنهم هناك، فتعقبتهم حتى بلاد النجاشى نفسه لكى تقضى عليهم قضاء مبرماً. أما وقد استقر الرسول والمسلمون الآن آمنين فى المدينة، وأخذوا يكتسبون سلطاناً ونفوذاً متعاضمين على نحو مطرد، فطبيعى أن تعجز قريش عن الوقوف مكتوفة اليدين. يتمتع عبد الله بن أبى - أحد وجوه المدينة البارزين بنفوذ ضخم هناك وكان زعيم المنافقين. وقبل هجرة الرسول كان أهل المدينة يعتبرونه سيدهم الأعلى. فغير مستغرب أن يستشعر هذا الرجل، حين وفد الرسول على المدينة ليكشف شخصيته، حسداً للمسلمين ونحداً عليهم. وحرصته قريش أيضاً على طرد المسلمين من هناك. ولكن عدداً كبيراً من أفراد قبيلته كانوا قد انضوا تحت راية الإسلام. ومن هنا كان خليفاً بكل محاولة لمقاومة الرسول على النحو العلنى أن تقضى إلى نشوب حرب أهلية بين أبناء شعبه. حتى إذا خابت آمال قريش فى عبد الله بن أبى شرعت تحرض سكان الرقعة الممتدة ما بين مكة والمدينة على الرسول والمسلمين. وكان القريشيون، بوصفهم سدنة الكعبة المقدسة، يتمتعون بالاحترام فى بلاد العرب كلها. وهكذا كانوا فى وضع يمكنهم من أن يفرضوا على القبائل إرادتهم وسلطانهم إلى حد غير يسير. والحق أن نجاح الدعاية القرشية بين هذه القبائل حمل المسلمين على أن يأخذوا حذرهم من جديد. فقد كانوا محاطين بالأعداء من أقطارهم جميعاً، وحتى ضمن جدران المدينة الأربعة تكون ضدّهم تيار معارضة خفى عميق كان عبد الله بن أبى هو مطلقه. وعلى الرغم من الميثاق فلم يكن فى استطاع المسلمين أن يثقوا باليهود. لا، ولم يكن فى إمكانهم الركون إلى عبد الله بن أبى<sup>(١)</sup>.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ١٢١.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٣٢.

وهكذا استشعر المسلمون قلقا بالغاً على سلامتهم. لقد خافوا، أن يأتيهم الهجوم، كل لحظة، من الخارج، وأن تفاجأهم الخيانة من داخل. وكان من دأب بعض المفازر القرشية الصغيرة أن تنطلق فى حملات سلب ونهب وأن تطوف فى البلاد حتى أرباض المدينة نفسها. وذات مرة، اختطفت مفرزة قرشية بعض الإبل من مراعى البلدة بالذات. والواقع أن قرىشا كانت - منذ الهجرة - تتطلع فى لهفة إلى فرصة سانحة تمكنها من ايقاع الأذى بالمسلمين والقضاء على الإسلام بحد السيف. وكان قد اتخذوا الاستعدادات كلها لغزو المدينة. وكان الموقف يقضى المسلمين حذراً ويقظة بالغين. وكان الوحي الإلهى قد نزل على النبى، مجيراً استلال السيوف من أغمادها دفاعاً عن النفس. وكلمات القرآن الكريم فى هذا الصدد ذات مغزى، وهى تستحق انتباهاً واعياً من النقاد، الذين وصموا الإسلام، فى مناسبة، بأنه دين السيف. يقول القرآن الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١٦٩﴾﴾ [الحج] ويقول فى موضع آخر: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة] وهكذا فإن الحرب مقيدة بشرطين اثنين: يجب، أولاً، أن لا تشن إلا ابتغاء الدفاع عن النفس. ويجب، ثانياً، أن تضع أوزارها لحظة نزول الضرورة التى دعت إليها. واذن فليس فى استطاعة المسلم، وفقاً لوصايا القرآن الكريم، ان يمثل دور معتد فى معركة. فإن عليه أن ينتظر حتى يبدأ العدو الضربة الأولى. وهذا فى ما يتصل بالبداية فى القتال، وفى ما بعد يتعين عليه - فى كل مرحلة من مراحل الحرب - أن يعتصم بضبط النفس الكامل، بحيث لا يكاد العدو يجنح للمسلم حتى يجنح هو لها، معلقاً أعماله فى الحال. إن عليه ان لا يعدو الحدود<sup>(١)</sup>.

اتصفت أعمال رسول الله محمد ﷺ الحربية الأولى بأنها كانت منسجمة مع الأهداف التى من أجلها تنزل الشريعة بالجهاد، إذ من المعروف أن سراياه الأولى كانت سرايا استطلاعية والمقصود منها رصد قرىش فى تحركاتها المختلفة وبصورة خاصة فى ميدان النشاط التجارى لأن القرشيين كانوا قد اغتصبوا من المسلمين أموالهم وطردهم من ديارهم فحق للمسلمين أن يقاتلوهم لاسترداد أموالهم وثأراً لكرامتهم<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا كان على الرسول، كإجراء من اجراءات الدفاع عن النفس، أن يصطنع بعض الطرائق والوسائل على سبيل الوقاية. كانت الضرورة تقضى، فى تلك الظروف، أن يفور بمعلومات دقيقة عن خطط قرىش وتحركاتها. وكانت الحاجة ماسة إلى إقامة علاقات ودية مع مختلف القبائل البدوية النازلة فى جوار المدينة. وتحقيقاً لهذين الغرضين وجه الرسول زمراً استطلاعية صغيرة لمراقبة حركات العدو، وللاتصال ببعض القبائل ضماناً لحياها. ومن يدرى، فقد يكون خليقاً بمثل هذا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٣٣.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٤٥٢.

التدبير الوقائي أن يفرض على كبح نيات العدو العدوانية. كان على هذا العدو أن يدرك أن المسلمين غير غافلين، وعندئذ يفكر مرتين قبل أن يخطو أية خطوة مشؤومة. وخلق بهذا أيضا أن يشير مخاوف القرشيين على تجارتهم الشامية التي كانت قوام ازدهارهم الاقتصادي كله. فقد كان في موقع المدينة، على طريق التجارة من مكة إلى الشام، ما يعرض قوافلهم لخطر عظيم في حال توتر العلاقات بينهم وبين المسلمين. وكان المسلمون يرجون أن يكون ذلك فعلا في تعطيل نيات عدوهم العدوانية ولو مؤقتا. ولقد كان هذا بالذات هو جوهر التحذير الذي وجهه سعد بن معاذ الأشهلي، وهو من الانصار، إلى القرشيين في موسم من مواسم الحج<sup>(١)</sup>.

فقد توعد أبو جهل بأنه لو لم يكن في حمى رجل بعينه لما نجح من الموت، فرد عليه سعد بقوله إن طريق التجارة المكية إلى الشام سوف تعترض إذا ما حيل بين المسلمين وبين أداء فريضة الحج. وهكذا أوعز إلى الزمر الاستطلاعية أن تجتنب الاستفزاز وكل ما يشير النزاع. أدت المفاوضات المشار إليها آنفا إلى تفاهم عدد من القبائل المجاورة مع المسلمين، على الرغم من انها كانت تعبد الاوثان كالمكيين سواء بسواء. وهذه اليهود كانت، كما ينبغي أن نلاحظ، ذات صفة دفاعية خالصة. فقد نص العهد الذي عقده الرسول مع بني حمزة على أن أرواحهم وممتلكاتهم سوف تكون آمنة، وأنه إذا ما هاجمهم عدو ما سارع المسلمون إلى نصرتهم، إلا أن تكون حرباً دينية. وأنهم سوف يهرعون لنصرة الرسول حين يدعون إلى ذلك واتفق في أواخر جمادى الثانية، من السنة الثانية للهجرة، أن بعث الرسول إحدى تلك الزمر أو السرايا بقيادة عبدالله بن جحش ودفع إلى عبدالله هذا كتابا وأمره أن لا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً. حتى إذا فتح عبدالله الكتاب، بعد يومين اثنين وجده يقول: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم» لقد كان ذلك مجرد إجراء وقائي، خشية أن يأخذ العدو المسلمين على حين غرة. فلم يكن في الإمكان أن يكون ثمة حافز آخر، أو أيما نية في الهجوم على مكة. فقد كان المسلمون أضعف من أن يفكروا بأيام خطة مماثلة. وكان النبي مسؤولاً عن سلامة الجماعة الإسلامية الصغيرة. ومثل أي قائد عسكري بارع، أدرك الرسول أهمية مراقبة حركات العدو. حتى إذا وصل عبدالله بن جحش إلى نخلة، وفقاً لتعليمات الكتاب المختوم، مرت به عبر لقريش في طريق عودتها من الشام<sup>(٢)</sup>.

وخلافا لأوامر الرسول الصريحة انقض عبدالله على أولئك التجار القرشيين، فقتل عمرو بن الحضرمي، وأسر اثنين من رفاقه. حتى إذا تسامع الرسول بالنبا عنف عبدالله لمخالفته أوامره تعنيفاً شديداً. وهكذا أتاحت لقريش، التي تلهفت على ذريعة تنذر بها، تلك الفرصة التي طالما انتظرتها

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٣٤.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٣٥.

لإطلاق العنان لغيظها. وما كان لحادثة عرضية، مثل مقتل ابن الحضرمي، أن تثير - في الأحوال التي سادت المجتمع العربي آنذاك - اهتمامًا بالغًا. فقد كانت، في الواقع، حادثة مبتذلة يقع نظيرها كل يوم. وكان العرف المتبع في جميع الحبال المماثلة هو طلب الدية. ولكن قريشًا كانت تبحث عن ذريعة تثير بها حفيظة الجمهور على المسلمين، فإذا بمصرع ابن الحضرمي يقدم إليها هذه الذريعة. لقد سلخت نحوًا من شهرين في اتخاذ الاستعدادات الضرورية، ثم هاجمت المدينة في شهر رمضان من السنة الثانية. وهكذا حدث ما يعرف في تاريخ الإسلام بمعركة بدر<sup>(١)</sup>.

نجد أن رسول الله ﷺ قد أدلى الشؤون العسكرية اهتمامًا خاصًا وبدأ التعرض والتحرش للمشركين لأن الهجوم أفضل وسائل الدفاع، فوجه عدة سرايا بمهمات بسيطة، استهدفت تحطيم معنويات قريش وإرباكها وضرب نشاطها التجاري، كما استهدفت الحصول على موارد للتأمين والتسليح، وإظهار القوة لليهود والبدو المحيطين بالمدينة. وقد حققت هذه السرايا المنجزات التالية: التدريب على القتال في ظروف جديدة تختلف عن ظروف معارك الجاهلية، وفي إطار موازين قوى مادية ومعنوية مختلفة، وتعزيز الروح التعرضية (الهجومية) لدى المسلمين، ومنع روح الدفاع المستكن (الثابت) من التغلغل في صفوفهم، استطلاع المناطق المحيطة بالمدينة، وما فيها من مسالك وطرق مواصلات ومصادر مياه، استعدادًا للمعارك الحاسمة التي كان من المنتظر أن تدور في هذه المناطق. كسب بعض الغنائم التي ساهمت في تعزيز القوات المسلحة الإسلامية، وتقوية علاقات التعاون بين المهاجرين والأنصار، وصهرهم في بوتقة المعركة، لبناء مجتمع متماسك متعاون يزيده الخطر الخارجي تماسكًا وقوة، وتهديد قريش بالحصار الاقتصادي عن طريق جعل ممرات تجارة قريش مع بلاد الشام مهددة وغير آمنة، يمكن أن يتعرض لها المسلمون في أية لحظة، ويستولوا على القوافل التي تعبرها، مما جعل قريش تعيش في ذعر وخوف على تجارتها ورجالها الذين يرافقون القوافل. تثبيت هيبة الإسلام والمسلمين بين القبائل المجاورة للمدينة المنورة<sup>(٢)</sup>. ومن هذه السرايا التي بدأت عملها مبكرًا، يظهر جليًا أن الرسول ﷺ انتقل من مرحلة الدفاع المستكن إلى مرحلة الدفاع المتحرك، أو أنه على الأقل طبق المبدأ العسكري الحديث «الهجوم أقوى وسائل الدفاع»، لأنه لم يكن في الواقع يمتلك القوات والأموال اللازمة لشن هجوم واسع النطاق.

### الظروف التي أدت إلى معركة بدر

أخذت قريش بعد سرية نخلة تشهر بالمسلمين وتشيع أن محمد وأصحابه استحلوا القتال في الشهر الحرام وأنهم لا يقيمون وزنا لمقدسات العرب وتسقاليدهم وحدثت بعدها فترة من الجمود كان أثناءها المسلمون يفكرون ويخططون للقضاء على نفوذ القرشيين حتى يتيسر لهم نشر الدعوة الإسلامية

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٣٦.

(٢) محمود شيت خطاب - الرسول القائد ص ٨٣.



وإيقاف المعارضة التي تقودها قريش ضدهم بين القبائل العربية الأخرى، أما القرشيون فقد أيقنوا أن وجود المسلمين في المدينة خطر كبير على تجارتهم القادمة أو الذهابة إلى الشام هذا فضلا عن شعورهم بالخطر المتزايد على مقدساتهم الدينية وما تمثله هذه المقدسات من رمز لسيادتهم على قبائل الحجاز ومركزهم في الجزيرة العربية بشكل عام ولهذا كله كان من الفريقين من يستعد ويخطط في سبيل ضرب خصمه والإيقاع به<sup>(١)</sup>.

شاء الله أن تكون إحدى قوافل قريش التجارية، بقيادة أبي سفيان، عائدة في ذلك الحين من الشام. وكان أبو سفيان قد بعث إلى مكة، قبل مسيرته، رسولا هو ضمضم بن عمرو الغفاري يستنفر قريشًا لحماية القافلة. (وقاد هذا إلى اعتقاد لا مبرر له بأن المسلمين راغبون في اعتراض القافلة، ومن ثم نشبت معركة بدر) وهذه الفكرة لا أساس لها من الصحة البتة. فقد مرت هذه القافلة نفسها بالمدينة، في طريقها إلى الشام، من غير أن يعترض لها احد منهم بسوء. ليس هذا فحسب، بل ان الزعماء القرشيين - في جميع محاولاتهم لتحريض الناس على الهجوم، وخلال استعداداتهم كلها من أجل ذلك - لم ينسوا بكلمة تشير إلى الخوف المزعوم على سلامة القافلة. فقد كان مصرع ابن الحضرمي هو الحادثة الوحيدة التي استغلوها لاثارة احتياج عارم يغرى القوم بالانتقام. وإلى هذا، فقد كانت القافلة، بعد ان انحرفت عن طريقها المألوف، وساحت البحر، قد بلغت مكة في سلام، قبل أن يلتقى الجمعان في بدر، فمن الافتراء المحض أن ينسب إلى المسلمين أى من مثل هذه الدوافع. لقد كان تشوف قريش الموصول إلى سحق قوة الإسلام النامية هو السبب الأوحد الذي قاد إلى نشوب المعركة. والواقع ان المسلمين جروا إليها جراً. ومجرد الحقيقة القائلة بأن القوة الإسلامية لم تزد على ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلا، في جملتهم الغلمان، وكلهم مسلحون تسليحاً رديئاً، يظهر أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن التفكير في التصدى لقوة مؤلفة من ألف رجل مزودين بالسلاح الكامل<sup>(٢)</sup>.

وقد صور القرآن الكريم ما كان يجول في خلد المسلمين عندما دعوا إلى الصمود دفاعاً عن أنفسهم فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ بُجَادُلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ بَعَدَكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال] كان كثير منهم - كما يقول القرآن الكريم - يجدون في ذلك عتياً بالغا، معتقدين أنهم يدفعون إلى أشد اق الموت دفاعاً ومع ذلك فقد كان عليهم ان يضربوا ضربة ماء، دفاعاً عن النفس. ودعاهم الرسول، وشرح لهم الموقف، فلم يكن لهم مندوحة عن خوض غمار القتال ضد عدو

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٤٥٨.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٣٨.

مصمم على أن يوجه إلى وجودهم نفسه ضربة قاضية. وكان الأنصار قد عاهدوا الرسول على أن يمنعوه ضمن أسوار المدينة ليس غير، ولكن الموقف كان يفرض على المسلمين، الآن، ان يلقوا عدوهم قبل أن يهاجم المدينة. ومع ذلك، فما أن استشارهم الرسول ليعرف وجهة نظرهم، حتى وجدهم على أتم الاستعداد للسير من ورائه، وللوقوف في صفة بالغاً ما بلغت المحنة من القسوة. وهكذا خرجت هذه العصبة الصغيرة من المسلمين - المعبأة على عجل، المسلحة تسليحاً هيناً - وسارت نحو الطريق المفضية إلى مكة، لكي تصد غارة قريش. فقد كان من الخطر أن يتركوا لهب القتال يدنو من ييوتهم في المدينة. حتى إذا بلغوا بدرًا، وهو موضع سمي على اسم ماء فيه، ألفوا قريشا معسكرة هناك قبلهم. فعسكروا بدورهم<sup>(١)</sup>.

ومن حيث العدد كانت القوة الإسلامية لا تكاد تبلغ ثلث القوة القرشية. وإلى هذا، فقد كانت الأخيرة مؤلفة من محاربين مدربين بارعين، على حين كان المسلمون قد حشدوا حتى الشبان الذين لاخبرة لهم بالحرب ولا مراس. وإذن، فلم يكن المسلمون - لا من حيث العدد ولا من حيث القوة والبراعة - أنداداً لعدوهم. وهذا ما أورث الرسول أعظم القلق. فانقلب إلى عريش كائنا قد بنوه له وابتهل إلى الله بعينين دامعتين قائلاً: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد!» وبعد أن هتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة خرج إلى الناس متهلل الوجه وجهر بتلاوة الآية القرآنية التي تقول، وكانت قد أنزلت إليه قبل ذلك بفترة غير يسيرة: ﴿سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) [القمر]. وقد كان أبو جهل قائداً من الناحية العسكرية، أما الرسول ﷺ فقد انطلق بأصحابه وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، وسائق نقلهم سبعون بعيراً وفرسان، وكان المسلمون يحملون ثلاث رايات، راية بيضاء حملها مصعب بن عمير، وراية سوداء حملها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، بينما حمل أحد الأنصار الراية الثالثة وكانت سوداء أيضاً. وكان الصحابة يتناوبون الركوب على الجمال، كل ثلاثة يتناوبون على بعير، ولما وصلوا إلى مقربة من المكان المعروف باسم «بدر» على طريق القوافل بين مكة والمدينة أرسل النبي من يستطلع له أخبار أبي سفيان، فعاد رجال الاستطلاع بأسيرين، والأسرى أحد مصادر المعلومات الرئيسية، حتى إن الجيوش في العصر الحاضر عندما تعجزها مصادر المعلومات الأخرى، وأحياناً لتأكيد المعلومات، تلجأ إلى القيام بإغارات لخطف الأسرى، حيث يجرى استجوابهم من قبل اختصاصيين للحصول على المعلومات اللازمة. وهذا بالضبط ما طبقه الفرسان الذين أرسلهم الرسول لطلب المعلومات.

بدأ التحقيق الدقيق مع الأسيرين. وكان المسلمون يحسبونهم من رجال أبي سفيان ولما قالوا إنهما من سقاة قريش ضربوهما، وكان الرسول ﷺ يصلى في أثناء ذلك، فلما أنهى صلاته تولى

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٣٨.

التحقيق بنفسه، فلما تأكد أنهما من جيش قريش سألهما: كم القوم؟ قالوا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ سؤال غريب، ولكنه سؤال المهمين من القادة الأفاضل، فالرجلان من الخدم لايهتمان بعدد الجيش، لكن قيامهما بالخدمة يتيح لهما معرفة كم ينحر كل يوم لإطعام الجيش، قالوا: ننحر في يوم تسعاً وفي يوم عشراً. فقال الرسول لأصحابه: القوم بين التسعمائة والالف، وبعدما عرف عدد جيش العدو أراد أن يتعرف نوعية الشخصيات المشاركة في ذلك الجيش، فإذا بهم قادة قريش وزعماءها وأقوى فرسانها: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل عمرو بن هشام، وأميرة بن خلف، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، وغيرهم. ماذا يفعل القائد قبيل المعركة؟ لقد اكتملت المعلومات، وسممها أركان حرب الرسول. وفي ذهن النبي هدف كبير، يريد أن يهاجم بأصحابه الثلاثمائة جيش قريش الكبير، فتبقى الصحراء تردد أنباء تلك المعركة ما دارت الأيام. على أي شيء يعتمد؟ وسلاح جيشه ضعيف، وعدده قليل، وتجهيزاته بسيطة. إنه يعتمد على شيء مهم جداً في آية معركة، يعتمد على قوة المعنويات المرتكزة على الإيمان بالله واليوم الآخر. فالقتيل في جيش المسلمين شهيد، والشهيد إلى الجنة خالداً فيها، مع أن الشهادة ليست غاية للقتال في الإسلام ولا هدفاً. فههدف الإسلام من القتال عامة إزالة العوائق المادية التي تقف في وجه الدعوة ولايتحقق ذلك إلا بالنصر. وغاية المسلم في جهاده رضوان الله عز وجل. فإن نتج عن القتال نصر المسلمين، فقد تحقق الهدف، وإن استشهد المسلم فقد نال إحدى الحسنيين. والنصر مأمول دوماً بقوات لا تهاب الموت وترغب بالشهادة<sup>(١)</sup>.

ووجد الرسول أن من واجبه استشارة أصحابه قبل إبلاغهم القرار الذي يدور في خلدته، خاصة وأن فيهم عدداً من الأنصار الذين لم يكن في شروط بيعتهم للرسول ما يلزمهم بالقتال خارج المدينة. فوقف الرسول بين أصحابه يستشيرهم. وكان مما قال: «هذه مكة ألفت إليكم أفلاذ كبدها...» «فوقف أبو بكر فقال وأحسن، وقام عمر فقال وأحسن، ثم وقف المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿... فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «برك الغماد» (مدينة في الحبشة) لجالدنا معك من دونها حتى تبلغها، فتابع الرسول كلامه: «أشيروا على أيها الناس»، وأدرك الأنصار أنه يريد أن يسمع رأيهم، فقام سعد بن معاذ فقال: «قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، فأمرض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف عنك رجل واحد، فسر على بركة الله»، وشتت الرسول وأدرك منانة جبهته، وتراضى صفوف جيشه، فقال لأصحابه يشجعهم<sup>(٢)</sup>: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

(١) أحمد راتب هرموش - قيادة الرسول السياسية والعسكرية ص ٤٣.

(٢) أحمد راتب هرموش - نفس المرجع ص ٤٤.

تقدم الرسول بأصحابه ، فتزل عند أقرب ماء من بدر. فتقدم أحد الصحابة واسمه «الحباب بن المنذر» قال الرسول : يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمتزلا أتزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه. أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». فقال الحباب : «يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتزله ثم تغور ما وراءه»، ثم نبتى عليه حوضاً ، فتملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون». فقال رسول الله «لقد أشرت بالرأى» . وانهض رسول الله ومن معه من الناس ونفذوا خطة الحباب وأشار سعد بن معاذ أن يقام للرسول عريش مرتفع يتولى منه قيادة المعركة، ففخذ الرسول رأيه، ووقف يدعو الله، وعندما حل الفجر صلى بالمسلمين وراح ينظمهم صفوفًا ويحرضهم على القتال<sup>(١)</sup>. أما قريش فكانت قد خرجت بالسلاح الكامل. وعملا بالوصية القرآنية أحجم المسلمون عن الهجوم، ريثما يضرب العدو الضربة الأولى. وأخيراً خرج من صفوف المكين ثلاثة من أبطال قريش هم عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس، وابنه الوليد، وأخوه شية فطلبوا من يخرج للقائهم من صفوف المسلمين.

وكانت العادة المتبعة في الحروب العربية، في تلك الأيام ، تقضى بأن يفتح القتال بمبارزات فردية. وهكذا قبل التحدي ثلاثة من المسلمين هم حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب، والإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فخرجوا لمبارزتهم فكان عبيدة يلزاه عتبة، وعلي يلزاه الوليد، وحمزة يلزاه شية. واتفق أن صرع الأبطال القرشيون الثلاثة في المبارزة، وعقب ذلك يضع مبارزات أخرى، وسرعان ما أمسى القتال عاماً. لقد حمل القرشيون على المسلمين، ولكن هؤلاء شتوا لهم، ورددهم على أعقابهم ﴿وَلَقَدْ نَعَرَكُمُ اللَّهُ بَدْرًا وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران]. وهنا حدثت ظالعة راتعة من طواهر العون الإلهي. قتل في المعركة أنطاب قريش كلهم تقريباً. وبعثت الحملة الهلكتة ضد الإسلام. ولقى أبو جهل حفصه بأيدي شابين من الأنصار. وكانت جملة قتلى قريش في المعركة سبعين. حتى إذا رأى القوم رؤسائهم ورعمايتهم يسقطون صرعاً، دبت الفوضى في صفوفهم وولوا الأدبار، فطاردهم المسلمون وأسروا منهم نحواً من سبعين. أما شهداء المسلمين فلم يزيدوا على أربعة عشر<sup>(٢)</sup>.

تمثل وقعة بدر مشهداً فاتحاً للعون الإلهي لعله كان فريداً ، من ناحية واحدة، في تاريخ الحرب ككله. فكثيراً ما يحدث أن يوفق جيش قليل العدد نسبياً ولكنه حسن التجهيز مؤلف من جنود بواسل يمتازون بانتصالياتهم وبراعتهم في اصطناع السلاح، كثيراً ما يحدث أن يوفق مثل هذا الجيش إلى إيقاع الهزيمة بجموع تفوقه عدداً ولكن تعوزها مزايا متكافئة. بيد أن الذي يجعل وقعة بدر فريدة

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ٤٥.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٣٨.

على نحو رائع هو أن أوجه الضعف كلها اجتمعت في ناحية، ووجوه القوة كلها اجتمعت في الناحية المقابلة. كان عدد أفراد الجيش القرشي ثلاثة أضعاف المسلمين الذين شهدوا تلك المعركة. وكان الموقع الذي احتله ذلك الجيش خيراً من موقع المسلمين. وكانت صفوفهم تضم جنوداً أولى شهرة وصيت، جنوداً كان القتال حرفتهم التي احترفوها عمرهم كله. والسلاح أيضاً كان موفوراً في أيديهم بل أكثر من موفور. وكان كل منهم يلتزم بدرع سابغة. وكان فيهم مئة فرس عليها مئة فارس، وسبعمائة بعير. فما كانت قوة المسلمين؟ كان عددهم ثلث عدد عدوهم. وكانت صفوفهم تضم نفرًا من الفتيان الذين لم يبلغوا الحلم بعد، ومن المهاجرين الطاغين في السن، وبعض الأنصار المدنيين، وكلهم ليسوا بأكفأ للمكيبين المولعين بالحرب. فما كان عدد فرسانهم وجمالهم؟ فارسين وسبعين بعيراً ليس غير. وفي ما يتصل بالعدد لم يكن ثمة مجال للمقارنة البتة. وهكذا قذف بالضعف المطلق في وجه القوة الغامرة. ولكن اليد الإلهية امتدت لنصرة الضعفاء، نافخة في قلوبهم قوة - قوة غير قوة العدد أو العدة أو السلاح - فإذا بالقوة الدنيوية تمني بالهزيمة<sup>(١)</sup>. وإلى هذه الظاهرة يلفت القرآن الكريم الانتباه في الآية التالية: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ النَّفْتَانِ فَتَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

أحسن المسلمون معاملة أسراهم، فأعجب كثير منهم بنبل الروح الإسلامية. وتذكر أحدهم، حيناً اعتنق الإسلام بعد، حسن المعاملة التي لقيها في الأسر، وحدث بها معرفاً بالجميل. لقد روى قاتلاً إن الذين عهد إليهم بالعناية بأمره قدموا إليه خير ما في المنزل من طعام، على حين اجتزأ أفراد الأسيرة بالرطب وما إليه يأكلونه. وعلى الرغم من أن حالة الحرب لم تكن قد زالت فقد أعيد الأسرى إلى أهلهم لقاء فدية اقتدوهم بها. أما الفقراء الذين لم يجدوا ما يفتدون أنفسهم به فقد أطلق سراحهم من غير فدية. لقد سئل كل من القادرين على القراءة والكتابة أن يعلم عشرة من أطفال المسلمين، واعتبر هذا الصنيع من جانبهم بمشابهة فدية تكفل لهم حريتهم، والحق أن التنازل عن أربعة آلاف درهم كفدية مالية لكل أسير والاستعاضة عنها بتعليم القراءة والكتابة أطفال المسلمين، لينهض دليلاً قوياً على ما كان للعلم من قيمة في عيني الرسول. إنه لم يعامل العدو المهزوم معاملة خشنة البتة. ولقد كانت هي أول فرصة أتاحت للمسلمين، بعد الآلام الطويلة المريرة التي قاسوها على أيدي القرشيين، للانتقام من عدوهم، لو شاءوا. وكان بين الأسرى واحد هو سهيل بن عمرو، وكان خطيباً يتمتع بفصاحة بالغة اصططنها في غير ما إبقاء، يوم كان في مكة، لإثارة الناس على الإسلام. وكانما عز على عمر ابن الخطاب أن يفتدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه فقال<sup>(٢)</sup>: «يا رسول الله دعني أنزع ثيبي فيدخل لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبدأ. فأجابه الرسول: «لا مثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً».

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٠.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٤١.

تعتبر معركة بدر، من ناحية، ضربة قاضية وجهت إلى قوة قريش، على حين أنها رسخت، من ناحية ثانية، جذور الإسلام. وإلى هذا، فقد خلفت أثراً رائعاً في نفوس اليهود، وفي نفوس القبائل البدوية المجاورة أيضاً، لقد قالوا في ذات أنفسهم: كيف تأتي للمسلمين أن يهزموا مثل هذا الجحيم العظيم؟ لا ريب في أن الله قد أيدهم بروح منه. ثم إنهم دعشوا إذ رأوا كيف صرع أعداء الإسلام في غير ما استتاه. أليس في ذلك ما يؤذن بأن يد الله قد عملت عملها؟ وثمة حقيقة أخرى ملتهمة في معركة بدر، وهي أن الرسول كان في قلب الميدان يتهلل إلى الله بعينين دامعتين، على حين كان أبو جهل، من ناحية أخرى، يتهلل إلى الله أيضاً أن يهزم أياً من الفريقين المتناحرين كان مسؤولاً عن قطع صلة الرحم وعن البلاء المتطاوّل. وحتى قبل أن يفصل القريشيون من مكة، كانوا قد ضرعوا إلى الله في الكعبة أن ينصر من كانوا على الحق. وهكذا كانت نتيجة معركة بدر، إذا جاز التعبير، حكماً إلهياً على الباطل. لقد حظى الحق بالتأييد الإلهي فانتصر. لقد أحبطت خطط العدو، بينما وجد المسلمون في إحباطها مصداقاً للوعود الإلهية التي أكدت لهم، طوال هذه السنوات الاثنتي عشرة، أن الحق لا يبد أن يسود آخر الأمر، فخلال فترة المحن والبلايا المتطاولة كانوا قد تلقوا عزاء الهيا مفاده أن كل مقلومة قريش سوف تنهار، وأن الإسلام سوف يخرج من الصراع متصركاً. وما هم الآن يرون أن ما كانوا قد آمنوا به إيماناً راسخاً يصبح حقيقة واقعة، فإذا بعدالة قضية الإسلام تتجلى لأعيانهم كالشمس في رابعة النهار<sup>(١)</sup>.

#### نتائج معركة بدر:

نزلت بعد معركة بدر آيات كريمة تبيين للناس أسباب ظفرهم، وتكشف بعض الحقائق التي كانت آفاتك خافية على المسلمين، وتحمل بعض تشريعات القتال والاسرى وتوزيع الأنفال (الغنائم). قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ أَحْسَنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفُتَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال] ﴿وَإِذْ زَيْنَ لِهَمَّ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانُ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غُرْ هُزَاءً دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ [الأنفال] ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ قَرِينًا مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ [الأنفال]، ولقد نزلت الآية الأخيرة في عتاب الرسول لأنه قبل فداء الأسرى، وهم رؤوس الفتنة وأئمة الكفر. إنهم كمجرمي الحرب الذين لا يجوز الإبقاء على حياتهم. وتشير الآية إلى أن الفداء ممكن بعد أن يكون المسلمون قد ثبتوا أقدامهم في الأرض وأقاموا دولة قوية لا يستطيع مثل هؤلاء المجرمين التأثير فيها إن هم بقوا على قيد الحياة.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٢.

يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن نتيجة المعركة غير طبيعية، وخاصة أن مجموع خسائر المشركين في المعركة مائة وأربعين مقاتلاً وبذلك يكون عدد المنهزمين أكثر من ثمانمائة، أى أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين. وكان المفروض أن يتراجع المشركون ويميدوا تنظيم صفوفهم ويستأنفوا القتال بعد يومين أو ثلاثة أو أكثر. لكن التعمق فى دراسة طريقة قتال جيش المسلمين، والأساليب التى طبقت فى هذه المعركة، وهى أول معركة يخوضها المسلمون، يفسر لنا أسباب النجاح التى يمكن تحديدها بما يلى<sup>(١)</sup>: وحدة القيادة: كان الرسول ﷺ هو القائد العام فى المعركة، وكان مثال القائد الناجح، يستشير أصحابه، ويأخذ بالأراء السلمية، ويتقدم قواته عند الضرورة فى القتال، وتولد عن ذلك انضباط رائع فى صفوف المسلمين، وتقييد كامل بالتعليمات، قابلة انقسام فى الرأى فى صفوف جيش المشركين. الكفاءة الحربية: فلقد تميز المقاتل المسلم بكفاءة قتالية عالية، وانضباط شديد، وطاعة لامثيل لها لأوامر القائد، وروح جماعية مثلى، عمل الرسول على غرسها فى النفوس منذ بدء الرسالة، وكرسها فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، بينما كانت الروح الفردية (الأنانية) سائدة فى صفوف المشركين. التعبئة الجديدة: كانت مسيرة الرسول من المدينة إلى بدر فى تشكيلة قتالية تشبه التشكيلات الحربية الحديثة، فأرسل مقدمة وترك مؤخرة، وأفاد من دوريات الاستطلاع، وقام بإغارات لأخذ أسرى، وجمع المعلومات الكافية قبل بدء القتال، وخاض المعركة بأسلوب جديد يعتمد على التعاون، هو أسلوب القتال بالصفوف المترصعة، بينما طبق المشركون أسلوب الكر والفر. المعنويات العالية: تمتع المقاتل المسلم بروح معنوية عالية نابعة من عقيدة راسخة ولقد عمد الرسول إلى إذكاء روح المقاتلين بكثرة الدعاء ودوام التبشير بالنصر. وضوح الهدف: كان هدف المسلمين الرئيس القضاء على رؤوس الكفر، وإزالة العوائق من طريق الدعوة. ولم يكن الاستيلاء على قافلة قريش سوى هدف آتى. مرحلى. لذلك وجدنا الرسول يقر مهاجمة جيش المشركين لتحقيق الهدف الرئيسى، رغم هروب القافلة (الهدف المرحلى) التى خرج المسلمون لاعتراضها. سمو الغاية: فقد كان المسلم يقاتل فى سبيل رضوان الله عز وجل، لتكون كلمة الله هى العليا، وليزيل العوائق المادية من أمام الدين الجديد الذى يحرر الإنسان من العبودية والظلم، بينما كان المشرك يقاتل فى سبيل أهداف دنيوية رخيصة، أو عقائد فاسدة مزعزعة، أو تعصبا لقبيلة وانتصاراً لعشيرة. ويمكننا تلخيص نتائج المعركة بما يلى: هددت طريق أهل مكة مع بلاد الشام، والتجارة عصب حياتهم. أضعفت هبة قريش ومكانتها بين العرب. عززت مكانة المسلمين ورفعت من شأن «نواة دولتهم» الفتنة فى المدينة. أفسحت المجال أمام نشر الإسلام بين القبائل بعد سماعهم بهزيمة قريش<sup>(٢)</sup>. فقد كانت خسارة كبيرة لقريش إذ إن قائمة قتلاها كانت تتضمن إلى جانب أبي جهل أسماء عدد كبير من أبرز رجالاتها، إذ

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٥٠.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ٥١.

أنهم لم يكونوا من كبار رجالاتها فحسب بل من أشدهم شجاعة وتجربة وبأساً، أما أبو سفيان رعيم بني أمية فقد غدا بعد بدر أقوى وأهم شخصية في قريش وكانت بدر لا تمثل خسارة حربية بالنسبة لقريش فحسب بل خسارة معنوية أيضاً، إذ إن المدينة أخذت تظهر في المجتمع العربي كقسوة سياسية وعسكرية تستطيع أن تتحدى مكة ولا يلزمها إلا براهين قليلة لتحتل مكان الصدارة والسيادة<sup>(١)</sup>.

اعتمدت قريش في علاقاتها مع رسول الله محمد ﷺ على ما تملك من نفوذ سياسي واقتصادي واعتقدت أنها بهذا النفوذ قادرة على دحره ولكن بدرأ أثبتت عدم جدوى هذين السلاحين وأن النصر للأقوى والأكثر استعداداً وكانت نتائج بدر رائعة بالنسبة لوضع الرسول في المدينة فقد قوى مركزه فيها وأخذ المشككون في مقدرته يشعرون أن دعواهم تنهار بعدما قدمه النصر في بدر من برهان على هذه المقدرة. وإذا تركنا الجانب المعنوي وأخذنا الجانب المادي بعين الاعتبار لوجدنا أن أهم ما نتج عن نصر بدر هو انتعاش حال المسلمين المادي بما أفاء الله عليهم من غنائم بعد بؤس وفقر شديدين داما ما يقارب العامين فلم يعد من حاجة لنظام المؤاخاة ولم يعد هناك من لا يجد ما يسد رمقه فالغيت المؤاخاة وعاد التوارث بالقرابة وفرج الله كرب المسلمين<sup>(٢)</sup>.

زادت التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار وقوتها. كانت مناسبة لتشريع خمس الغنائم لبيت مال المسلمين. فقد نزلت الآيات الكريمة بهذا التشريع بعد بدر مباشرة. فكان الخمس تدعيماً لميزانية الدولة المسلمة، وظل أكبر مصدر لبيت المال حتى نهاية الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام.

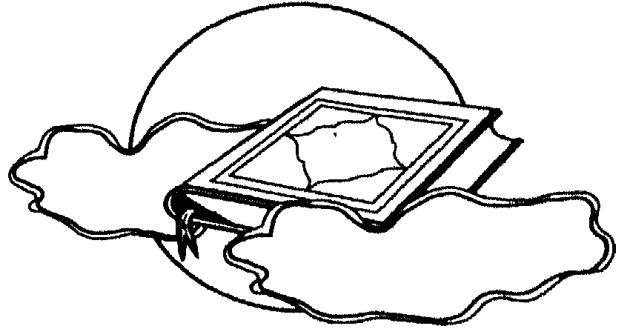
---

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٤٦٧.

(٢) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٤٦٧.



# الفصل السادس



معركتي  
أحد  
والأحزاب



**معركة أحد، أحست قريش بعمق الجراح التي خلفتها بدر بعدما عادت إلى مكة . وكانت كثرة الخسائر ولاشك عاملا مهما في اضطراب قريش . ولكن العامل الأهم هو نوعية القتلى الذين كانوا من الفرسان والزعماء والاعيان . كما أدركت قريش أن طريق تجارتها مع بلاد الشام أصبح تحت سيطرة المسلمين، وفي توقف تجارتها قضاء عليها . ولما حاولت سلوك طريق آخر غير طريق الساحل علم بذلك رسول الله ﷺ، وأرسل سرية بقيادة زيد بن حارثة فاستولى على القافلة بعد أن هرب حماتها . كانت هزيمة بدر عارًا ما كان لكرامة قريش أن تسكت عليه . فقد أنزلت بهم العصبة الصغيرة، السيئة السلاح، ضربة ماحقة . وإذن، فقد كان الانتقام هو كلمة السر في ارجاء مكة كلها . وإذا كان زعماء قريش كلهم قد سقطوا صرعى في بدر . فقد انتخب أبو سفيان رعيما لكفار قريش وأخذ على نفسه عهدًا غليظًا لينسلن عار بدر . وانعقد رأى قريش على أن يخصص ربح القافلة التي عادت من قريش برئاسة أبي سفيان، يوم بدر، لحملة الثأر المبيتة . وحشد جيش مؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل، بعد اثني عشر شهرًا انقضت على هزيمة بدر، فيهم مئتا فارس مسلح، وسبعمائة بطل مسلح . وأجيز للنسوة أيضًا أن يرافقن هذا الجيش، لكي يثرن حاسة الجند بأناشيدهن الحربية . وهكذا زحف القرشيون، في السنة الثالثة للهجرة، نحو المدينة، وفي يوم الخميس، التاسع من شوال، عسكروا عند سفح أحد، وهو جبل يقع على مبعدة ثلاثة أميال من المدينة، ثم أنهم استولوا على مراعى المدينة . لقد حصدوا محاصيل خصبة وقدموها علفًا لخيولهم، وأطلقوا إبلهم ترعى الحقول وتعيث فيها فسادًا<sup>(١)</sup> .**

رجع العباس عم النبي من المدينة بعد أن تم إطلاق سراحه من الأسر بالفداء الذي دفعه عن نفسه ولكنه بالرغم من عدم إسلامه آنذاك فقد كان مخلصا لابن أخيه رسول الله محمد ﷺ فكان يخشى عين الدوائر وكان لذلك يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية<sup>(٢)</sup>، ولما أتمت قريش تجهيزات جيشها وأخذ هذا الجيش في التحرك أرسل من مكة رسالة مستعجلة مع أحد رجاله الأمانه ضمن هذه الرسالة التفصيلات الكاملة عن حملة مكة فذكر فيها عدد القوات واليوم الذي خرجت فيه، وسلم رسول العباس وهو رجل من بني غفار رسالته إلى رسول الله محمد ﷺ وهو في مسجد قباء، وبعد أن عرف مضمون الرسالة نهض من فوره وعاد إلى المدينة وأخذ في الاتصال بقيادة المهاجرين والأنصار ليتداول معهم الامر لمواجهة الموقف<sup>(٣)</sup> .

جمع الرسول في اليوم التالي، الجمعة، العاشر من شوال أصحابه ليتدارسوا أفضل السبل لمواجهة الموقف . وكان من عاداته أن يشاور أصدقاءه قبل الإقدام على أيما عمل خطير . وقص عليهم

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٢) محمد محمد البيلي يونس - الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ص ٧٤ .

(٣) محمد محمد البيلي يونس - نفس المرجع ص ٧٤ .

بعض رؤاه. كان قد رأى، فى ما يراه النائم. أن طرف سيفه قد نلّم. وأول ذلك بأنه نذير بأذى سوف يصيب شخص الرسول. ورأى أيضاً أنه لبس درعاً. وأول ذلك بأن من الخير للمسلمين أن يلزموا حصون المدينة لا يغادرونها. وكانت ثمة رؤيا ثالثة ذبحت فيها بعض الثيران، فأولت بأن الأذى سوف يصيب أتباعه. واستناداً إلى هذه الرؤى. ذهب الرسول إلى أن عليهم أن لا يغامروا بالخروج للقاء العدو حيث نزل، مؤثرين البقاء ضمن أسوار المدينة ورد هجمات القرشيين عليها. وأقره على رأيه هذا أصحاب السن العالية والعقل الراجح من صحابته. حتى عبدالله بن أبى، الذى كان قد اعتنق الإسلام رياء ونفاقاً بعد معركة بدر، قال بالرأى نفسه. ولكن الكثرة، المؤلفة فى المقام الأول من شبان متقدمين حماسة، مالوا إلى الخروج لمقارعة العدو فى معركة ناضجة بالرجولة والشجاعة. وكانت حاجتهم أن التحصن بالمدينة قد يحمل على محمل العجز والضعف وقد يجرى العدو عليهم. وإلى هذا، فقد كان مما يجرح احترامهم الذاتى أن يروا إلى حقولهم يعاث فيها فساداً دون أن يحركوا ساكناً. ومراعاة من الرسول لرأى الاكثرية أخذ بوجهة نظرهم، ولبس لأمته أى درعه، وخرج من المدينة قبيل المغيب على رأس الف مقاتل لم يكن بينهم غير فارسين اثنين ومئة رجل مسلح. وقضى المسلمون الليل على مبعده من المدينة يسيرة، ثم استأنفوا تقدمهم فى اليوم التالى مع الفجر<sup>(١)</sup>.

ولم يكده عبدالله بن أبى يلمح العدو حتى انخزل مع رجاله الثلاثمائة، منقصاً بذلك مجموع المقاتلين المسلمين إلى سبعمائة كان عليهم أن يواجهوا عدواً عدد رجاله أربعة أضعاف عددهم. وحتى هؤلاء لم يكونوا، بأية حال، بارعين فى فنون القتال. كانت قوتهم الوحيدة كامنة فى تفانيهم فى الدفاع عن الحق. وكانت الحماسة قد أشربت قلوب الطاعنين فى السن عزم الشباب وهمتهم. وكذلك أشرب من لم يبلغوا الحلم بعد مثل هذا العزم وتلك الهمة. ويروى أن أحد الغلمان تطوع للقتال فرفض القوم قبوله لصغر سنه، فما كان منه إلا أن تمطى ووقف على رؤوس أصابعه لكى يبدو أطول قامته. وأيا ما كان، فقد كفلت له حماسته مكاناً بين صفوف المقاتلين. وتقدم غلام آخر فى مثل سنه مؤكداً حقه فى الاشتراك فى القتال. وألح قائلاً أن فى استطاعته، لو صارح رميله ذاك، أن يطرحه أرضاً. فأتاحوا له فرصة يثبت فيها صدق دعواه، حتى إذا وفق إلى جندلته أجابوا سؤاله، وبعد ذلك تقدم رجل طاعن فى السن، لم يبق له فى هذه الدنيا غير أيام معدودات، وقال: «أنا، يارسول الله على قاب قوسين من القبر. فما أعظمه من مجد أن أختتم حياتى بحمل السلاح دفاعاً عن رسول الله!» وهكذا حشد المقاتلون السبعمائة، وقد استعاضوا عن القوة والبراعة بحماستهم العارمة للقضية الأثيرة على قلوبهم. ومثل قائد بارع، تقدم الرسول للقاء الأعداء، وعدتهم ثلاثة آلاف مقاتل أشداء مسلحين تسليحاً حسناً، واتخذ مركزاً متفوقاً فى ميدان القتال، جاعلاً من صخور أحد وقاء يحمى به

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٤.

ظهور رجاله وراح يصف أصحابه بنفسه. بيد أنه كان في ناحية من نواحي الجبل شعب يمكن العدو من الانقضاض على صفوف المسلمين من خلاف<sup>(١)</sup>.

بقى مع الرسول سبعمائة رجل، بعد انسحاب عبدالله بن أبي بن سلول برجاله، اختار الرسول منهم خمسين رامياً، وعين عليهم قائداً هو عبدالله بن جبير، وأمره أن يتمركز مع رجاله على الجبل للرمي بالنبال على خيل المشركين ومنعهم من مهاجمة المسلمين من خلفهم. وقال لعبد الله: «إن كانت لنا أو علينا (أى إن انتصرنا أو انهزمتنا)، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك». وجعل الرسول جبل أحد خلف جيشه وسوى الصفوف، وأمر رجاله أن لا يبدأوا القتال حتى يأمرهم بذلك، وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير. كان جيش قريش يتألف من ثلاثة آلاف رجل بينهم سبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس، وخرج معهم سبع عشرة امرأة تقودهم هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان، فجعلوا على ميمنة الخليل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، ووضعوا قلب الجيش في مواجهة جنيش المسلمين، وسلموا اللواءهم إلى بنى عبد الدار. التقى الطرفان يوم السبت في الخامس عشر من شوال سنة ٣ هجرية ٦٢٥م على أرجح الروايات، واقترب بعضهم من بعض. أخذ أحد فرسان المسلمين «أبو دجانة» سيف رسول الله، وعصب رأسه بعصابة حمراء واندفع إلى قلب المعركة لا يقف في وجهه أحد من المشركين إلا قتله، وكذلك فعل حمزة بن عبد المطلب، وكان حمزة العدو الأول لقريش التي حملته دم معظم قتلى بدر<sup>(٢)</sup>. وإلى جانب النسوة اللواتي صحبن الجيش القرشي لتحريضه على القتال. رافق ذلك الجيش أيضاً راهب نصراني، يدعى أبا عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى ليمثل دوراً ماثلاً. وكان أبو عامر هذا قد أقام، قبل ذلك في المدينة، حيث اكتسب احترام الشعب العميق، لتسقوا وزهده. حتى إذا وفد الرسول على المدينة ورأى إلى الانصار يستقبلونه ذلك الاستقبال القلبي، لم يطق على ذلك صبراً.

لقد غلب عليه الاستياء فانتقل إلى مكة. وكان قد زعم، في كثير من الاعتزاز، أن مجرد وجوده في صفوف القرشيين خليق به أن يوقع الرعب في أفئدة المدنيين، وعندئذ يدخلون المهاجرين لا محالة. وحين التقى الجمعان، وتواجهها، تقدمت النسوة الجيش المكى، واصطنعن كل ما أوتين من براعة لإثارة حماسة الجند فكن يضربن بالدفوف والطبول، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، ثم برز أبو عامر، وراح يذكر الانصار بنفسه قائلاً: يامعشر الانصار أنا أبو عامر بيد أنهم ردوه في اذراء قائلين لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، فاضطر إلى الانسحاب.

أورد ابن حاتم: قال ابن إسحاق: أنزل الله في شأن أحد ستين آية من آل عمران<sup>(٣)</sup>، وأورد

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٥٧ .

(٣) فتح الباري - ٧ / ٣٤٧ نقل الحافظ عن ابن إسحاق قوله.

ابن حاتم عن ابن مخزومة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف أخبرني عن قصتكم يوم أحد<sup>(١)</sup>، قال: اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ...﴾ (١٢١) ﴿آل عمران﴾ - إلى قوله ﴿آمَنة نَعاساً﴾ وإن قوله غدوت أي خرجت أول النهار<sup>(٢)</sup>.

وبعد سلسلة من المبارزات قتل فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام طلحة بن أبي طلحة حامل لواء القرشيين، أمسى القتال عامساً. وأبلى أبو دجانة سماك ابن خرشة، وكان معروفاً بشجاعته، وحمزة عم النبي ﷺ، بلاء حسناً. لقد شدا على العدو، فأوقعا الاضطراب في صفوفه، وقتلا كل من لقيه. وأخيراً سقط حمزة صريعاً بحرية «وحشى»، وهو مولى حبشى زنجي كانت هند زوجة أبي سفيان قد استأجرته لهذا الغرض. ومع ذلك، قاتل المسلمون قتال اليائس. فصرع سبعة من حملة الألوية المكيين. واحداً إثر واحد، حتى دبت الفوضى المطلقة في صفوف قريش. وأخيراً ولوا الأدبار، فطاردهم المسلمون مطاردة حثيثة. وهكذا كان المسلمون، مرة أخرى، على وشك إحراق نصر مؤزر على المكيين. ولكن ثمة، عملاً واحداً من أعمال الإخلال بالواجب، ارتكبه الرماة المسلمون الذين أمروا بأن يلزموا مواقعهم عند النقطة التي خشى الرسول أن يباغت صحابته منها، قلب سعودهم نحوها. إذ ما كاد الرماة يرون إلى المكيين ينخلدون حتى سألوا قائدهم أن يأذن لهم في الاشتراك مع سائر أفراد الجيش الإسلامي بمطاردة العدو. وبرغم رفض القائد، غادر الرماة مواقعهم التي كان الرسول قد أمرهم أمراً جازماً بأن يلزموها حتى النهاية، على حين لزمها عبدالله بن جبير وقليل آخرون<sup>(٣)</sup> ذكر موسى بن عقبة<sup>(٤)</sup>: «وحمل المسلمون على المشركين حتى أجهضوهم عن أثقالهم وحملت خيل المشركين فنضحهم الرماة بالنبل ثلاث مرات فدخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوهم فرأى ذلك الرماة فتركوا مكانهم ودخل العسكر فأبصر خالد بن الوليد ومن معه فحملوا على المسلمين في الخيل فمروهم». ولمح خالد بن الوليد، الذي كان على رأس الفرسان المكيين والذي كان يراقب الوضع مراقبة دقيقة، موطن الضعف الذي ترك الآن من غير دفاع تقريباً.

وسرعان ما استغل خالد الفرصة، فشد بفرسانه المثبتين على الرماة المسلمين القلائل الذين ظلوا عند فم الشعب، فأجلاهم عنه، وانقض على الجيش الإسلامي في وقت تراخت فيه صفوفه واضطربت إثر مطاردته للقرشيين مطاردة حثيثة. حتى إذا رأى المكيون المهزومون المولون الأدبار خالد بن الوليد يحمل على المسلمين من خلاف انقلبوا إلى الميدان أيضاً، فإذا بالمسلمين يحصرون من أمام ومن وراء. وكان خليقاً بكثرة العدو العددية الغامرة أن تسحقهم منذ البدء. سحفاً كلياً، لولا تدبير حربي وقائي كان الرسول قد اتخذته مقدماً. وتفصيل ذلك أنه كان قد أدخل في حسابه، حين صف

(١) ابن أبي حاتم - تفسير مخطوط مصور رقم ١٨٧٥ - ١٢١ / ٢.

(٢) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ج٤ / ١٨٤ - الزجاج - معاني القرآن وإعرابه ج١ / ٤٦٥.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٦.

(٤) قال ابن حجر ما ذكره موسى بن عقبة في سياق القصة - فتح الباري - ٧ / ٣٤٦.

رجالهم للقتال، شأن القائد اليقظ، إمكان تطور الموقف لغير صالح المسلمين. والواقع أنه إنما قد جعل ظهره وظهور أصحابه إلى أحد لمجرد الرغبة في أن يتخذ من الجبل مفزعاً يلجأ إليه إذا ما ألت بهم كارثة. وكان الرسول، حين شغل المسلمون بمطاردة العدو، قد تخلف هو وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص فلم يبرحوا مواقعهم. فلم يكذب يرى إلى خالد ينقض على المسلمين ويحتل الموقع الذي هجره الرماة حتى أدرك عظم الخطر المحقق بالجيش الإسلامي. ولم يكن أمامه، في تلك اللحظات، غير سبيلين اثنين يستطيع انتهاجهما: إما أن يكفل سلامته الشخصية بالشخص إلى مفرج ما، تاركاً أصحابه لمصيرهم المقدر، وإما أن يناديهم مخاطراً بنفسه لكي ينقذهم من الخطر. ولقد اختار السبيل الثاني. وإذا وجدهم في ضيق صاح بأعلى صوته: «هلموا إلي، أنا رسول الله» ولم يكذب صوت الرسول يبلغ آذانهم حتى التفتوا، كلهم، نحوه وشقوا طريقهم إليه عبر صفوف العدو. ولكن إذا كانت الصيحة قد جمعت المسلمين حول النبي، فإنها قد دلت القرشيين، أيضاً، على مكانه. لقد كان هو في زعمهم أصل البلاء كله. وكان غرض الحرب الأوحده هو التخلص منه<sup>(١)</sup>.

وما هي إلا لحظة حتى أمسى هدف هجمات العدو. ولكن صحابته، المتفانين في اخلاصهم له، دافعوا عن حياته الغالية بأرواحهم فصرعوا حوله واحداً إثر واحد وخلص المشركون إلى رسول الله محمد ﷺ فجرحوا وجهه وكسروا ربايعته اليمنى وهشموا البيض على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع على شقه وسقط في حفرة فأخذ الإمام علي بن أبي طالب بيده الشريفة وحضن رسول الله محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>. وفي تلك الأثناء قتل مصعب بن عمير بين يديه اللواء فأخذه الإمام علي بن أبي طالب ونشبت خلقتان من خلق المغفر في وجه الإمام علي فانتزعهما أبو عبيدة الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه وامتنص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، وأدرك المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ثم جادلهم طلحة حتى أجهضهم عنه وترس أبو دجانة عليه بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمداً قتل ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين وفر أكثرهم<sup>(٣)</sup>. وفي غضون ذلك، قتل مصعب بن عمير، وكانت طلعتة شبيهة بطلعة الرسول. فانتشرت انتشار النار في الهشيم شائعة تقول إن الرسول قد قتل. فأوقع ذلك مزيداً من الذعر في صفوف المسلمين التي كان الاضطراب قد دب فيها قبل ذلك. واستبد الأسى بأحدهم إلى حد جعله عاجزاً عن الضرب بسيفه. ودهش مسلم آخر، هو أنس بن النضر، دهشاً عظيماً إذ وجدته واقفاً مكتوف اليدين. حتى إذا سأله عن سبب ذلك أجابه: «وأى فائدة ترتجى من القتال بعد أن توفى الرسول؟» ولما رأى المشركون ما فعل خالد عادوا ثانية إلى المعركة وأوقعوا المسلمين بين فكي الكماشة. وفي

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٨.

(٢) د. السيد الجميلي - غزوات النبي ﷺ - ص ٥٠.

(٣) د. السيد الجميلي - نفس المرجع ص ٥٠.

غمرة الاضطراب انسحب بعض المسلمين إلى المدينة ليطلب من عبدالله بن أبي سلول أن يطلب لهم الأمان من أبي سفيان، وتشتت بعضهم الآخر في أطراف ميدان المعركة . . وثبت الصابرون المجاهدون الذين يحملون إيماناً لا تزغزه الجبال، وفي مقدمتهم أنس بن النضر الذي رفض الانسحاب، ووقف بين المسلمين قائلاً: «ياقوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا ما قاتل عليه محمد، اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء. وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء. ثم شد بسيفه وقاتل قتالا شديداً وأبلى بلاء منقطع النظير حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة<sup>(١)</sup>.

ظل الرسول محافظاً على رباطة جأشه رغم استشهاد خيرة رجاله، وفي اللحظات الحرجة يتميز القادة من مدعى القيادة ومغتصبيها أو ممن يتسلمها مصادفة أو وراثة وهو غير أهل لها. لقد رأى الوضع المؤلم الذى يعانى منه أصحابه، فحدد لهم «نقطة اردلاف» تجمع - يجتمعون فيها، كى لا ينفرد بهم المشركون وهم بين مقاتل لوحده أو فار من المعركة، وكانت «نقطة الاردلاف» الشعب فى الجبل، فاتجه إليه الرسول ومعه أبو بكر وعمر والإمام علي كرم الله وجهه وطلحة والزبير وجماعة من المسلمين بلغوا الثلاثين، وراح يقاتل ويقاوم مع أصحابه قتال المستميت. وقد الصف حول أصحابه وأخذوا يتساقطون شهداء دونه، والمشركون يضغطون عليهم، حتى جرح الرسول عدة جروح، ووقف أمامه أبو دجانة يرد السهام بظهره. وعندما خلص أحد المشركين إلى الرسول، رماه صلوات الله عليه بحربة كانت سبب وفاته، وأخذ يزود سعد بن أبى وقاص بالنبال، وسعد يرمى بها المشركين، فقد كان سعد من أمهر رماة زمانه. وعلم المسلمون المشتتون فى أرض المعركة بأن الرسول لم يمت، فبدأوا التجمع حوله فى «نقطة الاردلاف» التى عينها، فطلب إليهم عندها التراجع نحو الجبل، فبدأوا وعدم السماح للمشركين بالالتفاف حولهم من أعلى الجبل، وعندما حاول المشركون ذلك ثانية منعهم عمر بن الخطاب بمن معه<sup>(٢)</sup>. وهكذا راح الصحابة يشجع بعضهم بعضاً، ويشقون طريقهم وسط صفوف العدو، ومتحلقين حول قائدهم المحبوب. وكان قد أصيب، آنذاك، بجراح بليغة، وسقط على الأرض فشح فى وجهه، وكلمت شفته، ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته. واستمات أصدقاؤه المخلصون فى الدفاع عنه، منشئين حول شخصه سوراً بشرياً.

وانقض العدو بكامل قوته على الرسول، ولكن سور الجنود المسلمين كان أمنع من أن يخترق. فما إن تحدث فيه ثغرة بمصرع واحد منهم حتى يندفع آخر فيحل محله ويسد الثغرة. وسرعان ما استرد المسلمون رشدهم، بعد الصدمة التى أذهلتهم، ورضوا صفوفهم، وشدوا على العدو شدة عنيفة، مقابلين هجمات العدو العنيدة بمثلها. وإلى هذا، فقد كانوا الآن قد ارتدوا إلى موقع تحدى كل المحاولات لتشتيتهم. وبدل القريشيون قصارى جهدهم، وشنوا هجمات متكررة،

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٦٣.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ٦٤.



ولكنهم ردوا في كل مرة على أعقابهم، ثم انهم فقدوا كل أمل في سحق المسلمين، الذين كانوا الآن قد تراصوا كتلة متماسكة. وانهمرت نبال أبي طلحة، الرامي الشهير. عليهم في سرعة هائلة. ولقد كسر خلال ذلك ثلاث قسي. وكان سعد بن أبي وقاص يشارك في النضال أيضاً. لقد أفرغ كنانة الرسول، وكبد العدو خسائر فادحة. وفوق هذا، فقد كانوا الآن أكثر تعرضاً لنبال المسلمين وحجارتهم، بعد أن احتلوا مواقع ذات امتياز. وهكذا، بفضل حذق الصحابة في الرماية ومواقعهم التي كانت خيراً من مواقع عدوهم، من ناحية، وبفضل ما عرفه القرشيون من الجراءة المتهورة التي اتصف بها المسلمون. وجد المشركون أن من حسن الرأي أن يتقبلوا على أعقابهم<sup>(١)</sup>.

جاء الإمام علي إلى رسول الله محمد ﷺ بماء ليشرّب منه فوجده آجناً فرده وغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه، فأراد رسول الله محمد ﷺ أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به فجلس طلحة تحته حتى صعدها وحانت الصلاة فصلى بهم جالساً وسار رسول الله محمد ﷺ في ذلك اليوم تحت لواء الانصار<sup>(٢)</sup>. وبعد أن حبطت محاولات القرشيين، على هذا النحو، في القضاء على المسلمين، انصرفوا إلى إرواء ظمأهم إلى الثأر في أرض المعركة نفسها. لقد مثلوا بالقتلى تمثيلاً بربرياً، وشوهوا جثثهم جادعين الأذان والأنوف. وبقرت هند بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها لوگًا. ليس هذا فحسب، بل لقد انتزعت أحشاءه واتخذت منها أكليلاً لرأسها. وصاح أبو سفيان «رعيمة بني أمية» من بعيد: «هل محمد بينكم؟» فأشار النبي إلى أصحابه ليصوتوا. ثم نادى بصوت عال: «هل أبو بكر بينكم؟» فلم يرد عليه أحد بجواب. فصاح للمرة الثالثة: «هل عمر بينكم؟» وهنا لم يعد عمر قادراً على أن يتمالك نفسه. فأجابه: «ياعدو الله، إنهم كلهم لايزالون أحياء لكي ينزلوا بكم الويل!» وعندئذ صاح أبو سفيان «رعيمة بني أمية»: «أهل هبل!» فما كان من الرسول إلا أن قال لعمر: «قم فأجبه: الله أعلى وأجل!» لقد كان نزع الرسول إلى غض الطرف عن هذيان أبي سفيان «رعيمة بني أمية» ما بقى ذلك الهديان مسألة شخصية، وكان يؤثر تجاهله وعدم الرد عليه. ولكن ما إن عدا أبو سفيان نطاق الهذر الشخصي إلى التجديف على الله حتى عجز عن الاعتصام بالصمت. لقد حفزه احترامه لاسم السله العظيم إلى أن يرد على أبي سفيان ردًا مناسبًا. ومرة أخرى صاح أبو سفيان: «العزى لنا! الله ناصرنا. أما أنتم فليس لكم من ناصر» ومع ذلك، فقد كان للرسول فؤاد مفعم بالشفقة حتى على أعدائه. فبينما كانت النبال تنهمر عليه كان يتضرع إلى الله قائلاً<sup>(٣)</sup>: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون!».

نلاحظ من ذلك أن رسول الله محمد ﷺ أمرهم بجوابه عند افتخار أبي سفيان رعيمة بني أمية بألهته الكفار وبشركه الفاحش تعظيماً للتوحيد وإقراراً به في مواجهة الوثنية المقبوحة وإعلاماً بعزة الله

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥١.

(٢) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص ٥٠.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥٢.

معبود المسلمين الموحدين ولم يأمرهم رسول الله ﷺ بإجابه عندما قال: «فيكم محمد وأبو بكر وعمر، بل لقد روى أنه ﷺ نهاهم عن ذلك، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال كذبت يا عدو الله فكان في هذا الإعلام من الإذلال والشجاعة وعدم الجبن والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يؤذنه بقره وبسالتهم وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا<sup>(١)</sup>.

ولم يوفق بعض المسلمين - بعد أن عزلوا عن إخوانهم وسط البلبله العامه التي عصفت بصفوف المسلمين عند هجوم خالد المباغت - إلى شق طريقهم عائدين إلى مواقع الرسول وصحابته، فتركوا الميدان مستوهمين أن جيشهم قد هزم. ولكن روجاتهم حشون التراب في وجههم عندما علمن أنهم خلفوا الرسول في الميدان. ثم إن عددًا منهن هرعن لتوهن إلى الميدان، وكلهن يسألن عن الرسول ماذا فعل؟ لقد كان قلقهن عليه أعظم من قلقهن على بعولتهن وأنسابهن. ويروى أن امرأة من الانصار نعى لها أبوها فاجتزأت بترديد الآية القرآنية المألوفة: ﴿... قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة] وتساءلت في لهفة: هل الرسول بسلام؟ عندئذ قيل لها إن أخاها استشهد أيضًا. فرددت الآية نفسها، ولكنها عاودت السؤال نفسه عن الرسول أهو بسلام؟ ثم إنهم حملوا إليها نبأ آخر موجعًا: لقد قتل أبوها أيضًا. فأطلقت زفرة عميقة وردت الكلمات نفسها. حتى إذا قيل لها: «هو بحمد الله كما تحيين» رايلها الكرب كله. فقالت: «أرونيه حتى أنظر إليه» فأشير لها إليه حتى إذا رآته تنفست الصعداء وهتفت: «الآن وقد رأيتك فكل مصيبة بعدك جليل» وبروح التسليم السامية نفسها صبرت النسوة الأخرى على مصابهن بأنسابهن الذين صرعوا في المعركة ومثل بهم. وكان بعضهن، قد لزم الجيوش في المعركة، فكن يسقين الجرحى ويضمدن جراحاتهم في غمرة القتال. وبارتداد المسلمين إلى الجبل يحتمون به أمست المدينة عرضة للهجوم بكل ما في الكلمة من معنى. ولكن أبا سفيان وجموعه لم يوانسوا في أنفسهم الشجاعة للعودة إليها. إن حالهم لم تكن بأحسن من حال المسلمين، ولقد عزوا أنفسهم بانسحاب أعدائهم. إنهم لم يجروا على متابعة الحرب حتى النهاية خشية أن يفرض ذلك - وكان لهم كل الحق أن يخشوا - إلى هلاكهم. وهكذا انقلبوا عائدين، على جناح السرعة، إلى مكة، مجتازين عدة أميال في يوم واحد. وفي طريق عودتهم تساءلوا ما إذا كان يجور لهم - من غير اثبات على الحقيقة - أن يزعموا أنهم رجعوا ظافرين<sup>(٢)</sup>.

إنهم لم يكونوا يملكون أية غنيمة من غنائم النصر يعرضونها على أنظار شعبهم، ولم يكن في أيديهم أسير حرب واحد، أفيمد هذا نصرًا؟ وكان الجيش الإسلامي لا يزال مسيطرًا على ميدان القتال، أفيعتبر هذا نصرًا؟ وكانوا قد عجزوا عن احتلال المدينة برغم أنها تركت من غير دفاع،

(١) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص ٥٣.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥٢.

أفيكون هذا نصراً؟ تلك كانت هي الخواطر التي راودتهم. واقترح بعضهم أن يرجعوا إلى المدينة ليحسموا المسألة، ولكنهم لم يوقفوا إلى استجماع الشجاعة للاقدام على ذلك. وفيما هم يترددون على هذا النحو لا يدرون ما يفعلون تسامعوا بأن الرسول يطاردهم بجيشه. والواقع أن القرآن الكريم أطرى البسالة التي أبداها المسلمون في تلك المناسبة إطرأ عظيمًا. ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزِنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ [آل عمران]. فهي تقول إنهم استجابوا في بشر لدعوة الرسول حين كلفهم أن يخرجوا ويطاردوا العدو، على الرغم من غمهم وبلواهم. ولقد تعقبوا العدو. في اليوم التالي نفسه، حتى موضع يدعى «حمراء الأسد»، على مسافة ثمانية أميال من المدينة. ولكن أبا سفيان على أعقابهم حالما بلغت أبناء المطاردة الإسلامية. إنه لما ينم عن جهل بالوقائع التاريخية أن يستتج المرء أن المسلمين هزموا في معركة أحد. صحيح من غير ريب أن المسلمين منوا بخسائر باهظة، ولكن من الثابت - بالقدر نفسه - أن قريشًا أكرهت على العودة خائبة، أيضًا. وهل نقع في صفحات التاريخ على حادثة انتصار واحدة ثبت فيها العدو المغلوب أقدامه في الميدان وانقلب الجيش المنتصر عائداً إلى وطنه من غير أن يأسر أسيراً واحداً... . ووجد فيها العدو المهزوم الجراءة على مطاردة المنتصرين في غد، بعد بضع ساعات من المعركة ليس غير، على حين ولى المنتصرون الأدبار لدن سماعهم نبأ المطاردة؟ ليس من شك في أن المسلمين اجتازوا في هذه المعركة محناً قاسية. لقد جرح الرسول نفسه جراحات بليغة، بل لقد شرت شائعة تقول إنه قتل، وبذلك خيل إلى القوم أن أمر الإسلام قد انتهى قولاً واحداً. ولكن هذا كله كان واجب الحدوث في حياة الرسول لكي يكون منارة أمل وشجاعة للأجيال الإسلامية اللاحقة، خشية أن تقنط وتضعف في ساعات الضنك وخيبة الرجاء. إن العدو قد يهزل ابتهاجاً لما يترامى في ناظره قضاء على الإسلام، ولكن القلب المسلم يجب أن يظل ناعماً بالطمأنينة. فالاسلام خالد لا يموت. وكل مصيبة تلم به، مهما تكن عظيمة، لا بد أن تحمل إليه انتصاره الحقيقي متكرراً بقناع<sup>(١)</sup>.

يضع القائد الناجح نفسه مكان خصمه، ويناقش ما لديه من معطيات، ثم يطرح على نفسه السؤال التالي: «لو كنت مكانه ماذا أفعل؟» والقائد الناجح يعيش قضيته ما دامت روحه تخفق بين جنبيه. لذلك لم يغب عن ذهن الرسول وهو يعاني من الجراح والتعب ما يمكن أن يقوم به المشركون. لقد كانت لديهم فرصة للقيام بهجوم حاسم على المدينة، ولهم فيها «طابور خامس» يتعاون معهم، ولهم فيها يهود المدينة وهم ينتظرون اللحظة المناسبة للتخلص من المسلمين، ولو أنهم فعلوا ذلك لقطعوا الطريق على المسلمين وعرضوهم لمصير قاتم وبما أن الاحتمال وارد، فقد اتخذ الرسول قراره لمجابهة الحالة التي يمكن أن تطرأ، ولخص قراره بقوله: «فو الذي نفسى بيده لئن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥٣.

أرادوها لأسيرين إليهم فيها ثم لأتاجزتهم فيها». وأصدر أوامره للإمام علي عليه السلام أن يخرج في أثر القوم فينظر ماذا يفعلون، فإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل أى ساقوها معهم دون أن يركبوها، لأن العرب كانوا إذا عزموا سفرًا طويلًا يركبوا الإبل ولم يركبوا الخيل فهم يريدون المدينة، وإن امتطوا الإبل وجنّبوا الخيل فهم يقصدون مكة. ولما جاء على بالخبر أنهم ركبوا الإبل تنفس الرسول الصعداء وأيقن أنهم توجهوا إلى مكة. لكن القائد يحسب دائمًا حساب الخدعة، ويحتاط لها. ولذلك أرسل الرسول سبعين رجلاً من أصحابه ليتبعوا المشركين ويتأكدوا من عدم وجود نية لديهم في الرجوع. وبعدما وارى المسلمون قتلاهم وضمّدوا جراحهم، عمد الرسول إلى مظاهرة عسكرية تعيد للمسلمين معنوياتهم، وتهرب أعداءهم، وتظهر لليهود والمنافقين والأعراب أن خسارة هذه المعركة لم توهن عزيمة المسلمين ولم تؤثر على مقدرتهم القتالية، ففى اليوم التالى للمعركة نادى مناديه بالناس أن يتهيئوا للملاحقة العدو، وأن لا يخرج أحد لم يشترك فى معركة أحد بالأمس<sup>(١)</sup>.

وانطلق بالجيش حتى بلغوا «حمراء الأسد» على بعد ثمانية أميال من المدينة، بينما كان جيش المشركين قد بلغ «الروحاء»، على بعد ٦٠ - ٧٠ كم تقريبًا، وعسكروا هناك. فى الروحاء أدرك المشركون خطأهم، وتداولوا أمرهم، فقرروا العودة للقضاء على المسلمين واستئصالهم. وهذا هو الأمر الطبيعى، لأن غاية الحرب تدمير قوات العدو والقضاء عليها. ولكن مناورة «إظهار القوة» التى قام بها الرسول فعلت فعلها. فبعد أن قرر المشركون العودة للقتال، اعتقادًا منهم بأن المسلمين فى المدينة يكون قتلاهم أعلمهم رجل من خزاعة «حلفاء الرسول» أن الرسول خرج وراءهم على رأس قوة كبيرة من المسلمين تتحرق شوقًا للأخذ بثأر معركة أحد، عندها عدل المشركون عن قرارهم. وعمد أبو سفيان إلى مناورة معاكسة ترهب المسلمين، فأرسل إليهم من يخبرهم أن قريشًا عائدة لقتالهم، بينما تابع طريقه إلى مكة. فأقام الرسول ثلاثة أيام ينتظر قريشًا، ولما علم بتوجهها إلى مكة رجع بقواته إلى المدينة. كانت معركة أحد ولاشك هزيمة «مؤقتة» للمسلمين، ولكننا لا نستطيع أن نعتبرها نصرًا حاسمًا للمشركين، وبخاصة أنهم لم يستثمروا الفور الذى حققوه فى المعركة، وانسحبوا منها فى لحظة غير مناسبة دون أن يحولوا النصر الأوى المحقق إلى نصر حاسم. واستطاع الرسول أن يخرج من المعركة بخسائر لاتتجاوز العشرة بالمائة من قواته التى خاض بها المعركة. وأخذ جيشه دروسًا أفادته فيما بعد، وأفادت «الاستراتيجية» الإسلامية على مدى الأيام والدروس المستفادة هى<sup>(٢)</sup>:

تبين أن النصر لا يرتبط بتعداد القوات، فقد انتصر المسلمون فى بدر ولم ينتصروا فى أحد رغم أن نسبة تفوق المشركين كانت متقاربة فى المعركتين. ظهرت أهمية تطهير الصفوف من المنافقين وذوى العقيدة المزعزعة. وكان انسحاب عبدالله بن أبى بن سلول درسًا لم ينسه المسلمون أبدًا، حتى

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٦٥.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٦٦.

أن أبا بكر لم يسمح للمرتدين بعد وفاة الرسول ﷺ بالمشاركة في جيوش الفتح. علمت المسلمين أن سنن الحياة لا تتبدل، فهم عندما يأخذون بأسباب النصر يتصرون، وعندما يتعاونون فيها ينهزمون. إنها سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلا. علمتهم أهمية الانضباط العسكري والتقييد بتعليمات القائد مهما كانت الظروف والأحوال، فقد تبين لجميع المسلمين أن السبب الأول في الهزيمة يعود إلى تهاون الرماة في تنفيذ الأوامر وتركهم الجبل، مما حرم مؤخرة المسلمين من الحماية، ومكن خالد بن الوليد من الالتفاف عليهم. وقد نزل في أحد كثير من الآيات، ومنها قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران] ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعِدَّهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

ياخذ من نتائج معركة أحد بعض الأحكام الفقهية وهي (١):

١ - يجوز الإنغماس في العدو كما انغمس أنس بن النضر وغيره.

٢ - يجوز أن يصلي الإمام قاعداً إذا جرح في المعركة وعلى المسلمين أن يصلوا خلفه قعوداً وإن رسول الله ﷺ قد فعل ذلك في «أحد» واستمر على ذلك حتى وفاته، وقال الشافعي والحنفية: «يصلون خلفه قياماً»، وإذا قتل المسلم نفسه فهو في النار، وذلك لقوله ﷺ في قزمان: الذي أبلى بلاء حسناً مشهوداً يوم أحد فلما اشتدت به الجراح نحر نفسه فقال ﷺ: «هو من أهل النار».

٣ - السنة في الشهيد أن لا يغسل ولا يصلى عليه ولا يكفن في غير ثيابه لكن يدفن إلا أن يسلب هذه الثياب فيجوز أن يكفن في غيرها.

٤ - إذا كان الشهيد جنباً فإن الملائكة تتعهد وتتكفل بغسله مثلما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر.

٥ - يدفن الشهداء في مصارعهم فلا ينقلون إلى مكان آخر فإن قوما نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فنادى منادي رسول الله محمد ﷺ بالأمر برد القتلى إلى مصارعهم، وإنه من الجائز أن يدفن الرجلان أو الثلاثة في القبر وكان ﷺ يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن فلن أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد» وقد دفن عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد.

٦ - أسوأ العواقب يكون من العصيان وعدم الانقياد للأوامر لأن ما نزل بالمسلمين في أحد من البلاء إنما كان من جراء عدم انقيادهم وعصيانهم لأمر رسول الله محمد ﷺ.

(١) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص ٥٨.

٧ - إن الحرب مرة للمسلمين ومرة عليهم والمقصود هنا هو الأسمى وغايتها الأسنى إنما هي الابتلاء وتمحيص النفوس، وسبر غور إيمانها وبقينها وثباتها على الحق واستسلامها لأمر الله وبهذا يتميز الصادقون من غير الصادقين والعاقبة للمتقين.

٨ - إن المنازل والمراقي والدرجات العالية التي أعدها الله تعالى لأوليائه وأهل كرامته لا بد أن تكون غالية الثمن وأن مهدها هو صدق اليقين بالله تعالى وموافقة الأمر والنهي والجهاد الخالص الصادق غير المشوب.

كان لموقعة أحد أثر جسد مقلق في نفوس أبناء القبائل العربية على العموم: لقد حفزتهم إلى الجهر بمعاداة الإسلام ومقاومته، ذلك بأنهم اقتنعوا الآن بأن قريشاً عازمة على تحطيم الإسلام وإلا لما تجشمت عناء القيام بمثل تلك الحملة الضخمة وأنفقت ما أنفقت في سبيلها. وإذا استوثقوا من تصميم القرشيين على ذلك، بدأ حقدهم المكبوت حتى ذلك الحين يعلن عن نفسه. لقد حسبوا أن القضية الإسلامية قد أخفقت، وأن عليهم أن لا يتخلفوا عن المشاركة في شرف الإطاحة بها. وهكذا راحت القبائل، في كل مكان، تعد العدة للانقضاض على المسلمين. كان تثقيف الشعب الأخلاقي والروحي هو، من غير ريب، هدف الرسول الأوحى. ولم تكن الحرب لتشكّل جزءاً من برنامج حياته ولم يكن في الإمكان تحقيق هذا الهدف العظيم إلا على أيدي تلك العصابة الصغيرة النبيلة التي كان قد أعدها لهذا الغرض. أما وقد تعرض للخطر حتى وجود أولئك الذين عقدوا النية على وقف أنفسهم لتطهير الإنسانية روحياً، أفلا يكون من واجبه أن يتخذ جميع الإجراءات الممكنة لحمايتهم؟ كانت مصلحة المثل الأعلى الذي رفعه أمامه تدعو إلى القيام بعمل حازم. وإلى هذا، فقد كان الرسول زعيم الجماعة الصغيرة، وكان - بوصفه هذا - مسؤولاً عن سرائهم وضررائهم. إن مركزه كزعيم لهم كان يفرض عليه السهر على مصلحة شعبه. وفي هذه الناحية أيضاً كان مثلاً يحتذيه أولئك الذين أسندت إليهم مقاليد الحكم والسيطرة على الآخرين. وكما أظهر ذلك النموذج الكامل للجنس البشري، يتعين على الزعيم أن لا يقبل منصبه لمجرد التمتع بالامتيازات التي يتيحها له، بل إن عليه أيضاً أن يواجه المسؤوليات الشاقة التي يفرضها. إن واجبه الأخلاقي ليقضيه أن يفكر في الأساليب والطرائق التي تمكنه من الدفاع عن شعبه ضد العدوان، وأن يتخذ التدابير التي تكفل له الدفاع، وأن يتخذ التدابير التي تكفل مصالحتهم. ولو لم يكن للرسول غير هذه الماثرة الباهرة إذن لكانت كافية لأن تبوئه مركزاً فريداً في تاريخ البشرية. لقد وجد شعبه محاطاً، من أقطاره جميعاً، بأعداء الداء. كان وجودهم كله يتأرجح ، ليل نهار، في الميزان. ولقد وفق، وبعد نظره وتضحيته بنفسه، إلى انقاذهم من جميع الأخطار، وتمكينهم من الفوز بأكاليل النجاح. إن إنشاء أمة ما، يعتبر في جملة الأعمال العظيمة في التاريخ الإنساني، وليس للعقبات الضخام التي ذلها الرسول لإنشاء أمة عظيمة نظير في حوليات بناء الأمم<sup>(١)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥٥

نلاحظ من نتائج معركة أحد أن نكت يهود المدينة عهدهم، وأنشأوا يتآمرون مع قريش لانزال الأذى بالمسلمين. ومن ناحية ثانية، فإن أذى المنافقين أمسى الآن أوضح وأصرح. لقد حرصوا على إعنات المؤمنين بكل سبيل. وكانت القبائل المجاورة قد عقدت العزم أيضًا على توجيه ضربة قاضية إلى الإسلام، متوهمين أنه كان على شفير الانقراض. لقد عدم المسلمون كل أمن وطمأنينة داخل المدينة وخارجها على السواء. وكانت الأنبياء تشعرهم كل يوم بهجوم يشن من هذه الناحية حينًا، ومن تلك الناحية حينًا. كان عهدًا جد عصيب. ولم يكن المسلمون بقادرين على الخروج من بيوتهم عزلا من غير سلاح. ونحن نعلم من بعض الروايات أنهم لم يستطيعوا التخلي عن أسلحتهم حتى في سكية الليل. وأخيرًا استنفد الارهاق صبرهم، ففتحوا قلوبهم للرسول واصفين عجزهم عن الصبر أكثر مما فعلوا بعد أن بلغ السيل الزبي. فكان من دابة أن يطيب خاطرهم مؤكدًا لهم أن فجر السلام أمسى وشيكًا. ولقد شاطرهم بنفسه رهق أيام المحنة هذه وعتتها، واتخذ كل اجراء وقائي لاجتناب خطر الهجمات الذي لاح الآن، في كل ناحية من الأفق، شديدًا عارمًا. وذات يوم، وكان الظلام لايزال حالكا، سمعوا جلبة وهديرًا، وخافوا أن يكون عدو ما قد أقبل لاقتحام المدينة، أو أن تكون ثمة غارة مبيتة. واحتشد المسلمون من كل صوب، واستعدوا للخروج ابتغاء المقاومة. وكم كان دهشهم عندما بصروا بالرسول عائدًا على صهوة جواده بعد أن راد أرباض المدينة كلها. وطمأنهم قائلاً إنه ليس ثمة أى خطر، وإنه لا داعى للقلق البتة. وهكذا أظهر الرسول إنه لم يكن مجرد رعيم حكيم بل كان فى الوقت نفسه جنديًا باسلا يزدري الخطر فى جراءة وكانت المدينة تحيا فى غمرة خطر موصول<sup>(١)</sup>.

بعد عودة رسول الله محمد ﷺ من حملة «حمراء الأسد» أمر بتنفيذ حكم الإعدام في معاوية بن المغيرة بن أبي العاص وهو جد عبد الملك بن مروان لأمه فأتى ابن عمه عثمان بن عفان فطلب من الرسول ﷺ الأمان فوجه له، فلما خرج الرسول ﷺ اغتشم معاوية هذه الفرصة وصار يتجسس على المسلمين لحساب قريش، فلما عاد رسول الله محمد ﷺ خرج معاوية هاربًا فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر أن يتعقباه ويقتلاه فوجداه على بعد ثمانية أميال من المدينة فقتلاه رميا بالنبل تنفيذًا لحكم الإعدام في الجاسوس معاوية<sup>(٢)</sup>.

وكان على المسلمون أن يلتزموا الحذر واليقظة لحظة بعد لحظة. لقد عمدوا إلى خنق أضال الخطر فى مهده. فإذا ما نمت إليهم أن ثمة بلاء يفرخ فى ناحية ما، وأن المدينة عرضة لهجوم ما، سارعوا إلى توجيه كوكبة من الرجال لمعالجة الخطر قبل استفحاله. وهكذا كانوا يتلافون، بمجرد الوقاية العاجلة، ما كان خليفًا به أن يقضى إلى إضرار نار الحرب على نحو رهيب. إن بعض النقاد

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥٦.

(٢) محمد محمد البيلي بونس - المرجع السابق ص ٨٢.

المتعصبين على الإسلام يرمونه بتهمة الانتشار بحد السيف، وهو رعم يتنافى تنافياً كلياً مع الحقيقة والواقع. فهداية الناس إلى الإسلام لم تتم، فى أيما يوم من الأيام، من طريق السيق، ولم يسجل التاريخ حادثة واحدة كان فيها إسلام أيما امرئ ثمرة من ثمرات الحملات العسكرية.

بشر معونة: والحق أن الرسول كان يعين - ابتغاء نشر الدين - مبشرين أعدوا خصيصاً لهذا الغرض. فكان من دأب هؤلاء الفقهاء الذين حفظوا القرآن عن ظهر قلب أن ينشروا نور الإسلام فى أوساط القبائل على اختلافها. وكان بعض ذوى الغدر يدعون هؤلاء المعلمين بحجة رغبتهم فى التفقه فى تعاليم الإسلام، حتى إذا أمسوا تحت رحمتهم عمدوا إلى قتلهم فى غير ما شفقة. وقد حدث مثل هذا الصنيع البربرى الغادر فى «بشر معونة» فى منطقة نجد بين أرض بنى عامر وحره بنى سليم، فى شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة. وتفصيل ذلك أن أبا براء عامر بن مالك ملاعب الاسنة زعيم بنى عامر وبنى سليم وفد على الرسول حاملاً بعض الهدايا، وسأله أن يوجه بعض المعلمين إلى قومه لعلهم يقبلون رسالة الإسلام. فرفض الرسول الهدايا<sup>(١)</sup>، وقال إنه يخشى غدر أهل نجد الذين كانوا يعرفون بالغدر والنفاق ضد الإسلام وضد رسول الله محمد ﷺ كما نزلت عدة آيات فى القرآن الكريم عن الأعراب حيث يقول العزيز الكريم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ وفى آية أخرى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ [الحجرات] كما ظهر منهم فيما بعد مسلمة الكذاب فى اليمامة. ولكن أبا براء قل: «أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك. وكان أبو براء رجلاً مسموع الكلمة فى قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه فوافق الرسول آخر الأمر على أن يرسل معه سبعين من خيار أصحابه من حفظة القرآن الكريم، حيث ظن الرسول أن جواره كاف لحماية أصحابه من غدر سكان «النجد» وأرسلهم بزعامة المنذر بن عمرو ليدعوا سكان نجد إلى الإسلام وأعطى الرسول المنذر كتاباً ليقرأه على أهل نجد وأمرهم بالسير لما نذبوا إليه. حتى إذا بلغوا مكاناً يعرف بـ «بشر معونة» فى وسط نجد وجدوا أنفسهم بين أشدق جيش كبير. وهناك قتل حملة الرسالة الإلهية هؤلاء أصحاب رسول الله محمد ﷺ بحد السيف، ما خلا واحداً، هو عمرو بن أمية لأنه كان فى الرجال بعيداً عن أرض المعركة وحين عاد وجد أن أصحاب رسول الله محمد ﷺ قد قتلوا فأخذ أسيراً ثم أطلق سراحه بعد أن جز ناحيته، وفى طريقه صادف رجلين من بنى عامر كان لهما من رسول الله أمان فقتلها انتقاماً لأصحاب رسول الله دون أن يعلم بأمان رسول الله لهما<sup>(٢)</sup>، وفق إلى النجاة بنفسه ليروى على مسمع الرسول تلك القصة التى يتقطر لها الفؤاد.

فأصيب الرسول من جراء هذا الغدر الوحشى بصدمة عنيفة مما فعله سكان نجد وقتلهم أصحاب رسول الله محمد ﷺ والذى يقدر بحوالى سبعين صحابى من حفظة القرآن الكريم ووجد

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥٧.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٤٨٢.



لقتلى بثر معونة أشد الوجد، ولما قص عمرو بن أمية على الرسول قتله للعامرين أنه الرسول لذلك وقال له: بئس ما صنعت قد كان لهما مني أمان وجوار لا وينها أي عليّ دفع ديتهما، وبعث الرسول فعلا بديتهما إلى قومهما في حين أن الرسول محمد ﷺ لم يطلب دية أصحابه الاثني عشر والسبعين صحابي الذين قتلوا من قبل سكان نجد وكان لهم أيضا أمان وجوار من زعيم نجد هو عامر بن مالك الملقب أبو البراء ولعل الرسول أراد من ذلك أن يظهر للقبائل المختلفة احترامه لقضية الجوار والعقد وتمسكه بها حتى ولو لم يتمسك به أعداؤه من سكان «نجد»<sup>(١)</sup>.

بثر الرجوع: ويحدثنا التاريخ عن مأساة ماثلة وقعت في مكان آخر يدعى الرجيع فقد وجهت بعض القبائل رهطاً منها إلى رسول الله محمد ﷺ يقولون له «إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يعلموننا شرائعهم ويقرئوننا القرآن» فلم يكن من الرسول إلا أن بعث إليهم بعشرة واجهوا المصير نفسه. لقد قتل ثمانية منهم وهم يقاتلون دفاعاً عن النفس، على حين وثق اثنان، خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة، بعهد الغادرين، فاستسلما. ولكنهم نكثوا بميثاقهم هذه المرة أيضاً، وبدلاً من أن يطلقوا سراحهما كما عاهدوهما، باعوهما للمكيين ببيع الرقيق. فلم يكن من بنى الحارث، الذين أمسى خبيب مولياً لهم، إلا أن اقتادوه إلى خارج الحرم، وهو الأرض المقدسة التي كان كل ضرب من ضروب العنف محظوراً فيها حتى في الجاهلية، ليصلبوه. فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، فأجازوه ما أراد. فركع الركعتين ثم أقبل على القوم وقال: أما والله لولا أن تظنوا أنني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. ثم أنهم رفعوه إلى خشبة وأوثقوه إليها، فنظر إليهم بعين مفضبة وصاح: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً<sup>(٢)</sup>.

أما زيد فاشترى صفوان بن أمية للغرض نفسه. وشهد أبو سفيان وزعماء قريش المقدمين كلهم مقتله. فلما استل نسطاس، مولى صفوان بن أمية السيف ليقطع به رأسه حاول أبو سفيان أن يفره إغراء لا يقاوم بأن قال له: «أنشدك الله يا زيد، أتعب أن محمداً الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟» وكم كان جواب زيد نبيلاً جليلاً في تلك الساعة الحرجة من حياته وقد حذق الموت إليه في عينيه! لقد قال: «والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذي وأنا جالس في أهلي!». والواقع أن هذا مثل نموذجي على تعلق أصحاب الرسول به وحبهم العميق له. والحق أن سفك القبائل العريية الغادر لدماء المسلمين على هذا النحو الذي لا يرحم ألم الرسول إيلاًماً كبيراً. كان في مسوره أن يصبر على مختلف ضروب المحن والمشاق. ما بقيت هذه المحن والمشاق مقصورة على شخصه هو. ولكنه لم يستطع صبراً على تعذيب أولئك الذين اعتنقوا دين الحق ولم يحجموا عن الوقوف إلى جانبه في السراء والضراء مضحين في بشر وابتهاج بكل ما

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص ٤٨٢.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٥٨.

ملكيت أيديهم في سبيل الله، مكتسبين بذلك - عند الله - مقامًا عليًا. وكان قتل المعلمين الدينيين صدمة له لاحتتمل، حتى لقد عقد النية ذات مرة على أن يتضرع إلى الله أن يأخذ المعتدين بجراذمهم الشنيعة. والواقع أن تلك القبائل كانت تستحق أن تلقى مثل ذلك القتل التمهذي، ولكن الرسول اجترأ، في أساء العميق ذاك، بأن دعا الله أن يتولى أمرهم. ولكن الله كان قد أرسله رحمة للجنس البشرى كله، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء] ومن أجل ذلك لم يرض له أن يكون من القسوة بحيث يستنزل الغضب الالهي حتى على أمثال هؤلاء المجرمين الكبار. كان يريد أن يكون تجسيدًا للرحمة الكلية. الرحمة التي لا تميز بين صديق وعدو. ومن هنا نزل الوحي الالهي يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٧٨) [آل عمران] ولم يكد الرسول يتلقى هذا اللوم الالهي حتى كف عن إضمار النقمة على الذين قتلوا المعلمين الدينيين الوادعين، في وحشية بالغة. يا للقلب الرقيق! هل يستطيع التاريخ أن يباهى بمثله؟<sup>(١)</sup>

إن بلاد العرب بكاملها كانت تتميز بالغيظ والحقد على الإسلام. كان اليهود، والمنافقون، وعبدة الأوثان، كلهم - منفردين ومجتمعين - قد عقدوا العزم على إبادة الإسلام. ولولا الحذر الذي أبداه الرسول والذي تمثل في كبتة كل عاصفة من عواصف المعارضة قبل أن تقوى وتشتد إذن لكان من المتعذر على المسلمين أن يلبثوا يومًا واحدًا في المدينة. وهكذا لم يكن قد بقي للمسلمين، بحكم تلك الملبسات التي أحاطت بهم، غير سياسة عملية واحدة يستطيعون أن ينتهجوها: وهي أن يعمدوا إلى تفريق قوى العدو قبل أن يتحد ويصبح من القوة بحيث يسحق الإسلام سحقًا. والحق أنه لم يكن في طوقهم أن يقعدوا مكتوفي الأيدي، ويشهدوا جموع العدو تحتشد حتى تسمى أقوى من أن يقدروا عليها. كان من الواضح أن مثل هذا الموقف خليق به أن يعنى القضاء على الإسلام قضاء لا ريب فيه. وهكذا أكرههم حفظ الذات، مسوقين إلى ذلك بسلطان الظروف وحدها، إلى الإمساك بالثور - إذا جاز التعبير - من قرينه. ومن المناوشات الصغيرة التي حدثت في هذه الفترة مناوشة تعرف بمعركة «بدر الصغرى»، أو «بدر الآخرة». وتفصيل ذلك أن أبا سفيان كان قد تحدى المسلمين، لدن مغادرته ميدان أحد، قائلًا: «يوم بيوم بدر، والموعود العام المقبل» وهكذا لم يحن ذلك الموعد حتى سار المسلمون إلى بدر، حتى إذا لم يجدوا القرشيين هناك انقلبوا عائدتين بسلام، بعد أن باعوا، في السوق التي كانت تقام في ذلك الموطن سنويًا، جميع السلع التي حملوها معهم<sup>(٢)</sup>.

وكانت موقعة «دومة الجندل» و«ذات الرقاع» في السنة الخامسة للهجرة، وموقعة «بنى لحيان» و«ذى قرد» في السنة السادسة للهجرة كلها من هذا الضرب. كان المسلمون لا يكادون يتلقون أيما نبأ عن استعدادات العدو العسكرية حتى يبعثوا على التو بسرية من رجالهم، فيتفرق شمل القوات المعادية

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٥٩.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٦٠.

على نحو آلى، أو فى بعض الاحيان إثر مناوشة يسيرة. وثمة عدد من المناوشات الاخرى المماثلة تلفت نظرنا منها، بخاصة، تلك التى تعرف بموقعة المريسيع أو موقعة «بنى المصطلق». وكانوا - بنو المصطلق - يقيمون فى موطن يعرف بالمريسيع، على مسيرة تسعة أيام من المدينة. وتفصيل الامر أن زعيمهم الحارث بن أبى ضرار أعد العدة للهجوم على المدينة، بتحريض من قريش فى أغلب الظن، وبلغ النبأ الرسول، فحقق فيه، فالفاه صحيحًا. وسرعان ما أصدر أمره باتخاذ استعدادات مضادة لتشتيت قوى الحارث. وولى الحارث وجيشه الادبار، ولكن أهل المريسيع قاتلوا المسلمين فانهزموا. لقد أسر المسلمون ستمائة منهم، وفيهم جويرية بنت الحارث، ووفد الحارث على الرسول لكى يفترق ابنته. فترك الامر لمشيئة جويرية، فأثرت البقاء مع الرسول. وفى هذا ما يغنى عن مجلدات توضع فى وصف المعاملة الرقيقة التى كان أسرى الحرب يلقونها من المسلمين فى غير ما استثناء. ودفع الرسول الفدية من ماله هو، وبنى بجويرية نزولا عند رغبتها. أما الأسرى الآخرون الستمائة، فأطلق سراحهم جميعاً<sup>(١)</sup>.

وفى مرجع الناس من غزوة بنى المصطلق قال أهل الإفك ما قالوه فى حق أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها. قال ابن سعد: وفى هذه الغزوة سقط عقد لعائشة، فاحتبسوا على طلبه. أنزل الله تعالى براءة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وكان فتح بنى قريظة فى آخر ذى القعدة من السنة الرابعة من الهجرة، وغزوة بنى المصطلق فى شعبان من السنة السادسة، أى بعد سنة وثمانية أشهر من موت سعد، وكانت المقاومة بين الرجلين المذكورين بعد الرجوع من غزوة بنى المصطلق بأزيد من خمسين ليلة<sup>(٢)</sup>. أما يهود «بنو النضير» فقد بلغ أمرهم أن خان بعضهم عقده مع الرسول ﷺ وجواره، فحاول بنو النضير قتل الرسول غيلة فى أثناء زيارته لبيوتهم مع رهط من أصحابه، وكان قد جاءهم مستعينًا فى دفع دية قتيلين قتلتهما عمرو بن أمية بعدما لحجا من واقعة بئر معونة. ولما أحس الرسول منهم ذلك، استأذن لقضاء حاجة، وغادر مكانه، وكانت خطتهم أن يلقى عليه أحدهم، عمرو بن جحاش، صخرة. ولما لم يعد، رجع أصحابه، فأخبرهم بالامر، وأمر المسلمين بالسير إليهم. فتحصنوا فى حصونهم، فبدأ بقطع نخيلهم، وحرق بساتينهم، فقلد الله فى قلوبهم الرعب، وطلبوا من الرسول أن يحقن دماءهم مقابل استسلامهم وجلانهم عن المدينة بما حملت إيلهم من أموال دون سلاح ففعل. فخرجوا إلى خيبر وبلاد السلام. وسيكون لهم دور كبير فى غزوة الأحزاب كما سنرى لاحقًا. ثم غزا رسول الله فى جمادى من السنة نفسها غزوة ذات الرقاع، ولم يحصل فيها حرب.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٦١ .  
(٢) د. السيد الجميلي - غزوات النبي ﷺ - ص ٧٤ .

**معركة الأحزاب،** أدرك يهود خطر الإسلام عليهم مبكرين . فهم أولو كتاب بالاسم فقط، يحرمون ويحللون بحسب أهوائهم، يأكلون الربا ويرتكبون الفواحش، ولا يهمهم إلا جمع المال والتفرقة بين الناس، والتعالى عليهم، وسلب أموالهم. وكانوا يظنون أن المشركين سيقضون على الإسلام في مهده، فهادنوا المسلمين أول الأمر ضمنا بأنفسهم وبأموالهم. ولما لم ينتصر المسلمون في أحد، حاول بنو النضير قتل الرسول، ليقضوا على الإسلام بقتل نبي المسلمين وقائدهم، وبعدما أجلوا عن المدينة، علقوا آمالهم على اللقاء الموعود بعد عام من غزوة أحد بين المشركين بقيادة أبي سفيان والمسلمين بقيادة الرسول الكريم، فلما خلف أبو سفيان مواعده، خاب ظنهم، وأدركوا نتائج ذلك التخاذل، فقرررو التحرك. وانطلق أشرفهم من بنى وائل ومن بنى النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، منهم حسي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق وغيرهما، فجاؤوا قريشاً في مكة وحرصوهم على قتال المسلمين، ووعدوهم بمؤازرتهم والوقوف بجانبهم، وشهدوا لهم بأن دينهم «الشرك» خير من دين محمد ﷺ «الإسلام» فسرت قريش بشهادة يهود، وهم أهل كتاب، ونشطوا لمحاربة الرسول. ثم خرج أولئك نفر من يهود حتى جاؤوا غطفان، فحرصوهم أيضاً على مقاتلة الرسول، وذكروا لهم ما كان من شأنهم مع قريش، وموعد الحرب، وأن يهود سيكونون في طليعة المحاربين ضد المسلمين<sup>(١)</sup>.

وبينما كان الرسول منهمكا في كبت أذى القبائل العربية، لكى يتلافى نشوب الحرب على نطاق واسع، كانت قريش في شغل شاغل بإعداد حملة جديدة على المدينة. وكانت القبائل اليهودية المنفية من المدينة، والمقيمة الآن في خيبر، حليفة لهم أيضاً في القضية المشتركة: قضية إبادة الإسلام. ولقد وفقوا إلى تحريض العشائر البدوية المقيمة على مقربة من مكة، فانضمت بدورها إلى الحلف المعادي للإسلام. وهكذا تضافرت قريش، واليهود، والبدو لضرب الإسلام ضربة قاضية.

حتى إذا كانت السنة الخامسة للهجرة حشدوا جيشاً عظيماً يتراوح عدد رجاله، وفقاً لمختلف التقديرات، ما بين عشرة آلاف جندي وأربعة وعشرين ألف جندي. وحتى القبائل اليهودية المقيمة داخل أسوار المدينة خانت المسلمين وتعاونت، في آخر لحظة ممكنة، مع المغيرين. ومن ثم لم يكن للمسلمين، إذا نظرنا للمسألة بمنظار بشري صرف، غير أضرار الحظ في النجاة من هذا السيل الزاخر من المهاجمين وبلغ الرسول الكريم نبأ هذا الهجوم الوشيك المعد على نطاق لم يسبق إلى مثله من قبل. فسارع إلى دعوة أصحابه يشاورهم في الأمر ويتدارس معهم خير الطرق لمواجهة الموقف. فأشار سلمان الفارسي بتحصين المدينة من طريق حفر خندق عميق عريض يحيط بها من أقطارها جميعاً حيث كان لرأى سلمان الفارسي الأثر الأكبر في ربح المعركة. قال: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا

(١) أحمد راتب عمرش - المرجع السابق ص ٧٣.

خندقنا علينا» أى حفرنا خندقًا يمنع العدو من التقدم نحونا. فأعجب الرسول ﷺ بالفكرة، وأمر بحفر الخندق من جهة الشمال بين حرة واقم من الشرق وحرة الوبرة من الغرب، وقد شكل هذا الخندق فيما بعد مفاجأة للأحزاب اضطرتهم إلى الوقوف أمامه عاجزين عن عبوره. وهذه المفاجأة كانت العامل الأهم فى كسب المعركة وكان للمدينة - من ناحية - حاجز طبيعى من الصخور الوعرة، وكان يصونها - من ناحية أخرى - جدران البيوت الحجرية المبنية على نحو مكتظ، فى استمرار غير منقطع، والتي كانت تولف فى ذات نفسها خطًا دفاعيًا منيعًا. وفى الحال بدىء بحفر الخندق فى الناحية المعرضة للهجوم<sup>(١)</sup>.

وقسم الرسول العمل بين جماعات من المسلمين، كل جماعة مؤلفة من عشرة رجال، وشارك هو نفسه فى الحفر مثل أى عامل عادى. إن التاريخ لم يدون لنا غير حادثة مفردة عن شخصية كان لها سلطان روحى وزمنى أيضًا على أمة من الأمم، ومع ذلك فقد عمل مثل عامل عادى، جنبًا إلى جنب مع أتباعه، فى ساعة الحرج الوطنى العظيم لا أهمية للخندق إن لم ينجز فى الوقت المناسب، وإن لم يغط المنطقة الصالحة للتقدم كلها، وإن لم يكن عريضًا وعميقًا بقدر كاف لمنع الخيل من اجتيازه. وكان الخندق اللارم لتغطية المنطقة يبلغ ما بين ٣٥٠٠ - ٤٠٠٠ متر، بعمق حوالى خمسة أمتار وعرض ستة أمتار أو أكثر بقليل. وبناء على ذلك فقد قسم الرسول المسافة وحدات طولية، كل وحدة بطول ثلاثين مترًا كلف بها عشرة رجال، أى كان على كل رجل أن يحفر  $3 \times 6 \times 5 = 90$  مترًا مكعبًا. فإذا علمنا أن حفر الخندق استغرق شهرًا، يكون كل رجل قد حفر بمعدل (٣م٣) ثلاثة أمتار مكعبة يومياً على أقل تقدير، وعلى افتراض صحة رواية إنجاز العمل فى شهر كامل وليس فى أقل من شهر. وهذا عمل مجهد، فالحفر يواجه صعوبات من صخور وأحجار وأرض قاسية، ولما يستتبع الحفر من نقل التراب بوسائل بدائية، ولهذا كان المسلمون يعملون بجد ونشاط بإشراف الرسول نفسه ومساعدته. فقد كان يعمل بالحفر بيده، بل إذا استعصت صخرة شكوا إليه أمرها فعمد إلى معالجتها بيديه الشريفتين. تم حفر الخندق واتخذت قوات المسلمين مواقعها الدفاعية خلفه باتجاه المدينة، مستفيدة من حرة واقم لحماية ميمنتها وجبل سلع وبتين النخيل لحماية مؤخرتها، وحرة الوبرة لحماية ميسرتها. ووزع الرسول ﷺ مخافر الحراسة على مداخل المدينة، وعند طرفى الخندق وفى مكان لم ينته العمل فيه بالشكل الكامل. وعين دوريات الارتباط والمراقبة. وتم تأمين حماية المؤخرة، والنساء والصبيان والبيوت<sup>(٢)</sup>.

إنه لمن سمات شخصية الرسول الممييزة أنه كان يضىفى رواء على أىما شىء يشارك فى صنعه. فحيثما وضعتة أدى واجبه فى كياسة عجيبة. ولئن كان، من ناحية، أكثر الملوك رجولة، لقد كان -

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٦٥.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٦٦.

فى الوقت نفسه - أكثر الرجال جلالا ملكياً. وفيسما هم يحفرون انتهوا إلى حجر صلد. وبذلوا كلهم قصارى جهدهم لتسظيمه. وهكذا اقترح على الرسول، الذى كان قد رسم حدود الخندق بيديه الاثنتين، أن يجيز لهم الانحراف بعض الشئ عن الخطة الاصلية. فلم يكن منه إلا أن تناول معولا وانهمك فى أداء المهمة التى أعجزت رجاله. لقد هبط إلى جوف الخندق وراح يقرع الصخرة بعنف، فانزاحت مطلقا فى الوقت نفسه شرارة نار لم يكد الرسول يلمحها حتى صاح، يتبعه أصحابه، «الله أكبر!» وقال أنه رأى فى الشرارة أن مفاتيح قصر الملك فى الشام، قد آلت إليه. وضرب الصخرة كرة أخرى فانشقت، مطلقا شرارة النار نفسها. ومرة ثانية ارتفع التكبير: «الله أكبر!» ولاحظ الرسول أنه وهب مفاتيح المملكة الفارسية. وعند الضربة الثالثة تناثرت الصخرة قطعاً وأعلن الرسول أنه رأى مفاتيح اليمن تصبح ملك يديه<sup>(١)</sup>.

ثم أوضح قائلاً أنه، فى المرة الأولى، أطلع على قصر قيصر، وفى المرة الثانية على قصر آكاسرة فارس، وفى المرة الثالثة على قصر صنعاء، وأنه أنبئ أن أتباعه سوف يمتلكون تلك البلاد كلها. ظاهرة رائعة! كانت قوة جبارة، تتألف من أربعة وعشرين ألف رجل، تقف عند أبواب المدينة نفسها على أتم استعداد لسحق الإسلام. وكانت بلاد العرب كلها متعطشة لدماء المسلمين. وفى غمرة من سحب هذا الخطب الرهيب تلمح عين الرسول شعاعاً قصياً يؤذن بالقوة التى ستم للإسلام فى المستقبل! اليس ذلك شيئاً يتخطى أبعد طاقات الخيال البشرى؟ ومن غير الرب الكلى الحكمة والكلية العلم يستطيع أن يكشف أسرار المستقبل هذه فى لحظة كان الإسلام مهدداً فيها بالفناء المطلق؟ دب الذعر فى نفوس المسلمين عندما انقضت الأحزاب المتحالفة، بكامل قوتها، على المدينة؛ لقد نزلت أساس البلد نفسها. ولقد وصف ما ألم بالقوم، فى تلك اللحظة، من كرب وارتباك، بهذه الكلمات<sup>(٢)</sup>.

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ١١ ﴾ [الأحزاب] من خلال مشهد الرعب والذعر الظاهرى استطاعت أفئدة المؤمنين ان تقرأ مصداق ما وعدهم الله ورسوله. ولقد صور الله ما دار فى خلداهم بالآية التالية: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢ ﴾ [الأحزاب]. وعلى الرغم من أن الاحتمالات كلها كانت تشير، على نحو ساحق، إلى أن المسلمين سوف يبادون، وعلى الرغم من المخاوف التى عصفت بهم فى تلك الحال الكالحة فقد أدركوا ان هذه المحاولة كانت المحاولة الاخيرة اليائسة يقوم بها عدو محتضمر. إنها سوف تقصم ظهر العدو مرة وإلى الأبد، وتؤذن باستهلال عهد سعيد، عهد انتصار الإسلام.

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٧٧

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ٧٧.

فرغ المسلمون من حفر الخندق قبل وصول قريش على الرغم من تسلسل المناققين وهربهم في أثناء العمل دون إذن من رسول الله ﷺ وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يذكر لرسول الله ويستأذن في اللحوق لحاجته فيأذن له وإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له، فأنزل الله تعالى في أولئك النفر من المؤمنين<sup>(١)</sup>: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾ [النور].

وصلت قوات المشركين من جهة الشمال، كما كان منتظراً، وعسكرت قريش كما يقول الطبري الأسياال، من رومة، بين الجرف والغابة. وعسكرت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد في مكان اسمه «ذنب نقي» إلى جانب جبل أحد. وربما زاد عدد المهاجمين بالتحاق الكثير من الأعراب الذين لا هم لهم سوى السلب والنهب وكانت قوات المسلمين في مواقعها، تراقب بيقظة وتتهيأ لمواجهة أى طارئ. كانت خطة الغزاة، كما أحكمها زعماء يهود مع زعماء المشركين، أن تتقدم قوات المشركين من الشمال باتجاه المدينة لاحتلالها، وفي الوقت ذاته يتحرك يهود بنى قريظة من خلف المسلمين، وكانوا ما يزالون في المدينة، وبينهم وبين المسلمين معاهدة تعاون ودفاع مشترك. وتنفيذا لتعهدات خونة يهود للمشركين ذهب حبي بن أخطب، رأس المؤامرة، إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم. فلما سمع بن كعب أغلق دونه حصنه، ولكنه ما زال يناديه ويلح عليه حتى وافق على استقباله، وفي خلال اللقاء استطاع حبي ابن أخطب إقناع كعب بتقضى عهده مع الرسول، فنقض العهد وتبرأ منه. ولما علم الرسول بالأمر، أرسل وفداً على رأسه سعد بن معاذ سيد «الأوس»، وسعد بن عباد سيد الخزرج، للتأكد من صحة الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فآلحنوا لى لحنا نعرفه، [أى أخبرونى بواقع الحال بطريقة رمزية] ولا تفتوا فى أعضاء الناس [كيلا تنهار الجبهة الداخلية] حتى تقوى عزائمهم<sup>(٢)</sup>.

فخرجوا حتى التقوا بيهود فوجدوهم على أخبث حال، وشتموهم وذكروا الرسول ﷺ بسوء، وقالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، فعاد الوفد إلى الرسول وقالوا له «عضل والقارة». (أى غدروا كغدر قبيلتى عضل والقارة اللتين مر معنا غدروهم بأصحاب الرسول فى الرجيع) فكان جواب الرسول ﷺ الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين. . كان هذا جوابه لتقوية معنويات أصحابه، أما واقع الحال، فإن الخبر بدأ بالانتشار بين المسلمين واشتد الخوف، وعم البلاء. وكان على المسلمين أن يحرسوا النساء والأطفال بالإضافة إلى حراسة الخندق فعين الرسول لذلك مجموعتين: الأولى من

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١١٧.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٧٧.

ماتى رجل بقيادة سلمة بن أسلم، والثانية من ثلاثمائة بقيادة زيد بن حارثة. وأخذ المنافقون يخذلون المسلمين، ويبشون الشائعات ويتهمون على المسلمين، حتى أن أحدهم قال: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط» أما المشركون، فقد فوجئوا بالخذق، فلم يستطيعوا التقدم بحسب الخطة الموضوعة، ففرضوا الحصار على المدينة، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل والسهام ويرد عليهم المسلمون برمي مماثل<sup>(١)</sup>.

واشتد الخوف وعظم البلاء على المسلمين إذ ذاك وظهر نفاق الكثيرين حتى قال متعب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»<sup>(٢)</sup>. وعلى سبيل الوقاية من هجوم محتمل من الخارج، أو خيانة يهودية من الداخل نقل النساء والأطفال إلى مواطن حصينة. واستمر الحصار نحوًا من شهر، قاسى المسلمون خلاله - وفيهم الرسول نفسه - من ويلات المجاعة شيئًا كثيرًا. لقد سلخوا أيامًا عديدة من غير أن يذوقوا أيما طعام، فتعين عليهم أن يشدوا إلى بطونهم قطعًا من الحجارة ولكن روحهم لم تقهر بسبب من ذلك ألبتة. وذات يوم، اقترح النبي إغراء قبيلة غطفان من طريق وعدّها ثلث ثمار المدينة إن هي ارتحلت. وكان خليفًا بهذا الاقتراح أن يسهم إسهامًا كبيرًا في كسر شوكة العدو. وعلى الرغم من المجاعة التي قاساها المسلمون. والضيق الذي ألم بهم في جراء الحصار المتطاوّل والسهر والحراسة الموصولين فقد رأوا أن في القبول بمثل هذا الذل جرحًا لكرامتهم. وقال الأنصار، الذين عنتهم المساومة المقترحة مباشرة، إنهم لم يدفعوا أيما جزية إليهم حتى في الجاهلية، فكيف يطيقون الإذعان لهم، خاصة وأن في الأمر مساسًا بشرف الإسلام نفسه؟ إنهم سوف يقاتلون حتى آخر رجل من رجالهم، وليكن ما يكون! وكان اليهود والمنافقون يتحينون الفرصة للانقضاض من داخل، على نحو متواتر مع الهجوم من خارج<sup>(٣)</sup>.

وجرت بادئ الأمر مبارزات كتبت الغلبة فيها للمسلمين. كان عمرو بن ود، وهو بطل عربى شهير، يعتقد أنه كفو لآلف رجل. فتقدم ينادى: «من يارز؟» ولما دعاه علي بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى النزال قال فى صلف: «لم يا ابن أخى؟ فوالله ما أحب أن أقتلك!» فقال الإمام علي كرم الله وجهه: «لكنى أحب والله أن أقتلك!» فتنازلا فيقتله الإمام علي كرم الله وجهه. وأخيرًا شنت قریش، بكامل قوتها، هجومًا عامًا، ولكنها لم تستطع أن تقتحم الخندق بيد أن سهامها ونبالها انهمرت انهمار وابل رهيب، ولولا ثبات المسلمين بروح الانضباط لكسب العدو المعركة. لقد عجز الجيش العظيم، البالغ عدده أربعة وعشرين ألف مقاتل، عن اختراق خط دفاعهم، فآلم به الأعياء. كان الحصار قد أمسى مرهقًا له وإلى هذا، كانت مؤن العدو قد نفذت. ثم هبت ريح عاتية فاقتلعت

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٧٩ .

(٢) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٥١ .

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٨ .



خيامهم، وكفأت قدورهم، فدب الاضطراب فى صفوفهم. وإلى هذه الحادثة يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [الأحزاب] لقد حققت الريح للمسلمين ما كان متعذرًا عليهم أن يحققوه بقوة سلاحهم. وإذا رأت قريش وأحلافها أن الطبيعة نفسها كانت تعمل ضدهم دب الذعر فى نفوسهم. لقد اعتبروا ذلك نذيرًا بشؤم. وهكذا انسحبوا، يائسين، فى تلك الليلة نفسها، وكم كان ابتهاج المسلمين عظيمًا، وشكرهم لله غامرًا، حين لم يروا أيا من أعدائهم هناك، صباح اليوم التالى. هل كانت اليد العاملة من وراء الستار، والى أحبطت محاولات القوى المتفوقة الهادفة إلى سحق حفنة من المسلمين والى أفسدت خطط اليهود والمنافقين الغادرة، غير يد الله نفسه؟ وعلى هذا النحو انتهت بالحلية والذعر الشاملين أقوى حملة منظمة شنت على الإسلام<sup>(١)</sup>.

أدرك ذلك رسول الله ﷺ، فوقف على الخندق، وبعدهما جال يبصره فى الأفق، التفت إلى أصحابه وقال: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» وقد أثبتت الأيام صدق قوله، وصحة استنتاجاته، فقد كانت غزوة الخندق آخر عمل هجومي تقوم به قريش. كانت خسائر المسلمين فى المعركة ستة شهداء، وخسائر المشركين أربعة نفر. ونزل فيها آيات كثيرة.

#### تحليل المعركة:

نتيجة المعركة فشل تام لقريش، بقيادة أبى سفيان وحلفائها ونصر للمسلمين بقيادة الرسول القائد العظيم. ويمكن اختصار أهم أسباب فشل المشركين بما يلى: عدم وحدة القيادة، واختلاف أهداف المهاجمين. فقد كانت قريش تهدف إلى القضاء على الدين الإسلامى، وغطفان تأمل بنهب المدينة وفرض إتاوة على أهلها، يفسر ذلك موافقتهم على الانسحاب من المعركة مقابل ثلث ثمار المدينة، الأمر الذى رفضه الأنصار كما مر معنا. ويهود بنى قريظة ترددوا كثيرا حتى وافقوا على مخطط أبناء دينهم من يهود الذين أجلوا عن المدينة إلى خيبر. وقد امتاروا بالتردد وعدم الثقة بحلفائهم من أول الحصار حتى آخره، وكانوا يأملون أن يقضى الأحزاب من قريش وغطفان على المسلمين دون أية تضحيات فعلية منهم فى المعركة. اختيار المسلمين موقفاً دفاعياً فى داخل المدينة، بالإضافة إلى موقع المدينة الحصين طبيعياً من ثلاثة اتجاهات، ناهيك عن استكمال ذلك الموقع الحصين بالخندق الذى كان له دوران مهمان: الأول: حقق مفاجأة للمهاجمين قلب خططهم رأساً على عقب. الثانى: حرم المهاجمين من خوض معركة غير متكافئة كانوا يحلمون بالنصر فيها لتفوقهم الهائل فى العدد والعدة. طريقة الدفاع «المرنة» التى اعتمدها الرسول ﷺ، فقد كانت قواته جاهزة باستمرار للتحرك باتجاه أية ثغرة وسدها بسرعة. كما ان انتظام الدوريات والمراقبة المستمرة والشاملة حرم المشركين من انتهاز أية فرصة<sup>(٢)</sup>. تظهر لنا الأسباب التى قلبت التحالف القرشي الضخم إلى هزيمة

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٦٩.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٨٥.

غير متوقعة والعوامل التي أدت إلى سير الجماعة الإسلامية إلى النصر، لقد كان التحالف القرشي يضم حوالي عشرة آلاف مقاتل في حين أن رسول الله محمد ﷺ لم يستطع تجميع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل وكان نسبة القتلى إلى نسبة عدد الجيوش ٦ من المسلمين مقابل ٣ من القرشيين لوجدنا أن العنصر الأساسي في هذه المعركة لم يكن القتال بل الاستراتيجية الحربية لكل من الطرفين والعمل الدبلوماسي. ويكاد الإجماع يتعقد على أن استراتيجية رسول الله محمد ﷺ في هذه المعركة كانت متفوقة على استراتيجية خصومه<sup>(١)</sup>.

- ثبات المسلمين، واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم، ظهر ذلك بجلاء عندما رفض سادة الأوس والخزرج دفع إتاوة من ثمار المدينة لزعماء غطفان، مما جعل أولئك الزعماء يدركون خطورة المعركة التي تنتظرهم فيما لو حصلت، وبما حملهم ذلك على تقويم جديد لمواقفهم. سوء اختيار زمان المعركة من قبل المشركين، فقد كان الشتاء قاسياً، وهم لم يعتادوا البرد الشديد، ولم يتمكنوا من تأمين الإمدادات لقواتهم الكبيرة. وكان مقامهم في العراء تحت الخيام يحرمهم الدفء الذي تؤمنه الأبنية، وكثيراً ما اقتلعت الرياح خيامهم وأطفأت نيرانهم حتى ضجوا بموقفهم عندما طال الحصار دون نتيجة. وكان قرار الانسحاب في لحظة من تلك اللحظات القاسية التي اشتدت فيها الرياح، والأعاصير حتى ظنوا الموت آتيتهم من غير حرب. الحرب النفسية المدمرة التي قادها ابن مسعود بحنكة عالية تعجز عنها أرقى أجهزة المخابرات المعاصرة، فقد استطاع وحده أن يفرق صفوف الأحزاب ويزعزع الثقة في نفوسهم مما جعلهم يحجمون عن الدخول في المعركة وحسم الحصار بالمواجهة وكان من نتائج هذه المعركة أن كشفت أهمية تحصين الجبهة الداخلية، وضرورة التنبه للمجموعات المعادية، التي يخرسها الخوف في أثناء السلم، وتحركها الأحقاد عند أول فرصة سانحة لتكون عوناً للأعداء على الخلفاء، لذلك نجد الرسول ﷺ عمد إلى تطهير المدينة من بنى قريظة عقب فك الحصار مباشرة وقبل إلقاء السلاح<sup>(٢)</sup>.

فشل أعداء الإسلام القرشيون ولم ينجحوا في تحقيق أهدافهم حيث كان عليهم أن يعتمدوا على فرسانهم إذا أرادوا تحقيق أي كسب ولكن الفرسان المسلمين كانوا لهم بالمرصاد وفوتوا عليهم جميع فرص التفوق، إضافة إلى وحدة صف المسلمين وانضباطهم وراء قائدهم رسول الله محمد ﷺ كان له أثر كبير في سير المعركة ونتائجها سيما وأن خصومهم كانوا على عكس ذلك مما سهل مهمة الدبلوماسية الرسلامية التي ارتكزت على هذه الناحية واعتمدت عليها في تفريق كلمة قريش وشتت شملهم، وبدا واضحاً أن جهود قريش في القضاء على رسول الله محمد ﷺ عن طريق العمل

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٩٦.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٨٦.

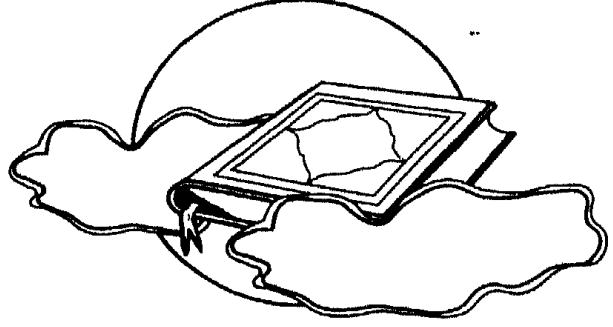
العسكري لن يكتب لها النجاح ولا سيما وأنها وضعت في هذه المعركة كل ثقلها العسكري وحشدت لها أقصى ما تستطيع حشده من القوة البشرية ولم تعد مشكلة قريش الآن القضاء على رسول الله محمد ﷺ والدعوة الإسلامية بل غدت مشكلتها الحفاظ على وجودها هي هذا الوجود الذي أصبح تحت رحمة المسلمين ولم يكن يحتاج لوقت طويل<sup>(١)</sup>.

---

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٤٩٦.



الفصل  
السابع



من هدنة الحديبية  
إلى فتح مكة



هدنة الحديبية: عاد رسول الله ﷺ بجيشه الظافر من غزوة الأحزاب إلى المدينة ضحى . وتنفس المسلمون الصعداء، فقد زال كابوس رهيب عن صدورهم، وكسبوا معركة البقاء بعدما كان وجودهم مهدداً بالزوال . ولكن، قبل الاسترخاء، وبعد استراحة لم تتجاوز الساعات، أذن مؤذن رسول الله ﷺ بعيد الظهر قائلاً: «لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة». لقد قرر الرسول تنظيف قاعدته من الأعداء والمنافقين والجواسيس، بعدما كشفوا أقتعتهم عن وجوه الغدر والخيانة، فسلم رأيه إلى الإمام علي كرم الله وجهه وقدمه، وسار بالمسلمين وهم ثلاثة آلاف . معهم ست وثلاثون فرساً . فحاصر حصون بني قريظة خمساً وعشرين ليلة . وكان معهم فى تلك الحصون «حبي بن أخطب»، دخل حصونهم وحوصر معهم وفاء منه للوعد الذى قطعه لزعيمهم «كعب بن أسد» عندما فاضه على الخيانة، وأقنعه بنقض عهده مع رسول الله ﷺ . ولم يجد اليهود بعدما ضيق عليهم الخناق وشدد الحصار، سوى النزول على حكم رسول الله، الذى فوض حليفهم قبل الإسلام، «سعد بن معاذ» بالحكم فى أمرهم . وكان حكمه حلاً جذرياً، نطق به بعدما أخذ العهد على الجميع بقبول حكمه، لقد حكم بقتل الرجال، وقسم الأموال، وسبى الذراري والنساء، وبذلك انتهى وجود يهود فى المدينة إلى الأبد<sup>(١)</sup> .

وكأنى بالرسول فى المدينة بعد هذه المرحلة الشاقة . يطرق مفكراً، يستعيد فى ذاكرته قسوة قريش عليه وعلى أصحابه، ويستعرض ما لاقاه من أذى هو وأصحابه، ويدرك أن قريشاً لن يقر لها قرار ما لم تقض عليه وعلى دينه، ثم ينتقل بتفكيره إلى الأعراب الذين وصفهم القرآن بأنهم أشد كفراً ونفاقاً، وقد أظهروا أنهم على استعداد دائم لمساعدة أعدائه والانقضاض على قاعدته . والقائد الحكيم لا ينتظر أعداءه حتى يطرقوا بابه، ولا يفسح لهم فى المجال حتى يتوحدوا ضده . ولهذا قرر الرسول الكريم ﷺ القيام بعدة حملات «إجهاضية وتاديبية» تهدف إلى معاقبة كل من أساء إلى الرسول ودعوته كيلا يقدم على الإساءة مرة أخرى، كما تهدف إلى إنذار كل من يفكر بالإساءة، ليعلم مسبقاً أن اعتدائه لن يمر بدون عقاب كما تهدف أيضاً إلى إثبات وجوده، قوة فاعلة على صعيد الجزيرة العربية كلها، وتقوية مركزه العسكرى والمالى . ولتحقيق تلك الأهداف أرسل السرايا وقاد الغزوات المبينة فيما يلى<sup>(٢)</sup>:

١ - سرية عبدالله بن عتيك إلى «أبى رافع سلام بن أبى الحقيق النضرى» بخيبر وكان هدفها قتل أبى رافع لأنه جيش غطفان ضد الرسول، ودفع الأموال لتعبئة الجيوش وتسييرها لمحاربة المسلمين . ٢ - سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء، وهم بنو قرظ وقريش من بنى كلاب، بهدف

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٨٩ .

(٢) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٩٠ .

إثبات الوجود، وبث الرعب فى قلوب الأعراب. ٣ - غزوة بنى لحيان بناحية «عسفان» انتقاماً لعاصم بن ثابت وإخوانه الذين قتلهم بنو لحيان. ٤ - غزوة ذى قرد تأديباً لعينة بن حصن الذى أغار على نوق لرسول الله وسلبها وقتل ابن أبى ذر الغفارى. ٥ - سرية عكاشة بن محصن الأسدى بهدف إثبات الوجود والحصول على غنائم، لتقوية جيش المسلمين. ٦ - سرية محمد بن مسلمة إلى بنى ثعلبة بذى القصة، بهدف الاستطلاع، وجلب المعلومات. ٧ - سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى «ذى القصة»، فى عملية «إجهاضية» قبل أن يغيروا على مسرح (أنعام) المدينة، بعدما علم بنيتهم تلك. ٨ - سرية زيد بن حارثة إلى بنى مسلم ب «الجموم»، بقصد إثبات الوجود وجلب الغنائم. ٩ - سرية زيد بن حارثة إلى «العيص» بقصد الاستيلاء على غير لقريش، إضراراً بقريش، وتقوية للمسلمين. ١٠ - سرية زيد بن حارثة إلى بنى ثعلبة من الطرف بقصد إثبات الوجود وجلب الغنائم. ١١ - سرية زيد بن حارثة إلى «حسم»، انتقاماً لاعتداء قبائل تلك المنطقة على رسول الله إلى قيصر الروم. ١٢ - سرية زيد بن حارثة إلى «وادي القوى». ١٣ - سرية عبدالرحمن بن عوف إلى «دومة الجندل». ١٤ - سرية الإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى بنى سعد بن بكر «بفدك». ١٥ - سرية عبدالله بن رواحة إلى «أسير بن رزام» اليهودى بخيبر. ١٦ - سرية كرز بن جابر الفهرى إلى «العريين». ١٧ - سرية «عمرو بن أمية الضمرى» و«سلمة بن أسلم» إلى أبى سفيان بمكة. وسببها أن أبى سفيان حاول اغتيال الرسول فى المدينة بوساطة عميل أرسله من مكة، وقد اكتشف أمره فأرسل الرسول عمرو بن أمية وسلمة ليغتالا أبى سفيان جزاء نكالا على فعلته.

أثبتت معركة الأحزاب أن الإسلام مؤيد بروح إلهية. فقد بذلت قريش قصارى جهدها للقضاء على الدين الجديد فى معركتين متواليتين، بدر وأحد، ولكنها لم توفق إلى أكثر من انزال بعض الأذى به. وفاضلت القبائل البدوية المختلفة أيضاً، كل بمفردها، لزعزعة قدمى الإسلام الراسختين، ولكنها عجزت عن ذلك. وسعى المنافقون واليهود إلى نسف الإسلام من داخل، ولكن عبثاً. وأخيراً، قامت قريش، وقبائل البدو، والمنافقون، واليهود - يعنى الأعداء الخارجيين والأعداء الداخليين معاً - بمحاولة مشتركة للإطاحة بالإسلام، ولكن النتيجة كانت هى هى، لم تتغير ولم تتبدل. وكان هذا هو النضال الأخير. ومنذ ذلك الحين لم يجد العدو فى نفسه الجرأة على مهاجمة المدينة. إن هذه حقائق تاريخية، يسلم بصحتها الصديق والعدو على حد سواء، ومع ذلك يرفع بعض القوم عقائرهم قائلين أن الإسلام مدين بانتشاره للسيف، ولكن الوقائع والأرقام، كما دونت فى وضوح التاريخ، تشير إلى عكس ذلك تماماً. فالحقيقة هى أن الإسلام انتشر، لا بالسيف، ولكن برغم السيف. إن أيما دين لم يتكشف قط عن مثل هذه البسالة. لقد سلت السيوف على الإسلام من كل حذب وصوب، ولكنها بدلا من أن تهلكه ساعدت، إذا جار التعبير، على نشره<sup>(١)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٧٩.



لقد شنت على المدينة ثلاث حملات متعاقبة، ابتغاء إبادة الإسلام، وكل منها أعنف من سابقتها وأقوى. ولكن ما كانت النتيجة؟ هل أوهنت قوة الإسلام بأية حال؟ على العكس، فنحن نلاحظ في كل مرة تزايداً في عدد المسلمين المعابن للقتال. ففي معركة بدر كان الجيش الإسلامي مؤلفاً من ثلاثمائة رجل ليس غير، على حين ارتفع عدده بعد عام واحد، في معركة أحد، إلى سبعمائة، وأخيراً ارتفع ذلك العدد، في معركة الأحزاب، فبلغ نحواً من ألفين. وهكذا نشهد نمواً في قوة الإسلام يتناسب واستفحال الهجوم عليه. يعنى أن ازدهار الإسلام كان يتعاضد كلما قويت المحاولة الرامية إلى سحقه، وأن قدمه كانت تزداد رسوخاً كلما تنافس أعداؤه في السعى إلى كيبته، ويوماً بعد يوم اشتد ساعد الإسلام. لقد عجزت أيما عاصفة عن استتصاله، وعجزت أيما سموم عن تصويحه. كانت يد الله تعمل على دعمه<sup>(١)</sup>.

اطمأن رسول الله محمد ﷺ إلى قوته العسكرية وتفوقه على أعدائه وأن الاستراتيجية السياسية والعسكرية الجديدة التي وضعها الرسول ﷺ بعد غزوة الخندق انقلبت من مرحلة الدفاع إلى مرحلة التحدي ولم يعد في استراتيجية الرسول الدفاع عن الإسلام وعاصمته الجديدة بل أصبح يفكر في مهاجمة قريش في عقر دارها استعداداً منه للإطاحة بها وتصفية جميع مظاهر سيادتها، وقد واكب موقف التحدي هذا سياسة جديدة اتبعها رسول الله محمد ﷺ وهي إخضاع القبائل النازلة على الطريق بين الحجاز والشام وجعله تحت السيطرة الإسلامية بغية السيطرة الاقتصادية ومنع تجارة قريش وبالتالي خنقها اقتصادياً قبل السيطرة العسكرية ثم سياسياً<sup>(٢)</sup>.

بعدما وطد الرسول سلطته في المدينة، وفيما حولها، تطلع إلى الجنوب، إلى مكة، قبله العرب، فوجد أنه غير قادر على فتحها، وقريش فيها ما زالت قوية تحوكم المؤامرات، وتترصد به وبدعوته الدوائر. ونظر إلى الشمال، فإذا يهود ما زالوا في خيبر يحاولون تقوية حلفهم مع قريش وتشكيل «كماشة» تحيط بالمدينة من الشمال والجنوب. وكى يستطيع التقدم بدعوته لا بد من كسر هذه الكماشة، وتحديد أحد الطرفين لمتابعة انطلاقه في دعوته. هذه المرة قرر القيام بعمل سياسي، فاستنفر أصحابه إلى العمرة، واستنفر معهم أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام وكان قد انقضى على معركة الأحزاب نحو من عام عندما رأى الرسول نفسه، في ما يرى النائم، يؤدي فريضة الحج، مع أصحابه، في الكعبة. لقد خيل للمسلمين أن قريشاً، وقبائل البدو التي بذلت أقصى جهدها لمقاومة الإسلام، قد أكبرت فيه قوته الفطرية. وظنوا كذلك أن القوم قد أعجبوا بصدق الإسلام، ومن أجل هذا لن يتعرضوا للمسلمين وهم يؤديون فريضة الحج. وفوق ذلك، فقد كان حج البيت حقاً لم ينكر قط حتى على ألد الخصام. ومن هنا لم يكن ثمة أيما

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٨٠ .

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٤٩٩ .

سبب يدعو القرشيين إلى اعتراض سبيل المسلمين. وهكذا خرج الرسول في السنة السادسة للهجرة، على رأس ألف وأربعمائة من صحابته، يريد الحج إلى مكة، وقد حظر على أصحابه، حذراً أن يسىء القرشيون فهم دوافعه، أن يحملوا سلاحاً. وكان خليقاً بهذا أن يطمئن شكوك القرشيين ويؤكد لهم نيات المسلمين السلمية. كانت السيوف المغمدة هي كل ما أجاز للمسلمين حمله. وكان السيف. في تلك الأيام، شيئاً عادياً يحمل على نحو موصول، مهما يكن الأمن مخيماً على الربوع. وساق المسلمون معهم الهدى سبعين بدنة، جرياً على مألوف عاداتهم، وانطلقوا كلهم - وعدتهم كما ذكرنا ألف وأربعمائة - نحو مكة<sup>(١)</sup>. حتى إذا أسوا على مقربة دانية من مكة ألفوا قريشاً على استعداد لأن تصدهم عنها بقوة السلاح.

وحمل بديل بن ورقاء، زعيم خزاعة - ولم يكن مسلماً ولكنه كان يستشعر للإسلام مودة - هذا النبا إلى الرسول، فكلفه أن ينقل إلى قريش ليعلمها أن المسلمين أقبلوا ليؤدوا فريضة الحج لا ليقاتلوا. واقترح الرسول أيضاً على قريش عقد صلح بينه وبينها إلى أجل بعينه. ومن ثم توقف المسلمون في الحديبية، على مسيرة يوم من مكة. نستنتج من كلام الرسول ما يلي: إنه لا يهدف إلى قتال قريش في هذه المرحلة، وإن مجيئه إلى مكة لهدف تعبدى. رغبته في تحييد قريش، وإخراجها من حلبة الصراع ولو مؤقتاً. تصميمه على المضي في دعوته مهما غلت التضحيات. حمل بديل الرسالة إلى قريش ونزعت العناصر الأكثر تعقلاً وخبرة إلى قبول ما عرضه الرسول من الصلح. فقد كانت لديهم أسباب وجسيمة تدعوهم إلى الاعتقاد بأنهم عاجزون عن إنزال أيما أذى بالإسلام. كانوا قد بذلوا قصارى جهدهم غير مرة، ففى تلك السبيل، ولكن على غير طائل. وإلى هذا، فلإن عقد الصلح خليق به أن يمكنهم من استئناف التجارة مع الشام، تلك التجارة التى عطلت بسبب الحرب مع المسلمين المسيطرين على طريقها. وهكذا أوفد القريشيون عروة ابن مسعود الثقفى سفيراً يفاوض المسلمين فى شروط الصلح. وخلال المناقشة قال عروة أن من الخير للرسول أن لا يطمئن إلى أصحابه اطمئناً كثيراً، لأنهم سوف ينصرفون عنه فى سهولة ويسر إذا ما ألم به خطب. فثارت ثائرة أبى بكر لدن سماعه هذا الكلام. وصاح به منكرأ أن ينصرف الناس عن رسول الله وعامله فى شىء من القسوة. واتفق أن أذن لصلاة العصر وعروة هناك ما يزال. حتى إذا قام الرسول يتوضأ شاهد عروة أصحاب الرسول يتدرون وضوءه فلا يدعون نقطة من الماء الذى توضع به تسقط على الأرض، إلى هذا المدى قادهم حبههم لشخص الرسول. والواقع أن هذا المشهد ترك فى نفس عروة أثراً عميقاً. صحيح أن المفاوضات أخفقت آخر الأمر، ولكن عروة حمل إلى قريش انطباعه عن الاحترام العظيم الذى يكنه الصحابة للرسول<sup>(٢)</sup>.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٨١.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٨٢.

لقد قال لهم: «يامعشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه. لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشىء أبدًا، فروا رأيكم. وبعث الرسول إلى قريش بموفد آخر، ولكنهم أساءوا معاملته، وعقروا جملة. ليس هذا فحسب، بل لقد خرجت سرية قرشية مسلحة ابتغاء أخذ المسلمين على حين غرة، ولكن المسلمين أسروهم. وأيا ما كان فسرعان ما خلى الرسول سبيلهم جميعًا لأنه لم يأت ابتغاء القتال.

بقي رسول الله محمد ﷺ مصرًا على هدفه عندما وصل الحديبية، ففسح المجال لمفاوضي قريش بالقدوم إلى معسكر المسلمين فى كل وقت، وأرسل مفاوضين من المسلمين إلى معسكر قريش وكانت نظرتهم إلى المستقبل تعنى الاعتراف بالدولة الإسلامية كطرف مُسَارٍ لقريش، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام رسول الله محمد ﷺ لمحالفة القبائل التى لم تكن تطمئن إلى محالفتهم، إضافة إلى الفرصة المواتية لمكاتبة الملوك وانتشار الإسلام، واكتسب المسلمون عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها، والتمهيد لفتح مكة فيما بعد، وإن الأهداف البعيدة كانت لنشر الإسلام ويعم سائر أنحاء الجزيرة العربية وأخارجها<sup>(١)</sup>.

عهد إلى عثمان بن عفان فى مفاوضة قريش، فاحتجزته قريش لديها. وسرت شائعة تقول إن عثمان قتل. وشرع المسلمون يعتقدون أن قريشًا مصممة على القتال. لقد كان الموقف موقفًا حرجًا. فالمسلمون عزل من السلاح تقريبًا، وعددهم أقل من عدد القرشيين بكثير. كانت قريش تتمتع دونهم بكل مظهر من مظاهر التفوق والامتياز. ولكن يا للإيمان الراسخ بالرعاية الالهية! فحين أخفقت المفاوضات كلها، وبدا تصميم العدو على سفك الدم، لم يكن لمسلم أن ينقلب على عقبه. ودعا الرسول أصحابه إليه ليبيعوه من جديد، بالنظر إلى حرج الموقف إلى حد بعيد، على القتال حتى آخر رجل فيهم، دفاعًا عن الدين. فباعوه تحت شجرة ماء، مجاورة، وملئ نفوسهم بالبشر والابتهاج. وإنما تعرف هذه البيعة، فى التاريخ، بـ «بيعة الرضوان». ولقد كانت عملاً باسلاً من أعمال التضحية بالذات فى سبيل الحق، يعز نظيره، كما كانت حدثًا بارزًا فى تاريخ الإسلام. وكان فى عزم المسلمين على إراقة آخر نقطة من دمهم دفاعًا عن دينهم ما رد قريشًا إلى صوابها. والحق أن تجربتها الماضية نفعتها فى هذا المجال. فقد أمسى فى ميسورها الآن أن تدرك ما يعنيه مثل هذا القرار الذى يتخذه المسلمون. وكان فى إمكانها أن تستشف الكارثة العظمى المدخرة لها إذا ما جد الجدد، برغم أن المسلمين كانوا عزلاً من السلاح، وكانوا دون عدوهم عددًا. وحملها ضعف معنوياتها هذا على إيفاد رجل منها، سهيل بن عمرو، إلى الرسول لاستئناف المفاوضات، وقالت له: إئت محمدًا فصالحه، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامة هذا. فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا

(١) محمد محمد البيلى بونس - المرجع السابق ص ١٣٨.

وتوصل الفريقان بعد مفاوضات طويلة إلى الهدنة، لغة، كما جاء في لسان العرب: السكون بعد الهيج<sup>(١)</sup>.

ويقال للصلح بعد القتال هدنة، وربما جعلت للهدنة مدة معلومة. وهي تعنى فى المصطلح الحديث: وقف الحرب إلى حين. وغالبًا ما تكون بانتظار التوصل إلى تسوية محددة بين الطرفين المتنازعين وتوقيع معاهدة الصلح. بينما الصلح هو إنهاء لحالة الحرب بشكل كامل، بحيث يحل السلام مكان القتال والعداء. ولذلك فإن «صلح الحديبية» هو فى واقع الهدنة، بالمفهوم الحديث للهدنة، لأنه كان ينص على إيقاف القتال والأعمال العدائية بين الطرفين مدة محددة. وقد درجت كتب السيرة على تسميته صلحًا أخذة بالمعنى اللغوى الواحد للكلمة. وقد كان عمر رضى الله عنه أكثر دقة فى تسميته ذلك الصلح هدنة حين قال: «فلما وقعت القضية أسلم فى الهدنة أكثر من كان أسلم يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية» وقد فضلنا تسميته هدنة كيلا تكون التسمية ذريعة لدعاة الصلح مع العدو الصهيونى [إسرائيل] مستندين على سابقة «صلح الحديبية» الذى كان فى اللفظ صلحًا وفى المضمون هدنة على شروط يقر السلام بينهما عشر سنوات. وإليك أهم مواد تلك الهدنة<sup>(٢)</sup>:

- ١ - يرجع الرسول عامه ذاك فلا يؤدى فريضة الحج، فإذا كان العام القادم دخلوا مكة بعد أن تخرج قريش وليس معهم إلا سلاح المسافر.
  - ٢ - يجوز للمسلمين أن يفدوا فى العام القادم على مكة، ولكن لايجوز لهم أن يلبثوا فى مكة أكثر من أيام ثلاثة.
  - ٣ - لا يحق للمسلمين أن يضطربوا أيًا من المسلمين المقيمين فى مكة، ولا أن يعترضوا سبيل أيما امرئ منهم قد يرغب فى التخلف فى مكة.
  - ٤ - من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.
  - ٥ - من أحب من العرب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه.
- حتى إذا شرعوا فى تدوين نصوص الاتفاق استهل على العهد، وكان الإمام علي كرم الله وجهه المكلف بالكتابة، بهذه الكلمات: «بسم الله الرحمن الرحيم». فاعترض سهيل على افتتاح الوثيقة بهذا الاستهلال الإسلامى، مصرًا على اصطناع الصيغة التقليدية الشائعة منذ عهد بعيد فى بلاد

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٨٣.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٨٤.

العرب، أعنى «باسمك اللهم» فقال رسول الله لعلي: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فاعترض سهيل على ذلك قائلاً: «أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك» ولكن علياً قال انه لن يشطب كلمتي «رسول الله» بيده هو. أما الرسول فلم يعلق أية أهمية على مثل هذا التفصيل التافه، فسأل علياً أن يدلّه على موضع الكلمتين المختلف عليهما. حتى إذا دلّه على عليهما محاهما بيده هو وأملى بدلا منهما: «محمد بن عبدالله».

قال البراء بن عازب رضي الله عنه<sup>(١)</sup>: لما صالح رسول الله محمد ﷺ أهل الحديبية كتب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه بينهم» وقد بين ابن حجر في قوله باب الصلح مع المشركين<sup>(٢)</sup> وبين أن المراد حكمه وكيفيته أو جوازه وإن شرحه وبيانه ورد في «كتاب الجزية»<sup>(٣)</sup>.

أثارت شروط الصلح اشمزاز المسلمين إثارة بالغة، ولكنهم لزموا الهدوء احتراماً منهم لموقف الرسول. وفي غضون ذلك أقبل على المسلمين أبو جندل بن سهيل بن عمرو. كان قد اعتنق الاسلام في مكة، وكانت قرپش قد عذبتة بسبب من ذلك وأخيراً وفق إلى القرار من أيدي مضطهديه، وكان قد أقبل الآن إلى معسكر المسلمين متوقعاً، طبعاً، أن يلقي ثمة ترحيباً حاراً. لقد أظهر المسلمين على آثار التعذيب في جسده، فتأثر الرسول لمشهدهما، وحاول أن يدخل على المادة الرابعة من الاتفاقية تعديلاً يكون في مصلحة أبي جندل، ولكن سهيلاً أبى في عناد، وهكذا تعين على الرسول أن يذعن. وحركت محنة أبي جندل مشاعر المسلمين تحريكاً بالغاً. إنهم لم يطيقوا أن يروا إليه يعاد إلى أشدق الاضطهاد. وبلغ التأثير بعمر ابن الخطاب حداً جعله أعجز من أن يضبط نفسه. فراح يجادل الرسول، ناطقاً بلسان جمهرة المسلمين جميعاً. لقد سأله: «أست برسول الله؟» قال: «بلى». قال: «أولسنا بالمسلمين؟» قال: «بلى». قال: «أو ليسوا بالمشركين؟» قال: «بلى». قال: «فعلام نعطي الدنية في ديننا؟» قال: «أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني» فسأله عمر: «ألم تقل لنا إننا سوف نؤدى فريضة الحج؟» فأجابه الرسول: «أنا لم أقل لكم أننا سوف نؤدى فريضة الحج هذا العام» وعلى النحو نفسه جادل عمر أبا بكر في الموضوع نفسه، فكان جواب أبي بكر أن الرسول لا يخالف أمر الله في كل ما يفعله<sup>(٤)</sup>.

وبكلمة موجزة، استشعر المسلمون قلقاً عظيماً من جراء أبي جندل ولكنهم لم يعيروا من الأمر شيئاً. ولاحظ الرسول أن هذه المحنة تنطوي على امتحان حاسم لعهد المسلمين ووعدهم، وأن

(١) الحديث أخرجه البخاري في باب كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه. كتاب الصلح -

صحيح البخاري مع فتح الباري: ٥ / ٣٠٣ - ٣٠٤ الحديث رقم ٢٦٩٨.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٥ / ٣٠٤.

(٣) باب المودعة والمصالحة مع المشركين - فتح الباري: ٦ / ٢٧٥ - ٢٧٦ و ٢٨١.

(٤) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠٣.

عليهم أن يحترموا كلمة الشرف التي أعطوها، مهما كلفهم ذلك. ثم إنه واسى أبا جندل أيضاً قائلاً له: «اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين مخرجاً» حتى إذا انقلب الرسول إلى المدينة نزل الوحي على الرسول بسورة الفتح، فتلا على أصحابه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح]، إن ما اعتبره المسلمون صلحاً شائئاً كان في عيني الله نصراً حقيقياً وعلى التو دعا الرسول عمر بن الخطاب ليزف إليه النبأ السعيد. وأوجس عمر في نفسه خيفة، ذلك بأنه كان قد انفعّل أكثر مما ينبغي في نقاشه مع الرسول حول شروط الهدنة، فحسب أنه إنما دعى لكى يلام على ما بدر منه ويؤنب. ولكنه لم يكذب يدخل على الرسول ويسمع الوحي الإلهي حتى تبدل خوفه بهجة. وسأل عمر الرسول: «هل نزلت هذه الآيات في صلح الحديبية؟» حتى إذا أجابته الرسول نعم آمن مع غيره من المسلمين بأن ذلك الصلح كان في الحقيقة نصراً لهم. كان كل امرئ، حتى ذلك الحين، ناقماً على شروط الهدنة المخزية؛ أما الآن فقد أمست سورة الفتح على كل شفة ولسان. والواقع أن تجاربهم في الماضي أقنعتهم بصدق الوحي. كان تاريخ الإسلام مفعماً، حتى تلك الفترة، بأحداث مماثلة<sup>(١)</sup>.

#### نتائج هدنة الحديبية:

يبدو من النظرة السطحية لهدنة الحديبية أن الرسول ﷺ قدم تنازلات كبيرة لقريش، ولكن دراسة عميقة لوضع المسلمين قبل الهدنة وبعده وما نشأ عنه تظهر أن الهدنة كان فتحاً كبيراً ونصراً عظيماً، لم يدرك أهمية معظم المسلمين وقت إبرامه، لأن خيبة أملهم كانت شديدة من عودتهم دون حج، ولما رأوه من عدم مساواة في رد من جاءهم مسلحاً من قريش وعدم الزام قريش برد من جاءها مرتداً من المسلمين. لقد كان المسلمون منذ مدة بسيطة عرضة للمجابهة والمحاصرة في مدينتهم، وهم اليوم يتوجهون إلى مكة دون خوف أو وجل. صحيح أنهم لم يتوجهوا إلى مكة لفتحها، ولكنهم مع ذلك يحطمون كبرياء قريش في عملهم هذا. فإن هي منعتهم من دخول مكة في ذلك العام فلا ضير في ذلك، وبخاصة أن الهدنة يضمن لهم تنفيذ ذلك في العام التالي. إن البند الأول في الهدنة والذي يتضمن إيقاف الحرب لمدة عشر سنين هو مكسب كبير للمسلمين، وقد أثبتت الأيام ذلك فقد أعطى المسلمين فرصة العمل على جبهات أخرى، بعدما جمد الاتفاق أقوى الأعداء وأشرسهم «قريش». والرسول يحمل عقيدة جديدة ينشرها بين الناس، ويناقش بها الملأ، فهو يدعو إلى وحدانية الله، وتوحيد العرب تحت راية الإسلام. ودينه الجديد كله فضائل ومكارم أخلاق، وثورة على واقع اليم، ودعوة إلى التحرير من الظلم وعبادة البشر والحجر، وهو يعد أتباعه لسيادة العالم. هذه الدعوة لا

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٠٣.

تستطيع أن تقف أمامها في السلم دعوة قريش، هذا إن كان لها دعوة، فإلى أى شيء تدعو قريش الناس؟ إلى عبادة الأحجار وأكل الربا، وممارسة الفجور<sup>(١)</sup>.

لهذا ما أن أمن المسلمون جبهة قريش حتى وجهوا جهودهم إلى قبائل العرب الأخرى فحققوا من النتائج في سنة واحدة ما عجزوا عن تحقيقه في سنوات. كذلك فإن مجرد قبول قريش بمفاوضة الرسول جعل المسلمين في نظر عرب الجزيرة كلهم في مستوى قريش، وهى التى لم تكن لتعترف بهم سابقًا، وتمدهم جماعة خارجة عن قانونها، صابئة عن معتقدات الآباء والأجداد. ولم تكتف الهدنة بذلك بل أعطى للرسول حقًا فى مخالفة من يشاء من قبائل العرب، وسمح لتلك القبائل بالدخول فى حلف رسول الله محمد ﷺ إن شاءت أو فى حلف قريش. وهذا البند جعل القبائل الخائفة من قريش والراغبة فى حلف الرسول تسرع إلى إعلان محالفتها للرسول، وشجع القبائل المترددة على حزم أمرها والانضمام إلى المسلمين. أما البند الذى ينص على إعادة من جاء الرسول من قريش مسلمًا من غير إذن وليه دون التزام قريش بالمقابل بذلك، فيبدو أن الرسول عندما وافق عليه كان فى ذهنه أن المسلم إن كتم إسلامه بين المشركين كان عينًا للمسلمين فى وسط المشركين، وإن انكشف أمره يكون عبثًا عليهم، لأنه صاحب عقيدة راسخة فلا تهزه الرياح، ولا تقف فى طريقه الصعاب، بينما المسلم إن ارتد عن دينه فلا خير فيه، وليرجع إلى عشيرته بدلاً أن يكون منافقًا فى صفوف المسلمين أو جاسوسًا عليهم<sup>(٢)</sup>.

تحلى الضبط فى موقف رسول الله محمد ﷺ أثناء المفاوضات وبعدها على الرغم من تدمير بعض المسلمين وضبط الرسول ﷺ أعصابه فى مثل هذا الموقف الحرج والعصيب وضبط المسلمين أعصابهم أيضًا مما يدل على تحلى المسلمين حينذاك بالصبر والانضباط الذى يدعو إلى الإعجاب الشديد<sup>(٣)</sup>. ففي عهد الحديدية تحلى تدير رسول الله محمد ﷺ فى سياسة خصومه وسياسة أتباعه وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسان ويصلحان والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسألة ولا تصلح العهود<sup>(٤)</sup>.

أثبتت الأيام سريعًا حكمة الرسول فى قبول هذا الشرط وبعد نظره، فقد تجمع المسلمون الذين ينطبق عليهم هذا الشرط فى مكان على طريق قوافل قريش إلى بلاد الشام وأخذوا يغيرون على تلك القوافل، وقطعوا طريق تجارتها مع دمشق، ولما ضاقت قريش ذرعًا بتصرفاتهم، راجعت قريش الرسول بأمرهم، فأجابهم أنه لاسلطان له عليهم، وهو لم يقبلهم فى صفوفه تنفيذًا لهدنة الحديدية، مما اضطر قريش إلى طلب إلغاء ذلك البند من الاتفاق، بل وتوسلت إليه أن يكف عنها أذى أولئك

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٠٣.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٠٤.

(٣) محمد محمد البيلى بونس - المرجع السابق ص ١٣٨.

(٤) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٥٩.

المسلمين المؤمنين ويؤويهم. وهكذا ألغت قريش نفسها البند الذي اعتبره المسلمون مجحفاً بحقهم، وخالياً من المعاملة بالمثل. وكانت تظاهرة الرسول وخروجه إلى العمرة من أكثر الأمور دعاية للدين الجديدة في صفوف العرب الذين كانوا يعظمون مكة ويقدمونها. فظهر جلياً لهم أن الرسول يجلب كعبتهم ويحترمها. وأظهرت تلك التظاهرة قريشاً متمتعة مستكبرة تمنع الناس من القيام بواجباتهم الدينية بدون مسوغ. كما حققت هدنة الحديبية أحد أهم أهداف الرسول من خروجه معتمراً، وهو كسر أحد فكي الكماشة التي كانت تطبق على المدينة من الشمال والجنوب. فقد أتاح له الاتفاق تحييد قريش في نزاعه مع يهود الذين كانوا يتجمعون في خيبر بانتظار الفرصة المناسبة للانقضاض عليه. وأصبح باستطاعته القضاء على يهود الشمال دون خوف من دعم قريش لهم. وهذا ما فعله في أول فرصة سانحة. وكان لقيام الرسول بالعمرة في العام التالي أطيب الأثر في نفوس المسلمين، ونفوس العرب أجمعين وشعرت قريش بالمهانة وبأن العد العكسي لسلطانها قد بدأ فعلاً. لهذه الأسباب مجتمعة، عد هدنة الحديبية فتحاً مبيئاً. ولم يطل الأمر بقريش، فأخطأت في تقديراتها، وأساءت بتصرفاتها، فنقضت عهدها، فاغتنم الرسول الفرصة، وأتى في هذه المرة فاتحاً فدخل مكة، وقضى على أئمة الشرك، وحطم الأوثان<sup>(١)</sup>.

والحق أن هدنة الحديبية كانت انتصاراً للإسلام أيضاً. يدل ذلك على ذلك أن الرسول، حين وفد على مكة بعد عام ونصف عام، رافقه عشرة آلاف من صحابته بدلا من ألف وأربعمائة وهو عدد من كان معه زمن الهدنة. فكيف نعلل هذا الازدياد العظيم في عدد المسلمين؟ الواقع أن حالة الحرب التي سادت حتى ذلك الحين بين المسلمين والمشركين كانت قد أقامت بينهما برزخاً عريضاً. كان الحد العام على الإسلام قد حال بين العرب وبين الامتزاج بالمسلمين، ومن هنا لم تتح لهم أيما فرصة للاحتكاك بالمسلمين، والتعرف إلى الفضائل الإسلامية. فإذا بهدنة الحديبية تعقد ما بين الفريقين - للمرة الأولى منذ انبثاق الحركة الإسلامية، ولدة من الزمن غير يسيرة، جسراً على ذلك البرزخ القديم. لقد أتاح ذلك للمشركين فرصة التفكير الهادئ في فضائل الإسلام الفطرية. فأدركوا كيف هذب جميع أولئك الذين تأثروا بسلطان الرسول الأخلاقي ورفعوا إلى صعيد أسمی، إن من طبيعة النفس البشرية أن يعنى المرء عن رؤية محاسن من يضمن لهم العداة ولو في أوهن أشكاله. وكان العرب قد عقدوا العزم على ريادة الإسلام، فهم في وضع لايساعدهم على أن يقدروا تعاليم الإسلام حق قدرها. أما وقد أزيل ذلك الحاجز الآن، واستؤنف الاتصال السوي بالمسلمين فقد أمسوا في مركز يمكنهم من أن يدرسوا أخلاق المسلمين وعاداتهم. لقد تلاشت جميع انطباعاتهم الخاطئة عن الرسول، تلك الانطباعات التي خلقتها العداوة والبغضاء. وأدركوا بأنفسهم أنه لم يكن براغب في قطع صلة الرحم ولا بمثير للشقاق أو متاجر به، كما توهموا من قبل<sup>(٢)</sup>.

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٠٥

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٨٤



تجلى لهم الآن نبل طبيعته وجمال أخلاقه. وأدركوا أنهم كانوا ضحية التمويه والتضليل، وأن شخصية الرسول كانت أسمى بكثير مما صورت لهم. والواقع أن عددًا كبيرًا منهم أعجبوا بسمو مثل الرسول العليا وطهارة مسالك أصحابه، فدخلوا في الجماعة الإسلامية. وهكذا تحقق الوحي الالهي الذي أنزل على الرسول في طريق عودته من الحديبية: «ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر» لقد محيت جميع الذنوب التي عزاها الحقد إليه، فتكشفت للقوم، مرة أخرى، شخصيته الفاتنة بكامل الغنى المميز لجمالها. وقوله تعالى «وما تأخر» ينطوي أيضًا على وعد خاص بالمستقبل. فهذه الكلمات النبوية تعلن أن كل اتهام ضده، في المستقبل، لن يجاز له أن يصمد، لا، إنه سوف يتهاقت هو الآخر، كما تهافتت الاتهامات السابقة، وليس على المرء إلا أن يلاحظ التغير اليومي الطارئ على نظرة أوروبية إلى الرسول حتى يدرك صحة هذا الجزء من الآية القرآنية. فالصورة الكاريكاتورية البشعة التي رسمها الأوروبيون له حتى الآن، سواء عن طريق الجهل أو التضليل، تخضع اليوم - من ذات نفسها - لتغير ملحوظ. إن أوروبا لتدرك، يومًا بعد يوم، نبل شخصيته وصفاءها. ولا بد أن يقر الناس، عاجلا أو آجلا، إقرارًا جماعيًا بسمو حياة الرسول، كما تنبأ القرآن. ومثل هذا الإقرار يجب أن يتم اليوم، كما تم من قبل، في أعقاب سلم شامل. أما وقد أشجع الآن نهم أوروبا إلى التوسع الإقليمي فقد أمسى في ميسور المرء أن يرجو انبثاق عهد من المثالية جديد. إن اتصال أوروبا بالإسلام قد غدا أوثق من ذي قبل، ولقد حان الوقت لأن يؤدي هذا الاتصال إلى تحريرها من أفكارها الخاطئة عن الإسلام، فتدرك، شأن أعداء الرسول قبل ثلاثة عشر قرنًا، أن وجه الإسلام الوسيم برئ من أيما وصمة الصقها به الحقد والضغينة. إنها قد تدرك، خلال بحثها الحالي عن الضياء الذي تفتقده في معتقداتها، أن خلاصها كامن في ذلك الإسلام نفسه الذي دأبت منذ البدء على تصويره بالوان ليس أشد منها قتامة. عجيبة هي طرائق الله، فلا غرابة إذا ما أعاد تاريخ الإسلام نفسه. إن أولئك الذين عقدوا العزم على إبادة قد يسحروهم، عما قريب، سلطانه الأخلاقي كالذي حدث عند عقد هدنة الحديبية<sup>(١)</sup>.

ومن يدري فقد تتجلى قوة الله مرة أخرى، فإذا بما يبدو اليوم - وفقا لكل تقدير بشري - وكأنه قهر نهائي للإسلام ينقلب غداً ليصبح انتصار الإسلام الحقيقي. قبول الرسول لمثل هذه الشروط القاسية التي انطوت عليها هدنة الحديبية لم يكن خلوعًا من حكمة إلهية. فالحادثة نفسها شهادة بليغة على أن الرسول كان شديد المقت للحرب. كان المسلمون، حتى ذلك الحين، هم أصحاب اليد العليا في مختلف النزاعات التي نشأت بينهم وبين قريش. إنهم لم يعرفوا الهزيمة مرة واحدة قط، برغم تألب القبائل كلها عليهم وتعاونها ضدهم. لقد اعتبروا تلك الشروط ماسة بكرامة دينهم، وأصروا على رفضها. وكانوا قد أقسموا ليقاتلن حتى آخر رجل فيهم دفاعًا عن شرف الإسلام. ومع ذلك،

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٨٩ .

نجد الرسول - حيثما بدا له أفضال دليل على جنوح العدو للسلم - يرحب بتلك البادرة ترحيباً قلبياً. إن المسلمين لم يهزموا، ولكن أحكام المعاهدة بدت وكأنها تعاملهم بوصفهم الفريق المغلوب، ومع ذلك قبلها الرسول. أفيمكن لمثل هذا الموقف أن يكون موقف رجل وطد النية على التحكم بالآخرين والاستبداد بهم، كما يزعم الزاعمون؟ أليس ذلك برهاناً قاطعاً على مدى حب الرسول للسلم وتعلقه به؟<sup>(١)</sup> إن القرآن أيضاً ليوصي بضرورة اتخاذ هذا الموقف نفسه حين يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهُا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال].

تظهر شروط صلح الحديبية ولا سيما البند الذي يتعلق بوقف الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات أن رسول الله محمد ﷺ كان لا يكن نوايا عدوانية ضد قريش وأنه يفضل السلم إذا جنحت له قريش. أما البند المتعلق بتأجيل العمرة إلى العام التالي فقد كان له وجهان، وجه يظهر أن قريشاً استطاعت إنقاذ ماء وجهها وردت الرسول دون أن يحقق هدف زيارته، ووجه يسرر تقديس المسلمين للكعبة ويظهر أمام القبائل العربية احترامهم لمقدساتها وشعائرها كما يؤكد اعتراف قريش برسول الله محمد ﷺ واعتباره ندا تفاوضه وتعدت معه المعاهدات، ويحاول البعض أن يثير أمر عدم التساوي في المعاملة الذي يحتوي عليه البند الثاني والذي ينص على التزام رسول الله محمد ﷺ بإعادة من يأتيه مسلماً دون إذن وليه، في حين أن قريشاً لا تلتزم بمثل ذلك ويرون أن فيه عدم تكافؤ ليس له ما يبرره<sup>(٢)</sup>.

يبدو أن الذي جعل رسول الله محمد ﷺ يقبل بمثل هذه الشروط هو إيمانه الأكيد بأن أحدًا من جماعته لن يتخلى عن دينه وينحاز للجانب المكسي وأن الذي سيحدث هو العكس فلا ضير إذن في قبول هذا الشرط. ولعل أهم المكاسب التي حققتها بنود هذا الصبح هي قبول قريش بأن يكون للقبائل العربية الراغبة في الانضمام إلى حلف رسول الله محمد ﷺ الحق في فعل ذلك دونما خشية وفي هذا تحقيق لحلم رسول الله محمد ﷺ بإقامة حلف قبلي برئاسته يستطيع أن يقف به في وجه قريش إذا ما فكرت بالعدوان على المسلمين<sup>(٣)</sup>.

ولكن ما كانت، على أية حال، ثمرة الهدنة الذي بدا مذلا حتى في أعين المسلمن أنفسهم؟ هل وضع حدًا لدخول الناس في الدين، في مكة؟ لقد كان خليعًا بالهدنة، وفقًا لكل منطق بشري، أن تفضي إلى ذلك. ذلك بأنه كان برهاناً جديداً على عجز المسلمين وقلة حيلتهم. كان في ميسور الداخلين في الدين، حتى ذلك الحين، أن يعتمدوا على العون يأتيهم من إخوانهم المسلمين في المدينة. ولكن المسلمين حرموا، بحكم شروط الهدنة، حقهم في لمجة معتنقى الدين الجديد، الذين

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٩٠.

(٢) د. نيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٠٤.

(٣) د. نيه عاقل - نفس المرجع ص ٥٠٤.

كانوا فى قبضة ظالمهم ومضطهدهم. ليس هذا فحسب، بل لقد أسوا عاجزين عن إيواء هؤلاء المؤمنين الجدد إذا ما وفقوا للفرار بأنفسهم إلى المدينة. إنه لعزاء عظيم للمرء أن يجد نفسه، فى أيام المحنة، بين فريق من أصدقائه، برغم أن أولئك الأصدقاء أنفسهم قد لا يكونون فى حال أفضل. إنه لما يسرى عن النفس أن يكون معهم فى مركب واحد، كما يقولون. ولكن حتى مصدر السلوان الأخير هذا أنكرته هدنة الحديبية على الداخلين حديثاً فى الإسلام. فكيف يجد امرؤ فى نفسه الجراءة، فى ظل تلك الأحوال، على اعتناق الإسلام؟ كان المسلم يخضع، فى موطنه مكة، لضروب من العذاب رهيبه، ولكنه لم يعد يطمع فى أن ينعم، الآن، فى المدينة نفسها، بحال أفضل. إن ما أصاب أبا جندل لا يزال ماثلاً فى أذهان القوم، وخليق به أن يوهن عزيمة أكثر الناس حماسة. والواقع أن مثل هذا الوضع كان ينبغى أن يضع حداً لتقدم الإسلام. ولكن اليس مما يروع المراقب أن يكون الضياء الإسلامى قد انتشر - على عكس ذلك - فى هذه الفترة بالذات بسرعة تبلغ عشرة أضعاف سرعته السابقة؟ فما هو إذن الاستنتاج المنطقي الوحيد؟ إنه ليس شيئاً أكثر من هذا: إن قيمة الإسلام الجوهرية لترجح رجحاناً عظيماً شبح التعذيب والاضطهاد على اختلاف ضروبيهما. إن جمال الإسلام القاتن لينسى محبه جميع الآلام التى قد يعجزها اعتناقه عليه. لقد عجز التنكر فى المدينة، بقدر ما عجز الاضطهاد فى مكة، عن تشييط همتهم، فإذا بالآلام والمحن تتلاشى أمام حبهم للحقيقة على نحو استغرق كل شيء<sup>(١)</sup>.

وتلك مناسبة أخرى تغرى الناقد بالتأمل والتفكير. أيتعين عليه أن يدعو هذا الوضع انتشار الإسلام بالسيف، أم انتشار الإسلام برغم سيف العدو؟

وحذا عتبة، وهو رجل جرى آخر اعتنق الإسلام فعذبته قريش من غير رحمة، حذو أبى جندل، ففر ناجياً بنفسه إلى المدينة. عندئذ عهدت قريش إلى رجلين اثنين فى تعقب آثاره، فطلبوا إلى الرسول رده، وفقاً لأحكام هدنة الحديبية. فلم يكن من الرسول إلا أن أشار عليه، كما أشار على أبى جندل من قبل، أن ينقلب عائداً إلى مكة. فاحتج عتبة فى دهش، قائلاً: «يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟!» ذلك وضع حرج جديد: عتبة يتضرع باسم الدين، من ناحية، وقريش تصر على تنفيذ المعاهدة، من ناحية أخرى. وهذه المرة كان مركز الرسول، بوصفه فى المدينة، أشد منعة مما كان فى قضية أبى جندل بالحديبية، يوم كان المسلمون حفنة ليس غير، حفنة عزلاء من السلاح أيضاً. ولكن قانون الشرف النبوى لا يجيز نقض العهد فى استخفاف، حتى ولو أفضى ذلك إلى ارتداد مسلم عن دينه. وقال الرسول للرجل: «لامناص لنا، يا عتبة، من ردك إلى قريش. وإن الله لجاعل لك مخرجاً» إن احترام الرسول لعهد الذى قطع لرائع، ولكن حب عتبة للإسلام ليس أقل روعة. ما الذى يدعو إلى المبالاة بالإسلام، بعد، وقد رده الرسول نفسه إلى أيدي المشركين؟

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٩١.

ولكنه لا يجيز لنفسه، وهو المفتون بسحر الإسلام، أن يتساءل لماذا يفعل الرسول ذلك. وهكذا نزل عند إرادة الرسول، في إذعان لا يعرف التردد، ورافق الرجلين المكيين عائداً إلى حيث كان الموت ينتظره ويحذق إلى وجهه عن كذب<sup>(١)</sup>.

لم تكن ثمة قوة أرضية تقيه غيظ قريش، وكانت غريزة حفظ الذات تكرهه على النجاة بنفسه. لقد قال في ذات نفسه إن عليه، أيًا ما كانت النتائج، أن يضرب الضربة التي تنقذ حياته. وهكذا واغتنم فرصة ملائمة أتاحت له فقتل واحداً من حارسيه، على حين ولى الآخر الأدبار فراراً من الموت، ولكن المدينة كانت لاتزال أرضاً محرمة عليه. إن عليه أن يبحث عن مفرغ له في مكان آخر. وهكذا نزل «العيص» على ساحل البحر في طريق قريش إلى الشام، وكان شبه منطقة محايدة. ومن ثم فزع سائر المسلمين المضطهدين في مكة، والذين أوصدت في وجوههم أبواب المدينة، إلى الوطن نفسه، فإذا به ينمو، شيئاً بعد شيء، ليصبح آخر الأمر مستوطناً كبيراً للاجئين المسلمين. ولم يكونوا ثمة بخاضعين لاحكام هدنة الحديبية. وسرعان ما أوقعت قوتهم النامية الذعر في قلوب القرشيين، الذين خافوا أن يعمد هؤلاء المسلمون، في يوم من الأيام، إلى اعتراض طريق تجارتهم مع الشام. وهكذا رأوا أن من الخير لهم أن ينسخوا المادة التي فرضت إعادة الفارين من مكة إلى مكة، إذ وجدوا أن مثل هذا النسخ خليق به أن يضعف مستوطن «العيص» إضعافاً كبيراً<sup>(٢)</sup>.

غزوة خيبر: خيبر، البلدة المعروفة حتى الآن بهذا الاسم في شمالي الجزيرة العربية. كان ينزل بها يهود عاهدوا الرسول على أن يقفوا على الحياد بينه وبين أعدائه. ولكنهم كعادة يهود لم يلتزموا موافقهم، وحالفوا قريشاً ضد الرسول. فما أن عقد الرسول الاتفاق مع قريش حتى تفرغ لهم. فأقام في المدينة «ذو الحجة» وبعض «المحرم» ثم خرج إلى خيبر. كان يهود خيبر في تحالف مع قبائل غطفان، ولذلك تركزت خطة الرسول على قطع مدد غطفان عن خيبر، فسار بجيشه حتى نزل بين الطرفين. ولما سمعت غطفان بمنزله حشدت قواتها، ثم تحركت باتجاه خيبر. علم الرسول ﷺ بتحركاتها، فأرسل وحدة من قواته لتغيير على منازلها، وكانت قد قطعت مرحلة عندما فاجأها خبر قوات المسلمين تغير على منازلها، فعادت أدراجها لتتخذ أهلها وأموالها، وتركت خيبر لتواجه مصيرها وحدها. بدأ جيش المسلمين بقيادة النبي العربي بفتح حصون خيبر الواحد تلو الآخر، واليهود ينتقلون من حصن إلى آخر حتى استقروا في آخر حصنين لهم وهما «الوطيح» و«السلالم»، ولما اشتد عليهم الحصار، وسمع بهم أهل «فدك» تدخلوا في الصلح على أن يخلي اليهود أموالهم وما ملكت أيديهم، وينجوا بأرواحهم فيلتحقون بفدك. ثم عرض اليهود أن يقوموا هم برعاية ممتلكاتهم مقابل نصف مردودها يدفعونه للمسلمين، فوافقهم الرسول على ذلك، ثم صالح أهل فدك على مثل ذلك. كانت خسائر المسلمين لا تكاد تذكر، ولم يعكر صفو ذلك النصر سوى محاولة امرأة يهودية هي زينب بنت

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٩٢

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٩٢

الحارث تسميم الرسول ﷺ، فأهدت إليه شاه مشوية بعدما أكثرت السم في ذراعها، وعصمته على جميعها، ولكن الرسول لم يسغ ذلك اللحم، بينما أكل منه صحابى جليل هو بشر بن البراء، فكان سبب وفاته مسموماً. وعاد الرسول إلى المدينة، فوصل إليها مع قدوم جعفر بن أبى طالب وأصحابه، عائدين من هجرتهم الثانية إلى الحبشة<sup>(١)</sup>.

لم يور رسول الله محمد ﷺ في غزوة خيبر هذه كعادته في أكثر غزواته البعيدة بل أعلن التعبئة العامة وأعلم الناس أنه يريد خيبر، ولعل ذلك راجع في الدرجة الأولى إلى أن المسلمين باتوا آمنين على المدينة من أن تكون عرضة لأي هجوم من قبل الأعراب المجاورين الوثنيين بعد تلك الحملات العسكرية التأديبية التي جردها عليهم رسول الله ﷺ فنحضد بها شوكتهم وإلى أن قيام المسلمين بالزحف على خيبر لم يعد سرا يمكن إخفاؤه لأن اليهود في خيبر كانوا يتوقعون بأن ينقل رسول الله ﷺ المعركة إلى عقر دارهم في خيبر ولذلك قاموا بتشييد الحصون والقلاع<sup>(٢)</sup>.

عند فتح خيبر جاء أبو موسى الأشعري<sup>(٣)</sup> مع أهل اليمن<sup>(٤)</sup> على رسول الله محمد ﷺ وقال ابن نافع أنه قدم وفدًا في نضر من «حمير» وقال أبو موسى عن «النبي ﷺ هم مني وأنا منهم» بين أنه طرف من حديث أوله «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو جمعوا ثم اقتسموا بينهم فهم مني وأنا منهم»<sup>(٥)</sup> والمراد بقوله (هم مني) المبالغة في اتصال طريقهما واتفاقهما على الطاعة<sup>(٦)</sup>.

عمرة القضاء: وبقي الرسول في المدينة، يبعث السرايا والغزوات، حتى كان ذو القعدة، الشهر الذى صده المشركون فيه عن العمرة، فخرج معتمراً يؤدي «عمرة القضاء» حسب اتفائه مع قريش. ولما سمعت قريش بقدومه خرجوا من مكة، ودخل المسلمون والمشركون يراقبونهم، وقد شيعوا عن المسلمين أنهم في عسر ومشقة، فأمر الرسول أصحابه أن يروا المشركين من أنفسهم قوة. فجعل عضده الأيمن فوق لباس الإحرام، وأخذ يهرول وصحابته معه ثلاثة الأشواط الأولى، ومازال المسلمون حتى اليوم يقتدون برسولهم فيهرولون في الأشواط الثلاثة الأولى من طوافهم وتزوج هنالك بعد إحلاله ميمونة بنت الحارث خالة ابن عباس وخالد بن الوليد فلما تمت الثلاث أوجبت عليه قريش أن يخرج من مكة ولم يمهله حتى يئني بأى المؤمنين، فخرج فبنى عليها بسرف<sup>(٧)</sup>. وبعد ثلاثة أيام وهو الوقت المحدد فى الاتفاق ليرك المسلمون مكة بعده، أرسل الكفار يطلبون من

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١١٢.

(٢) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص ١١٥.

(٣) فتح الباري - ٩٧ / ٨.

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٩٦ / ٨.

(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري - ١٢٨ / ٥ - ١٣٠ - الحديث رقم ٢٤٨٦.

(٦) فتح الباري - ٩٧ / ٨.

(٧) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص ١٤٤.

الرسول مغادرة مكة، فغادرها متجهًا نحو المدينة. فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

غزوة مؤتة: بعث الرسول ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة، وفي جمادى الأولى جيشًا مؤلفًا من ثلاثة آلاف رجل إلى جهة مؤتة، وهي قرية صغيرة في جنوبي بلاد الشام. وسبب إرسال ذلك الجيش أن النبي ﷺ بعث «الحارث بن عمير» رسولًا إلى ملك بصرى، فلما نزل الحارث «مؤتة» هاجمه عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله، فقرر الرسول الانتقام لمقتل رسوله وعين زيد بن حارثة قائدًا على ذلك الجيش وأوصاهم فقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة». وكانى بالرسول ﷺ يدرك أهمية ذلك البعث وخطورته، ويتهبب مواجهة جيش الروم وأعوانهم فيعين ثلاثة قادة، يخلف واحداهم الآخر إن أصيب. وقد حدث في تلك المعركة ما تحسب له الرسول ﷺ فقد مضى جيش المسلمين حتى نزل بلدة «معان»، البلد المعروف في جنوبي الأردن في هذه الأيام. وهناك بلغ جيش المسلمين أن «هرقل» حشد مائة ألف جندي في منطقة البلقاء، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل «لخم» و«جذام» وغيرهما. بلغت أخبار العدو جيش المسلمين، فأمضوا ليلتين في منطقة معان يتشاورون ويتدارسون الموقف. فاقترح بعضهم أن يكتبوا إلى الرسول يخبرونه عدد عدوهم وقوته، ويتركوا له القرار في أمرهم. ولكن عبدالله بن رواحة كان متشوقًا للشهادة فلما رأى موقف الناس قال<sup>(١)</sup>: «يا قوم، والله إن التي تكرهون لتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينيين: إما ظهور، وإما شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة». فانطلق جيش المسلمين حتى وصل حدود منطقة البلقاء، وكان جيش هرقل في إحدى قرى تلك المنطقة واسمها «مشارف». فنزل جيش المسلمين بلدة «مؤتة»، واستعدوا للملاقاة الروم.

كان تفوق الروم كبيرًا، ولكن المسلمين قاتلوا ببسالة بقيادة زيد بن حارثة، حامل راية رسول الله، الذي حافظ على تلك الراية مرفوعة حتى سقط شهيدًا. فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فقاتل حتى استشهد. فلما قتل جعفر آلت القيادة حسب أوامر الرسول إلى عبد الله بن رواحة، ولكنه لم يلبث حتى قتل أيضًا، فأخذ الراية أحد أبطال المسلمين «ثابت ابن أكرم»، وصاح بالجيش أن اختاروا لكم قائدًا، فاختاروا خالد بن الوليد. كان خالد بن الوليد قائدًا حكيماً، يعرف كيف يقاتل، ويعرف متى يجب أن يقاتل، كما يعرف متى يجب أن ينسحب، فقدر أن معركته انتحار، فوضع

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١١٣

خطة سريعة للانسحاب بجيشه . أوهم الروم بوصول إمدادات كبيرة إليه ، فى حين كان ينسحب بجيشه من أرض المعركة . . وهكذا عاد جيش المسلمين إلى المدينة ، فاستقبله المسلمون فى المدينة بالحزن والبكاء والاستنكار ، حتى اضطر الرسول للثناء على ذلك الجيش وتطبيب خواطر مقاتليه ، والتثويه بما بذله من جهود فى محاربة الأعداء . وبشر المسلمين بالعودة إلى القتال والنصر<sup>(١)</sup> .

نلاحظ من غزوة «مؤتة» بأن خالد بن الوليد خطط لإنقاذ الجيش الإسلامى من الإبادة الجماعية حيث لم تكن القوات متكافئتين حيث كان جيش الروم مائة ألف والمسلمين ثلاثة آلاف فقط وما أسرع ما قتل زيد وسقط جعفر وحمل عبد الله بن رواحة الراية وسقط هو الآخر فتولى خالد القيادة فاستفاد من حلول الظلام وقام بأول عملية انسحاب فى تاريخ الإسلام ثم عمد إلى سحب الجناحين تحت حماية القلب ولما أصبح الجناحان بمنأى عن ضربات العدو ، عمد إلى التراجع بالقلب تحت حماية الجناحين وأحدثت ضجة عالية لإيهام العدو بقدوم إمدادات ، فقد أثبت خالد بن الوليد أن الانسحاب بأقل الخسائر هو أعلى مرحلة من مراحل الانتصار وأن المحافظة على أرواح المقاتلين هي محافظة على الدعوة وعلى العقيدة نفسها وكانت معركة «مؤتة» مفترق الطرق بالنسبة للدعوة الإسلامية وهي أول معركة يحتك بها السيف الإسلامى بالسيف المسيحى للروم<sup>(٢)</sup> .

عدة سرايا: أرسل الرسول ﷺ وفى سنة ثمان هجرية من جمادى الآخرة سرية بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل بهدف ضرب جمع لقبيلة قضاة كانوا ينوون الإغارة على أطراف المدينة ظناً منهم أن المسلمين كسرت شوكتهم بعد مؤتة فنجحت السرية فى مهمتها ، وشتت القبائل وفرضت هيبة المسلمين . ثم أرسل فى رجب سرية بقيادة أبى عبيدة بن الجراح عرفت باسم «سرية الخبط» إلى حى من جهينة لجهة البحر الأحمر ولم يحصل فيها قتال . وفى شعبان أرسل سرية أبى قتادة الأنصارى إلى «خضرة» وهى أرض محارب فى نجد وعادت بمغانم كثيرة بعدما قتلت عدداً من الأشخاص . وكانت أشبه بإغارة بطولية نفذها خمسة عشر رجلاً . وفى رمضان سنة ٨ هـ بعث أبى قتادة الأنصارى فى سرية أخرى إلى «بطن إضم» ليوحى إلى الناس بأنه توجه إلى تلك الناحية تغطية على توجهه إلى مكان لفتحها<sup>(٣)</sup> .

### فتح مكة

بلغت اعتداءات قريش ذروتها . وكانت السنة الثامنة للهجرة تدنو من نهايتها . وكانت قد انقضت على إنقاذ هدنة الحديبية سنتان اثنتان . وكان إقرار جو السلم قد أثبت صلاحه العظيم لنمو الإسلام فلم يعد فى طوق قريش ان تنظر بنفس مطمئنة إلى قوة الإسلام المتعاظمة يوماً بعد يوم .

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١١٤ .

(٢) محمد محمد البيلى يونس - المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٣) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١١٤ .

وأخيراً نقضت الهدنة . وكانت قبيلة خزاعة قد أفادت من حرية الاختيار التي منحتها هدنة الحديبية فدخلت في عهد المسلمين، على حين دخل أعداؤها التقليديون، بنو بكر، في عهد المكيين . واتفق أن أغار بنو بكر، ذات ليلة، على خزاعة . فانتصرت قريش لبني بكر . والتمست خزاعة مفرجاً في الحرم، حيث يحظر سفك الدماء - بحكم التقاليد العربية - تحظيراً صارماً . ولكنهم لم ينجوا، حتى هناك، من عدوان المعتدين . لقد قتل عدد منهم كبير . ولم تكتف قريش بعدم صد حلفائها عن العدوان، بل ساعدتهم على ذلك منتهكة أحكام هدنة الحديبية انتهاكاً صريحاً وهكذا ذهب وفد من خزاعة ليستنصر الرسول، وفقاً لأحكام التحالف . فبعث الرسول إلى قريش يخبرها بقبول واحد من الشروط التالية: إما أن تدفع ديات من قتلوا من خزاعة، وإما أن تحمل نفسها من عهد بنو بكر، وإما أن تعلن أن هدنة الحديبية أمست لاغية . فردت قريش قائلة أنها قبلت الشرط الأخير، برغم أن أبا سفيان الأموي حاول، في ما بعد، أن يبرر هذه الخطوة الحساسة التي خطاها قومه، وأن يعتذر عنها . فقد أدرك أبو سفيان الأموي أن مثل هذا النقض الصارخ للصلح محفوف بخطر عظيم<sup>(١)</sup>، ومن أجل ذلك وفد على المدينة لتجديد المعاهدة فقال «أبو سفيان الأموي زعيم بني أمية»<sup>(٢)</sup> لأبي بكر: جدد لنا الحلف، قال ليس الأمر إلي، ثم أتى عمر فأغفل له عمر، ثم أتى إلى السيدة فاطمة الزهراء فقالت له: ليس الأمر إلي، فأتى الإمام علي عليه السلام فقال: ليس الأمر إلي<sup>(٣)</sup> فقال أبو بكر ما رأيت كالذيوم رجل أضل<sup>(٤)</sup> أي من أبي سفيان<sup>(٤)</sup>، أنت كبير الناس، فجدد الحلف فضرب إحدى يديه على الأخرى وقال: أجرت بين الناس، ورجع إلى مكة فقالوا له: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا بصلح فتامن) لفظ عكرمة<sup>(٥)</sup> .

بيد أن الرسول لم يغفل عن المكيدة، ذلك أن أبا سفيان أصم اذنيه دون المطالب الإسلامية كلها ومن ثم رفض الرسول تجديد المعاهدة، فتعين على أبي سفيان الأموي أن ينقلب إلى مكة خائب الرجاء وهكذا اتخذ الرسول الاستعدادات الضرورية لفتح مكة، داعياً إلى ذلك جميع القبائل المتحالفة مع المسلمين . كانت قريش قد اضطهدت المسلمين طوال إحدى وعشرين سنة . وكانت قد غزت المدينة، ثلاث مرات، للقضاء على الإسلام والمسلمين . فلا عجب إذا ما خيل للمرء، إذ يرى إلى هذه الاستعدادات، أن الظالمين سوف يعاقبون على جرائمهم عقوبة عادلة . ولقد كان جد طبيعي أن يتوقع المرء أن يعمد الرسول، الآن إلى مناقشة من ارتكبوا جرائم وحشية ضد الإسلام، وبينما الجيش الإسلامي على أهبة السير كتب رجل مسلم اسمه حاطب بن أبي بلتعة، بسبب من قلقه على أنسابه

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٢) الواقدي - المغازي ٢ / ٧٨٧ .

(٣) ورد في مرسل عكرمة عن ابن أبي شيبة - المصنف: ٧٠ / ٤٠٠ - ٤٠٢ .

(٤) ابن هشام: ٢ / ٣٩٦ - ٣٩٧ .

(٥) فتح الباري - ٨ / ٦ و٧ .



في مكة، كتاباً أعطاه امرأة تسمى سارة وأسر إليها بأن تبلغه قريشاً ليقتفوا على ما أعد المسلمون لهم من غزوة. ولو قد وصل الكتاب إلى أيدي المكيين اذن لعمدوا هم أيضاً إلى اتخاذ الاستعدادات الضرورية لمقاومة المسلمين. ولكن حكمة الله شاءت أن يتم هذا الفتح العظيم. فسارع فيبعث الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والزبير بن العوام لاعتقال حاملته، فأدركاها ورداها والكتاب إلى المدينة. وكان في ذلك ما أثار ثائرة المسلمين على حاطب، الذي كان قد حاول أن يخون إخوانه في الدين. واعتقل حاطب وقدم إلى النبي ليلقى جزاءه. ولكن الحكم عليه لم يصدر من شفتى ملك من ملوك الدنيا، أو قائد من القواد العسكريين، ولو قد صدر من أيهما اذن لقتل المجرم في الحال. لا، لم تكن الحملة حملة انتقام. لقد أريد بها أن تكون مثلاً خالداً على العفو - العفو يجاد به على أعداء الداء. فكيف يجوز أن يعامل حاطب، الذي كان دائماً صديقا، غير هذه المعاملة؟ لقد قبل الرسول عذره، وعفا عنه<sup>(١)</sup>.

خلال فترة الستين التي انقضت بين هدنة الحديبية وفتح مكة كان ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة وسرية قام بها رسول الله محمد ﷺ وقادة مسلمون آخرون وكانت تضم ثلاث فئات الأولى عدد من العمليات العسكرية وجهت ضد بعض القبائل التي لم يكن ولاؤها خالصاً للرسول ﷺ رغم أنها لم تبد عداواً صريحاً ضده مثل الغزوات ضد غطفان وفروعها كمرّة وثعلبة وغيرهما وفروع من بني ليث هو ملوح وبني جهينة وغيرهم. أما الفئة الثانية فتتضمن الغزوات ضد فروع من هوازن ورغم أن هذه الغزوات لا قيمة عسكرية لها إلا أنها توضح الاتساع الجغرافي الذي امتدت إليه العمليات العسكرية الإسلامية والفئة الثالثة كانت تتضمن الحملات العسكرية إلى الشمال مثل سرية كعب وغزوة مؤتة وذات السلاسل<sup>(٢)</sup> وهكذا فقد حققت المعارك الإسلامية خلال الستين اللتين أعقبتا صلح الحديبية سيادة الإسلام على رقعة واسعة من الجزيرة العربية واستطاع الجيش الإسلامي أن يكسب خبرة كبيرة من خلال تلك المعارك وبذلك يكون مستعداً للذهاب إلى المعركة النهائية ألا وهي فتح مكة.

سار الرسول، على رأس عشرة آلاف من أتباعه البررة، إلى مكة، في العاشر من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة، وهكذا تحققت النبوة التي انطلقت، قبل ألفى عام، من بين شفتى موسى: «وأتى مع عشرة آلاف من القديسين» (سفر التثنية ٣٣: ٢) وليس في التاريخ بعد الموسى أيما حادثة أخرى تتحقق بها هذه الكلمات النبوية. يا لها من ظاهرة أعجوبية! لقد كان عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وكانوا في الوقت نفسه كلهم «بررة» كما جاء في النبوة. إن هدفهم في الحياة لم يكن حال نخوض غمار الحرب وسفك الدماء، ولكن إقامة قواعد البر ولو كلفهم ذلك حياتهم. وعسكروا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٠٢ .

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٠٥ .

فى مر الظهران، على مسيرة يوم من مكة. وأمروا جميعاً بأن يوقدوا النيران فى كل معسكر. فخلق بذلك أن يئده قريشا بعظم قوة المسلمين العددية، وهكذا يتجنب رسول الله ﷺ مقاومة قريش وما تستتبعه من إراقة دم. واستسلم المكيون من غير مقاومة. ومن عجب أن أبرر القرشيين الذين مثلوا بين يدى الرسول كان أبا سفيان الأموي، زعيم المعارضة بعد أبى جهل. لقد بذل قصارى جهده، على نحو موصول، لإبادة الإسلام. أجل، لقد أذن لأبى سفيان الأموي، أكبر المسيئين للإسلام، فى المثل بين يدى الرسول لكى يغفر له! لقد بدأ ذلك أمراً متعذراً جداً ولكن طبيعة الرسول الرحيمة لم تكن لتمييز بين الصديق والعدو<sup>(١)</sup>. وهكذا عفا عن أبى سفيان الأموي.

لقى رسول الله محمد ﷺ عمه العباس فى منتصف الطريق مهاجراً بعياله فأسلم بين يديه، وأراد العباس بعد إسلامه أن يقوم بعمل ينقذ به قريش من كل ما قد يتعرضون إليه من مخاطر من المسلمين فسار بعد مقابلته الرسول ﷺ يبحث عن رجل يبعثه إلى قريش لتأخذ حذرهما وتبادر بالاستسلام وبينما هو على هذه الحال إذ لقي أبى سفيان زعيم بني أمية الذى خرج من مكة هائماً على وجهه ومعه بعض أصحابه سعياً وراء مقابلة رسول الله محمد ﷺ ليأخذ منه أماناً للقرشيين ورافق العباس أبى سفيان الأموي إلى حضرة الرسول وتوسط له عنده فمنحه الرسول أماناً<sup>(٢)</sup>.

راع أبى سفيان الأموي جبروت القوة الإسلامية، فانقلب إلى قومه مسرعاً لكى ينبههم بأن كل مقاومة للرسول عبث لا طائل تحته. ونقل إليهم فى الوقت نفسه كلمة الرسول: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» ولا ريب فى أن النقاد الذين يصمون الإسلام بأنه دين انتشر بالسيف سوف يخيب قائلهم حين يعلمون أن اعتناق الإسلام لم يشكل جزءاً من شروط هذا الأمان، وأخيراً رحف الجيش الإسلامى على مكة، من كل جانب. وكان النبى قد جعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى، فلم يكده سعد هذا يمر بأبى سفيان الأموي حتى صاح: «اليوم يوم الملح، اليوم تستحل الحركة» فاغتاظ الرسول من ذلك، وأخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس لكى يجتنب إراقة الدماء. وكان على خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أسفلها، وكان يعتصم فى ذلك الحى من أسفل مكة أشد قريش عداوة الإسلام، وهو الذين شاركوا فى الحملة على خزاعة. وكان عكرمة بن أبى جهل يقيم مع هؤلاء. وعلى الرغم من الأمان العام الممنوح لجميع المواطنين فقد أبى هؤلاء القوم على خالد أن يمر من غير مقاومة، فأمطروا جيشه بوابل من نبالهم. وهكذا اضطر خالد إلى أن يحمل عليهم. وقد قتل من قريش فى هذه المناوشة ثلاثة عشر رجلاً، فى رواية، وثمانية وعشرون فى رواية على حين لم يشهد من المسلمين غير رجلين اثنين وفى غضون ذلك كان الرسول قد انتهى إلى مرتفع من مرتفعات مكة فأسف وجزع

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٠٢.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥١٦.

لدى رأى سيف خالده ورجاله تلتصق فى أسفل المدينة وصاح مغضبا يذكر أمره الصارم بأن لا يكون ثمة سفك دماء أيا ما كان السبب. ثم إنه دعا خالدا ليبرر ما أقدم عليه من تمرد ظاهرى، حتى إذا علم بما كان قال ان الخيرة فى ما اختاره الله<sup>(١)</sup>.

تقدم الرسول نحو مكة، وطهر ذلك البيت المقدس من جميع الأصنام. وكان كلما مس واحدا من تلك الأصنام بقضيب فى يده يتلو هذه الآية القرآنية الكريمة التى نزلت عليه قبل ذلك بزمن طويل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) [الإسراء] ولم تعرف منذ ذلك الحين قط أيما صورة أو أيما صنم سبيلا إلى جدران ذلك الحرم المكرس لوحداية الله. قال عبد الله بن مسعود<sup>(٢)</sup>: «دخل الرسول ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب» وهو ما ينصب للعبادة من دون الله تعالى<sup>(٣)</sup>. وفى رواية ابن أبي شيبة «صنما»<sup>(٤)</sup> بدلا من «نصبا» ويطلق النصب على الحجارة التى كانوا يذبحون عليها للأصنام<sup>(٥)</sup>. وفى قوله بأن رسول الله محمد ﷺ جعل يطعنها بعود فى يده ويقول: «جاء الحق» وفى رواية مسلم (يطعن فى عينيه بسية القوس)<sup>(٦)</sup>، «فيسقط الصنم ولا يمسه»<sup>(٧)</sup>، وعن ابن عباس «فلم يبق وثن استقبله إلا سقط على قفاه مع أنها كانت ثابتة بالأرض وقد شد لهم أقدامها بالرصاص»<sup>(٨)</sup>، وإنما فعل النبي ذلك لإذلال الأصنام وعابديها ولإظهار أنها لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها شيئا. ثم إن الرسول استدار إلى «مقام إبراهيم» وصلى هناك. عندئذ دعى عثمان بن طلحة، سادن الكعبة، وفتحت أبواب البيت الحرام، فدخله الرسول وصلى فى الناس هناك أيضا. ثم إنه أعاد المفتاح إلى عثمان قائلا ان سداية الكعبة سوف تظل فيه وفى أبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم. حتى إذا أتم الرسول ذلك ألقى خطبة أكد فيها وحدانية الله وأخوة البشر الشاملة.

وبعد ذلك وجه الخطاب إلى وجوه قريش المجتمعين حوله. كانوا كلهم فى وضع المذنب الجانى. فكم قد عذبوا المسلمين ونكلوا بهم! لقد بدا وكأن ثرى مكة نفسه كان متعطشا للدم الإسلامى وما كان أفظع الألام التى أذاقوها المسلمين متتهكين فى ذلك جميع النواميس الأخلاقية والتقليدية! إن مجرد ذكرى أشكال الاضطهاد الغريبة تلك ليوقع الرعدة فى قلب المرء. ثم إن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٢) عن ابن أبي نعيم عن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - الطبراني - المعجم الكبير: ٧ / ١٨٨ - مجمع الزوائد - ٦ / ١٧٨.

(٣) فتح الباري ٨ / ١٦ - ١٧.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي - ١٢ / ١٣٣، ابن أبي شيبة - المصنف ٧ / ٤٠٣ - حديث رقم ٣٦٩٠٦.

(٥) فتح الباري - ٨ / ١٧.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي - ١٢ / ١٢٩ - ١٣٠.

(٧) الهيثمي - موارد الظلمة - ص ٤١٦ - الحديث ١٧٠٢.

(٨) حديث ابن عباس أخرجه ابن هشام بتمامه - ٢ / ٤١٧.

سلطانهم لم يكن مقصوداً على ثرى مكة، بل لقد طاردوا المسلمين حيثما وجدوا وفورا بأنفسهم ملتجئين مفرغاً لقد هاجموا المدينة مرة بعد مرة لكى يسحقوهم سحقاً. إلى هذا الحد كانت جريمة المكين الواقفين الآن موقف المتهم بين يدى الرسول، شائنة مخزية. وكانوا بما تكشفوا عنه من حقد، وانتقام، ومحق لحقوق الإنسان الأساسية، وتكيد بالابرياء يستحقون أقصى عقوبة من عقوبات العبرة نص عليها أكثر قوانين العالم رحمة. وكان أرف ضرب من ضروب القصاص يقضى بقطع رؤوس زعمائهم الكبار، وسجن عدد من الآخرين لكى يكون فى ذلك تحذير لسائرهم وعبرة لهم فى المستقبل. كان ينبغى لقوتهم أن تسحق سحقاً كاملاً لكى يمسا عاجزين عن إحداث أيما متاعب فى المقبل من الأيام. إن أكثر الطرق تمدينا فى مواجهة أمثال هذه الجرائم هى إنزال عقوبة من عقوبات العبرة فى فريق من المعتدين سواء أكانوا مذنبين فعلاً أم لم يكونوا، وإخضاع سائرهم لعبودية كاملة. ولقد كانت هذه هى المعاملة التى عامل بها المنتصرون مغلوبهم دائماً وأبداً، وبالطريقة نفسها تعامل الشعوب المغلوبة، اليوم، فى ظل أعرق الحكومات فى المدينة. فقوية هى غريزة الانتقام فى الطبيعة البشرية، وإنها لنزاعة إلى الاستفحال والطغيان، وبخاصة حين يكون العدو تحت رحمة المرء المطلقة. عتدئد تتخطى التخوم الأخلاقية كلها. ولكن قريشاً كانت تؤمن إيماناً لا يتزعزع بما فطر عليه الرسول من طبيعة نبيلة رحيمة. انهم لن يتوقعوا قط أن يلقوا على يديه أيما معاملة قاسية. ومن هنا لم يكذب الرسول يسألهم: «يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل لكم؟» حتى أجابوا: «أخ كريم وابن أخ كريم!» إنهم لم يكونوا غرباء عن كرم خلق الرسول. لقد كانوا على مثل اليقين من أن الشهامة، التى ميزت شخصيته طوال أربعين سنة انقضت قبل جهره بالنبوة، لم يتطرق إليها أيما تغيير البتة. ولكن المعاملة التى أسبغها عليهم فاقت حتى ما كانوا يتوقعونه.

لقد قال لهم: «لا تريب عليكم اليوم» يا لسمو النفس! لقد أعفاهم حتى من اللوم على جرائمهم السوداء، بله العقوبة والقصاص. ليس هذا فحسب، بل إنه لم يطالبهم حتى بعهد يأخذونه على أنفسهم فى ما يتصل بمسلكهم فى المستقبل. وممتلكات المهاجرين المبعدين، التى كان المكين قد استولوا عليها، لم ترد إليهم. لقد طلب إلى المهاجرين أن يتنازلوا عن جميع حقوقهم السابقة. وحتى يوم دخل المسلمون مكة لم يتمالك عكرمة بن أبى جهل عن إيذائهم سرية خالد بن الوليد وإذ خشى العقوبة القاسية التى كان يعلم انه يستحقها فقد فر بنفسه حذر الموت. وفى حال من الأسى البالغ وفدت زوجته على الرسول، والتمست منه العفو عن زوجها، وإذ كانت رحمة الرسول لا تعرف حدوداً فقد منح عكرمة، ذلك العدو اللدود، العفو أيضاً. وأسبغ الرسول رأفته السخية، كذلك، على وحشى قاتل حمزة، عمه الحبيب، وعلى هند التى مضغت كبده. وحتى هيار - الذى أذى زينب بنت الرسول فى طريقها من مكة إلى المدينة أذى بالغاً أفزعها فأجهضها وأفضى آخر الأمر إلى وفاتها - عفى عنه. والواقع أن تاريخ العالم ليعجز عن تزويدنا بنظير لهذا الصفع الكريم الذى

أغدقه الرسول على أمثال أولئك لمجرمي الحرب الكبار. إن الضرب على وتر المواعظ الداعية إلى الصفح والغفران لا يكلف المرء شيئاً كثيراً، ولكن عفو المرء عن معذبيه هو ليجتاج إلى قدر من الشهامة عظيم وبخاصة عندما يكون أولئك المعذبون تحت رحمته. وهذا الانفساح في مدى العطف الإنساني والعفو الكريم لا نفع عليه في حياة يسوع. فالحق أن يسوع لم تتح له الفرصة لممارسة فضيلة العفو، ذلك بأنه لم يكتسب في أيما يوم السلطة التي تمكنه من الرد على مضطهديه<sup>(١)</sup>.

تعارف المؤرخون على تسمية هذه العملية العسكرية التي قادها رسول الله محمد ﷺ وانتهت باستسلام قريش، باسم «الفتح» الذي يعتبر تنويجا لجهوده الكبيرة في سبيل نشر الإسلام، ويقول الإمام الشافعي<sup>(٢)</sup>: «إن مكة فتحت صلحا لما وقع هذا الأمان وإضافة الدور إلى أهلها ولأنها لم تقسم، ولأن الغنائم لم يملكوا دورها وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها»<sup>(٣)</sup>. وكان لا بد للرسول ﷺ رغم العفو العام الذي أصدره أن ينظر في حالة بعض الأفراد الذين اشتهروا بعدائهم للإسلام أو كان لهم مواقف لا تغتفر ضد المسلمين<sup>(٤)</sup>.

فتحت مكة، ولكن العفو العام الممنوح لأهل البلدة كان فتحاً أعظم بكثير، فتحا وراءه متناول أسلحة المسلمين. لقد أسر قلوب الناس. وحتى الأعداء الألداء، من طبقة أبى سفيان الأموي، سحرتهم الأخلاق الإسلامية. وأدى هذا المشهد الأخير من مشاهد الشهامة الإسلامية إلى تجريد المعارضة، على اختلاف ضروبها، من سلاحها. لقد رأى المكيون بأم العين كيف تحققت آخر الأمر جميع تلك الوعود الإلهية التي وعد بها المسلمون يوم كانوا لا يزالون يئنون تحت وطأة تعذيب أعدائهم لهم. إن قوى المعارضة المشتركة عجزت عن إضعاف الإسلام. فكان في هذا برهان قاطع على عدالة القضية وصدقها، برهان أزال كل شك كامن في أفئدتهم. واليوم، والإسلام يجد نفسه كرة أخرى في غمرة أيام عصيبة، وقد عقد الأعداء عزمهم على إبادته، بل وقد اتحدت دول العالم كلها لمحوه من على وجه الأرض، يبدو للمرء وكأن القوة الإلهية سوف تتجلى من جديد، كفعلها في الأيام السالفة، بحيث تقنع العالم بأن الأيدي البشرية أعجزت من أن تسحق الحق الإلهي. وبكلمة موجزة، لقد تلاشت المعارضة كلها ونفذت الحقيقة الإسلامية إلى أعماق قلوب المكيين. فانضموا تحت راية الإسلام زرافات زرافات. واستوى الرسول في مرتفع من جبل الصفا ليتقبل دخولهم في الجماعة الإسلامية. لقد أقبل الرجال يتبعهم النساء اللاتي اعتنقن الدين الجديد بأعداد ضخمة. وإنما فعلوا كلهم ذلك على نحو تلقائي. فلم يكره أي منهم على اعتناق الإسلام بالقوة. وكان ثمة أيضا فريق لم ينشرح صدره للإسلام، ولكن أيما أذى، مهما ضؤل، لم ينزل بهم بسبب من ذلك. لقد تعلقوا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٢) فتح الباري: ١٢ / ٨ .

(٣) الشوكاني - نيل الأوطار: ٢٣ / ٨ و ٢٤ .

(٤) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥١٨ .

بأهداب عقيدتهم الوثنية الخاصة، ولكن المسلمين عاملوهم فى إحسان بالغ. كانت تشدهم إلى المسلمين صلوات ود وصدّاقة، حتى لقد قاتلوا مع المسلمين كنفًا إلى كنف عندما وقعت معركة حنين. وهكذا يعتبر فتح مكة دحضًا قاطعًا للتهمة القائلة بأن الإسلام لم ينتشر قط إلا بالسيف، إذ هل كان فى الإمكان أن تنشأ لمثل هذا الإدخال القسرى فى الدين فرصة خير من هذه الفرصة؟ فالواقع ان أيما حادثة من حوادث الإكراه لم تقع فى تلك المناسبة. وإليك اعتراف ميوير حول هذه النقطة<sup>(١)</sup>:

«على الرغم من أن البلدة رحبت بسلطانه ترحيبًا بهيجًا، فلم يكن جميع سكانها قد اعتنقوا الدين الجديد، ولم يكونوا قد اعترفوا رسميًا بصحة دعواه النبوية. ولعله عقد العزم على أن يسلك ههنا ذلك النهج الذى سلكه فى المدينة، ويدع الناس يدخلون فى الإسلام، شيئًا بعد شيء، من غير ما إكراه»

### دروس من فتح مكة

يعود بنا الفتح بالذاكرة إلى قول الرسول العظيم، والقائد الحكيم، بعد غزوة الأحزاب: «لا تغزوكم قريش بعد اليوم بل تغزونها». وصح حدس الرسول بعد سنوات قليلة وما هى قريش تصبح ركنا من أركان الإسلام وقوة كبيرة فى جيش المسلمين نستطيع أن نأخذ من فتح مكة دروسًا وعبر كثيرة أهمها<sup>(٢)</sup>:

أهمية معرفة إمكانات العدو وقدراته بدقة، فلو أن قريشًا كانت على علم بتطور قوة المسلمين، وأدركت أنهم كانوا يتمنون اللحظة التى يتخلصون فيها من قيود هدنة الحديبية للدخول معها فى معركة حاسمة، لما جازفت وساعدت قبيلة بكر فى قتالها ضد حلفاء الرسول ﷺ. إن الهدنة قد تكون مرحلة تسبق الصلح، وقد تكون فرصة يستعد فيها كل طرف لينقض على عدوه فى الوقت المناسب له، أو بعد انتهاء الهدنة. والقائد الحكيم لا يضيع هذا الوقت الثمين، بل يستثمره دون تلكؤ، فى إعداد العدة لساعة استئناف القتال. هناك حالات لا تمكن المصالحة فيها، ولا التعايش بين الطرفين المتقاتلين، كما كانت الحال بين المسلمين والمشركين، وفى هذه الحالة لا تنتهى الحرب إلا بانتصار أحد الطرفين، والقضاء على الطرف الآخر، أو باقتناع المهزوم بصواب مبادئ المنتصر واعتناقها عن قناعة لا عن إكراه ورضوخ للقوة. وكان الرسول يعلم ذلك، فركز جهوده على تقوية جيشه بحيث استطاع الانتصار بسهولة على عدوه، ثم دعاه للدخول فى الإسلام، فاقتنع المشركون بدعوته، وانضموا إلى صفوفه. ضرورة إراحة العواتق المادية، والطواغيت التى تحول دون نشر الدعوة بالقوة، ليتأمن للناس مناخ من الحرية، يستطيعون فيه اختيار عقائدهم وممارسة شعائرهم دون خوف من

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٢٦ .

سلطة، أو إكراه من حاكم مستبد. ولعل أهم السمات التي برزت في غزوة الفتح هي التالية: الإعداد الجيد للمعركة: فقد بلغ عدد جيش الفتح عشرة آلاف مقاتل، مجهزين أحسن تجهيز، تسمح به أحوال المسلمين في ذلك الوقت. المحافظة على السرية التامة: فقد أمر الرسول ﷺ صحابته بالتجهز للحرب، ولكنه لم يعلن عن وجهته، حتى لأهله، إلا متأخرا. كان الناس يتجهزون للخروج في مهمة، لكنهم لا يعرفون العملية التي تنتظرهم وعندما اضطر قبيل التحرك للإعلان عن وجهته، نظراً لصعوبة المهمة، وبعد السفر، أمر صحابته بالمحافظة على السرية التامة، كي يستطيع تحقيق المفاجأة. تحقيق المفاجأة: وقد تمكن جيش المسلمين، نتيجة التشدد في المحافظة على السرية التامة، من مفاجأة المشركين، والظهور فجأة على مقربة من مكة بقوات كبيرة لا قبل لقريش وحلفائها بمواجهتها. اللجوء إلى الحرب النفسية: فقد تعمد الرسول ﷺ نشر قوات على بقعة كبيرة من الأرض. ولما أشعلوا نيرانهم ليلاً، غطوا منطقة واسعة جداً، عرف أبو سفيان الأموي من كثرتها أنها أكبر من أن تكون نيران خزاعة أو غيرها فأصابه كثير من الوجع، وبدأ الخوف يتسرب إلى نفسه من أن يكون ما يراه قوات المسلمين جاءت مهاجم مكة ولما سمع العباس عم الرسول ﷺ حديثه مع صاحبه «بديل بن ورقاء» وهو الرجل الحكيم الخبير بالرجال ونفسياتهم، اغتنم الفرصة وهول الأمر على أبي سفيان الأموي، حتى أقنعه بالاستسلام. واستكملت الحرب النفسية على رئيس مكة بأمر الرسول ﷺ بوضعه في مكان بحيث تم تجميع قوات المسلمين بأسلحتها وعنفوانها أمامه، الأمر الذي ثبط عزائمه، وجعله يجد عزته وعزاه في إعلان استسلامه بصياحه «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»<sup>(١)</sup>. توزيع القوات: رغم موافقة أبي سفيان الأموي على تسليم مكة، فقد كان الموقف يتطلب الحيلة والحذر، والاستعداد الدائم لأية مواجهة مفاجئة. ولذلك فقد أمر الرسول ﷺ بتوزيع قواته، ودخولها من عدة جهات في أربعة أرتال. حكمة التصرف بعد النصر: لم يبدر عن الرسول ﷺ بعد دخوله مكة أي تصرف يمكن أن يثير المنهزمين. فهو فاتح ليس كغيره من المحتلين. وهو يعود إلى بلده وأهله، لا يحمل غلا ولا حقدًا، ولا يجد في انتصاره وسيلة للتكبر أو التجبر. ويعبر عن سروره بالفتح بتواضع جم، وشكر لله ظهر في إطراقه رأسه على راحته ثم طوافه بالبيت وأدائه للصلاة. واستطاع في موقف إنساني نبيل أن يستميل أهل مكة، وهم الذين وقفوا ينتظرون حسابهم، فلماذا بالرسول ﷺ يعفو عنهم ويقول لهم «أذهبوا فأنتم الطلقاء» وهذا التصرف الحكيم جعلهم يدخلون في الدين الجديد دون استثناء تقريباً. نهاية الوثنية: كان من أهم نتائج فتح مكة تحطيم الأوثان وزوالها من حياة العربي وعقيدته إلى الأبد. فقد كانت مكة وما جاورها مركزاً لأهم أصنام العرب، وما هي هذه الأصنام تقع تحت ضربات فؤوس المسلمين فتتحطم وتهوى على الأرض كأي جدار قديم، بل وتداس بالأقدام، فلا تتسقم لنفسها، ولا يشور لكرامتها أية قوة غيبية كان بعض العرب يعتقدون بوجودها. ظهور

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٢٧

المسلمين قوة عظمى فى جزيرة العرب: وبعد فتح مكة، وتحقق أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش فى الإسلام، برزت قوة كبرى فى الجزيرة العربية، لا يستطيع أى تجمع قبلى الوقوف فى وجهها وهى مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله كى يدخلوا فى دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه<sup>(١)</sup>.

### معركة حنين

بقي رسول الله محمد ﷺ فى مكة بعد الفتح حوالي عشرين يوماً أشرف خلالها على تحطيم الأصنام، واهتم ببعض القضايا التنظيمية والإدارية ومن بينها تأمين نفقة الفقراء من أصحابه الذين رافقوه فى الفتح والذين لم يحصلوا على أية غنيمة ذلك لأن الرسول منع استباحة مكة أو سلب أموال أهلها، فاستدان مالا من بعض أغنياء مكة، وقد أعاد الرسول ﷺ المال الذى استلفه إلى أصحابه بعد أن نصره الله على قبيلة «هوازن» فى غزوة «حنين» هذه الغزوة التى أورثت على المسلمين مغنم كثيرة<sup>(٢)</sup>.

لم يكد ينقضى شهر واحد على مغادرة الرسول المدينة حتى بلغه أن قبيلة هوازن، المقيمة فى سفوح الجبال القائمة شرقى مكة، كانت تحتشد فى أعداد كبيرة لشن هجوم على المسلمين. كان تعاظم قوة الإسلام بعد هدنة الحديبية قد أزعجها وأقلقها. وكانوا قد شرعوا، قبل فترة طويلة من فتح مكة، يثيرون القبائل البدوية ويحرضونها على الإسلام. حتى إذ سقطت مكة بدا لهم أن عليهم أن يفتنموا أول فرصة لتسديد ضربة إلى الإسلام، خشية أن يمسى أقوى من أن يقدروا على كبته. وإذا كانوا أقوياء متمرسين بالحرب فقد وفقوا إلى حشد قواهم فى أيام معدودات. ولم يكن نبأ تلك الاستعدادات يتصل بالنبي حتى بعث من يتبين حقيقة الأمر. فإذا بهذا الذى بعثه يؤكد له أن النبأ صحيح. وفى الحال انصرف الرسول إلى تعبئة جيش يشتت به قوى هوازن. وكان تحت إمرة الرسول فى تلك اللحظة عشرة آلاف مقاتل هم الذين غزوا مكة وفتحوها فانضاف إليهم ألفا متطوع ممن أسلم من قريش، وبذلك أسمى الجيش الإسلامى مؤلفاً من اثني عشر ألفاً، سار الرسول على رأسهم إلى وادى حنين حيث احتشدت هوازن. وبالإضافة إلى القوة البشرية زود المكيون المسلمين بقدر من الأسلحة كبير. وكان فى القوة العددية، مردفة بالتجهيز الكامل، ما أوقع الزهو فى قلوب فريق من المسلمين. ولكن الله شاء ان يظهر أن الفتوح الإسلامىة كانت ثمرة العون الإلهى ليس غير، ولم تكن بأية حال ثمرة قوة السلاح الإسلامى. فقد كانت ثمة مواقع وفق فيها المسلمون بتأييد من الله، إلى التغلب على جيوش عدوه بلغ أفرادها ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف عددهم هم، بل عشرة أضعاف

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥١٩ .



عددهم أيضاً. أما عند انطلاق شرارة القتال فى ساحة حنين فقد تعين على المسلمين أن يذوقوا طعم الانتكاس، برغم أعدادهم الكبيرة وأسلحتهم الموفورة كان الازدهاء بتلك القسوة قد خامر قلوب بعضهم. ولكن الله ما كان ليرضى لهم أن يستشعروا العجب والغرور، كان يؤثر أن يراهم دائما ينظرون إليه بوصفه سناد قوتهم الأوحد. ولقد وصف القرآن الكريم هذا المشهد<sup>(١)</sup>.

لم يبق على الشرك إلا بعض القبائل مثل «هوازن» و«ثقيف» التي سمعت بفتح مكة وقررت أن تقوم بغزو المسلمين<sup>(٢)</sup>، لأنهم غدوا معزولين يتهددهم خطر مماثل للخطر الذي حل بقريش فقرروا أن يبادثوا رسول الله محمد ﷺ بالحرب ومهاجمته قبل أن يستكمل استعداداته<sup>(٣)</sup>.

كان رجال هوازن بارعين فى الرماية، وكانوا إلى ذلك قد احتلوا جميع المراكز الاستراتيجية الممتازة. لقد ركزوا خيرة رماتهم فوق مختلف الهضاب. فكان على المسلمين أن يقتنعوا باحتلال موقع غير ملائم. لقد انهال عليهم من كل جانب وابل من نبال، فى حين انقض عليهم الجيش الرئيسى من أمام. وكان خالد بن الوليد فى مقدمة جيش المسلمين، وتحت إمرته قوات المتطوعين المكيين، وفى جملتهم جماعة من غير المسلمين. وكانت هذه القوات هى التى تلقت الصدمة الأولى، فى المعركة، ولكنها لم تستطع الصمود لضراوة الهجوم. فإذا بتراجعها يوقع البليبة فى صفوف المسلمين. لقد انقلبت على أعقابها فى اضطراب كلى. وحتى سرايا المهاجرين والأنصار شاركت فى الانكفاء العام. وهكذا ترك الرسول، مع عمه العباس ونفر آخرين، تحت رحمة جموع العدو الزاحفة. لقد رأى إلى الجيش الإسلامى ينكص على عقبيه، ولكنه ثبت فى موقعه المحفوف بالخطر فى رباطة جأش عجيبة. وكان العدو يشد عليه شدة ضاربة، وكان هو وحيداً أو يكاد، ولكن ذلك لم يعكر صفاء ذهنه أضال تعكير، ألم يكن أمناً فى رعاية أقوى الأقوياء الكلية؟ إن معين السلوان الذى لا يخطئ - ذلك الإيمان غير المتزعزع بالتأييد الإلهى والثقة المطلقة بانتصار قضيته النهائى - قد ثبته الآن كشيئته إياه من قبل. فلزم الساحة منفرداً، والعاصفة العدو تدوم منقضة عليه، وأنشأ يصيح بأعلى صوته، على نحو مكرور. «أنا النبى لا كذب» «أنا ابن عبدالمطلب» وهتف العباس أيضاً بصوته الجمهورى: «يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة!» فجاءه الجواب من كل صوب، وقد أخذت القوات المشتتة تحتشد حول النبى، «لييك! لبيك!» لقد ترجل المسلمون عن خيلهم وإبلهم وانقضوا على العدو الزاحف انقضاضاً مسعوراً جعله لا يقوى على الثبات فى وجههم. ففر فريق<sup>(٤)</sup>. وقاوم فريق فترة من الوقت يسيره. حتى إذا صرع حامل رايتهم ولو هم أيضاً الأدبار.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢١١

(٢) محمد محمد البيلى يونس - المرجع السابق ص ١٧١.

(٣) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٢١.

(٤) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢١٢.

يقول الربيع بن أنس<sup>(١)</sup> «قال رجل يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله محمد ﷺ فكانت الهزيمة»<sup>(٢)</sup>. وعن ابن إسحاق قال: «سمعت البراء رضي الله عنه، وجاءه رجل فقال: يا أبا عمارة أتوليت يوم حنين»<sup>(٣)</sup>.

وكان قائد هوازن، مالك بن عوف النصري، وهو شاب متهور في الثلاثين من عمره، قد أمر النساء والأطفال بمرافقة قواته لقد خيل إليه أن وجودهم سوف يبقى معنويات رجاله قوية، ويحول بينهم - إذا ما أصابتهم محنة - وبين الانقلاب على أعقابهم. بيد أنهم سرعان ما غادروا كل شيء: نساءهم وأطفالهم وأنعامهم وولوا الأدبار. فإذا بالغزيمة التي غنمها المسلمون تتألف من أربعة وعشرين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. ليس هذا فحسب، بل لقد أسر المسلمون ستة آلاف مقاتل منهم. وبعد أن نقل الجيش الإسلامي تلك الغنائم إلى مكان آمن، واصل زحفه. وكان فريق من الجيش المهزوم قد فزع إلى معقله في أوطاس، فبعث الرسول حفنة من المسلمين إلى هناك لكي يشتوهم. أما الجماهرة العظمى من أفراد ذلك الجيش فاحتتموا ضمن أسوار الطائف الحصينة ذات الشرفات. كانوا بارعين في صناعة الحرب، متمرسين باصطناع الأسلحة الحديثة، كالمنجنيق وغيره، وكانوا قد ادخروا أيضا ضمن الأسوار مؤنًا تكفيهم عامًا كاملاً، وأقاموا حاميات قوية حولها. واندفع الرسول بقواته إلى هناك، مباشرة، وألقى الحصار على البلدة. وبمساعدة بعض القبائل وفق الجيش الإسلامي أيضا إلى اصطناع الأسلحة الجديدة. وتطاول الحصار، وأخيراً شاور الرسول أصحابه في الأمر. وأبدى أحد زعماء الأعراب المجريين ملاحظة هامة فقال: «إنما ثقيف في حصنها كالثعلب في جحره، لا سبيل إلى اخراجه منه إلا بطول المكث. فإن تركته لم يلحقك منه ضرر» وإذا استيقن الرسول أن العدو لم يعد قادراً على إنزال أيما أذى بالمسلمين، أمر برفع الحصار عن الطائف، ذلك بأن وقاية الإسلام من الهجمات المعادية كان هو غرض الحملة الأوحده. وفيما الرسول ينسحب سئل أن يستنزل الغضب الإلهي على العدو - فقد كان ذلك هو الموطن نفسه الذي رجم فيه، ذات يوم، حتى سال الدم من جسده. فما كان منه إلا أن دعا الله لهم بهذا الدعاء: «اللهم اهد ثقيفًا، وقدهم لي»، يعنى إلى الإسلام. واستجاب الله دعاء الرسول، وما هي غير فترة يسيرة حتى اعتنق الثقفيون الإسلام طائعين وهذا مثل آخر على حب الرسول العميق للجنس البشري<sup>(٤)</sup>.

هل شنت هذه الحملة ابتغاء نشر الدين؟ إذا كان هذا، كما يزعم الزاعمون، هو الهدف من حروب الرسول، فلم رفع الحصار عن البلدة؟ هل فعل ذلك لأن الموقف كان ميؤوسًا منه؟ لا فلو أنه أطال أمد الحصار بضعة أيام أخرى، اذن لاستسلم العدو وطرح السلاح. لماذا تركهم وشأنهم من غير

(١) ابن هشام - ٢ / ٤٣٩ - ٤٤٠.

(٢) فتح الباري: ٨ / ٢٧.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٨ / ٢٧ - ٢٨ حديث رقم ٤٣١٥.

(٤) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢١٣.

أن يخضعهم لسلطانه أو يكرههم على الدخول في دين الله؟ ألم يكن الرسول يفقه الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ...﴾ [الأنفال] فإذا كانت هذه الكلمات: «ويكون الدين لله» تقضى، ضرورة، بفرض الإسلام على الناس، كما يساء فهمها اليوم، فلم يخالف الرسول الأمر الإلهي الصريح، بقبوله أحكام هدنة الحديبية، عند فتح مكة، ورفعه الآن الحصار عن الطائف؟ ولكن الواقع أن الرسول فهم مفاد الأمر الألهي. إن الكف عن الاضطهاد لم يعن شيئاً أكثر من أن المسلمين لن يضطهدوا بعد اليوم من جراء اعتناقهم الإسلام. وقوله تعالى: «ويكون الدين لله» لا يقضى بغير توطيد الحرية الدينية. يجب ان يصبح المرء حراً في اختيار الدين الذي يحب، لأن هذه مسألة بين الإنسان وخالقه. هذا وليس شيئاً أكثر هو المراد بقوله تعالى «ويكون الدين لله». ولقد كان ذلك هو السبب الذي من أجله أصدر الرسول أمره برفع الحصار عن البلد، حالما اقتنع بأن العدو لم يعد قادراً على إيذاء المسلمين. وإلى هذا، فقد كان الجيش الإسلامي ينتظم، آنذاك، جماعة من المكيين غير المسلمين أيضاً. فلو قد كان نشر الدين بالقوة هو الهدف إذن لكان خليقاً بهؤلاء القوم أنفسهم أن يكونوا هم أول من يستشعر حد السيف الإسلامي<sup>(١)</sup>.

هذا يظهر بجلاء أن معركة حنين كانت مثل جميع معارك الرسول الأخرى. مجرد إجراء دفاعي قومي. صحيح أن الرسول أغار على العدو، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد شروع ذلك العدو في الاعتداء على المسلمين بعد أن تعرضت السلامة الإسلامية للخطر. وما إن شتت قوى الأعداء ولم يبق ثمة أيما خوف من تعرض المسلمين لأذاهم حتى أوقف العمليات الحربية. وحتى لو كان التوسع الإقليمي هو هدف الرسول، بل نشر الإسلام بالسيف، إذن لما رجع من غير أن يخضع الطائف. وهذا يظهر أن التوسع الإقليمي نفسه لم يكن هدف حروب الرسول، فما قولك بنشر الدين بقوة السلاح! ولدن عودة الرسول من الطائف قسم الغنيمة بين أفراد الجيش الإسلامي، فاصلاً الخمس، جرياً على مألوف عاداته، للخزانة العامة. وكانت بين السبايا أيضاً أخت للرسول من الرضاعة، هي الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى. وأدخلها القوم على رسول الله محمد ﷺ فلم يكدها يعرفها حتى بسط لها رداءه لكي يجلسها عليه، وأحاطها بمجالى الكرم والاحترام. إن الشيماء لم تكن أخته الحقيقية. ولكن أيما أخت حقيقية لم تشرف في أيما يوم على نحو أفضل وأسخر. ثم إنه اقنعها بمرافقته إلى المدينة، ولكنها قالت إنها تؤثر البقاء مع قومها. وهكذا أعيدت إليهم مزودة بهدايا لطيفة<sup>(٢)</sup>.

ظلت ثقيف بادئ الأمر على عنادها ولم تعلن إسلامها كحليفتها «هوازن»، ولكن ما لبث بعض رعمائها أن أدركوا أنه لن يتاح لهم الصمود طويلاً في موقفهم المعادي للرسول ﷺ بعد أن

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٢١٤.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٢١٥.

دانت له الجزيرة العربية وغدا على جانب من القوة لا ينفع معه عنادهم وكان على رأس هؤلاء الزعماء الثقفيين عروة بن مسعود الذي لحق بالرسول ﷺ في المدينة وأعلن إسلامه واستأذن في العودة إلى الطائف لتحويل عشيرته إلى الإسلام وحين عاد إلى مدينته وأعلن إسلامه وجد معارضة شديدة من بعض رجالات قومه أدت إلى مقتله، على أن هدف هذا الموقف المعادي لم يدم طويلا واضطرت ثقيف في النهاية إلى إرسال وفد منها إلى المدينة ليعرض على الرسول الصلح والاتفاق<sup>(١)</sup>.

قدم على الرسول وفد من هوازن يلتمس إطلاق الأسرى وبسط الناطق بلسان الوفد، على مسامح الرسول، جميع البلايا التي ينوء بها قومه. فأى جواب كان يجدر بفاتح من أعرق الفاتحين في المدينة أن يكون؟ كان خليقاً بذلك الفاتح أن يقول شيئا كهذا: «أنا أدرك مصاعبكم، ولكن الأوان الآن قد فات. لقد كان قميئاً بكم أن تفكروا في ذلك قبل أن تقدموا على الإغارة علينا لكي تسحقوا قوتنا. ولو انكم كسبتم أنتم المعركة إذن لعاملنمونا على نحو أسوأ» أليس هذا هو الجواب النموذجي الذي ترد به توسلات عدو مهزوم في عهود الحضارة هذه؟ ولكن فؤاد الرسول كان مفرغاً في قالب أكثر نبلا. كانت رحمته لا تعرف حدوداً. وكان من حق العدو ان يطعم في رافة الرسول السابغة كما يطعم فيها أيما كائن بشري آخر. فقد كان من دأب فؤاد الرسول أن يتفطر حزناً لأضال مشهد من مشاهد السبوس البشري. فكيف يطيق صبراً على رؤية الآلاف يجرعون كأس الألم؟ ومن هنا سارع إلى إطلاق سراح الأسرى الذين اتفق أن كانوا من نصيبه ونصيب أسرته. ولكنه قال إنه لا يستطيع أن يتعرض لحقوق الآخرين، وإن في ميسور هؤلاء أن يتخلوا عن نصيبهم من الأسرى إذا شاءوا. يا له من مثل رائع على المساواة في الحقوق البشرية! وليس من ريب في أن أولئك الذين ضحوا، في ابتهاج، بثروتهم، وبممتلكاتهم، بل حتى بأرواحهم، من أجله لن يحملوا البتة بأن يضمنوا عليه بهذا الفضل: فضل تسريح أسراهم تسريحاً شاملاً. ولكنه ما كان للرسول الذي جاء ليعزز المساواة بين البشر، أن يعتدى على حق الآخرين في ممارسة حقوقهم بحرية كاملة. إن الملك، أو الأمير، لا حق له - في الإسلام - على ممتلكات الفرد. ولكن قلب الرسول، في الوقت نفسه، يقطر الماء، في حنايا صدره، بسبب من أولئك القوم الذين ألم بهم بلاء عظيم. كان شديد التوق إلى مساعدتهم على الخروج من محنتهم. ولقد سألهم أن يقدوا مرة واحدة، قبيل صلاة العصر، وعندئذ يعرض مطالبهم على الجماعة الإسلامية، ويسألها أن تنظر فيه بعين العطف<sup>(٢)</sup>.

وهكذا وفدوا عليه في الميقات المضروب، فتم تسريح ستة آلاف أسير بفضل شفاعة الرسول. والواقع أنها حادثة يعز نظيرها في تاريخ العالم كله. أن يغدق الرسول مثل هذه المعاملة الكريمة على وفد من الوثنيين، وأن يستشفع المسلمين لمصلحة المشركين! حتى مناظير التحيز المسيحي المضللة تعجز

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٢٧.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢١٦.

عن تقديم تفسير لتحرير هؤلاء الأسرى الستة آلاف من غير اشتراط الدخول فى الإسلام. وإنه لمن المؤلم جداً ان نرى من كان تجسيدا للرحمة ورقة القلب يصور وكأنه قاتل متعطش للدماء، القرآن فى إحدى يديه وسيف متدل من يده الأخرى لكى يضرب به رأس من يتردد فى الإيمان بالكتاب! . وبعد قسمة الغنيمة أعذق الرسول الأعطيات على بعض الزعماء القرشيين والبدو من حصّة الخزانة العامة. فكان فى ذلك ما أثار بعض الدمدمات المكبوحه بين بعض الشبان من الأنصار. لقد تدمروا قائلين أن الرسول حابى عشيرته فى توزيع الغنائم<sup>(١)</sup>.

وفى ميسور المرء، بسهولة أن يتخيل بأية طريقة لا تعرف الرحمة كان خليفق بأحد الحكام المستبدين أن يعالج هذه الوقاحة. فقد تغيرت نفوس الأنصار بعض الشيء وساورتهم الشكوك فظنوا أن رسول الله محمد ﷺ صار فى غنى عنهم بعد أن لقي قومه فلم يعد يحفل بهم ولا يعنى بشأنهم كما كان من قبل فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة التاريخية التي يتجلى فيها حسن سياسته وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب إليه ومهارته فى إعداد سامعيه وتهيتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى أبعد حد<sup>(٢)</sup>. فقد بين للأنصار فى عبارة سلسة أخاذة نعمة الإسلام عليهم، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وإبواهم إياه ومواساتهم له ثم عتب فى كياسة وظرف تطلعهم إلى هذا الفيه الذي أفاءه الله عليهم ففرقه فى حديثي عهد بالإسلام تطيبيا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة معتمدا على حسن إسلام الأنصار وصدق رغبتهم فى نشر الدين وإعلاء كلمة الله ثم أكد محبته إياهم وإيثارهم على غيرهم من العرب وأخيرا أعلن إليهم أنه منهم ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبناءهم، فلا عجب إذ بكى الأنصار بعد هذه الخطبة الرائعة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم وعدوا ذلك غنما عظيما<sup>(٣)</sup>. ولكن الرسول دعا الأنصار وحدثهم فى لطف بالغ قائلا: «يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتنى عنكم وجيدة وجدتموها فى أنفسكم؟».

وإذ كانوا قد نشأوا فى ظل سلطان الرسول الأديب فقد وجدوا الجرأة على إنبائه بالحقيقة الصريحة، معترفين بأن فريقا منهم كان يتحدث بمحاباة الرسول زعماء قريش. عندئذ قال لهم الرسول: «ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟» فأجابته الأنصار: «بلى، الله ورسوله أمن وأفضل» فتابع الرسول: «أما والله شتتم لقلتم فصدقتم وصدقتكم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخدولا فنصرناك، وعائلا فأسيناك. يا معشر الأنصار أوجدتم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا أى هل غضبتهم لانى أعطيت فريقا من الناس شيئا يسيرا من عرض

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ٢١٧.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٤٥.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن - نفس المرجع ص ١٤٥.

الدنيا لكي أتالفهم فيسلموا. ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترخصون، يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار. ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار! والواقع أن تفجر فؤاد الرسول العفوى هذا ليظهر عزوفه عن عرض الحياة الدنيا. وتأثر الأنصار لذن سماعهم كلامه تأثيرا عظيما، وفاضت دموع الفرح من عيون كثير منهم، بعد أن أدركوا ان الرسول نفسه سيكون رفيقهم، وأنهم كانوا بذلك أوفر الناس حظا<sup>(١)</sup>.

دروس من حنين والطائف: الدرس الأول من غزوة حنين: هو أن الكثرة ليست دائما هي سبب النصر، ويؤكد ذلك القرآن الكريم بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعَجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبْتُمْ وَلَيْتُمْ مُدَبِّرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة]. فللنصر عوامل كثيرة قد يكون التفوق العددي أحدها، ولكنه ليس العامل الوحيد. ولعل الحروب العربية مع اليهود في العصر الحاضر أكبر شاهد على تأكيد ذلك. فالعرب أكثر من اليهود بعشرات المرات، ومع ذلك لم يستطيعوا حتى الآن استرداد الأرض المغتصبة. هناك عوامل كثيرة غير العدد تؤمن التفوق لطرف ما على الآخر يجب ألا يفهم من هذا أن العرب استخدموا طاقاتهم في حروبهم مع إسرائيل، فالعكس هو الصحيح. والمقصود من هذا الكلام لفت العرب لاكتشاف مصادر الضعف ومواطن الخلل التي تحول بينهم وبين النصر. الدرس الثاني: أهمية العقيدة في تحقيق النصر، فلما انهزم جيش المسلمين في بداية معركة حنين لم يثبت مع النبي إلا المسلمون الأولون، راسخو الإيمان بينما كان حديثو العهد بالإسلام أول المنهزمين، وبينهم فرسان شجعان عرفوا بالبأس والثبات. الدرس الثالث: أثر المعنويات البالغ في تحقيق النصر. فما ان سمع المسلمون صوت العباس يضرب على الوتر الحساس، فيذكر الأنصار بمواقفهم السابقة حتى اندفعوا نحو مصدر الصوت ملبيين، ومن منعه فرسه أو أخره بعيره عن ذلك تخلى عنه وتقدم راجلا بسيفه وترسه<sup>(٢)</sup>. الدرس الرابع: أهمية القيادة التي تعد قدوة المقاتلين. فلو كان على رأس جيش المسلمين قائد غير الرسول ﷺ، وكان من الهاريين، كما فعل قائد قوات المشركين، لكانت نتيجة المعركة مختلفة تماما. الدرس الخامس: عندما يتحصن العدو في مكان منيع فليس من الضروري هدر الطاقات الجيش في حصاره، طالما هو لا يستطيع التأثير على مجريات الأمور، ولا يؤثر في المجهود الحربي للأصدقاء. ولهذا تجنب الامان الذين اكتسحوا أوروبا في الحرب العالمية الثانية الدخول إلى المدن بدباباتهم السريعة واكتفوا بالالتفات حولها ومتابعة تقدمهم. الدرس السادس: أنه مهما كان الجيش انضباطيا فقد تحدث ثغرات تؤثر في معنوياته، وربما استغلها

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢١٨.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٤١.

العدو لينفذ من خلالها إلى قلوب عساكره. والقيادة الناجحة تلاحظ معنويات الأفراد التابعين إليها ولا تترك مجالاً للتأثير فيها. فلما تأثر الانتصار من توزيع الغنائم بالشكل الذي بدا لهم أنه غير عادل، سارع الرسول إلى تطييب خواطرهم. ومع أنه اعطاهم كلاماً، وأعطى غيرهم مالا، فقد كانوا مسرورين راضين. **الدرس السابع:** إذا كان بعض الناس يباعون ويشترون، فإن القائد الناجح لا يبخل في شرائهم، ولكن عليه أن يتنبه إليهم فلا يسمح لهم ببيع أنفسهم بعدما يصبحون في صفوفه؛ فالذي يباع مرة يباع مرات، وهو رهن إشارة الذي يدفع أكثر. ويمكن ضمان ولائهم بدعوتهم إلى الإسلام وتعزيز قيمه في عقولهم وقلوبهم. فإذا ما دخل الإيمان قلوبهم تعذر على العدو شراؤهم. كذلك يمكن إغراء أصحاب النفوذ ليتقلوا إلى صفوف الأصدقاء بما لا يخالف العقيدة. ولهذا فقد أغرى الرسول مالك بن عوف النصرى قائد المشركين في حنين حتى هرب من الطائف. ولم يوافق على ترك صنم ثقيف يوماً واحداً، عندما جاءه وفدها مفاوضاً<sup>(١)</sup>.

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة تاركاً بني ثقيف في الطائف جزيرة في بحر من المسلمين، ولم تمض أشهر حتى أدركت ثقيف أنها لا قدرة لها على محاربة العرب الذين دانوا بالإسلام، فأرسلت وفداً يفاوض الرسول ﷺ، ودارت بين الوفد وبين الرسول مفاوضات طلب فيها تنازلات في العقيدة، منها: أن يسمح لهم بالزنا والربا وغيرهما، ويترك لهم صنمهم «اللات» لمدة ثلاث سنين. وكان الرسول يرفض طلباتهم الواحد تلو الآخر، حتى اقتصر على مطلب واحد، ظنوه صغيراً ومقبولاً وهو: أن يترك لهم «اللات» شهراً واحداً، ولكنه أبى أن يتركه يوماً واحداً، ففي أمور العقيدة لا مساومات ولا تنازلات. عندها أعلنوا إسلامهم وكتب لهم الرسول كتاباً، وعين لهم قائداً من أصغرهم سنّاً، هو عثمان بن أبي العاص لما رأى فيه من علامات النجابة والحرص على تعلم القرآن والتفقه في الدين، ولم يمنع صغر سنه من تعيينه، فالعمر لا يدخل في حساب المزاي إلا عندما تتساوى بقية الصفات في عدد من الأشخاص المؤهلين. وأرسل معهم أبا سفيان والمغيرة ابن شعبة لهدم «اللات»<sup>(٢)</sup>.

فلما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال له: «ادخل أنت على قومك، ولما شرع المغيرة في هدم (اللات) قام أهله «بنو معتب» دونه يحمونه خشية أن يرمى كما رمى عروة بن مسعود، وخرجت نساء ثقيف حسراً يبكين على صنمهم، على أن أهل الطائف الذين حرصوا على وثنيهم كل الحرص ودافعوا الرسول ﷺ عنها بهذه الحماسة أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصاً على الإسلام وذوداً عنه حتى في محنة الردة<sup>(٣)</sup>. وقدموا للدولة الإسلامية عددًا من أشهر قادتها ورجال السياسة فيها.

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٣) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٤٦ .

بدأ الرسول يبعث السرايا إلى مختلف الجهات في الجزيرة التي دانت له في معظمها، وكانت مهمات هذه السرايا مختلفة عما سبقها. فقد أرسل الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لجمع الصدقات وأرسل قطبة بن عامر في صفر سنة ٩ هـ إلى بني خثعم بناحية تبالة واد كبير ذو قرى ومياه ونخل يقع جنوب شرق الطائف. في عملية إغارة ليلية. وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي في سرية إلى بعض بني بكر اسمهم «القرطاء»، وعلقمة بن مسجر المدلجي في ربيع الثاني سنة ٩ هـ إلى جهة نحو الساحل، لاخبار سمعها عن رؤية أحباش في مراكب في البحر.

وبعث رسول الله محمد ﷺ سرية علي بن أبي طالب إلى «الغلس» وهو صنم «طيء» يهدمه وكان ذلك في شهر ربيع سنة تسع إذ بعثه في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ولواء أبيض فشنوا المسلمون الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر فهدموا «الغلس» وخرّبوه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاة وهرب عدي إلى الشام<sup>(١)</sup>.

غزوة تبوك: أثار انبثاق الإسلام في بلاد العرب قلق الدولة المسيحية المجاورة. لقد راقبت، بعين حسود، هذا النمو السريع الذي عرفه الإسلام. والواقع أن عواطف المسلمين كانت دائما مع اليهود والمسيحيين بوصفهم أعداء الوثنيين وعباد النار. فحسب اكتسحت جيوش الفرس الأجزاء الآسيوية من الإمبراطورية الرومانية وقرعت أبواب القسطنطينية ولاحت النهاية المشؤومة لكل عين، تنبأ القرآن الكريم بأن الامبراطورية الرومانية سوف تهزم فارس قبل انقضاء تسعة أعوام: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الرُّومِ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْدَأِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [الروم] وهكذا عندما انتصر المسلمون في بدر وفقت الإمبراطورية الرومانية إلى استرداد أراضيها المفقودة، واندفعت قواتها حتى بلغت تخوم فارس نفسها. ولكن الامبراطورية الرومانية لم تستطع أن تغضى عن تعاظم قوة الإسلام أو ترضى به. وكانت مناوشة قد حدثت ذات مرة، في مؤتة، بين المسلمين والبيزنطيين. حتى إذا تسامعت ديار الشام، الآن، بأن بلاد العرب كلها أنشأت تنضوى تحت لواء الإسلام، تطرق الحسد الديني إلى نفوس المسيحيين. كان الأمل قد راودهم في أن يوفقوا إلى تنصير بلاد العرب. ولقد خيل لهم أن هجوماً يشنونه على الجزيرة خليق به على الأقل أن يعوق انتشار الإسلام. وبلغ المسلمين أن قيصر قد عبأ قوة ضخمة لسحق الإسلام، وأن القبائل المسيحية في بلاد العرب قد تضافرت معه. وكانت قبائل غسان، بخاصة، مصدر خطر على أمن الجزيرة العربية. فلم يكد النبي يتلقى ذلك النبأ حتى أمر بإعداد جيش يزحف إلى تخوم الشام. إن القرآن الكريم يوصى بتحسين الحدود، كاحتراز من غزو مفاجئ والرسول، لم يدخر، من

(١) د. السيد الحميلي - المرجع السابق.



ناحية روحية، وسعاً لحماية قومه من جميع هجمات الشيطان المحتملة. وهكذا لم يكن في استطاعة أن يستخف بالأنباء المتوالية عن استعدادات قيصر الضخمة لإبادة الإسلام<sup>(١)</sup>.

لما رأى هرقل ملك الروم أن المسلمين أخضعوا جزيرة العرب كلها تقريباً لسيطرتهم، أدرك الخطر القادم من الجنوب الذي يهدد بلاده بالاجتياح وملكه بالزوال، وبخاصة أن الإسلام دعوة للناس كافة، وسيعمل المسلمون على تأمين حرية انتشاره، وهو دعوة تستهوى سكان تلك البلاد الذين كانوا يعانون من الظلم والاضطهاد وينوؤون تحت ثقل الضرائب المفروضة عليهم. وقد دخل في الدين الجديد عدد من القبائل المتاخمة لبلاد الشام، والتي كانت تخضع لنفوذ الروم وتساعدهم، فقرر هرقل التحرك للقضاء على الخطر قبل استفحاله، فدفع لجماعته إعطيات عام كامل، وحشد أعداداً هائلة من المقاتلين في بلاد الشام ومعهم قبائل لخم وجذام وعاملة وغسان لغزو حدود العرب الشمالية والقضاء على سيادة الإسلام هناك، أما الأسباب التي دعت رسول الله محمد ﷺ إلى غزوة «تبوك» فهي حماية حرية نشر الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية بعد أن انتشر داخلها وتقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لاستعمار واحتلال الروم ومحو أثر الانسحاب للمسلمين من «مؤتة» من النفوس<sup>(٢)</sup>.

بلغ الرسول ﷺ نبأ تلك الحشود فقرر المبادرة بالهجوم وأمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، في عسرة من الناس وشدة من الحر، وأعلم الناس بنيته ووجهته لبعده المسافة وكثرة العدو، وليعلم الجيش ما سيواجهه من مصاعب فيحتاج لها، وطلب من صحابته التبرع لتجهيز الجيش، فتبرعوا بسخاء. وبعد استكمال الاستعدادات تحرك الجيش نحو الشمال في رجب سنة تسع للهجرة وكان تعداده ثلاثين ألف مقاتل معهم عشرة آلاف فرس ولما وصل الجيش إلى تبوك وجد الروم قد تفرقوا. فهم لما علموا بقوة جيش المسلمين وصلابة عود مقاتليه وارتفاع معنوياتهم قرروا عدم الاصطدام به، فأقام الرسول في تبوك عشرين يوماً، وأتاه فيها يحنة بن رؤبة صاحب أيلة هي «العقبة» الميناء الأردني على البحر الأحمر حالياً فصالحه رسول الله على الجزية. وأتاه كذلك أهل جرياء وأذرح فأعطوه الجزية، وكتب لهم كتاباً. ثم دعا الرسول ﷺ خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر بن عبدالمطلب ملك دومة الجندل، وكان مسيحياً من قبيلة كندة، فأسره خالد وجاء به إلى رسول الله ﷺ فصالحه على أن يدفع الجزية وخلقى سبيله وبعدها أمضى الرسول في تبوك عشرين ليلة، عقد في خلالها معاهدات صلح مع أمراء تلك المنطقة، وأظهر لهم قوة جيش المسلمين، عاد إلى المدينة فوصلها مظفراً في رمضان سنة ٩هـ<sup>(٣)</sup>.

نتائج غزوة تبوك: منع الروم من تحقيق أهدافهم المتمثلة في ضرب الدين الإسلامي ومنع انتشاره. وهذا وحده يعد نصراً كبيراً. إظهار قوة المسلمين للروم وزرع الخوف في قلوب الأعراب

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(٢) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص ١٧٩ .

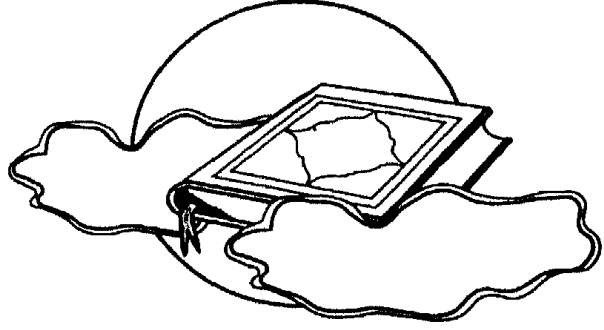
(٣) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٤٧ .

الذين كانوا لا يزالون على شركهم، فهو قد رأوا بعينهم القوة العظمى فى ذلك الوقت (الروم) تخاف المسلمين وتتحاشى لقاءهم. رفع معنويات المسلمين الذين كانوا يتحاشون حرب الروم ويخافونهم حتى أن بعضهم تخلف عن المشاركة فى تلك الغزوة. حسمت حركة المسلمين إلى تبوك تردد القبائل العربية التى كانت تتأرجح بين تأييد الروم والدخول فى الإسلام، فأخذت وفود القبائل تؤم المدينة خاضعة مذعنة معلنة إسلامها وتأييدها. أدت تلك الغزوة إلى إقامة تماس مباشر مع الروم وتنظيم «نقاط ارتكاز» سيكون لها دور فى الفتح الإسلامى لبلاد الشام فيما بعد<sup>(١)</sup>.

---

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٤٨ .

# الفصل الثامن



رسول الله محمد ﷺ  
القائد الأعلى  
للقوات الإسلامية



## رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية

بعدما درسنا نماذج مختلفة من أعمال الرسول ومعاركه «غزواته وسراياه»، وتبين لنا أنه كان - بجانب أنه نبي الله - زعيما شعبيا محبوبا، وقائدا عسكريا متميزا، وسياسيا بارعا، لم تعرف البشرية له مثيلا، تجلي ذلك في أثره بأتباعه، وحسبهم له، واحترامهم لشخصه، وطريقة معالجته للأمور، ومعاملته للأصدقاء والأعداء على السواء وحيث أنه لا يمكن الفصل الدقيق بين أعماله بصفته القائد العسكري، وبين أعماله بصفته الرئيس السياسي، وبخاصة أنه أمضى جزءا كبيرا من حياته في قتال فعلى مع أعدائه، أو في التحضير لقتالهم. وبما أن الجمع بين المهام العسكرية والمهام السياسية ضرورة تلجأ إليها الدول المعاصرة في حالات الطوارئ والحروب. ولذلك كله لا نستطيع الفصل بين أعماله وقراراته بصفته القائد العسكري وبينها بصفة الرئيس السياسي. ومع ذلك سنحاول التركيز على الجانب القيادي العسكري في حياة رسول الله ﷺ. وبما لا شك فيه أن خصائص القيادة الأصلية صفات فطرية موهوبة تخلق مع الإنسان تجارب الحياة ودروسها تصقل هذه المواهب وتثريها. تتداخل في تكوين شخصية القائد، صفاته الإنسانية التي وهب الله إياها، وخلقه عليها، والظروف المحيطة به، والتحديات التي يواجهها؛ وميزات الشعب الذي يقوده. نجد سيرة رسول الله محمد ﷺ أنه، عندما كلف بحمل رسالة الله إلى أهل الأرض، بدأ بدعوة أقرب المقرين إليه للإيمان بالله الواحد الأحد، والدخول في دين الله. وفي الواقع العملي بدأ بتنظيم حزب سري مبدؤه الإسلام يقول الله عز وجل في سورة المائدة/ ٥٦ ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة] والمقصود بحزب الله «المؤمنون» في مواجهة «الكافرين» وعندما انكشفت أمر هذا الحزب لم ينكره بل دعا عشيرته إلى الدخول فيه، وانتقل من مرحلة الدعوة السرية إلى مرحلة الدعوة العلنية، مع المحافظة على سرية التنظيم. وكعادة القوى الغاشمة في كل زمان ومكان، وبدأت السلطة المتمثلة بقريش حربا لا هوادة فيها ضد الفكرة الجديدة التي تدعو إلى التوحيد والعدالة والمساواة بين الناس<sup>(١)</sup>.

ولما رأى الرسول ضعف قاعدته في مكة، وتبين له استحالة تحويل القوي المتسلطة عليها إلى جانبه، بدأ يتطلع إلى مكان يستطيع أن يتخذة قاعدة قوية وأمينة. وعندما دخل بعض أهل المدينة في الإسلام، وجد فيهم أملا لم يجده في قريش، فتطلع إلى المدينة لتكون قاعدته المنتظرة. وبدأ يرسل أصحابه إليها، حتى أذن الله له بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عاما من الدعوة، والأمل

(١) أحمد راتب عمروش - نفس المرجع ص ١٥١.

يحدوه بالعودة فاتحاً. لم يكن الإسلام دين قتال ولم يكن رسول الله محمد ﷺ رجلاً مقاتلاً يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها ولكنه مع هذا كان نعم القائد العسكري البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة العليا اللازمة، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خطته إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترب بآية الابتكار والإنشاء لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع. وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام<sup>(١)</sup> وهكذا كان القائد العسكري للقوات الإسلامية رسول الله محمد ﷺ. فور وصوله إلى المدينة بدأ بوضع أسس دولة جديدة تقوم على مبادئ العقيدة الإسلامية، وليس على القيم والأعراف القبلية التي كانت سائدة في ذلك لعصر. أي نقل الناس من الولاء للعشيرة والقبيلة إلى الولاء للأمة الواحدة.

نظم الرسول ﷺ العلاقات الاجتماعية بين عناصر المجتمع الجديدة المؤلف من مسلمين ويهود، في معاهدة عرفت في كتب السيرة باسم «الصحيفة»، ليتنقل بعدها إلى مرحلة «الكفاح المسلح» ضد القوى التي حاربتهم ومنعتهم من نشر دعوته في مكة، والأخرى التي ما زالت تترصد به في المدينة لتتقضض عليه إن هو لم يقض عليها، أو على الأقل، يحول بينها وبين أية إمكانية لديها للعمل ضده. ولكي يضمن النصر على هذه القوى كان لابد من توافر ثلاثة شروط ضرورية لكل نصر:

قيادة ممتازة: وهذا ما كان متوفراً في الرسول الكريم ﷺ. جنود ممتازون: وهذا ما استطاع الرسول القائد أن يعده من خلال تربيته لاتباعه. قضية عادلة: ولا اعتقد أن أحدا يخالف القول أن الدعوة الإسلامية هي أعدل دعوة عرفتها البشرية وأن جهاد المسلمين الأوائل، بشكل خاص، كان من أكثر الحروب عدلاً ومشروعية. ومع أن طبيعة حياة البدوي تجعل منه مقاتلاً ممتازاً، فإن الرسول ﷺ اهتم بالإعداد العسكري من جميع النواحي، ابتداء بالتدريب وانتهاء بالتسلح لما كانت إمكانيات المسلمين غير كافية لإنشاء جيش محترف كما كان الحال عند الرومان والفرس، ولم تكن لديهم أموال اليهود ولا مقدره قريش على تجهيز جيش قوي، فقد اتبع الرسول أسلوباً يجعل الأمة كلها محاربة تحت السلاح في أي وقت. إنه أسلوب سبق «الحروب الشعبية» بأوسع معانيها في العصر الحاضر مع فارق كبير هو «هدف الحرب». حتى إذا ما شعر بأنه أصبح بإمكانه التعرض للسعدو المتمثل في قريش انقل إلى «مرحلة الصراع المسلح» فأرسل السرايا «٣٨ سرية»، وقاد الغزوات «٢٧ غزوة قادها بنفسه» «كان عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزاها بنفسه سبعا وعشرون غزوة، كانت سراياها التي بعث بها سبعا وأربعين سرية، وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع: بدر، وأحد، وخيبر، والخندق، وقربظة،

(١) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٣٥.

وفتح مكة، والمصطلق، وحنين، والطائف، وفتح مكة، ووحدة الجزيرة، حارب الرومان، وأندرس  
الفرس (١).

ولما مات رسول الله محمد ﷺ كان جيش المسلمين يتأهب للتوجه إلى الجبهة الشمالية، إلى  
أرض فلسطين، التي تضم قبلة المسلمين الأولى. وبذلك فقد حقق الرسول ﷺ في مدة وجيزة ما لم  
يحققه أي قائد عسكري، أو زعيم سياسي في مختلف العصور والأمصار. وفيما يلي سنحاول أن  
نستعرض صفاته القيادية، ثم نستعرض مدى تطبيقه لمبادئ الحرب بمفهومها الحديث. يمكن اختصار  
صفات القيادة المختارة بما يلي: ١ - القدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب. ٢ -  
الشجاعة الشخصية. ٣ - الإرادة القوية الثابتة. ٤ - تحمل المسؤولية بلا تردد. ٥ - معرفة مبادئ الحرب  
والخبرة بأصولها. ٦ - نفسية مستقرة ثابتة لا تتبدل في حالتي النصر والهزيمة. ٧ - بعد النظر وصحة  
التوقعات. ٨ - معرفة نفسية الجنود وإمكاناتهم، وخبرة تامة بالرجال. ٩ - الثقة المتبادلة بين القائد  
وجنوده. ١٠ - المحبة المتبادلة بين القائد وعساكره. ١١ - شخصية قوية مهابة. ١٢ - اللياقة البدنية.  
١٣ - ماضٍ ناصع مجيد. هذه هي صفات القائد الممتاز، وسنحاول فيما يلي تبيان مدى تمتع الرسول  
ﷺ بهذه الصفات (٢).

١ - القدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب: يستطيع القائد أن يصدر قرارا  
صحيحا في الوقت المناسب إذا توافرت له المعلومات الكافية، الصحيحة والدقيقة، عن العدو،  
والصديق والأرض، وكان حوله أركان حرب «مستشارون» أكفاء، وكانت لديه الملكات الفعلية  
الراجعة، والمحكمة السريعة. أما الحصول على المعلومات: فقد كان من أوائل اهتمامات الرسول ﷺ  
أن بدأ، بعدما أنهى تنظيم المجتمع الجديد في المدينة، بإرسال السرايا، أي الدورات الاستطلاعية  
والقتالية، بالغة المعاصرة، لأغراض الحصول على المعلومات عن المنطقة التي تحيط بالمدينة، ومعرفة  
الطرق والمسالك التي تؤدي إلى مكة، والتعرف إلى سكان تلك المناطق، وإنشاء علاقات ودية معهم،  
أو فرض هيبة المسلمين عليهم. ولذلك فقد أرسل سرية من ثلاثين فارسا، بقيادة حمزة بن عبد  
المطلب هدفها الوصول إلى العيص لتهديد طريق قريش التجاري بين مكة وبلاد الشام. ثم أرسل سرية  
من ستين فارسا بقيادة عبيد بن الحارث بمهمة الوصول إلى وادي رابغ للغاية ذاتها. كما أرسل دورية  
استطلاعية بقيادة سعد بن أبي وقاص. وقام على رأس قوة من مائتي فارس وراجل فيما عرف بغزوة  
«ودان» وفي هذه الغزوة وقع «معاهدة عدم اعتداء» مع قبائل «بني ضمرة» وتلت ذلك «غزوة بواط»  
و«غزوة العشيرة»، و«غزوة بدرالأولى»، حتى كانت سرية عبد الله بن جحش في شهر رجب من

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٥٤.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٥٥.

السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر. وقد أعطى الرسول ﷺ الأوامر لهذه السرية في رسالة مغلقة، وسلمها لقائد السرية وأمره بالسير إلى جهة حددها له وطلب منه أن يفتح الرسالة بعد مسيرة يومين. وإذا ما فتح الرسالة وعرف المهمة مضى لتنفيذها غير مستكره أحدا من رجاله على مرافقته<sup>(١)</sup>.

وكان نص أمر المهمة «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فتصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم». ومن نافلة القول أن المهمة كانت استطلاعية وإن كتمان المهمة بلغ الذروة في السرية، ولا يختلف عن أحدث الأساليب العسكرية السائدة في العصر الحاضر كل هذه السرايا كانت قبل غزوة بدر التي وقعت في ١٧ رمضان سنة ٢هـ، أي بعد حوالي تسعة عشر شهرا من هجرة الرسول ﷺ، وقد حققت الغاية المرجوة منها، فتعرف المسلمون على الأرض الجديدة المحيطة بهم، وأصبحوا على علم تام بتحركات قريش. وهكذا علم الرسول ﷺ في السنة الثانية من دورية استطلاعية أن أبا سفيان الأموي قادم على رأس قافلة قريش التجارية وهو في طريق عودته من دمشق إلى مكة. ولما قرر الخروج للاقابلة أرسل دورية استطلاعية أمام قواته. وعند وصوله إلى بدر أرسل العيون «الجواسيس» يجلبون له الأخبار وقام باستطلاع شخصي ليتأكد من موقع قريش وقوتها. وعندما أسرت إحدى الدوريات غلامين أشرف بنفسه على استجوابهما، واستطاع بحسن محاكمته أن يستتج عدد قوات قريش ومكانها، فقد كان رسول الله محمد ﷺ عليهما بمزايا بعثة الاستطلاع معنا بها غاية العناية بحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية ويحول من ثم دون الانتصار عليه<sup>(٢)</sup>.

وأما الشوري، التي تعد مبدءا أساسيا من مبادئ النظام الإسلامي فقد كان الرسول يعتمدها في الأمور الدنيوية، وكان يفرس في نفوس أصحابه حب المشاورة ويشي على من يعطي منهم رأيا سديدا ويشجعه. ويعلمهم الفصل بين أمور الدين الموحى بها والمعصوم عن الخطأ فيها، وبين أمور الدنيا التي يخطيء ويصيب فيها كل الناس، وهو منهم. لذلك نرى الحباب بن المنذر عندما لم يعجبه المكان الذي نزلته قوات المسلمين في بدر سأل الرسول ﷺ: «أمزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟». فلما أجابه الرسول بأنه الرأي والحرب والمكيدة، بادر إلى إعطاء وجهة نظره في المكان، فبين سلبياته ومساوئه وأراه مكانا أكثر ملاءمة منه، أمام الماء بحيث يشرب المسلمون ويمنعون الماء عن المشركين. وأصغى الرسول ﷺ باهتمام إلى رأي الحباب، ولما تبين له صوابه سارع إلى الأخذ به وغير مكان قواته. لم يجد غضاضة في ذلك، وهذه صفة من صفات القائد المتميز ولكن شتان بين قائد يستمع للأقوال فيدرك أفضلها ويأخذ به، وبين قائد يستشير أركانه

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٥٦.

(٢) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص ١٨٧.



ثم يتشبت برأيه، ولو كان على خطأ، أو لا يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب فيأخذ بأسوأ الآراء لذلك نرى الرسول لم يأخذ برأي أصحابه يوم اتفاق الحديبية، لأن الأخذ برأيه يخرج عن الهدف الذي خرج من أجله. لقد كان أيهم خطأ ورأيه صواباً، فأصر على رأيه، وقد تبين لصحابته فيما بعد خطأ رأيهم وصواب رأيه. ومن الطبيعي في الحالات المماثلة وبعد ظهور النتائج وتأكيد صوابية القرار الذي اتخذه القائد، أن تزداد ثقة الأفراد بقائدهم ويمنحوه ما يستحقه من تقدير وحب واحترام. وما ذكرناه عن معركة بدر هو مثل توسعنا به قليلاً، ولكن هكذا كان اهتمام الرسول بالحصول على المعلومات في كل أعماله العسكرية. وبذلك كان دائماً على معرفة تامة بنوايا قريش، وبما تحوكم يهود من مؤمرات، واستطاع نتيجة تلك المعرفة أن يحبط خططهم ويرد كيدهم ويتصره، باستمرار، عليهم<sup>(١)</sup>.

٢- الشجاعة الشخصية: جميع المسلمين والمسلمين على التاريخ الإسلامي يعرفون شجاعة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فهو الذي نام في فراش الرسول في مكة، عندما تركه مهاجراً إلى المدينة. وصاحب المواقف التي يضرب المثل فيها بالجرأة والشجاعة الشخصية، على هذا رضي الله عنه يقول: «إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله، وهو أقربنا إلى العدو». لقد كان الرسول ﷺ بقواته وهي ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلاً يوم بدر في معركة غير متكافئة مع قوات قريش التي تبلغ ثلاثة أضعاف قواته، وقاتل بنفسه حتى انتصر، وكان، بشهادة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أقرب المحاربين إلى العدو. وفي غزوة أحد، ترك الرماة الذين وضعهم على رأس الجبل أماكنهم، واستطاعت مفرزة من المشركين بقيادة خالد بن الوليد اغتنام الفرصة ومفاجأة المسلمين من خلفهم؛ فاختل توازن جيش المسلمين وكانت هزيمته مؤكدة، وبعدما سقط عدد كبير من القتلى في صفوفه. ولكن الرسول ثبت في مكانه وأخذ ينادي أصحابه، فتجمع حوله عدد منهم، استطاع بهم أن يكسر حدة هجوم المشركين وينسحب بمن بقي من قواته نحو الشعب في الجبل. ولم يكتف بذلك فبعدما التقط الناجون أنفاسهم قام بمطاردة جيش المشركين إلى موضع يقال له «حمراء الأسد» على الطريق بين مكة والمدينة. وفي معركة حنين، بعد فتح مكة، انهزم جيش المسلمين في بادئ الأمر أمام قبائل هوازن وثقيف، فثبت الرسول مع بعض أصحابه، واستطاع أن يحول الهزيمة إلى نصر. هذه بعض الأمثلة عن شجاعة الرسول الشخصية، غنية عن التعليق<sup>(٢)</sup>.

فقد كان خلق النبي ﷺ القرآن وكان تعاليم الإسلام تمشي على الأرض بشراً سوياً لا يأمر بشيء إلا طبقه على نفسه أقوى ما يكون التطبيق ولا ينهى عن شيء إلا ابتعد عنه أشد ما يكون الابتعاد

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٦١.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٦٢.

وكان مثالا عاليا للشجاعة والإقدام وكان كالقمة العالية في عمله ومعاملته لأصحابه وكلهم قمم عالية وكان يؤثر رجاله بالخير والأمن ويستأثر دونهم بالخطر والمشقة وكان مثالا شخصيا لأصحابه في كل عمل يبتغي به وجه الله والدار الآخرة<sup>(١)</sup>.

٣- الإرادة القوية: إن أفضل ما يبرز إرادة رسول الله محمد ﷺ القوية، هو موقفه يوم جاء المشركون إلى عمه «أبي طالب» يهددونه ويتوعدونه ويغرونه لكي يقلع عن دعوته. فقال له عمه: «يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا كذا كذا، فأبى على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق» فأجابه الرسول ﷺ: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته». فإذا عرفنا أن هذه الحادثة جرت في أول انهدم باندعوة، وأنه لم يكن مع الرسول إلا رجال قلائل يعدون على الأصابع أدركنا قوة إرادته، وشجاعته، وتصميمه على بلوغ هدفه. لقد بقي ثلاثة عشر عاما في مكة يكافح ويجاهد، ويدعو فيصد، فتحمل كل أنواع الاضطهاد والتكذيب والأذى، ولم تلن له قناة ولم تهن له عزيمة. ولما اضطر للهجرة واجه اليهود والمنافقين في المدينة فصبر حتى ظفر.

٤- تحمل المسؤولية بلا تردد: من أهم صفات القائد أن يتحمل المسؤولية بلا تردد، فيأخذ على عاتقه تبعه أعمال يقتنع بها، كما فعل الرسول يوم اتفاه الحديبية. ويتحمل النتائج حسنة كانت أم سيئة. وقد كان في موقف الرسول يوم غزوة أحد مثالا رائعا على تحمل المسؤولية. فقد استشار أصحابه لاختيار مكان المعركة، وكان يفضل أن تكون المعركة في داخل المدينة وشاركه رأيه معظم كبار الصحبة من المهاجرين والأنصار. ففي القتال في داخل المدينة ميزات لخصها الرسول ﷺ بقوله: «امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذاري في الأطم، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأرة، فنحن أعلم بها منهم، وارموا من فوق الصياصي والأطام». ولأن الكثرة الكاثرة من الفتيان والشبان المتحمسين للقتال، وبخاصة ممن لم يشهد بدرا منهم رغب في الخروج لملاقاة العدو، حتى لا يظن العدو أنهم كرهوا الخروج جبنا وتخاذلا. وأيدهم في رأيهم حمزة ابن عبد المطلب، فنزل الرسول ﷺ على رأي هذا الفريق المتحمس، وبخاصة أنما هم عصب الجيش وقوته، وقرر الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة. ولما شعر أنصار هذه الفكرة بأنهم أخطأوا بإصرارهم على موقفهم عادوا إلى الرسول يعتذرون، ولكن الرسول قال لهم: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل». وكانت نتيجة المعركة محزنة، استشهد فيها من المسلمين واحد وسبعون رجلا، بينهم حمزة بين عبد المطلب، عم الرسول. ومع ذلك لم نسمع في كتب السيرة كلها أن الرسول ذكر الخطأ في الخروج لملاقاة

(١) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص ٥٨٢.

المشركين، أو أنه ألقى باللوم على الذين أصروا على الخروج من المدينة. فهو القائد، وهو الذي يتحمل نتائج القرار<sup>(١)</sup>.

٥ - معرفة مبادئ الحرب والخبرة بأصولها: القادة الأقدمون لم يتخرجوا من مدارس عسكرية أو كليات حربية، ولكنها الفطرة ثم الخبرة كما ذكرنا سابقا. وما اصطلح على تسميته «مبادئ الحرب» إنما استخلصها المنظرون العسكريون من دراسة تاريخ كبار القادة والمعارك الحاسمة وتحليلها واستخلاص أسباب النصر أو الهزيمة في كل معركة.

٦ - نفسية مستقرة ثابتة لا تتبدل في حالتي النصر والهزيمة: من المعروف الشائع أن أي اضطراب في النفس يفقد الإنسان المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح. وفي المعارك يتعرض القائد لمواقف تهز كيان الإنسان كله، أقلها مقتل قائد مهم أو صديق عزيز أو قريب حميم، ناهيك عن الهزيمة والنصر، وكلها تهز الكيان حتى أن نشوة النصر قد تكون مؤثرة لدرجة تقلب النصر إلى هزيمة، كما حدث في معركة أحد، فقد انتصر المسلمون، ولم يستطع الرماة ضبط أنفسهم فتركوا أماكنهم، واندفعوا وراء الغنائم، فاغتنم خالد بن الوليد تلك اللحظة، والتف من وراء جيش المسلمين. إن السيطرة على الأعصاب في اللحظات الحرجة والمواقف الحاسمة أمر لا يستطيعه كل إنسان. واضطراب النفس يفقد العقل توازنه وقدرته على المحاكمة السليمة واتخاذ القرارات الصحيحة. أما رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ فقد كان مثالا مدهشا في هذه الناحية. لقد سيطر على أعصابه يوم أحد فحال دون إبادة جيش المسلمين الفتى، وجعل الأعداء ينسحبون بنصر توهموه نصرا. وسيطر على أعصابه يوم حنين فقلب الهزيمة في أول المعركة إلى نصر في آخرها. وسيطر على أعصابه في غزوة الأحزاب، عندما حاصر المدينة عشرة آلاف مقاتل من مشركي القبائل المختلفة فاستطاع بهدوئه، ورباطة جأشه، منعهم من تحقيق أي هدف، صغيرا كان أو كبيرا. والسيطرة على النفس في حالات النصر ولحم الانفعالات على أنواعها قد يكون أصعب من السيطرة عليها في حالات الهزيمة. فكم من قائد غروره بانتصارات وهمية. وأما رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ فقد فتح مكة، وليس أقدر منه على تقدير أهمية ذلك النصر، ومع ذلك فقد رأى الناس يدخل مكة حاني الرأس خشوعا لله وتواضعا لعباده، ولم يغره نصر ولم يدفعه انفعال لانتقام، ولم يعرف حقد إلى نفسه سبيلا<sup>(٢)</sup>.

٧ - بعد النظر وصحة التوقعات: عندما انكفأت الأجزاء عن المدينة بعد غزوة الخندق. قال الرسول للمسلمين: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم». لقد لخص في هذه

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٦٣.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٦٥.

الجملة، بما أوتي من بعد نظر وحسن تقدير، الموقف العسكري للأعوام القادمة. وصحت توقعاته، فقد أدركت القبائل صعوبة انتصار قريش، وشكت قريش في إمكانية جمع القبائل مرة أخرى وضمها ولائها. وانقلب ميزان القوي بشكل واضح. وفي أواخر السنة السادسة للهجرة خرج الرسول إلى مكة معتمرا وخرج معه ألف وأربعمائة من المسلمين، وساق الهدي وأعلن أنه لا ينوي حربا، إنما خرج راثرا للبيت ومعظما. ولكن قريشا استنفرت قواتها، لتحول بينه وبين قيام المسلمين بعمرتهم. ودارت المفاوضات ودارت المفاوضات، ومال معظم المسلمين إلى قتال قريش، ولكن الرسول بقي ثابتا على هدفه وقبل بشروط الاتفاق الذي عرف به «صلح الحديبية»، وكان ظاهر شروط الصلح مجحفا بحق المسلمين وقد آلم المسلمين موافقة الرسول على هذه الشروط التي ظنوها مذلة لهم لعدم التوازن والتساوي في ظاهر النصوص، ولكن الذي حصل فيما بعد أنه تبين للمسلمين وللناس أجمعين فوائد هذه المعاهدة وما خفي فيها على عامة الناس من الطرفين. وهذا هو الفارق بين القادة الملهمين الذين يقرأون المستقبل وبين العاديين. لقد تجمع الفارون من قريش وشكلوا عصابة تقطع الطريق على قوافل قريش، ولم تستطيع قريش منعهم ولا الطلب من محمد أن يمنعهم لأنهم ليسوا في عقده. فهم خارجون على القانون، مما اضطر قريشا أن ترجو رسول الله ﷺ لكي يقبلهم ويكفيها شرهم. وبهذا ألغت قريش بنفسها البند الذي آلم المسلمين. أما الذين يفرون من المسلمين فهم لا خير فيهم أصلا، فليذهبوا إلى قريش فذلك أفضل من أن يبقوا «طابورا خامسا» مخرب يضاف إلى المنافقين الموجودين في المدينة. وقد أفسحت الهدنة في المجال أمام المسلمين، ليشرروا بدعوتهم، ويتفرغوا لها، فزاد عددهم حتى أصبح جيشهم في ستين، من يوم الحديبية إلى يوم فتح مكة، عشرة آلاف مقاتل. ومع أن القوي يستطيع إيجاد الذرائع للتخلص من معاهدات وقمعها في ظروف معينة ولا يرغب بالمحافظة عليها، فإن الرسول ﷺ حافظ على الالتزام بهدنة الحديبية. ولكن إذا كان العدو غبيا مغرورا فإنه ينقض معاهدات من تلقاء من تلقاء نفسه على أمل النصر وتحقيق وضع أفضل. وستكون النتيجة خسارته وانتقاله إلى وضع أسوأ مما كان عليه. وهكذا فقد نقض الهدنة حلفاء قريش، فأعطوا بذلك المبرر للرسول ﷺ لفتح مكة بعد ستين فقط من اتفاق الحديبية<sup>(١)</sup>.

٨ - معرفة نفسيات الجنود وإمكاناتهم: كما أن من لا يعيش مع جنوده ليس مؤهلا لمعرفة نفسياتهم، فكذلك ليس كل من يعيش مع جنوده مؤهلا لهذه المعرفة الواعية، وكثيرا ما يخفي الناس أهواءهم وميولهم، وكثيرا ما يظهرون على خلاف حقيقتهم. أما رسول الله محمد ﷺ فقد ولد بين جنوده، وعاش معهم، ودرس نفسياتهم وعرف إمكاناتهم فكان يختار الرجل المناسب للمهمة المناسبة. لم يكلف حسان بن ثابت بقيادة أو حرب، ولم يعط سيفه يوم أحد إلا لمن يفهم حقه. فأعطاه لابي

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٦٦.

دجاجة لأنه كان يعلم من هو أبو دجاجة. كذلك لم يول أبا ذر الغفاري، رغم طلبه الولاية - لأنه وجده ضعيفا لا يستطيع القيام بواجبات الولاية، بينما سلم خالد بن الوليد القيادة من يوم التحاقه بصفوف المسلمين. وفعلا لم تنهزم لخالد راية قط طوال حياته العسكرية، ولذلك لم يعزله يوم أخطأ وأمر بقتل الأسرى في المعركة. أما مجبو المال فقد أعطاهم حتى أرضاهم. قال صفوان بن أمية: ما زال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه. أخذ رسول الله محمد ﷺ في بناء الإنسان المسلم كجندي من جنود الله للدفاع عن مبادئ دولة الإسلام ليؤتي أكله مرتين، غير القادرين على الجهاد من أولاد المسلمين الصغار ليكونوا جيش المستقبل وجنود الفتح الإسلامي وقادته، والقادرون على الجهاد من شباب المسلمين وشيوخهم أيضا ليكونوا جيش الحاضر والمستقبل وجنود الفتح الإسلامي وقادته والقادرون وغير القادرين على الجهاد من المسلمين يحققون في المسجد بمصل الجهاد ماديا ومعنويا ليصبح الإنسان المسلم مجاهداً من الطراز الأول بماله ونفسه في سبيل الله (١).

٩ - الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده: من الطبيعي أن تكون ثقة جنود رسول الله محمد ﷺ به عظيمة، ولم لا، وهم يرون شجاعته، وصبره، وحسن تقديره للأمر، وغير ذلك من الصفات التي توحى بالثقة، يضاف إليها إيمانهم بأنه رسول مؤيد من الله عز وجل. ولكن ثقة رسول الله محمد ﷺ بقواته كانت كبيرة أيضا، ويكفي للدلالة على ذلك أنه أقدم يوم بدر على رجز قواته وهي قليلة التسليح والإمكانات مع قوات تقدر بثلاثة أضعافها، وحسنة التجهيز، فيها خيرة فرسان قريش وأكفأهم.

١٠ - المحبة المتبادلة بين القائد وعساكره: كان الرسول يحب أصحابه ويعطف عليهم، كما يعطف الوالد على أبنائه. وكان يعفو عن أخطائهم مهما عظمت، حتى أن أحد أصحابه أرسل إلى قريش يعلمهم بتحريك المسلمين لفتح مكة، ومع ذلك رفض قتله أو الاقتصاص منه لماضيه المجيد وما قدمه للإسلام من خدمات. وكان المسلمين يبادلونه حبا بحب، فيوم أحد ضغط المشركون على الناحية التي فيها رسول الله محمد ﷺ يهدفون إلى قتله، فتعلق حوله أصحابه يردون السهام والسيوف عنه بأجسادهم. ولما توفى، كاد المسلمون يفقدون عقولهم حتى أن عمر بن الخطاب أنكر وفاة الرسول ﷺ وهدد من يقول بأن محمدا قد مات بالقتل، هذا الرجل الحصيف القوي، الذي رفع المؤمنون صوتهم بالأذان يوم إسلامه كاد يفقد صوابه، ونسي ما يقرأ باستمرار في القرآن الكريم. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ...﴾ [آل عمران]، ولم يعده إلى رشده إلا صوت أبي بكر يذكره بالآية الكريمة (٢).

(١) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص ٥٧٦.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٦٧.

١١ - شخصية قوية مهابة: لكي ندرك قوة شخصية رسول الله محمد ﷺ ونقدرها حق قدرها نستمع إلى عروة بن مسعود الثقفي وهو مشرك يصف محمدا للمشركين فيقول: يا معشر قريش إني جئت كسري في ملكه وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذ، وأنهم لن يسلموه لشيء أبدا. وحدث مرة، في سنوات الدعوة الأولى، أن أبا جهل اشترى إبلا من رجل، وماطله بثمانها، فوقف الرجل على جماعة من أهل مكة يسألهم عمن يخلص له حقه من ذلك الظالم المفتري، فدلوه على محمد، يستهزئون به لما يعرفون من العداوة بين رسول الله محمد ﷺ وأبي جهل. فقدم الرجل على رسول الله محمد ﷺ، وروى له قصته، فقام معه الرسول ﷺ إلى بيت أبي جهل، وطرق بابه، فقال: «من هذا؟ قال: محمد فاخرج إلي، فخرج أبو جهل وقد امتقع لونه، فقال له الرسول ﷺ: أعط هذا الرجل حقه، فقال أبو جهل: نعم، لا تبرح حتى أعطيه حقه». فآية شخصية هذه؟ وآية مهابة كانت له في قلب أبي جهل؟ وهو من الفرسان المعروفين. ووصفه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال: «أجود الناس كفا، وأجرا الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه هابه، ومن خالطه أحبه». ولا بد من الإشارة إلى فارق دقيق قد يغيب عن بعض الأذهان بين «الشخصية القوية» و«الشخصية المخيفة»، فالأولى مهابة محترمة ومحبوبة، والثانية: مخيفة لكنها محتقرة. وغالبا ما تمتاز الأولى بتواضع جم، وحلم وكرم، بينما تكون الثانية متعجرفة متعالية<sup>(١)</sup>. وكان رسول الله محمد ﷺ في طليعة رجاله حين تحتمل نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب وكان على فارس الفرسان يقول: «كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله محمد ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو» ولولا ثباته في وقعة حنين وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين<sup>(٢)</sup>.

١٢ - اللياقة البدنية: لا يقصد باللياقة البدنية قوة العضلات فقط، بل صحة الجسم وقدرته على تحمل المشاق والسهر والستعب، وهي أكثر ضرورة لقائد ينتقل على الجواد والبعير من قائد ينتقل في السيارة والطائرة. ولكي ندرك قابلية الرسول البدنية يكفي أن نعلم أنه قاد بنفسه سبعا وعشرين غزوة، كلها بعدما تجاوز الثالثة والخمسين من عمره. وأن صحابته كانوا يلجأون إليه وهم يحفرون الخندق حول المدينة، كلما صادفوا صخرة قوية صعب عليهم تحطيمها، وما أسرع ما كانت تتفتت تحت ضربات مطرقة القوية.

١٣ - الماضي الناصع الجيد: الشخص المغمور لا يهتم الناس بماضيه، أما القائد الكبير، فهو عرضه للنقد والتجريح من الأصدقاء قبل الأعداء. فإن كان دافع الأعداء من نبش ماضيه تبيان المآخذ

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٦٨.

(٢) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٥١.

عليه لتشويه سمعته، بين أصحابه، وفي صفوف قواته، وأفراد شعبه، فإن دافع الأصدقاء غالباً ما يكون الغيرة والحسد للحلول محلّه. أما الرسول العظيم فقد كان كما قال الله عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم]، وكما وصفته روجه خديجة أم المؤمنين عندما أعلمها بالوحي، وكان خائفاً مرتاباً قالت: «أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». لقد لقبه الناس بالأمين قبل بعثه، ولما اختلف زعماء قريش على وضع الحجر الأسود في مكانه عند تمديد بناء الكعبة كان محمد الأمين الحكم بينهم. لم يعرف مجون شباب قريش في شبابه، ولم يلعب المسير، أو يشرب الخمر في حياته، لذلك نرى النصر بن الخارث وهو مشرك يقول لقريش: «يا معشر قريش، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به قلتم ساحراً!.. هذه هي الصفات التي اتفق معظم المنظرين العسكريين على ضرورة توافرها في القائد وكلها كان الرسول مبرزاً فيها كما رأينا، ولكن هناك صفات أخرى مهمة جعلته القائد المثالي والقادة الحسنة، أهمها ما امتاز به فكره خلاق وطاقات رائعة. فالجرب ليست علماً بالمعنى الدقيق للكلمة، ولذلك نرى بعض المختصين عندما يتحدثون عن الجرب يقولون «فن الجرب». الجرب عملية معقدة أكثر مما نتصور وعوامل النصر فيها كثيرة الشعب، فليس كل من طبق نظريات معينة حقق انتصاراً مؤزراً، وليس كل من ووضعه قدره في منصب قيادي قائداً<sup>(١)</sup>.

الرسول ومبادئ الجرب: يضع الكتاب العسكريون، وكبار القادة، للجرب مبادئ وقواعد مكثفة، يرون ضرورة اتباعها لتحقيق النصر، وهم يختلفون في تعداد هذه المبادئ، وتدرج أهميتها فالأميريكيون عموماً وضعوا عام ١٩٢١ تسعة مبادئ ما زالت تشكل إلى اليوم هيكل مذهبهم العسكري العام مع تعديلات طفيفة وهي: ١- ملاحقة هدف واحد. ٢- التعرض. ٣- حشد الوسائط. ٤- الاقتصاد في القوى. ٥- الحركية. ٦- المفاجأة. ٧- الخيطة. ٨- العمل الموحد. ٩- البساطة.

أما «كلاورفيتز» فلم يتقيد بعدد دقيق لهذه المبادئ، ولكنه أصر على مبادئ خمسة هي: ١- حشد القوى. ٢- الاحتياط (الاحتفاظ باحتياط يستعمل عند الحاجة). ٣- المبادرة (بدء العدو بالهجوم). ٤- المطاردة (بعد النصر). ٥- المفاجأة. بينما ذكر الجنرال «فوللر» المبادئ التالية: ١- الخيطة. ٢- المفاجأة. ٣- الحركية. ٤- حشد القوى. ٥- توحيد الجهود. ويركز «ليدل هارت» و«غودريان» على مبادئ هما: المفاجأة والحركية. ويرى الروس أن مبادئ الجرب وقوانينها غير ثابتة، ولا يقدمون به لائحة مقررّة موحدة، ولكن يستنتج من مؤلفات ستالين أنهم يعيرون أهمية كبرى للمبادئ التالية:

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٧٢ .

١- استقرار المؤخرات. ٢- معنويات الجيوش. ٣- تجهيز الجيش. ٤- طاقة التنظيم في أجهزة القيادة. نرى مدى تطبيق الرسول ﷺ لمبادئ الحرب مع هذا المبادئ لم تكن معروفة من قبله، وإنما كان تطبيقه لها بما وهبه الله له من نفاذ بصيرة وحسن قيادة.

يبدأ تاريخ جيش رسول الله محمد ﷺ مع بدء نزول الوحي عليه فأعد جنوده وقادته بالتدرج أفراد في مكة المكرمة فلما هاجر إلى المدينة بدأت مرحلة جديدة من مراحل ذلك الجيش هي مرحلة تنظيم الأفراد ولم تمض سنة كاملة إلا وأصبح الجيش الإسلامي متكامل التنظيم قليل العدد ولكنه كثير المدد<sup>(١)</sup>.

المحافظة على الهدف: كان الرسول يختار هدفه بدقة ويحافظ عليه. ولعل أبرز مثال على المحافظة على الهدف ما فعله في غزوة الحديبية فقد كان هدفه أداء العمرة وإظهار تعظيمه للبيت العتيق، والتأثير في معنويات قريش. ولم يكن القتال من بين أهدافه، لذلك تخلص من مواجهة قوات قريش باختيار طريق جانبي. ولما وصل الحديبية فآوض قريشا وعقد معها اتفاقا ورجع رغم معارضة أصحابه، ونزولهم على رأيه على مفضل فيما بعد، ولم يجد عن هدفه قيد أئمة. أما يوم فتح مكة، فالوضع مختلف تماما. الهدف هو فتح مكة. ومع أن الرسول يفضل الوسائل السلمية، فإنه لا فرق في المحافظة على الهدف بين فتحها صلحا أو حربا. وقد تجلّى تصميم الرسول ﷺ على بلوغ هدفه، وعدم الانحراف عنه مهما كانت العوائق، من يوم رجوع أبي سفيان الأموي من المدينة خائبا، وعدم تمكنه من تشييت هدنة الحديبية، إلى يوم وقوفه في مكة معلنا: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

أمن العمل: أسس بنيان الجيش الإسلامي على تقوى الله ورضوانه لذلك أحرر انتصارات باهرة ولا تزال أعجوبة من أعاجيب الدهر وحقق فتوحات فذة لا تزال باقية على الدهر<sup>(٢)</sup>. كان الرسول يولي الأمن اهتماما خاصا. فعندما كان يحرك قواته كان يرسل أمامها الاستطلاع ويسير الطلائع ويحمي مؤخرات الوحدات، ويهتم بالحراسة، ويحذر أية مباغثة. حتى أنه أمر المسلمين عندما يريدون الصلاة في الحرب أن ينقسموا إلى قسمين، قسم يصلي وقسم مستنفر، حامل السلاح جاهز للقتال. جاء في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً...﴾ [النساء]. وقد ذكرنا سابقا الحيلة التي اتخذها يوم أرسل سرية عبد الله بن جحش، فقد

(١) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص ٥٧٩.

(٢) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص ٥٩٦.



كتب المهمة في رسالة وأمر قائد السرية أن لا يفتحها إلا بعد مسيرة يومين<sup>(١)</sup>. ويوم جهز جيشه بغية التوجه لفتح مكة أخفي نيته عن أقرب الناس إليه، حتى أن أبا بكر رفيقه في الهجرة سأل ابنته، زوج الرسول، عن وجهته فلم تعرف بماذا توجيهه، لأنها لم تكن تعلم هدف رسول الله ﷺ.

وأمثلة ذلك كثيرة في كتب السيرة، كلها تدل على مدى الحذر والحسطة في تحركات الرسول

ﷺ.

الحركية أو المرونة: كان جيش الرسول سريع التحرك مرنا، وكان يتمتع بمقدرة كبيرة على تحمل مشاق المسيرات الطويلة. ولعل أفضل مثال على مرونة الرسول في وضع الخطط وفي تنفيذها ما كان منه يوم بدر. فقد خرج الرسول لمصادرة قافلة قريش التي كانت في طريق عودتها من دمشق إلى مكة، ولكن العير فاتته. وبما أن الهدف الرئيس كسر شوكة قريش، كان للرسول هدف جديد، وخطة جديدة. وهكذا وبسرعة متناهية استشار أصحابه وأخذ موافقتهم على مهاجمة القوة، التي خرجت لتحمي القافلة، ثم وضع خطته بسرعة لمعركة بدر كما مر معنا. ومن الواضح أن حرص المسلمين على التدريب وهو مثل المناورات العسكرية اليوم، وتفوقهم فيه كان سببا من أسباب انتصارهم في المعارك التي خاضوها<sup>(٢)</sup>.

التعرض: ويمكن أن نسميه المبادرة، ونقصد به مبادرة العدو بالقتال. فالمهاجم غالبا هو صاحب النصر، وهناك قول مأثور أو قاعدة عامة في القتال تقول: «الهجوم خير وسيلة للدفاع»، وهي بمعنى قول الإمام علي رضي الله عنه: «ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا»، ويقتصر نصر المدافع على منع المهاجم من تحقيق أهدافه فقط، بينما يعمل المهاجم بشكل إيجابي على تحقيق أهدافه. ومن استعراض حروب الرسول كلها نجد أنها تعرضية «هجومية» ما عدا غزوتين فقط هما «أحد» و«الحنديق». ففي الغزوتين حشد المشركون قواتهم وتعرضوا للمسلمين. وفي أحد خرج من المدينة بجيشه لملاقاتهم. وفي الأحزاب حصن المدينة ودافع عنها حتى انصرف المحاصرون بعدما استطاع أن يوقع بين الحلفاء بتخطيط مدروس واستفاد قصوى من مسلمين.

الاقتصاد بالقوى: إن من يدرس غزوات الرسول كلها يلاحظ أنه لم يكن يرسل في الغزوة إلا ما تحتاجه من قوات، فإن اضطر إلى استنفار جميع المسلمين استنفرهم، لأن الاقتصاد بالقوى يعني عدم إهدار القوى واستعمال القوة الكافية لتنفيذ المهمة، والاحتفاظ بباقي القوى لاستخدامها عند الضرورة، ولا يعني حشد قوات أقل من القوات اللازمة لتنفيذ المهمة. فإذا احتاجت المهمة والوضع العسكري إلى جميع المسلمين وجب حشدهم كلهم، وللفقهاء آراء في فرض الجهاد على بعض المسلمين، بحسب الحالة القائمة، يرجع إليها في كتب الفقه. وبناء على ذلك نجد تعداد سرية حمزة بن

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٧٣.

(٢) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص ٦٠٦.

ن عبد المطلب يصل إلى ثلاثين فارساً، وهي أول سرية بعث بها الرسول ﷺ من المدينة، وكان تعداد المسلمين لا يزال بسيطاً، بينما لم يتجاوز عدد أفراد عمرو بن أمية الضمري الرجلين، مع أن تعداد المسلمين أصبح يومها بالآلاف. فقد كانت قوة الرجلين كافية للقيام بالمهمة، فلا داعي للتسبيز بالقوى. ومن الطبيعي أن تشمل القوى في العصر الحاضر العنصر البشري، والأسلحة والاعتدة، والآليات، وغيرها من وسائل القتال المادية بحيث يختر لكل عملية ما يلزمها. . . ولا يهدر من الذخيرة إلا بمقدار الحاجة<sup>(١)</sup>.

**حشد القوى:** قد يبدو بعض التعارض بين مبادئ الاقتصاد بالقوى وحشد القوى. والواقع أنه لا تعارض بينهما، إنما هي عملية توازن دقيقة. فلا يحشد القائد قوات في مهمة لا تحتاج إليها كلها، لا يقتصد في مهمة تحتاج إلى قوات أكثر مما خصصه لها، لأنه في الحالة الأولى يفرط في قواته كالذي يبذر أمواله، وفي الثانية يعرض قواته للهزيمة لأنها غير كافية لمواجهة العدد المتفوق عليها. ويلاحظ المتتبع لسيرة الرسول أنه لم يبدأ في قتال المشركين إلا بعدما هبأ من القوات ما يكفي للقتال؛ فهو في مكة كان يعدد المقاتلين وبنهاهم عن القتال. وقد حدث في بيعة العقبة الثانية أن اكتشفت قريش أمر البيعة، فلم يهتم الأنصار لذلك. وطلب سعد بن عبادة من الرسول أن يسمح لهم بالهجوم على المشركين فمنعه الرسول من ذلك لأنه كان يعلم أن إمكاناته ما زالت أضعف من أن يزجها في معركة خاسرة.

**المفاجأة أو المباغته:** ربما كانت مفاجأة العدو من أهم عوامل الانتصار عليه. وهي تكون بالزمان، وتكون بالمكان، وتكون بأسلوب القتال، أو باستخدام أسلحة جديدة لا يعرفها العدو، أو لا يتوقع وجودها مع خصمه. ويعد الكتمان والمحافظة على سرية التحركات والعمليات من أهم وسائل تحقيق المفاجأة وقد كان الرسول ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها فينقل «الطابور الخامس» المنتشر في المدينة والمؤلف من: يهود، والمنافقين، وجواسيس قريش المعلومات الخاطئة إلى المشركين فيتوقعون شيئاً، ويفاجأون بشيء آخر. ومن أمثلة المباغته في المكان غزوة خيبر، فقد توجه نحو غطفان وأرسل مفررة إلى معسكرهم ثم حول قواته الرئيسة إلى خيبر. ومن أمثلة المباغته في الزمان، غزوة بني قريظة، فما كاد الأحزاب يفكون الحصار عن المدينة حتى صاح مؤذن الرسول: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة». أما أمثلة المفاجأة بالأسلوب فقد كانت متنوعة ورائعة: في بدر استعمل أسلوب الصف، والأسلوب الذي كان متبعاً عند العرب هو أسلوب الكر والفر. كما أن طريقة ضبط الرمي بالنبال، التي اتبعها، وعدم الالتحام مع العدو قبل إنهاكه وتمزيقه، لا تختلف عن أسلوب ضبط الرمي في العصر الحاضر حتى تصبح القوات المعادية ضمن المدى المجدي للأسلحة ففتح

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٧٧ .

عليها النيران بغزارة. وفي غزوة الأحزاب فاجأ العدو بالخذق حفرة حول المدينة، فأجبر القوات المهاجمة على التوقف مذهولة أمامه، تلتبس مكانا تعبر منه، فإن استطاع بعضها اجتياز الخندق اجتمع عليه المسلمون وأجهزوا عليه. كما أنه استخدم المجانيق والدبابات في حصار الطائف، وهي أسلحة جديدة، فاستطاع بذلك أن ينتصر باستمرار على أعدائه<sup>(١)</sup>.

إدامة المعنويات: استطاع رسول الله محمد ﷺ أن يجعل العقيدة الراسخة من ضمير الفرد رقيبا عتيدا عليه يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وأن يجعل من المجتمع الإسلامي إخوة متحابين في الله وأن يجعل من القدوة الحسنة مؤمنا وأن العقيدة الإسلامية قابلة للتطبيق عمليا وأن ما لا يمكن أن يكون يمكن أن يكون فعلا<sup>(٢)</sup>. امتار المسلمون بمعنويات لم تتوافر لأي جيش عرفه التاريخ. كانوا يتسابقون إلى الموت، وهي أقصى ما يمكن أن يواجهه الإنسان، لأن الرسول القائد استطاع أن يفرس في نفوسهم أن الاستشهاد في سبيل الله إنما هو انتقال إلى حياة أفضل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران]، ولإيمانهم بأن الجنة مشواهم وأن مقام الشهيد مع النبيين والصدّيقين. ويكفي للتدليل على معنويات المسلمين العالية وتسابقهم إلى الموت هذا المثال: وقف الرسول في غزوة بدر يحرض المسلمين على القتال فقال: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة، فقال العمير بن الحمام، وكان في يده تمرات يأكلهن يخ - يخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلونني هؤلاء؟» ثم قذف التمرات وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل. فهل عرف التاريخ جنودا يتسابقون إلى الموت فرحين مستبشرين كجنود النبي محمد ﷺ؟ وقد حرص الرسول ﷺ باستمرار على إدامة هذه المعنويات، وتقويتها، حتى أنه أخفى عن جيشه نقض «بني قريظة» عهدهم. فلما نقضوا العهد في أثناء غزوة الأحزاب، وعلم الرسول بذلك، أرسل وفدا يستطلع الأمر، وقال لهم: «انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقا فألحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء، فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس».

تأمين الأمور الإدارية: لم تكن الأمور الإدارية معقدة كما هي الحال في العصر الحاضر، وكان غذاء المسلمين بسيطا أكثره التمر واللسين، ومع ذلك فقد أعار الرسول الأمور الإدارية اهتماما كبيرا حتى أنه كان يصطحب النساء معه في غزواته، فيقمن بمداواة الجرحى، وتأمين المياه، وتحضير الطعام، وغير ذلك من الأمور التي يحسن النساء القيام بها.

استقرار المؤخرات: والمقصود بذلك استتباب الأمن والهدوء وراء جبهات القتال. فالعسكري الذي تشغله أعمال القتال في الجبهة، يجب أن يكون مطمئنا إلى استقرار الأحوال في الداخل، وإلى

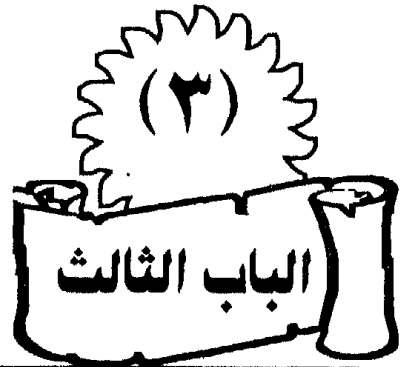
(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٧٨.  
(٢) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص ٥٨٥.

أنه لن يتلقى ضربة من الخلف، ولن تحدث أعمال شغب أو فوضى أمنية تصيب أهله بأذى. لذلك نجد الرسول قد اهتم فور وصوله إلى المدينة مهاجرا بتنظيم العلاقات في المدينة المنورة عاصمة دولته الناشئة. ومع ذلك فقد هدد اليهود باستمرار مؤخرات جيش المسلمين، وظهر ذلك بأجلى مظهره في أثناء غزوة الخندق، حيث نقض بنو قريظة عهدهم، فعانى المسلمون من الخوف على نساءهم وأولادهم وأموالهم أكثر مما عانوا في مجابهة جيوش الأحزاب. ولهذا أمر الرسول جنوده بأن لا يضعوا السلاح بعد غزوة الأحزاب قبل القضاء على بني قريظة لتأمين الاستقرار والهدوء في مؤخرات جيوشه مستقبلا، فلا تتكرر مأساة خيانة بني قريظة مرة أخرى<sup>(١)</sup>.

---

(١) أحمد راتب عرمرش - المرجع السابق ص ١٧٩.

سيادة الدولة الإسلامية  
الأولى على الجزيرة  
العربية



الفصل التاسع

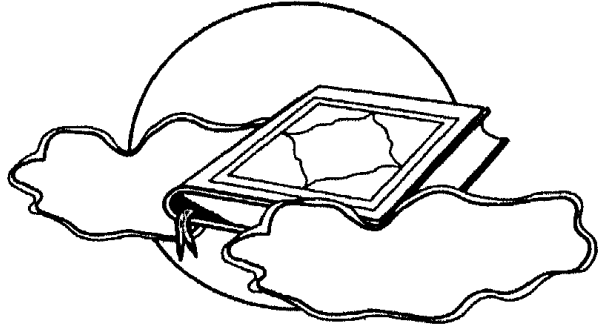
التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى

الفصل العاشر

الدولة الإسلامية وعلاقتها الخارجية



# الفصل التاسع



التنظيم السياسي  
للدولة الإسلامية الأولى





## التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى

بعد أن دانت الجزيرة العربية بكاملها للدولة الإسلامية كان لابد لهذه الدولة من إعلان سيادتها على جميع بقاع الجزيرة، وإعلان النظام العام الذي يجب على كل مواطن في هذه الدولة احترامه والالتزام به. وإن هذا الإعلان لابد وأن يكون في اجتماع عام تحضره القبائل العربية كلها. فإن أحسن زمان ومكان له هو موسم الحج. ولذلك أمر رسول الله أبا بكر الصديق أن يكون أمير الناس في الحج لهذا العام، ليقوم للناس حجهم، وكانت كل فئة من الناس تؤدي حجها على نهجها وطريقتها، المسلمون يؤدونه على نهجهم، والمشركون يؤدونه على نهجهم بما فيه من إشراك. وما إن مضى أبو بكر بالناس حتى نزلت على رسول الله ﷺ سورة التوبة (براءة) بإنهاء جميع العهود المفتوحة بين رسول الله والمشركين من قبائل العرب، والتي كانت تنص على حرية التدين والولاء، وكان ذلك أمراً طبيعياً بعد أن دانت دولة الشرك المتمثلة في قريش، وأصبح الأمر للدولة الإسلامية، وأصبحت السيادة والحاكمية في جميع أنحاء الدولة الإسلامية لشرعية الله تعالى، فهي تطبق على الجميع. وترك الله فرصة للذوي العهود المحدودة الأجل من المشركين لتسوية أوضاعهم بينهم، وانضوائهم تحت لواء الدولة الإسلامية كمواطنين مؤمنين صالحين يبذلون الولاء إليها إلى نهاية عهودهم، ومن لم يكن له عهد منهم أو كان عهده مفتوحاً ضربت له مدة أربعة أشهر، لا عذر له بعد ذلك أبداً إن رأت الدولة الإسلامية تصفية وضعه بالشكل الذي تراه مناسباً، لأنه ليس من أمن الدولة في شيء أن تمنح حرية العمل، بل ليس من أمنها في شيء أن ترعى مواطنين لا يدينون لها بالولاء، بل ويتآمرون مع عدوها عليها لتقويض أركانها السياسية والفكرية<sup>(١)</sup>.

تكليف الامام على كرم الله وجهه بإعلان النظام العام للدولة الإسلامية الأولى: دعا رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأمره أن يلحق بأبي بكر الذي سار بالناس إلى الحج، حتى إذا ما اجتمع الناس في مجتمعهم الكبير في مني أعلن لهم النظام الجديد المتمثل في خمسة بنود: إنه لا يدخل الجنة كافر. إنه لا يجوز أن يحج بعد هذا العام مشرك. إنه لا يجوز أن يطوف حول الكعبة عريان. من كان له مع الدولة الإسلامية عهد موقت فعهدة محفوظ إلى مدته المحدودة.

من لم يكن له عند الدولة الإسلامية عهد أو كان له عهد مفتوح أعده فله مدة أربعة أشهر يجمع فيها أمره ويختار طريقه، فإن آمن بالله ورسوله وأعلن ولاءه للدولة الإسلامية فهو آمن وهو رجل من المسلمين، وإن أبى الإقامة على الشرك ومناوئة الدولة فإن الدولة هي التي ستولى علاجه

(١) د. محمد رواس قلنجه جي - المرجع السابق ص ٣٠٢.

بالطريقة التي تختارها. وهذه البنود الخمسة هي التي نزلت بها سورة التوبة (براءة) حيث قال تعالى:

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١ ﴾. فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ٢. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ٣. إلا الذين عاهدتُم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ٤. فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلواهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ٥ ﴾ [التوبة].

وأجل الناس أربعة أشهر من يوم فيهم ليرجع كل قوم إلى مامنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا من كان له عند رسول الله عهد إلى مدة، فهو له إلى مدته. لقد جاء فرض النظام العام ومحو الشرك هذا بعد أن صفى رسول الله أوضاع قريش في مكة، وسوى أمره مع القبائل الكبرى، وبسط سلطانه على الجزيرة العربية بأكملها وأصبحت السيادة السياسية المطلقة للدولة الإسلامية، لقد أعلن فيه أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يدينوا لهذه المرحلة الجديدة. لقد قضى رسول الله قرابة اثنين وعشرين عاما وهو يدعو إلى نبذ الأصنام، ولم يترك حجة إلا ساقها لهم، ولا برهانا ساطعا إلا بسطه لهم، ولكن الشيطان نفخ في أنوفهم فأبوا إلا إهدار كرامة الإنسان بسجوده للأصنام، وقد آن الأوان لإنقاذ هذه الكرامة، إنهم مرضى يرفضون تجميع الدواء، فكان من الحكمة أن يتجرعوه كرها أو طوعا ليلبوا من مرضهم، وإلا فلا أمل في الشفاء. ومن هذا المنطلق انبثق قانون محو الشرك. وطار الناس بنص هذا القانون ومعناه إلى الآفاق، فارتعدت لسامعه قلوب، وانفتحت له قلوب، علمت القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلا، فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد<sup>(١)</sup>.

بعد أن دانت الجزيرة العربية لرسول الله ﷺ، وكان لا بد له من أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين يأتونه من القبائل من كل فج عميق ليخطب فيهم خطبة النصر، وليعلن لهم فيها في مواد دستورية المبادئ التي شرعها الإسلام في تربية الفرد والجماعة، والتي يجب عليهم التمسك بها وتطبيقها كمسلمين ومواطنين في الدولة الإسلامية، وأراد رسول الله ﷺ أن يستغل مناسبة الحج ليلبغ المجتمعين في مكة الأحكام والأوامر<sup>(٢)</sup> ويعلن عن نظام الدولة الإسلامية الأولى. ورأى عليه الصلاة والسلام أن أنسب مكان لهذا الاجتماع هو مكة المكرمة وأنسب زمان له هو موسم الحج.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٣٠٣.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٣٦.

فأعلن للملا أنه يريد الحج، ورغب إلى الناس بمرافقته، وأمرهم بالتجهيز له. وسار رسول الله وسار معه ناس مد البصر، فحج رسول الله بهم حجا ليس كالحج السابق، حجا قد تعرى من كل شعيرة وثنية، وهناك وقف عليه الصلاة والسلام خطيبا في الجموع الهادرة يقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...» فخطب فيهم خطبته التاريخية، أعلن لهم فيها منهج الإسلام في إعداد الفرد المسلم، وبناء المجتمع، وقد جمع ذلك كله في خمسة مبادئ. اثنان منهما في إعداد وتربية الفرد، وثلاثة في بناء المجتمع. وأما إعداد الفرد وتربيته فقد أقامه رسول الله على مبادئ أساسين:

الأول: قطع كل صلة للفرد بالجاهلية، أوثنائها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك، لأن الحياة الجديدة التي يحيها المسلم بعد إسلامه حياة لا صلة لها برجس الماضي وأدراجه. الثاني: الابتعاد عن الخطايا، لأن الخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدو بعدوه، فهي سبب مصائبه في الدنيا ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى] فتريده في نار جهنم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السيف. وأعلن رسول الله أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام، لأن العقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا فيردبها في الشرك الخفي من غير أن تشعر. أما بناء المجتمع فقد أقامه رسول الله ﷺ على ثلاثة مبادئ أساسية<sup>(١)</sup>:

الأول: الأخوة الإسلامية، وهي الرابطة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، وهي الصلة التي عقدها الله في السماء لتكون الخيط الذي ينتظم فيه المسلمون جميعا انتظام اللآلئ لتشكّل العقد الثمين، وبمقتضى هذه الأخوة يكون للمسلم حق الولاية على المسلم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ... ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة] ينصحه ويفك عسرته والثاني: الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى عليه الصلاة والسلام في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء. الثالث: التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، التي تعمل على اقتلاع الشر، وزرع الخير في المجتمع، ولا يجوز أن يكون لون جلد الحاكم، أو أسرته أو قوميته حائلا دون التعاون معه عندما يريد نشر الخير.

تعتبر الخطبة التي ألقاها رسول الله محمد ﷺ أمام أكثر من مائة ألف من المسلمين عند جبل عرفات خطبة خالدة حيث أعلن فيها عن دستور الدولة الإسلامية، ولا غرو فقد بين فيها دستور الإسلام وقواعده ونادى بالمساواة بين الناس لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والشريف القرشي<sup>(١)</sup>.

وجماع هذه المبادئ هو: التمسك بالكتاب والسنة، وبذلك لم يفت رسول الله أن يدعو إلى التمسك بهما والتحاكم إليهما وحط الرحال عندهما. وإن هذه الخطبة على قصرها حوت المبادئ التي

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٣٠٥.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٤٩.

يصلح بها الفرد والمجتمع ، ولذلك أكد رسول الله وأشهد أنه قد بلغ . وإليك نص خطبته عليه السلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال : «أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يش من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس ، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت؟ . فردد الناس جميعا : اللهم نعم . فقال رسول الله ﷺ : «اللهم فاشهد» .

### رسول الله محمد ﷺ رئيس الدولة الإسلامية الأولى

يصعب الفصل بين أعمال الرسول ﷺ بصفته القائد العسكري . وبين أعماله بصفته القائد السياسي ، ورئيس دولة المسلمين الأولى ، التي أنشأها في الجزيرة العربية ، واتخذ المدينة المنورة عاصمة لها . سوف نحاول دراسة شخصية الرسول السياسية بالمعنى المتعارف عليه للسياسة وهي «فن حكم المجتمعات الإنسانية» وهي «علم الحكومة ، وفن علاقات الحكم ، وتطلق على مجموعة الشؤون التي تهم الدولة أو الطريقة التي يسلكها الحكام أهم مواقفه السياسية ، من خلال الأحداث التي واجهها ، إن أهم صفات القائد العسكري ، هي في مجملها من الصفات المطلوبة في القائد السياسي ، وبخاصة

عندما يتسلم القائد أعلى مركز في الدولة، أو يقوم بتأسيس دولة. ولئن كانت القيادة العسكرية وعمومًا تتطلب صلابة وحزمًا، بينما تتطلب القيادة السياسية حلمًا وحنكة، فإن الجمع بين الصفات اللازمة للقيادتين يمكن أن تتوفر لأشخاص نادرين، بحيث تتوازن مختلف الصفات لديهم، فلا تطغى واحدة على أخرى، وهي ضرورة للقيادة الذين يحملون دعوة، ويؤسسون دولة. ولهذا فإن الله عز وجل وهب الرسول العربي ﷺ أفضل الصفات الضرورية للقيادتين، حتى حلق في الناحيتين لدرجة جعلت أحد الكتاب الغربيين المعاصرين يقول عنه بعدما وضعه على رأس قائمة القادة الذين تركوا بصماتهم على التاريخ: «فوق ذلك، فإن محمدًا ﷺ يختلف عن المسيح بأنه كان زعيمًا دنيويًا فضلًا عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمدًا ﷺ يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال» ويختلف رسول الله محمد ﷺ عن الزعماء السياسيين الآخرين في أنه لم يرث عرشًا، ولم يغتصب حكمًا، بل أوجد دولة لا وجود سابق لها، غيرت مجرى التاريخ، وخلفت بصماتها على أحداث العالم حتى العصر الحاضر، وستبقى آثارها حتى قيام الساعة. وإبراز الحكمة في سياسته سنوجز أهم أعماله السياسية في ثلاث نواح<sup>(١)</sup>: ١ - سياسته في بناء الدولة ٢ - سياسته الداخلية ٣ - سياسته الخارجية.

يعد الأسلوب الذي اتبعه الرسول ﷺ، من يوم بعثه الله عز وجل ليلبغ رسالته إلى البشر، المنهج أسلوب يمكن أن يتبع، والدليل على ذلك ما حققه ذلك الأسلوب من نتائج اعترف بها العدو قبل الصديق، وأرست سياسته قواعد الاستراتيجية الإسلامية العليا الرئيسية التي اتبعها القادة المسلمون فيما بعد على مر العصور. يقول ليدل هارت، أشهر كاتب عسكري متأخر: «وما الاستراتيجية العليا سوى السياسة التي تقود سير الحرب، ويمكن التفرقة بينها وبين السياسة الأساسية التي تحدد هدف الحرب. ويستخدم تعبير الاستراتيجية العليا لشرح فكرة «السياسة خلال التنفيذ». . إن مدى الاستراتيجية محدود بالحرب، ولكن الاستراتيجية العليا تنظر إلى ما وراء الحرب، ونحو السلم الذي سيعقبها، وليس عليها أن تكتفي بتحقيق التوافق بين مختلف وسائط الحرب فحسب، إنما عليها أن تنظم استخدامها بغية تلافي ما يؤدي السلم المقبل الذي يجب أن يكون ثابتًا ويحقق حياة أفضل». فمن أولى واجبات القيادة السياسية وعي الظروف التي تعيشها وإدارتها، بحيث تستطيع التعامل مع الواقع في سبيل تغييره إلى الأفضل والرسول ﷺ لا يبغي ملكًا، ولا ثروة. إنه يعمل في نشر دعوة جديدة لا أنصار لها ولا أتباع، وفي تأسيس دولة «عقيدية» تؤمن بمبادئ مخالفة للأعراف والتقاليد السائدة. والدولة لها أركان ثلاثة: شعب (سكان)، وأرض، وسلطة سياسية يخضع لها السكان. فالدولة «جماعة من الناس يعيشون بصورة دائمة فوق إقليم جغرافي محدد، ويخضعون لسلطة

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٨٨ .

سياسية معينة» لهذا بدأ الرسول بالركن الأول، وهو إعداد المسلمين عقائدياً ونفسياً وعسكرياً. فأية دولة لا تقوم على قاعدة شعبية متينة تجعل من المواطنين مجموعة من اللامبالين السلبيين، وتقتصر بطائته على المنافقين والمتنعين، ويقل فيها الصالحون والناصحون. وعندما تواجه الدولة أية مشكلة ينهار النظام، لأن أعوانه الذين يفترض فيهم أن يفسدوه بدمائهم يتخلون عنه، لأنهم لا يؤمنون به ابتداءً. ولم تكن مهمة رسول الله محمد ﷺ هينة، فالبيئة الاجتماعية التي بعث فيها لها مفاهيمها وعاداتها وتقاليدها، وكان عليه تغيير تلك المفاهيم واستبدالها بمفاهيم الدين الجديد وقيمه وأخلاقه. لقد قضى في مكة ثلاث عشر سنة يقابل الحرب بالسلام، ويواجه الأعداء بالسكينة، والانتقام بالصفح، والطغيان بالدعوة إلى العدل. ولا يمكن أن نعتبر مواقفه تلك تهرباً من مواجهة أعدائه والمشركين، ولا استسلاماً لطغيان قريش واعترافاً بسلطانها الجائر، لأنه يعرف أن الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله أعلى المراتب التي ينالها المؤمن. ولذلك لم يفكر يوماً بالتخلي عن أداء واجبه، ولم يدر أبداً في خلده الهروب من المواجهة، بل على العكس، كان قائداً حكيماً يجيد فن التوقيت كما يجيد فن الصبر والاحتمال وسياسة النفس الطويل<sup>(١)</sup>.

استطاع في خلال هذه المدة تكوين نواة أمته من أبطال يسترخصون الحياة في سبيل الله والدين الجديد. ولكنه اقتنع بأن قريشا لن تسمح له بتحويل مكة إلى «قاعدة قوية وأمينة» ينطلق منها لنشر دعوته وتأسيس دولته. فقد أوجد الناس المؤمنين، ركن الدولة الأول، وهو بحاجة إلى الأرض الركن الثاني في كل دولة، فتطلع إلى مدينة أخرى يتخذها قاعدة. ووقع اختياره على الطائف لأنها أقرب المدن إلى مكة قلب الجزيرة وقبلة العرب، ولأنها تمتاز بموقع استراتيجي، وأهلها محاربون أشداء، فقد خرج إليها يدعو قاداتها إلى اعتناق الإسلام، لكنهم صدوه وآذوه، وأغروا به صبيانهم فعاد إلى مكة خائباً غير آيس من رحمة الله وعونه. ولم يشبط ذلك عزائمه عن دعوة القبائل التي تفد إلى مكة لزيارتها وتعظيمها على عادة العرب في الجاهلية. وكان بين الذين التقاهم جماعة من أهل يثرب (المدينة) عددهم اثنا عشر رجلاً التقاهم بالعقبة ودعاهم إلى الإسلام، فاستجابوا له وآمنوا به، وبايعوه فيما سمي «بيعة العقبة الأولى». ولما عادوا إلى المدينة أرسل معهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن ويؤمهم في الصلاة. وفور وصولهم إلى المدينة بدأوا يبشرون قومهم بالدين الجديد. ويدعون الناس لاعتناقه. وفي العام التالي قدم ثلاثة وسبعون رجلاً منهم، وتواعدوا رسول الله في العقبة أيضاً، وكانت بيعة العقبة الثانية. وفيها قال رسول الله ﷺ للوفد الذي تألف من سبعين رجلاً: «أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فبايعوه على ذلك. وعندئذ شعر الرسول ﷺ بأنه يمكنه أن يتطلع إلى المدينة لتكون قاعدته الأمانة التي ينطلق منها لتحرير الجزيرة العربية من

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٨٨.

عبادة الطواغيت والأوثان، ولما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة أدرك بأنه استكمل الركن الثاني من أركان دولته، وهو الأرض، وبقي عليه إيجاد نوع من التنظيم، والسلطة السياسية التي يجب أن يخضع لها جميع السكان لاستكمال عناصر الدولة جميعها. وفي سبيل ذلك كان أول ما قام به الرسول ﷺ، بعد تحصيل جبهته الداخلية وتنظيم صفوف أتباعه بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، أن وضع مع بقية سكان المدينة معاهدة نظم فيها العلاقات بين عناصر المجتمع الجديد المختلفة، الذي كان عليه أن يعمل فيه، فوضع معهم معاهدة سميت «الصحيفة» لأنها تمثل الدستور المؤقت للدولة الإسلامية الأولى<sup>(١)</sup>.

نلاحظ أن الصحيفة تضمنت مبادئ عامة، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها. وفي طليعة هذه المبادئ، ولعله أهمها، تكوين الأمة وتعريفها، وبيان الحقوق والواجبات المترتبة لفئاتها وعليها، وهذا شيء جديد كل الجدة في تاريخ السياسة في جزيرة العرب. إذ نقل الرسول قومه من شعار القبيلة والتبعية لها، إلى شعار الأمة، التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم أنهم: (أمة واحدة) إذن نستطيع أن نقول: أن الرسول ﷺ استكمل في هذه الصحيفة أركان دولته. فقد أصبح لديه أناس مؤمنون برسالته، وأرض يقيم عليها أولئك الناس، ويخضعون لسلطة سياسية واحدة هو رئيسها والمرجع الأعلى فيها. لا نستطيع أن ندعي أن الدولة التي أقامها الرسول ﷺ في المدينة هي دولة مكتملة العناصر بأجهزتها الحكومية والإدارية بالمفهوم المعاصر، ولكنها كانت دولة تفي بحاجات المجتمع في ذلك العصر، خضعت إلى التطور باستمرار حتى تفوقت على جميع الدول التي عاصرتها في جميع الميادين. وقد واجه الرسول ﷺ عقبات كثيرة من يوم وطئت قدماء المدينة؛ فقد كان الأوس والخزرج يتأهبون قبيل دخولهم في الإسلام لتتويج عبدالله بن أبي بن سلول ملكاً عليهم. وبدخولهم في الإسلام فقد ابن سلول أية إمكانية لتزعم المدينة، فشكل مع مجموعة من المنافقين معارضة داخلية، وكانوا نقطة ضعف في المجتمع الجديد، حتى أنهم شكلوا ثلث جيش المسلمين الذي خرج إلى غزوة أحد كما مر معنا، وتخلوا عن ذلك الجيش وهو في طريقه إلى المعركة. كذلك كان بين السكان عد كبير من اليهود، استمروا في خلق الفتن وافتعال الاضطرابات حتى أجلوا عن المدينة نهائياً<sup>(٢)</sup>. على أن الإرادة العليا إنما تتجلى في تدبير الشؤون العامة حين تصطدم بالأهواء وتندثر بالفتن والنزاع، لقد تمت في تدبير الشؤون العامة لرسول الله محمد ﷺ في حلول التوفيق وإتقاء الشرور أحسن تمام فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا وأشار فيه بأعدل الآراء وأدناها إلى السلم والإرضاء<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٨٩ .

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٩٥ .

(٣) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٦٩ .

كذلك فإن المسلمين أنفسهم تألفوا من مهاجرين وأنصار، ومع أن المؤاخاة بينهم قضت إلى حد كبير على أية إمكانية للخلاف والاختلاف، فإن وجود المنافقين بين صفوفهم، ومقدرتهم على تضخيم الأمور الصغيرة وإشعال نار الفتنة، بالإضافة إلى قرب العهد بالجاهلية، كان يؤدي إلى وقوع حوادث وفتن كثيرة، وكان الرسول في كل مرة، بسياسته الحكيمة وحسن تصرفه، يستطيع أن يقضي على الفتنة في مهدها، بل ويوظفها في مصلحة المسلمين وتعزيز اللحمة بينهم. وحسن التصرف هو نصف السياسة، ويتجلى أكثر في السياسة الداخلية، وهو الذي أمن الاستقرار الداخلي للدولة الناشئة. ولعل تصرف الرسول ﷺ مع أبي سفيان الأموي، أكبر أعدائه قبل إسلامه، يعطي فكرة واضحة عن تصرفاته الحكيمة. فهو قد حبسه يوم فتح مكة في مكان بحيث تمر جميع قوات المسلمين أمامه، حتى لا يدور في خلد أي تفكير في المقاومة. وبما أنه يعرفه محباً للرياسة والزعامة، جعل (من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن) كمن يدخل الحرم الشريف أو يبقى في بيته. وهذا ما جعل أبا سفيان يخرج في جيش المسلمين مقاتلاً، بعد ما كان قائد قوات المشركين، ويحضر غزوة حنين وهو حديث عهد في الإسلام، لم يدخل الإيمان قلبه. وعند تقسيم الغنائم جاء أبو سفيان الأموي والأموال بين يدي رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً فتبسم رسول الله ﷺ. وقال: أعطني من هذا المال يا رسول الله! قال: يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل.. قال أبو سفيان: إنك الكريم، فذاك أبي وأمي! ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سألتك فنعم المسالم أنت» وهذا مثل من أمثال كثيرة تحول فيها العدو إلى صديق، ثم إلى محب<sup>(١)</sup>.

وعندما بلغ الرسول، يوم فتح مكة، قول سعد بن عباد، قائد قوات الأنصار المتقدمة نحو مكة لدخولها من الجهة الغربية «اليوم يوم الملحمة» أخذ منه الراية ليتحاشى تهور سعد، ومعرفة هو في غنى عنها. ولكن حسن التصرف بدا جلياً في تسليم الراية لابنه قيس بن سعد. وبهذا التصرف الحكيم حال دون تهور سعد، وفي الوقت ذاته لم يشره، ولا أثار الأنصار. فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه. ومن طبيعة البشر أن لا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابته. وفي أثناء غزوة بني المصطلق، وبينما جيش المسلمين على نبع ماء يقال له «المريسيح» تزاحم أجير لعمر بن الخطاب اسمه «جهجاه» وأحد الأنصار. فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبدالله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين، وقال: «أو فعلوها؟ قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعتنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». وكان بين الحضور الذين سمعوا الكلام غلام اسمه زيد بن أرقم، فأخبر الرسول ﷺ بما

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ١٩٦.



سمع . وكان عند عمر بن الخطاب، فقال: مر عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله تلك الجملة المأثورة التي يجب أن يحفظها كل قائد ويضعها نصب عينيه، قال: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! ولكن أذن بالرحيل». ولم تكن الساعة ساعة رحيل، كانت شمس الجزيرة اللافحة تلهب الجيش، ومع ذلك سار النهار وأتبعه بالليل، فشغل الناس بأنفسهم، وأنهكهم التعب، فلما أناخوا، ناموا، ولم يسمح لهم وضعهم الجسدي بالعودة إلى الحديث بالموضوع. لم يحاسب ابن أبي سلول، وقبل اعتذاره، رغم تأكده من كذبه الذي أكده القرآن الكريم، لأنه كان صاحب مكانة مرموقة في المدينة، وله أتباع وأنصار، ويمكنه ان يحدث فتنة تزعزع الاستقرار في المدينة. ففضل الرسول ﷺ اتباع أسلوب الملاطفة معه والملاينة، والتغاضي عن الأخطاء والهفوات، وبذلك يقيه معزولا في المجتمع، لا يستطيع أن يشير أي عطف. «قد يقول البعض: إن الحفاظ على الاستقرار الداخلي بهذا الأسلوب ضعف في الدولة، وكان رسول الله ﷺ أن يقطع رأس الأفعى لا أن يلمس جلدها، ولكن سياسة رسول الله ﷺ مختلفة، ونظرته إلى الأمور أبعد، إنه ينظر إلى أن قطع رأس الأفعى التي لها فراخ يولد الكره له في فراخها، وهو عليه الصلاة والسلام يريد أن يسوس شعب دولته بالحب لا بالسيف، فحيثما أمكن نثر بذور الحب امتنع استعمال السيف، وهذا ما جعل شعب دولة الإسلام متفانيًا في الدفاع عن رسول الله ﷺ وعن دولته<sup>(١)</sup>.

#### سياسة رسول الله محمد ﷺ مع القوى والقبائل المجاورة

لا بد لأي دولة في العالم من التعاطي مع الدول المجاورة، وبالتالي فإن العلاقات بينها وبينهم تتنوع من التعاون وحسن الجوار والخصومة أو الحرب. وبما أن الرسول محمد ﷺ كان يحمل رسالة عليه أن يؤديها إلى الناس كافة، فقد كان عليه أن يحيط بما يجري في الدول المجاورة، ويتعرف أخبارها، ويدعوها إلى الإيمان بالله، كما دعا قريشًا وغيرها من القبائل العربية. وفي المراحل الأولى من الدعوة، كانت السياسة الخارجية تقتصر على التعامل مع قريش وغيرها من القبائل العربية، ولكنها بعد بسط سيادة الدولة الإسلامية على الجزيرة العربية انتقل التعامل إلى الدولة المجاورة ومنها فارس والروم، الدولتان العظيمنتان في ذلك الزمن. وفي السياسة الخارجية تظهر أهمية صفة «بعد النظر» وحسن الاختيار بين السلم والحرب. فكم من قائد دمره غروره، وقصر نظره، وسوء تقديره للأمور. وكم من قائد يمضي الأيام ويصرف الأموال في تصحيح أخطائه السابقة. أما الرسول ﷺ فقد أثبتت الأيام صحة قراراته كلها، وبعد نظره، وقدرته الفائقة على كسب الأصدقاء، وعزل الأعداء<sup>(٢)</sup>.

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٩٧ .

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ١٩٨ .

«ففي عهد الحديبية تجلّى تدبير محمد ﷺ في سياسة خصومه، وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسألة ولا تصلح اليهود. بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته. بل شمل بعض كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش، ومصالحة واحدة في وجه مصالحتها، وفضل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى. ثم أفسد على قريش ما تعمدته من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية<sup>(١)</sup>. فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم». وعند توقيع الهدنة لم يدرك الصحابة أهميتها ولكن بعد نظر الرسول جعله يرى ما لا يرون، ويدرك ما لا يدركون. وبعد مدة ليست بالطويلة بدأت نتائج الهدنة الميمونة تظهر للعيان. وأدرك الصحابة خطاهم، وعلى رأسهم عمر ابن الخطاب الذي بقي يلوم نفسه على معارضته في ذلك اليوم إلى أن توفاه الله تعالى «قال أبو سعيد الخدري: جلست عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً، فذكر القضية فقال: لقد دخلني يومئذ من الشك، وراجعت النبي ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قط. ولقد عتقت فيما دخلني يومئذ رقاباً، وصمت دهرًا، وإني لأذكر ما صنعت خاليًا فيكون أكبر همي، ثم جعل الله عاقبة القضية خيرًا، فينبغي للعباد أن يتهموا الرأي. والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي: لو كنا مائة رجل على مثل رأي ما دخلنا فيه أبدًا. فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية».

وبعد تقسيم الغنائم في الجعرانة، قدم على النبي ﷺ وفد هوازن مسلمين، فأعاد إليهم نساءهم وأولادهم، وسألهم: «ما فعل مالك؟»<sup>(٢)</sup> قالوا: يا رسول الله، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف في حين هو أمير هوازن قال رسول الله ﷺ: «أخبروه أنه إن كان يأتي مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل». وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم، أم عبد الله بنت أبي أمية وأوقف تقسيم أموال مالك. فلما علم مالك أن ماله موقوف لم يورع، وأن أهله مكرمون عند عمتهم، قرر القدوم على الرسول ﷺ والدخول في الإسلام وخاف على نفسه ثقيلًا إن هم عرفوا بقراره، أو علموا بمقصده فرتب هربه من ثقيف بأن وضع بعيرًا خارج الطائف في مكان اسمه «دحنا» وهرب ليلا على فرسه حتى وصل ذلك المكان. فامتطى راحلته وأسرع بها حتى

(١) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص ٦٠.

(٢) أي مالك بن عوف النصري، قائد تحالف ثقيف وهوازن في غزوة حنين، الذي أوقع خسائر جسيمة في جيش المسلمين، والذي هرب إلى الطائف في موقعه من غزوة حنين.

لحق بالرسول ﷺ فرد عليه أهله وماله، وعينه قائداً على من أسلم من قومه، ومن القبائل التي كانت تقيم حول الطائف، وعقد له لواء، فكان يقاتل بمن أسلم معه أهل الشرك، ويغير بهم على ثقيف، حتى حصر أهل الطائف فيها، فلا يخرج لهم قطيع إلا استولى عليه، ولا تمكن من رجل منهم إلا قتله وهكذا فقد استطاع الرسول ﷺ ببعد نظره، وخبرته بالرجال، تحويل عدوه إلى تابع له، يؤدي أفضل الخدمات للإسلام والمسلمين، لقد عرف حرص مالك على أهله وأمواله، وحببه للزعامة والقيادة، فأعاد إليه أهله وأمواله، وزاده من مال الله الذي بين يديه، واستعمله على المسلمين من قبيلته فحسب إليه الإسلام، ورغبه فيه. وقد يتطرق إلى الذهن أن الرسول اشتراه بالمال، بالمعنى المعاصر، وأنه لم يسلم عن إيمان، بل أسلم خوفاً على أهله وطمعا في المال. وهذا صحيح إلى حد كبير. ولكن ما الخسارة في ذلك؟ بل ولنفرسه يظهر الإسلام، ويبطن الشرك، فهو عدو يقاتل عدواً، ففي ذلك كسب المسلمين، وهذا نوع من السياسة الحكيمة لا مانع من اللجوء إليها عند الضرورة، كما فعل الرسول ﷺ (١).

خرج رسول الله محمد ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال لهم: «إني بعثت رحمة وكافة: فأدوا عني يرحمكم الله ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم، قال يا رسول الله وكيف كان اختلافهم؟ قال: دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه، فأما من قرب به فأحب وسلم وأما من بعد به فكره وأبى، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم فقال عيسى: هذا أمر قد عزم الله لكم عليه فامضوا» ثم فرق رسول الله محمد ﷺ أصحابه إلى الملوك والحكام (٢).

مارس الرسول ﷺ السياسة بمفاهيم مثالية قد لا يستوعبها الناس في هذا العصر، مع أنه عاش الواقع، ومارس «فن الممكن» فتحالف مع مشركين في حلفه مع خزاعة، وتعاقد مع يهود في الصحيفة، فلم ينقض عهداً، ولم يغدر بعدو، ولم يتخل عن صديق. وبقي أن نشير إلى أنه من الصفات الضرورية للقائد السياسي الناجح أن يكون فصيح اللسان، جميل، يدخل إلى قلوب مخاطبيه، ويقنعهم بأفكاره بأوجز عبارة. «أما محمد ﷺ فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، وهو يقول عن نفسه أنه أوتي جوامع الكلم، ولذلك نراه يطلق الشعارات كما هي الحال في العصر الحاضر، ولكنها شعارات رائعة، كل شعار يختصر موسوعة في علم الاجتماع، أو السياسة، أو غيرها مثل: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوي» «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» و«لا ضرر ولا ضرار» و«الظلم ظلمات يوم القيامة» و«الدين النصيحة» وبقيت تلك الشعارات منارات للبشر كافة، تنير لهم الطريق عبر العصور (٣).

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٣) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ٢٠٥ .

## الدولة الإسلامية وعلاقتها مع اليهود

كان اليهود يؤلفون عنصراً قوياً من عناصر السكان في المدينة. ولقد تعاونت التجارة والربا على جعلهم أصحاب ثراء ضخم. وكان من دأب الأوس والخزرج، عامة، ان يقترضوا المال منهم. وفي حقل الثقافة أيضاً، بل لقد تقدموا جيرانهم في كل ميدان من ميادين الحياة تقريباً. ولدن وصول النبي إلى المدينة عقد اليهود اتفاقاً مع المسلمين ولكن ازدهار الإسلام المتعظم أضرم في قلوب اليهود شرارة الحسد. ولقد وقفوا، ببقاتهم على اتصال بالمنافقين سري، إلى انزال أعظم الأذى بالمسلمين. ولم يتورعوا حتى عن إبداء الرسول نفسه، الذي كانوا يوجهون إليه كلمات بذيئة نابية. وكانوا، مثلاً، إذا ما تحدثوا إليه حرفوا كلمة «راعنا» التي تعني «أصغ إلينا» إلى «رعينا» وتعني «إنه مجنون» بسبب من حذف حرف العلة. وكذلك كانوا يحرفون كلمة «السلام عليكم» فيلفظونها «السام عليكم» أي الموت لكم. واصطنع اليهود خططاً بارعة عديدة للإضرار بقضية الإسلام فكان بعضهم يعتنقون الدين الجديد وكل قصدهم ان يخرجوا من حظيرته عددًا من المسلمين كبيراً. وما كان في بادئ الأمر حسداً انتهى مع الأيام إلى أن يغدو عداوة حقيقية. لقد عرضوا بالسيدات المسلمات في أبيات من الشعر الفاحش، أيضاً. بل لقد انحطوا إلى درك مضايقتهن في الشوارع. وقد أمضت إحدى هذه الحوادث إلى مقتل رجل يهودي وآخر مسلم في شارع بالمدينة، وإلى نشوب قتال حقيقي بين الطائفتين. وعمد بنو قينقاع، إلى تحذير هؤلاء راعمين انهم ليسوا مثل قريش، وأنهم سوف يلقون على أصحاب محمد درساً قاسياً. وهكذا نقضوا عهدهم، واعتصموا في حصونهم عاقدين العزم على مقاتلة المسلمين. وتعين على المسلمين أيضاً أن يتأهبوا للحرب، فآلقوا الحصار على تلك الحصون. وبعد خمسة عشر يوماً انقضت على الحصار استسلم بنو قينقاع وأبدوا استعدادهم لقبول أيما عقوبة يرى الرسول إنزالها بهم، جزاء نقضهم عهده. لقد طلب إليهم أن يجلوا على المدينة، ففعلوا، واستقروا في أذرعات من بلاد الشام. وإنما تم ذلك بعد شهر واحد، تقريباً، من معركة بدر<sup>(١)</sup>. قامت بنو النضير، على الرغم من تعاهدها مع المسلمين، بمفاوضات سرية مع قريش منذ البدء. لقد كتب القرشيون إليها. قبل موقعة بدر، يسألونها قتل الرسول. والواقع أن بني النضير هؤلاء دعوا الرسول ذات يوم وحاولوا الغدر به، ولكن محاولتهم أخفقت.

وإذ تجلت خيانتهم من طريق أعمال كهذه لم يعد في طوق الرسول أن يجيز لمثل هذا العنصر الخطر أن يبقى في قلب المدينة من غير ان يعرض سلامته وسلامة المسلمين للخطر. وهكذا خيروا بين تجديد اتفاقهم مع المسلمين كتوكيد لنياتهم السلمية، أو الجلاء والاقامة في مكان آخر. وجدد بنو قريظة الدين لم يهتموا حتى الآن بأيام عمل جدي غادر ضد المسلمين، عهدهم عن طيب نفس. ولكن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٧١.

بني النضير، وكانوا نزاعين إلى الشر والأذى، رفضا الإقدام على ذلك. ومن ثم أسسوا أعداء للإسلام على نحو صريح ووعدهم عبد الله بن أبي، أيضا، العون والمساعدة، فزادهم ذلك ثباتاً في مقاومتهم للمسلمين. ويتعين علينا أن لا ننسى هنا أن الإسلام كان يمر آنذاك بمرحلة حرجة جداً من مراحل حياته. كانت هي فترة معركة أحد، عندما تآلب الأعداء من كل صوب وشهروا السلاح لتسديد ضربة قاضية إلى الإسلام. كان الهجوم، يشن من الخارج، خطراً من غير ريب، لكن الانفجار الداخلي المرتقب في كل لحظة كان أشد من ذلك خطراً. يقول المثل: الإنذار المسبق يساوي التسليح المسبق. وكان هذا ممكناً في حال هجوم خارجي، لما يتيح للمسلمين من وقت يستعدون خلاله لمواجهة الوضع. أما الانفجار غير المرتقب في المدينة نفسها فخلق به أن يكون طعنة قاتلة توجه إلى فؤاد الإسلام نفسه<sup>(١)</sup>.

وكان بنو النضير على صلوات ودية مع أعداء الإسلام. وهكذا كان رفضهم تجديد الاتفاق بمثابة إعلان للحرب. وإلى هذا، فقد كانوا متهمين بمحاولة اغتيال الرسول. ونظرا لهذه الاعتبارات كلها لم يكن أمام المسلمين غير سبيل واحد: أن يعاملوهم معاملة أعداء جاهروا بعداوتهم. وهكذا ألقوا الحصار على حصونهم، ثم رفعوه شريطة أن يجلو بنو النضير عن المدينة. فشخص بعضهم إلى خيبر واستقروا فيها. وإنما حدث ذلك في السنة الرابعة للهجرة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ خَيْالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

ومثل بنو النضير دورا هاما في معركة الأحزاب. فبالإضافة إلى تحريضهم يسيوتات قریش، راحوا يطوفون في الصحراء ملمين بمضارب البدو، يثيرونهم على الإسلام. وتأثر بنو قريظة أيضا، وكان موقفهم من الإسلام حتى ذلك الحين وديا، بهذه الحملة الدعاوية. لقد رفض بنو قريظة هؤلاء، أول الأمر، أن يشاركوا في الحرب ضد السلام. ولكنهم تلقوا تأكيدات تفيد أن المسلمين كانوا في وضع يائس لن يتمكنوا معه من البقاء. إنهم لن يستطيعوا، بأية حال، الصمود في وجه الأعداء الضخمة التي تجمعت، مثل نبات الفطر، في كل ناحية، للقضاء على الإسلام. ولقد قيل لبني قريظة إنه قد آن لهم أن يختاروا بين الانحياز إلى المسلمين وبين التعاون مع الأحزاب. وهكذا أقتنع بنو قريظة بالانضمام إلى صف سائر القبائل المعادية للإسلام. فنقضوا عهدهم الذي أعطوه للمسلمين، وتحالفوا مع الأحزاب. والحق أن الميثاق الجديد، برغم أنه عقد سرا، لم يبق حرقا ميتا. فقد شارك بنو قريظة عمليا في القتال. وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَّاصِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب] <sup>(٢)</sup>. والتاريخ، أيضا، يشهد على اشتراكهم في المعركة. بل لقد بيتوا خطة للهجوم على نساء المسلمين أيضا.

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٧٢.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٧٣.

وكان في خيانة بني قريظة - وقد برز في الجانب الآخر من الخندق أربعة وعشرون ألف مقاتل متحرقين لسحق الإسلام، وانهمك المنافقون في إنزال الأذى بالمسلمين في الداخل - ما زاد في متاعب الرسول وأصحابه إلى حد بعيد. وهكذا رثي، عند انقضاء معركة الأحزاب، أن من المناسب أن تنزل ببني قريظة العقوبة التي يستحقون، والتي قد تحول دون تكرار مثل هذه الخيانة الغادرة في المستقبل. ومن ثم ألقى المسلمون الحصار على معقلهم. فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة. وإنما حدث هذا في السنة الخامسة للهجرة. وقد اختار بنو قريظة بأنفسهم سعد بن معاذ، وكان في ما مضى حليفهم، حكما يعين العقوبة التي يستحقون. ولو أنهم فوضوا أمرهم إلى رسول الله محمد ﷺ إذن لعاملهم في أغلب الظن كما عامل أبناء عمومتهم بني قينقاع وبني النضير. لقد كان خليقا به أن يحكم عليهم، في أسوأ الأحوال، بالنفي من المدينة. ولكن سعدا، الحكم الذي اصطفوه هم، كان ينظر إلى غدرهم الخطر، في لحظة الحرة، باشمئزاز بالغ. لقد ارتأى أن أعظم الأذى الذي أنزلوه بالمسلمين يقتضي عقوبة نموذجية بدونها لن تحظى الموائيق، في المستقبل، إلا باحترام ضئيل، وقد يعتبرها أي من الفريقين المعنيين عندئذ قصاصات ورق لا قيمة لها. ومن هنا انتهى إلى هذا القرار: أن جزاءهم العادل يجب أن لا يكون، بأية حال أخف من تلك التي قضى بها كتابهم المقدس، العهد القديم، في حق العدو المهزوم. وهذا ما يقضي به «العهد القديم» في هذا الصدد<sup>(١)</sup>:

«وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنمية أعدائك التي أعطاك الرب إلهك» (سفر التثنية، ٢٠: ١٣ - ١٤). وهكذا حكم سعد، وفقا للشريعة الموسوية، بقتل ذكور بني قريظة، وعددهم ثلاثمائة، وبسبي نساءهم وأطفالهم، وبمصادرة ممتلكاتهم. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية فقد كانت على وجه الضبط العقوبة التي كان اليهود ينزلونها، تبعا لتشريع كتابهم المقدس، بالمغلوبين من أعدائهم. وإلى هذا فإن جريمة الغدر الشائنة التي اتهم بها بنو قريظة خليق بها، في مثل تلك الظروف، أن لا تجازى بأيا عقوبة أخف، حتى في عصر المدنية المعاصرة هذا. كان القاضي من اختيارهم، وكان الحكم منطبقا أشد انطباق مع شريعتهم المقدسة نفسها. وفوق ذلك، فقد أدينوا بخيانة كبرى من نوع خطير. فهل من المنطق في شيء أن ينتقد الرسول لهذا السبب؟ أن كل اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو اعتراض على الشريعة الموسوية. إنه في الواقع انتقاد لا شعوري لتلك الشريعة، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية بحسب أن تحل محلها. وإنما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف، في وضوح بالغ، أي قانون رقيق، عطوف، رحيم قدمه الإسلام إلى الناس.

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٧٤.

يرجع موقف اليهود من المسلمين إلى مجيء رسول الله محمد ﷺ إلى المدينة عندما اتخذها مركزاً لنشر دعوته، فقد رأوا في رسول الله محمد ﷺ وفي دينه الإسلام مناخاً جديداً يوشك أن يقضي على نفوذهم وعلى نفوذ المسيحيين جميعاً وأن يتزعج من الفريقين لواء الزعامة الدينية الذي يتجاذبون، فقد كان رسول الله من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش، فهو لذلك أقرب إلى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود الذين جاؤوا من الشام بعد أن طردهم المسيحيون لذلك كان أهل المدينة أسرع إلى قبول دعوة رسول الله محمد ﷺ والانضمام تحت ذلك النبي العربي الذي كان اليهود يستفتحون به عليهم<sup>(١)</sup>.

أما موقعة خيبر فقد حدثت بعد صلح الحديبية، في السنة السابعة للهجرة، فحين نفى بنو النضير من المدينة، نزلت كثرتهم الكبرى، وبخاصة زعمائهم وأعيانهم، في خيبر، معقل اليهود في بلاد العرب، على مبعدة ممتي ميل، تقريبا، من المدينة. وكان اليهود ينعمون ثمة بسلطان مستقل، وكانوا قد حصنوا الموقع تحصيناً قويا. حتى إذا وفد عليهم بنو نضير غرست بذرة العداوة للإسلام في قلوبهم. وما إن نشبت معركة الأحزاب حتى راحوا يحرضون المكين، وقبيلة غطفان، والقبائل البدوية، على المسلمين، بل لقد وفقوا إلى اكتساب تعاون بني قريظة أيضا. ورسخت جذور القوة الإسلامية في المدينة بعد إخفاق حملة الأحزاب. ولكن الحقد اليهودي لم يزد إلا ضراوة. ولقد أجروا مفاوضات سرية مع عبد الله ابن أبي، زعيم المنافقين، الذي أكد لهم توكيدا جازما انه لا يزال في إمكانهم سحق القوة الإسلامية. وفي العام السادس للهجرة منع المكين الرسول من أداء فريضة الحج، وتعين عليه ان يعقد معهم صلحا بشروط منذلة بعض الشيء. وكان في هذا ما مكن في نفوسهم الاعتقاد باضمحلال قوة الإسلام، فراودتهم آمال جديدة في القضاء على المسلمين نهائيا. عندئذ شرعوا يتآمرون مرة أخرى مع قبيلة غطفان، وجاء تسيير حملة جديدة على المدينة. وبلغت الرسول أنباء ما بيئته، حتى إذا تبين الأمر واستوثق من صحته، سير إلى خيبر قوة مؤلفة من ألف وستمائة مقاتل. وعلى منتصف الطريق بين خيبر وبنارل غطفان يقع موطن يعرف بالرجيع. ولاعتبارات استراتيجية اختيار الرجيع قاعدة للهجوم، إذ كان يقطع كل اتصال بينهما. وهكذا لم يعد في إمكان اليهود أن يرتقبوا أيما عون من غطفان. ليس هذا فحسب، بل ان غطفان - التي وعت خطورة مثلها أقدمت عليه - خشيت أن يشن المسلمون عليها هجوما، فهي من نفسها في شغل شاغل<sup>(٢)</sup>.

لقد ظن أن اليهود سوف يتخلون عن فكرة المقاومة، ويجنحون إلى الاستسلام. حتى إذا تقدم المسلمون إلى خيبر تبدي ان اليهود كانوا قد اتخذوا استعدادات كاملة لخوض معركة ضارية مع

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٣١.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٧٥.

المسلمين . وبدأ القتال . ووفق المسلمون إلى احتلال عدد من حصون اليهود، أما حصن « القموص »، كان منيعا جدا يحميه عدد من الرجال وافر، فامتنع عليهم . والواقع انه صمد لهجماتهم نحوا من عشرين يوما، ولم يسقط إلا بعد أن حمل عليه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حملة ضارية . ثم ان اليهود استسلموا، وطلبوا أن يقيهم الرسول على أراضيتهم شرط أن يقدموا إلى المسلمين نصف ثمرها . فأجابهم الرسول إلى ما طلبوا، وأجاز لهم الاحتفاظ بأراضيتهم، برغم ثقته من أنهم لن يحجموا عن إنزال الأذى بالمسلمين حين تتاح لهم الفرصة . وبعد عقد هذه التسوية مباشرة، ائتمر زعماء اليهود بالرسول، وحرصوا زينب بنت الحارث بن أبي رينب، وكانت زوجة سلام بن مشكم الذي قتل في المعركة، على أن تدعو الرسول إلى طعام مسموم . ولكن العناية الإلهية أشعرت الرسول بما بيت له من غدر، فلم يكذب يلوك مضغمة من الشاة المسمومة حتى لفظها وهو يقول : «إن هذا العظم ليخبرني انه مسموم» ، في حين أساغ أحد أصحابه، بشر بن البراء، ما طعم من الشاة وازدرده فمات من أثر السم . والحق أن المسلمين عاملوا بني النضير بعد ذلك معاملة سمحة، ولكن ما فطروا عليه من غدر ونزوع إلى الأذى جعلهم في نحوه من التأثير بتلك المعاملة السمحة، فلم تتطفيء في قلوبهم نار العداوة للإسلام . لقد ظلوا مصدر ازعاج للمسلمين سرمدي، فلم يكفوا يوما عن التآمر عليهم وعن إيذائهم على نحو خسيس . ولقد واصلوا مؤامراتهم تلك حتى خلافة عمر بن الخطاب . وذات يوم قذفوا بابن عمر نفسه، عبد الله، من سطح بيت من البيوت . وإذ اثبتت الأيام اخفاق كل محاولة من المحاولات التي قام بها المسلمون لتألفهم، نفوهم آخر الأمر إلى بلاد الشام<sup>(١)</sup> .

بيد أن الرسول حاسن يهود خيبر وعاملهم معاملة رحيمة . لقد بذل قساري جهده لتألفهم . وكان خليقا بالمحاولة التي قاموا بها لتسميمه أن تبرر اتخاذ أقصى الإجراءات ضد الشعب اليهودي كله . ولكنه كان شديد الحرص على أن يراهم متحدين مع المسلمين برباط من المودة والصدقة . ومن هنا لم تنزل بهم أيما عقوبة . لقد اجترأ بانزال عقوبة الموت بزينب وحدها، التي كانت الأداة المباشرة لتنفيذ تلك الجريمة الحقيرة، وهذه أيضا إنما قتلت في بشر الذي مات مسموما . وعفا الرسول عن المتآمرين - والشعب اليهودي كله تورط في المحاولة الشنيعة - وتركهم ينعمون بالأمن والسلام . لقد استحقوا كلهم عقوبة الموت، ولكن الرسول رجا أن يفضي العفو إلى تغيير موقفهم المعادي . وبالإضافة إلى هذا كله، قام بخطوة أخرى في سبيل الصداقة معهم . فقد كان بين السبايا التي أخذها المسلمون من حصون خيبر صافية ابنة زعيم بني نضير حبي بن أخطب . فأعتقها الرسول وتزوجها . ولقد زعم الزاعمون أن المسلمين غنموا عند فتحهم خيبر كنورا أسطورية . إن الرسول، يوم بنائه بصفية، لم يجد ما يمكنه من دعوة أصدقائه، جريا على مألوف العدة، إلى وليمة عرس . ومن أجل

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٧٧ .



ذلك سأل كل من الصحابة أن يحمل معه طعامه. فتشكلت من مجموع هذا كله وليمة العرس. وكان ما وضع أمام الجماعة لا يعدو التمر ومسحوق الشعير. على هذا النحو احتفل بزواج ملك متصمر من أميرة<sup>(١)</sup>.

### توحيد ونشر الإسلام في الجزيرة العربية

في بطريق عودته من الطائف في شهر ذي القعدة في السنة الثامنة للهجرة، وبعد أن أدى العمرة رجع إلى المدينة في أواخر العام. كانت مكة تعرف بأب القرى، أي أم المدن. وعلى الرغم من أنها لم تكن العاصمة الزمنية للجزيرة، فقد كانت بلاد العرب كلها تدين لها بالولاء الروحي. فخلال أشهر الحج، الناس يتدفقون عليها، عاما بعد عام، من كل حدب وصوب. فطبيعي أن يكون لأهل مكة سلطان عظيم على الجزيرة التي بايعت قريشا بالزعامة في شؤون الدين. وكان الرسول، في الأيام الغابرة، كلما دعا قبيلة إلى الدخول في الإسلام أوجب بأن عليه أن يقنع قومه أولا. وهكذا ما إن تم فتح مكة ودخل أهلها في الدين زرافات زرافات حتى ترك ذلك في النفوس قاطبة أثرا أعجوبيا. وإلى هذا، فقد شهدوا بأب العين كيف كتب النصر آخر الأمر للرسول، وهو الذي جابه معارضة قريش وحيدا والذي نبذته القبائل كلها. لقد حصص الحق، فكان من ثمرات ذلك أن شرع الناس ينضون تحت راية الإسلام. ذلك هو السبب الذي انتشر من أجله الإسلام، خلال الستين التاسعة والعاشر للهجرة، في طول بلاد العرب وعرضها. وإنما استهلكت هذه الفترة، فترة اعتناق الإسلام على نحو جماعي، في السنة التاسعة، عندما أعلنت القبائل واحدة بعد أخرى دخولها في الدين. وفي تلك السنة نفسها نظم الرسول جمع الزكاة من مختلف القبائل المسلمة. ونظمت دائرة خاصة لهذا الغرض ووجه جامعي الزكاة إلى مختلف المواطن. كانت الزكاة فرضا واجبا على كل مسلم. وإذا كانت الزكاة هي المورد الأساسي لبيت المال، أو الخزينة العامة، فقد اخضعت لسيطرة السلطة المركزية. وذات مرة وفد جامعو الزكاة على إحدى القبائل، وجمعوا قطيعا من الخراف والماشية، فأغارت عليه قبيلة مجاورة غير مسلمة، فاغتصبته. فلم يكن من عيينه بن حصن، زعيم القبيلة المسلمة، إلا أن هاجم المغيرين، على سبيل الثأر، وأسر منهم خمسين شخصا<sup>(٢)</sup>.

تعارف كتاب سيرة رسول الله محمد ﷺ على تسمية السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود، لكثرة ما وفد على رسول الله محمد ﷺ فيها من رجالات القبائل العربية مبايعين على الإسلام والطاعة بعد أن فتحت مكة ودخلت قريش في الإسلام وثبت لسائر العرب أن المسلمين قوة سياسية وحربية إلى جانب العقيدة الجديدة التي نزلت على نبيهم، فقد كان من أهم آثار انتشار الدعوة الإسلامية بالجزيرة العربية أن قامت فيها رابطة جديدة توحد بين قبائلها وأفكارها هذه الرابطة الجديدة

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٧٨.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص ١٧٩.

هي رابطة الدين التي مهدت لقيام وحدة سياسية تجمع شمل العرب وتوحدهم هدفا وعملا. وقد ظهرت بوادر هذه الوحدة بعد عودة الرسول من غزوة تبوك حيث أخذت القبائل العربية تد إلى معلنه إسلامها طوعاً واختياراً<sup>(١)</sup>.

لما فتح رسول الله مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضرب رسول الله أمد أربعة أشهر لقبائل العرب المشركين لكي يقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفاً معيناً، ضريت إليه وفود العرب أباط الإبل من كل وجه معلنه إيمانها وولاءها: وفد بني عبد قيس، وغميم، وعامر، وبني حنيفة، وطيء، والأزد، وهمدان، ونجيب، وبني ثعلبة، وبني سعد هذيم من قضاة، وفزارة، وأسد، وبهراء، وبلي، ومرة، وخولان، ومحارب، وصدائ، وغسيان، وسلامان، والنخع، وكندة، ورييد، وغامد، وغيرها... وتحقق قول الله جل شأنه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ١ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ٢ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ٣ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ٤ ﴿[الفتح].﴾

وفد كندة: وفد على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس فسى وفد كندة. فى ثمانين راكباً من كندة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده وقد رجلوا جملهم. وتكحلوا، وعليهم جيب الحبرة، قد كففوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى، قال: «فما بال هذا الحرير فى أعناقكم؟» قال: فشقوه منها، فالفقه. ثم قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله، نحن بنو أكل المرار، وأنت ابن أكل المرار، قال فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبدالمطلب وربيعه بن الحارث» وكان العباس وربيعه رجلين تاجرين، وكانا إذا أبعدا فى تجارتها فى بعض العرب فستلا بما هما قالا: نحن بنو أكل المرار يتعززان بذلك، وذلك أن كندة كانوا ملوكاً - ثم قال لهم: لا، بل نحن بنو النضر بن كنانة، لانفقوا أمانا ولانتنفى من أبينا، فقال الأشعث بن قيس: هل فرغتم يا معشر كندة؟ والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين.

وفد الأزد: وقدم على رسول الله ﷺ صرد بن عبدالله الأردى، فأسلم وحسن إسلامه، فى وفد من الأزد، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن. فخرج صرد بن عبدالله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجرش، وهى يومئذ مدينة مغلقة فيها قبائل من قبائل اليمن، وقد لجأت إليهم فدخلوها معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها صرد قريبا من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلا، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ظن أهل جرش أنه إنما ولى عنهم منهزماً،

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٣٢.

فخرجوا في طلبه، حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلا شديدا. وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ: «بأى بلاد الله شكر؟» فقال الجرشيان فقالا: يا رسول الله، ببلادنا جبل يقال له كشر - وكذلك يسميه أهل جرش - فقال: «إنه ليس بكشر ولكنه شكر». قالوا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: «إن بدن الله لتنحر عنده الآن». فجلس الرجلان إلى أبي بكر، أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما!! إن رسول الله ﷺ الآن ينمى لكما قومكما، فقوموا إلى رسول الله ﷺ فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: «اللهم ارفع عنهم» فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبدالله، في اليوم الذي أقال فيه رسول الله ﷺ ما قال، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر. وخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفر، والراحلة وللمثيرة - بقرة الحرث - فمن رعاه من الناس فماله سحت. وقدم على رسول الله ﷺ بعد مقدمه من تبوك كتاب ملوك حمير، ورسلمهم إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل (أخو الملك) ذى رعين ومعاقر وهمدان، وبعث إليه زرعة ذو يزن، مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم، ومفارتهم الشرك وأهله<sup>(١)</sup>.

كان الإسلام قد اكتسب الآن شعبية عامة في طول بلاد العرب وعرضها. لقد انتشر نبا انتصاره النهائي إلى أقصى روايا الجزيرة. ولم يكن الناس غافلين عما جرى، طوال سنوات وسنوات، بين الرسول وقريش. لقد شهدوا، في لهفة وشوق، مراحل الصراع كلها. لقد عرفوا كيف عذبت قريش وعذبت أصحابه لتبشيرهم بالفضيلة وبوحدانية الله، وكيف قامت - بعد هجرتهم - بمحاولات متعددة استمرت ثمانى سنوات، لسحق المسلمين. بعث رسول الله محمد ﷺ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع<sup>(٢)</sup>، وقال الإمام علي رضي الله عنه<sup>(٣)</sup> (بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء، قال فوضع يده على صدري وقال: اللهم ثبت لسانه واهد قلبه. وقال: يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضي بينهما حتى تسمع من الآخر)<sup>(٤)</sup>. والواقع أن الذين شهدوا مواسم الحج السنوية حملوا هذه الأنباء إلى روايا البلاد القصى. وكان الناس على علم أيضا بنبوءة الرسول القائلة بأن كل مقاومة للإسلام سوف تتلاشى آخر الأمر. وهكذا أخذت الوفود تتدفق على المدينة من كل حدب وصوب. فكان الرسول يستقبلها في حفاوة بالغة، ويعلمها مبادئ الإسلام في لطف ليس

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٩٤.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٦٥ / ٨.

(٣) البزار - مسنده البحر الزخار - ٢ / ٣٠٧، ٣٠٨ رقم ٧٣٣.

(٤) الحاكم - المستدرک مع التلخيص: ٩٣ / ٤ والطيالسي في مسنده: ١٦٢.

بعده لطف . وكان يبعث مع الذين يعتنقون الإسلام بمعلم يفقههم في الدين . وهكذا تقاطرت إلى المدينة في النصف الأول من هذه السنة بالذات وفود مقبلة من مواطن قصبية كاليمن، وحضرموت والبحرين، وعمان، والتخوم الشامية والفارسية<sup>(١)</sup>.

بعد أن قدمت وفود القبائل إلى مقر الدولة الإسلامية معلنة إسلامها أصبح على رسول الله ﷺ مهمتان على غاية من الأهمية: المهمة الأولى: تنظيم الإدارة في تلك المناطق التي أعلنت ولاءها للدولة الإسلامية وإيمانها بالدين الجديد. المهمة الثانية: تثقيف أولئك الناس الذين دخلوا في الإسلام من جديد، لأن العلم والوعي هما السند الأول الذي يشد عضد الدولة الإسلامية، وبذلك كان لا بد من نشر الوعي الديني بين صفوف القواعد الشعبية في الدولة الإسلامية حتي لا يبقى مسلم فيها إلا وهو يعرف أهداف الإسلام، وطرق النفوذ إلى هذه الأهداف، وهو ما أقيمت الدولة الإسلامية من أجله. أما تنظيم الإدارة فإنه أمر لا بد منه في كل دولة، لأنه ما سادت الإدارة في دولة من الدول إلا انتشر الظلم، وما انتشر الظلم في أمة إلا شحنت النفوس حقدا على الحاكم، وعمل الناس في الخفاء أو في الظاهر على إزالته. ولذلك اتسمت هذه السنة العاشرة بإرسال الكثير من الأمراء والمعلمين إلى أطراف الدولة الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

وقدم وفد همدان على رسول الله وفيهم مالك بن نمط، وأبو ثور ومالك بن أيغ، وضممام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك المخارقي فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك فقام مالك بن نمط بين يديه فقال: «يا رسول الله بقية من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف خارف ويام شاكر، أهل السود والقود أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الإلهات الأنصابا عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بصلع». فكتب لهم رسول الله كتابا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من رسول الله محمد لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذي المشاعر مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيتها، لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار». وأرسل معهم معلمين يعلمونهم الإسلام. وبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه الأسود العنسي وهو بها. وبعث زياد بن لبيد أخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت وعلى بني أسد. وبعث مالك بن نوية

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٩٨.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢٩٩.

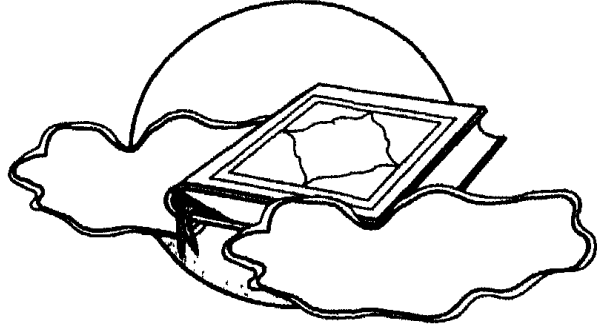
على صدقات بني حنظلة، وفرق بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبيرقان بن بدر على الناحية منها، وقيس بن عاصم على الناحية. وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين. وبعث الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليهم بجزيتهم. وبعث غيرهم وغيرهم. وهكذا غطى رسول الله جميع أنحاء الجزيرة العربية بالأمراء والمعلمين<sup>(١)</sup>.

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٣٠٢.



# الفصل العاشر



الدولة الإسلامية الأولى  
وعلاقتها الخارجية





## الدولة الإسلامية الأولى وعلاقتها الخارجية

أثبتت الحوادث التي تلت هدنة الحديبية إثباتا لا لبس فيه أنه كان إيذانا بانتصار الإسلام. لقد تعاظمت قوة الإسلام العددية أضعافا مضاعفة. وانضوى، الآن، تحت راية الإسلام فاتحون مشهورون - من مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص - كانوا في يوم من الأيام فخر قوات العدو. وهكذا حقق السلم ما عجز عن تحقيقه أي نصر في ساحة القتال، مهما عظم. ولقد اعتبره الرسول بشيرا بمنجزات رائعة، وعدل برنامج نشاطاته وفق ذلك. فلم يكذب يرجع من الحديبية حتى دعا المسلمين كافة. وأن الوقت قد حان لحمل رسالة الإسلام إلى كل حذب وصبوب، إلى ملوك الممالك المجاورة، أرسل رسول الله محمد ﷺ في السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء فبعث دحية بن خليفة إلى هرقل إمبراطور الروم، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى، وعمر بن أمية إلى النجاشي في الحبشة، وحاطب اللخمي إلى المقوقس عامل هرقل في مصر، وشجاع بن وهب إلى الحارث أبي شمر الغساني، والعلاء الحضرمي إلى البحرين، وعمر بن العاص إلى الجلندي في عمان<sup>(١)</sup>. ودعوتهم إلى الدخول في دين الله. ومن هذه الرسائل لم يكتشف في الفترة الأخيرة غير تلك التي وجهت إلى المقوقس، ملك مصر، محفوظة في نصها الأصلي حتى يومنا هذا. وتقول الرواية أيضا أن المقوقس عني بصيانة الرسالة ضمن علبة حلي نفيسة. ولقد نشر اليوم نصها الأصلي، فإذا به ينطبق انطباق حرفيا على ما أورده الرواية. والحق أن المقوقس رحب بموفد الرسول ترحيبا عظيما، وأرسل إلى الرسول أيضا بعض الهدايا، على الرغم من أنه لم يدخل في الدين الجديد. وقد اشتملت تلك الهدايا على بغلة بيضاء يركبها الرسول شخصا، وعلى جاريتين اثنتين تزوج الرسول إحداهما، واسمها مارية، وبذلك ارتقت من وضع جارية مملوكة إلى مرتبة ملكة. أما الجارية الأخرى، وتدعى سيرين فقد أهداها الرسول إلى حسان بن ثابت الشاعر فتزوجها<sup>(٢)</sup>.

جمع هرقل بطاركته وحاول أن يقنعهم بتبني رأيه في الإسلام، باذلا جهده لحملهم على الاعتقاد بأن هذا التبني سوف يعود عليهم بالخير وقال إني عارض عليكم أمورا فانظروا فيما قد أردتها، قالوا: ما هي، قال تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل وأنا نجلده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا فهل لتتبعه فتسلم دنيانا وآخرتنا فقالوا: نحن نكون تحت يدي العرب ونحن أعظم ملكا وأكثرهم رجالا وأفضلهم بلدا<sup>(٣)</sup>. حتى إذا وجد أنهم كارهون، جميعا، لفكرة التحلي عن

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٥٧.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٩٥.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٦٣.

عقيدتهم القديمة هداً من غيظهم بأن أكد لهم أنه إنما قال ما قال ليختبر صلابتهم في دينهم ليس غير. وواضح أنه لم يكن في طوقه أن يشير الكنيسة كلها عليه. وهكذا لم يعلن إسلامه جهاراً، ومات وهو على تلك الحال نفسها ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

يقول ابن سعد في كتابه «طبقاته» قالوا: إن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتاباً فليل يا رسول الله، إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلا مسخوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من فضة فصه منه نقشه ثلاثة أسطر محمد رسول الله وختم به الكتب فتخرج ستة نفر منهم في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذي بعثه إليهم<sup>(١)</sup>.

واشتملت الرسالة الإسلامية على دعوة أهل الكتاب إلى قبول ما هو مشترك بين عقيدتهم وبين الإسلام: أن لا يعبدوا إلا الله، وأن لا يشركوا به شيئاً، وأن لا يؤلوهوا رجالاً مثلهم. والواقع أن الآية تلفت الانتباه إلى مبدأ لو اصطنع اليوم إذن لوضع حداً لجميع المنازعات الدينية، صاهراً مختلف الأنظمة في دين كوني واحد، وصاهراً البشرية كلها في إخوة كلية واحدة. إنه يقرر، ابتغاء إزالة الفروق جميعاً، أن كل ما هو مشترك بين جميع الأديان يجب أن يقبله الجميع، كأساس يبدأ به، ثم تشاد فوق هذا الأساس جميع التفاصيل الدينية المتداخلة مع هذه الحقيقة الأساسية. وهكذا تستطيع أديان العالم كلها أن تتلاقى على أرض مشتركة وتسوي خلافاتها بطريقة حية. والواقع أن فكرة الدين الانتقائي التي انبثقت مؤخراً تنسجم مع الحقيقة نفسها التي دعا إليها الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً. وحمل عبد الله بن حذافة السهمي الرسالة إلى كسرى. وكانت بسملة بهذه الكلمات: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد...». وكان كسرى لا يطيق أن يرى اسم أيما امرئ يذكر قبل اسمه. فاستشاط غضباً إذ رأى اسم محمد مقدماً على اسمه هو. فأساء الحديث عن الرسول، ومزق الكتاب إرباً إرباً<sup>(٢)</sup>. وكان من الطبيعي أن كسرى وهو ذلك الملك الذي ورث «الحق الملكي المقدس» عن أجداده من آل ساسان يأبى أن يكون تابعاً للعرب ومن ثم كان يخشى من هذا الدين على شخصه وسلطانه اللذان كانا موضع قداسة الشعب<sup>(٣)</sup>. وفي ثورة غضبه هذه كتب إلى عامله يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحسب. فلم يكن من العامل - وكان اسمه باران - إلا أن بعث رجلين إلى المدينة لهذا الغرض. إن العرب لم يكن لهم، في أعين أولئك القوم، كبير شأن، وكان من غير النادر أن يعمد جنودهم إلى اعتقال أيما رجل من العرب. حتى إذا وصل هذا الرجلان إلى المدينة قال

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٣١.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٩٥.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٥٩.

أحدهما للرسول إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى بازان يأمره بأن يأتيه بك قد بعثني إليك لتنتقل معي، وقالوا قولاً يرشح بالوعيد، وكم كانت دهشتهم عندما قال لهما الرسول إن ملكهما، كسرى، نفسه لم يعد على قيد الحياة. فانقلبا عائدتين، واستبد بهما الأسي إذ علما أنه ليلة نطق الرسول بهذه الكلمات قتل كسرى بيد ابنه شيرويه. وأفضت هذه الحادثة إلى إسلام العامل.

أما نجاشي الحبشة فلم يكذب يتلقى رسالة الرسول حتى دخل في دين الله على يد جعفر بن أبي طالب، وهو مهاجر مسلم كان لا يزال في تلك الديار، فكان أول رسول بعثه النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي وكتب إليه كتابين يدعوهم في أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن فأخذ النجاشي كتاب رسول الله محمد ﷺ فوضعه على عينيه ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال لو كنت أستطيع أن آتية لآتيته<sup>(١)</sup>.

ومن بين الرسائل الموجهة إلى الزعماء العرب تجدر بنا الإشارة إلى تلك التي وجهت إلى شرحبيل بن عمرو عامل هرقل على بصرى الواقعة عند تخوم الشام. لقد قتل موفد الرسول، الحارث بن عمير، منتهكا بذلك الأعراف الأخلاقية القبلية كلها، وهو عمل كان بمثابة إعلان حرب على الإسلام، ولقد اعتبره المسلمون إعلانا للحرب فعلا. وكان من الخطأ أن يترك لشرحبيل متسع من الوقت لحشد قواته والانقضاض على المسلمين. وهكذا جهز جيش مؤلف من ثلاثة آلاف رجل للتوجه إلى العدو. وأسندت قيادة هذا الجيش لزيد بن حارثة عتيق رسول الله، وهو مثل رافع على المساواة الأساسية بين البشر، تلك المساواة التي قرها الإسلام وأكدها. لقد وضع المهاجرون القرشيون الفخورون والأنصار النبلاء كلهم تحت إمرة عبد رقيق سابق. ورافق الرسول الجيش حتى مكان يعرف بـ «ثنية الوداع». وكان شرحبيل قد حشد، في غضون ذلك، جيشا عظيما تذهب بعض الروايات إلى أن عدده بلغ مائة ألف رجل. وكان القيصر أيضا يتأهب للحرب. والتقى الفريقان في مؤتة، التي دعيت المعركة باسمها. فاستشهد زيد في الميدان، فخلفه في القيادة جعفر بن أبي طالب وقاتل جعفر قتال المستميت أيضا، ثم استشهد بعد أن أصيب بنحو من تسعين جرحا؛ عندئذ أخذ عبد الله بن رواحة الراية فقاتل حتى قتل. وكان النبي هو الذي سمى، مقدما، خلفاء زيد في القيادة، فقد كانت تلك عادته، يحدوه عليها رغبته في الاحتياط لكل طارئ. وبعد مصرع ابن رواحة اختار جند المسلمين خالد بن الوليد قائدا، فأظهر براعة عظيمة في إنقاذ جيشه الصغير، الذي كان هزيعا بالقياس إلى جموع العدو الضخمة. وإنما حدثت هذه المعركة في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة<sup>(٢)</sup>.

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٣٨.  
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٩٦.

لم يقل «المقوقس» حاكم مصر عن هرقل في الاحتفاء بحاطب بن أبي بلتعة رسول النبي ﷺ وأنه أحسن استقباله بقوله: «قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أن مخرجه الشام فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولاحب أن يعلم بمحاورتي إليك» ورده بهدية إلى رسول الله محمد ﷺ على أنها مارية القبطية وأختا لها وشيئا من خيرات مصر<sup>(١)</sup>.

إن الظروف التي أحاطت بتوجيه هذه الرسائل إلى الملوك والأمراء لتستحق شيئا من التأمل والاعتبار. فلو أن الرسول وجهها بعد إخضاع بلاد العرب برمتها إذن لكان في إمكان الباحث أن يعتبرها إجراءً أوحى به الطموح. ولكن ما الظروف التي كانت سائدة فعلا في تلك الأونة؟ كانت المدينة قد حوصرت قبل ذلك بأثني عشر شهرا ليس غير. وكان ثمة أمل ضئيل في نجاة نفس مسلمة واحدة. لقد كان المسلمون، حتى في ذلك الحين، أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة دينية هامة كالحج. وكان المشركون لا يزالون هم أصحاب السلطان. حتى لقد فرضوا شروط الهدنة، منذ فترة يسيرة، على المسلمين. في كل ناحية من بلاد العرب كان الإسلام محاطا بالأعداء، وكان تآثر المسلمين هنا وهناك لا يغير من الموقف إلا قليلا. ومع ذلك فإن إيمان الرسول بانتصار الإسلام النهائي لم يتزعزع لحظة واحدة، في وجه تلك الظروف المؤسفة كلها. كان واثقا كل الثقة من أن الإسلام سوف يسود آخر الأمر، وكان في مسوره أن يرى بعين بصيرته ذلك اليوم الذي سينير ضياؤه فيه كل زاوية من زوايا العالم. إلى هذا الحد كان إيمانه بقوة الإسلام عميق الجذور. وإن في هذا لدرسا نافعا لبعض مسلمي العصر الحاضر الضعيفي الثقة بإمكان انتشار الإسلام في ديار الغرب في أوروبا وأمريكا، ذلك بأنهم يعتقدون بأنه ليس ثمة إمبراطورية جبارة تسنده وتدعمه. إن الحق لا يعتمد، في بقاءه وانتصاره، على القوة. إن له من القوة الذاتية ما يمكنه من الصمود<sup>(٢)</sup>. إن على أولئك النزاعين إلى القول بأن هذه الرسائل الطموحة مردها إلى عقلية منحرفة أن يتأملوا قليلا في النجاح العظيم الذي حظي به الإسلام بعد سنوات معدودات انقضت على توجيهها. وإذا كانت هذه الوقائع تشير إلى أنه كان رسولا من رسل الله. إن هذه الرسائل لتثبت أيضا الحقيقة القائلة بأن الرسول اعتبر الإسلام، منذ البدء، دينا عالميا. إن المسيحية لم تدع العالمية. ويسوع نفسه لم يدع مثل هذا الوضع. لقد قال، في وضوح، أنه جاء لهداية خراف إسرائيل الضالة. بل لقد رفض أن يصلي على امرأة غير إسرائيلية. أما محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فقد أعلن على العكس منذ فجر بعثته بالذات، أنه مرسل إلى البشر كافة. ولم تكن هذه دعوى فارغة. والحق أنه لم يدخر وسعا لتحقيق هذا المثل الأعلى في حياته هو، فدعا مختلف الملوك إلى قبول الحق الذي جاء به الإسلام. وإنما

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص ١٦٥.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٩٧.

وجهت هذه الرسائل إلى الملوك في السنة السابعة للهجرة. وكانت كلها تحمل خاتم الرسول مع هذه الكلمات: «محمد رسول الله»، وهكذا فقد سار رسول الله محمد ﷺ في أخريات حياته في طريق تعميم نشر الدعوة الإسلامية وحاول بالطرق السلمية أن يحقق ما طلب القرآن منه في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [سبا: ٢٨] على أن هذه الطريقة السلمية لم تكن ناجحة دوما واضطر الرسول ﷺ في سبيل تحقيق شعار أمية الإسلام الدعوة في أخريات حياته أن يلجأ للقتال فكان أن أمر بتجهيز جيش أسامة بن زيد لغزو الشام<sup>(١)</sup>.

وفي ختام هذه السنة نفسها، السابعة للهجرة، وفد الرسول على الكعبة حاجا، وفقا لأحكام هدنة الحديبية. وفي تلك السنة نفسها، أيضا، رجع إلى المدينة سائر المهاجرين المسلمين في الحبشة.

### رسول الله محمد ﷺ ومعايير الحاكم المسلم:

قام رسول الله ﷺ بنفسه بتأسيس دولة المسلمين الأولى «أما خطوات قيام هذه الدولة، ومتى جاء إذن الله سبحانه وتعالى بقيامها، فيكاد يجمع علماء المسلمين وفقهاؤهم على أن بيعتي العقبة الأولى والثانية تمثلان بداية إنشاء الدولة الإسلامية» وعلى ذلك نستطيع أن نقول: إن الدولة الإسلامية تأسست بأمر رباني، لا بقرار دولي، ولا ببلاغ عسكري. وبما أن رسول الله محمد ﷺ هو خاتم انبياء الله إلى أهل الأرض، فإن الدنيا لن تشهد قيام دولة مثالية أخرى بالطريقة ذاتها وبني جديد، بلغت في عهد رسول الله محمد ﷺ درجة من النضج والرشد تؤهلها لوضع الطرق العملية لحكم نفسها بنفسها ضمن مبادئ الإسلام، الشريعة التي اختارها الله عز وجل لأهل الأرض جميعا ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ [النساء: ٥٨]. وكان انتقال رئاسة الدولة «الخلافة» إلى أبي بكر الصديق، خليفة رسول الله ﷺ الأول، بترشيح أهل الحل والعقد، الذين هم وجهاء المسلمين وأعيانهم في ذلك الزمان، ومبايعتهم له، ثم بمبايعة المسلمين أجمعين. بينما انتقلت الرئاسة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعهد من الخليفة الأول أبي بكر إليه بعد مشاورة أهل الحل والعقد، وهو، أي عمر، عهد بعد الاستشارات ذاتها قبيل وفاته إلى لجنة لتختار من بين أعضائها خليفة. واغتيل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فانتخب المسلمون الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه خليفة. وفي قول الله عز وجل واصفاً المسلمين: ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...﴾ [الشورى: ٢٨] ورفضه الصريح الواضح للوراثة على إطلاقها في القيادة بقوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فابن القائد إن لم تؤهله صفاته للقيادة فلا حق له في منصب القيادة بعد أبيه، هذا بالإضافة إلى عدم تعيين الرسول ﷺ خليفة له. وأساليب اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة، دلائل على أن الطريق

(١) د. نبيه عاتل - المرجع السابق ص ٥٤٨.

الشرعي للوصول إلى منصب رئاسة الدولة هو «البيعة» أي الانتخاب الديمقراطي التي هي عقد ثنائي بين الخليفة والأمة أي بين الحاكم والشعب، تباع الأمة بموجبها، وبمحض إرادتها أكثر الناس ملائمة لهذا المنصب وتوكل إليه رئاستها، ويمكن أن يكون الاختيار مباشرة من قبل الأمة، أو من يمثلها من أهل الحل والعقد.

يقول القاسمي<sup>(١)</sup>:

«البيعة في الاصطلاح السياسي، وكما طبقت في أيام الخلفاء الراشدين عقد ثنائي الطرف، الخليفة طرفه الأول، والأمة طرفه الثاني، ولا بد فيها من تحقق شروط أصلية حتى تكون مشروعة. وإنما نريد من لفظ «مشروعة» أنها منطبقة على أحكام الشريعة بالمفهوم الذي أراده فقهاء الحقوق الدستورية في الإسلام، كما نريد من هذا اللفظ ما يراد منه في هذه الأيام من حيث انطباقه على صحة التمثيل. وأول الشروط هو التزام الخليفة بأحكام الكتاب والسنة. . . وثانيها: أن تتوفر الحرية الكاملة للأمة في البيعة». ولا تقتصر القيادة، ولا المسؤولية على رئاسة الدولة. فرئاسة الدولة هي قمة الهرم في السلطة، وتندرج تحتها قيادات كثيرة. لذلك، والصفات والشروط الواجب توافرها في الرئيس الأعلى «الخليفة»، بغض النظر عن تسميته خليفة أو أميراً أو رئيساً، لأن الانتخاب هو الأصل في وصول «رأس الدولة» إلى منصبه. وكما أن المنصب مسؤولية وأمانة، كذلك فإن الانتخاب مسؤولية وأمانة. وبما أن على الناخب أن يختار الأفضل والأكفأ فيجب عليه معرفة الصفات الضرورية في الرئيس، والتي يخضع بعضها للتغيير بحسب المرحلة التي تمر فيها الأمة، كما يستطيع بهذه المعرفة التمييز بين القائد الكفء، والقائد المزيف، والموالين التي يجب على رئيس الدولة ومن ييده التعيين في المناصب المختلفة أن يعتمدها في اختيار الأشخاص المناسبين للوظائف المختلفة.

وضع الفقهاء شروطاً يجب توافرها في الخليفة، وربما لم تنطبق على كثير من الذين تسلموا «رئاسات» دول المسلمين، بغض النظر عما سموها به أنفسهم أو سماهم به الناس، ولكنها تعد في نظري، الشروط الدنيا الواجب توافرها في القائد الذي يستطيع أن ينهض بالمسلمين ليحتلوا المكان الخليلق بهم بين أمم الأرض. وقد «اتفق الفقهاء على أن الشروط التي لا بد من توافرها في كل خليفة هي: الحرية، الذكورة، البلوغ، سلامة العقل، سلامة البدن وأن يكون فقيهاً في الدين وأن يؤم المسلمين في صلاة الجمعة ويخطب الجمعة والعيدين والعلم، النزاهة، الشجاعة، الرأي. ونسبها الشروط الكمالية والنسب القرشي». «ولم يحدد الفقهاء للخلافة سناً معينة، وإنما جعلوا البلوغ حداً أدنى لها، وبذلك تركوا تقدير هذا الأمر للناخبين وللظروف، فقد تدعو الظروف إلى تفضيل الشاب الشجاع على الشيخ المتردد، والأفضل أن تتوفر أكثر الشروط في المرشح للخلافة لأنه منصب عظيم،

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص ٢٠٨ وانظر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الحياة الدستورية، ص ٢٧٤.

فهو رئيس الدولة الإسلامية وهو زعيم الأمة وأمير المؤمنين الذي يقوم بحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم ويطبق الشريعة الإسلامية كاملة على المسلمين<sup>(١)</sup>.

رأي القراء:

«وأما أهل الإمامة فيعتبر فيهم أربعة شروط: أحدها: أن يكون قرشياً من الصميم. الثاني: أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضياً من: الحرية، والبلوغ، والعقل، والعلم، والعدالة. الثالث: أن يكون قيماً بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود، لا تلحقه رافة في ذلك، والذب عن الأمة. الرابع: أن يكون من أفضلهم في العلم والدين».

«وإذا اجتمع أهل الحل والعقد على الاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجود فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً. فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أدام الاجتهاد إلى اختياره وعرضها عليه. فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وانعقدت له الإمامة ببيعتهم، ولزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته. وإن امتنع عن الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها، وعدل إلى سواه مستحقها فبويع عليها».

بتوضيح أكثر إن القائد القدوة، والأسوة الحسنة، هو رسول الله محمد ﷺ. وبما أنه لن يكون في الأمة ولا في سواها رسول الله محمد ﷺ جديد، فإن القائد يستطيع أن ينجح بمقدار ما يقترب في صفاته من رسول الله محمد ﷺ فهو المعيار في كفة الميزان. وكفي نبقى في عالم الواقع نقول: إن الصفات المطلوبة في القائد، منها ما هو شرط ضروري لا يمكن التهاون فيه، ولا يتغير بتغير الزمان، ومنها ما يمكن أن يتغير بحسب الظروف، كأن ترتفع حظوظ العالم في ظروف الاستقرار، والعسكري الشجاع الحكيم في حالات الحرب. إذن علي الناخب إن تأمنت له حرية الانتخاب وعلى الذي يريد أن ينتسب إلى حزب من الأحزاب أو يلتحق بحركة من الحركات أن يضع تقييماً (علامات) لكل صفة مطلوبة في القائد أو الرئيس بحسب المرحلة التي تمر بها الأمة، ويعطي صوته لمن حصل على أعلى تقدير في عملية «التقييم» مبتغياً في ذلك وجه الله ليس غير، وهو ما عبر عنه العلماء باختيار الأفضل. ويجب ألا يفهم من الأفضل الاتقى أو الأعلم أو الأكثر تدبيراً أية صفة محددة، بل الأفضل في المجموع العام<sup>(٢)</sup>. «والذي يجب الانتباه إليه هنا، هو أن الفضل والتفاضل في هذا المجال (مجال اختيار رئيس الدولة) ليس خاصاً بالدين فحسب، بل هو بالسياسة وحسن الخبرة في أمور الحكم أيضاً. وعلى هذا الأساس كان يسير رسول الله محمد ﷺ في اختيار ولاته، وقادة جنده»، فقد تختار الأمة وترضى بشخص لمنصب الخلافة، لأن البيعة هي حق الأمة في إمضاء عقد الخلافة، والبيعة حق للمسلمين وهي الطريقة الشرعية الوحيدة لتنصيب رئيس الدولة<sup>(٣)</sup>.

(١) د. محمود الخالدي - معالم الخلافة في الفكر السياسي الإسلامي ص ١٦٨.

(٢) أحمد راتب عرووش - المرجع السابق ص ٢١٥.

(٣) د. محمود الخالدي - المرجع السابق ص ١٨٠.

في عصرنا الحاضر نرى المسلمين أشداء فيما بينهم، رحماء متغاضبين عن الأعداء، حتى أن من لا يطلق لحيته عند بعضهم كافر مرتد يستحق القتل، بينما لا يستحق من يدعو الناس إلى نبذ الإسلام واعتناق مبادئ مستوردة ليل نهار، وعلى صفحات الصحف والمجلات، أن يجادل بالتي هي أحسن على أقل تقدير. إن القائد المسلم المعاصر، يجب أن يكون بعيداً عن التعصب، قادراً على توظيف ظاهرة الاختلافات المذهبية في مصلحة الإسلام، وجعلها ظاهرة حية تؤدى إلى نقاشات هادئة، لا تتمتع التعاون، والوقوف صفاً واحداً في وجه العدو المشترك، على عكس ما هو واقع في حال الأمة من ترك للعدو يسرح ويمرح، وانشغالها بعضها ببعض بتخطئة كل فئة لمخالفاتها حتى التكفير، ومحاربتها حتى الموت. إن القائد المعاصر يجب أن يكون مؤهلاً لتوحيد المفترق لا تقسيم المؤتلف. ثقته بنفسه تجعله يبتعد عن سياسة لعبة التوازنات الداخلية، لأنه على استعداد دوماً للتضحية بمركزه وبنفسه في سبيل ما يؤمن به. وأما في السياسة الخارجية فباستطاعته الاستفادة من التوازنات الخارجية وتضارب المصالح بين الدول غير الإسلامية. القائد الحكيم لا يرى ضيراً في أن يكون الإنسان مسلماً ملتزماً وعريباً، فلا تناقض بين العروبة والإسلام، ولا عصبية لأي منهما على حساب الأخرى. التناقض هو بين مبادئ زائفة مستوردة تجعل أمة ما فوق غيرها من الأمم، وبين دين متسامح يجعل الخلق كلهم عيال الله، ولا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى. إن القائد المسلم المعاصر، يجب أن يفرق بين الإرهاب ومكافحة العدوان، بين الجهاد في سبيل الله وقتل الناس في سبيل المال، بين الحزم والظلم، بين الشورى والفضوى، بين التدين والتعصب، بين المرونة السياسية والتنازل عن الحقوق، حتى لا تتوالى التنازلات<sup>(١)</sup>.

تعتبر الدولة الإسلامية هي دولة الخلافة لأنها هي المنصب الذي يملك من يتولاه جميع صلاحيات الحكم والسلطان والتشريع دون استثناء وهي رئاسة عامة للمسلمين جميعاً في الدنيا لإقامة أحكام الشرع الإسلامي بالأفكار التي جاء بها، والأحكام التي شرعها ولحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم بتعريفهم الإسلام ودعوتهم إليه والجهاد في سبيل الله ويقال لها الإمامة وإمارة المؤمنين<sup>(٢)</sup>.

تبرز أيضاً أهمية الوعي السياسي لدى جمهور الأمة الإسلامية لتمييز بين المرشحين لرئاسة الدولة الإسلامية فلا تنطلي على الأمة حرارة الدعاية الانتخابية ولا ما يقدم من مشروعات ولا ما يمتاز به شخص من نيئه أعلى الدرجات أو أصوات الناخبين أو وجاهة ووسامة، وإنما ينبغي النظر بحرص إلى وجود ما يجعل من الشخص المرشح للخلافة أن يكون بحق رجل دولة ممتازاً لأن صفة رجل الدولة قد لا توجد في الأمة إلا بأعداد قليلة، وإن كان العيش في ظل الحياة الإسلامية ووجود الشخصية الإسلامية لدى أفراد المسلمين وممارسة العمل السياسي يجعل من الممكن أن يتقدم لمنصب

(١) أحمد راتب عمر مرش - المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٢) د. محمود الخالدي - المرجع السابق ص ١٩٨ .



رئاسة الدولة من المرشحين عشرون من المسلمين كلهم في واقعهم رجال دولة بل رجال كبار، والمسلمون بوعيمهم على الإسلام يكونون قادرين على اختيار من يقودهم إذا تجاوزت النفوس عن الهوى<sup>(١)</sup>.

ومن واجبات الرئيس ومن بيده التعيين أن يختار لمناصب الدولة الأصلح فالأصلح، لانه «إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة». والذي أميل إليه في معنى الساعة هنا أنها كناية عن الخراب والدمار. «فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل، قال النبي ﷺ: من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله».

يختار الأصلح لكل منصب، لان الله عز وجل يقول: ﴿... إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصر] والقوة من إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب والخبرة في القتال، وهي في الحكم ترجع إلى العلم بالعدل والقدرة على تنفيذ الأحكام.

فيجب على أفراد الأمة ألا يؤلوهو إن أصاب في قضية أحسن، والا يسخطوا عليه ويسخروا منه إن اجتهد فأخطأ. بل يجب عليهم أن يحموه من الغرور كلما أصاب ونجح ويأخذوا بيده ويمنعوه السقوط كلما أخطأ. «إن الحكم في الإسلام تعاون بين الحاكم والمحكوم على البر والتقوى، وتكافل بينهما على الفضل والمعروف، وتجاوز بينهما للبلوغ إلى أسمى درجات العدل والسلام»<sup>(٢)</sup>.

#### وفاة رسول الله محمد ﷺ:

بينما كان الناس يتجهزون للسير مع أسامة بن زيد إلى جبهة القتال ضد الروم داهم رسول الله ﷺ المرض، وكان ذلك في أواخر شهر صفر، أو في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدئ به من ذلك أنه ﷺ خرج إلى بقيع الغرقد في جوف الليل فاستغفر لاهلها، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك. ويروي لنا أبو موهبة مولى رسل الله ﷺ كيف كان ذلك فيقول: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: «يا أبا موهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي». فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». ثم أقبل علي فقال: «يا أبا موهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: «لا والله يا أبا موهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة».

(١) د. محمود الخالدي - نفس المرجع ص ٢١٦.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص ٢٢١.

ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه. رجع رسول الله من البقيع، ولكن ذلك لم يمنع رسول الله من أن يوفي كل زوجة من زوجاته حقها فكان عليه الصلاة والسلام في مرضه ينتقل بين بيوت نساته على ما يقتضيه العدل بينهن حتى أثقله المرض وصعب عليه الانتقال وهو في بيت ميمونة، فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن عباس والثاني الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عاصبا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة. ثم غمر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال: «هريقوا علي سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلي الناس فأعهد إليهم» فأقعد في حوض لحفصة بنت عمر، ثم صب عليه الماء، حتى طفق يقول: «حسبكم حسبكم»<sup>(١)</sup>.

ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الناس عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله». وصلّى رسول الله بالناس، فاستغفر لأصحاب أحد وذكر من أمرهم ومآثرهم ما ذكر، ثم قال: «يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيتها لا تزيد، وإنهم كانوا عييتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». وكانت هذه إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن رئاسة الدولة هي من المهاجرين لا من الأنصار. ثم دخل رسول الله بيته، فاشتد به مرضه ولم يتكلم بشيء من أمر السياسة إلا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يترك بجزيرة العرب دينان». فكانت هذه آخر وصاياه السياسية عليه الصلاة والسلام.

كان جيش أسامة الذي جهزه رسول الله لقتال الروم. قد تم إعداده، ولكن القلق بدا واضحاً على وجوه كبار الصحابة، إذ كيف يخرجون ورسول الله في فراش المرض، ورأى جمهورهم التريث في الخروج، ولكن بعض مرضى القلوب اتخذوا ذلك ذريعة للطعن في إمارة أسامة وللتأخر في تجهيز أنفسهم للقتال شكاً في كفاءة أسامة، وأخذوا يشيعون هذه الشكوك بين الصفوف. وبلغ رسول الله ما يرجف به المرجفون فخرج إليهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وهدأ خواطرهم وأظهر لهم هدفه من تأمير أسامة وما في ذلك من إكرام للذكرى أئبه شهيد مؤتة، وصادف أن داهمه بعيد ذلك المرض الذي أودى بحياته ولكنه رغم ذلك، حرص على المضي في إعداد حملة أسامة وحض الناس على طاعة قائدهم<sup>(٢)</sup>. ثم قال: «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلت في إمارته لقد قلت في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها».

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص ٥٥٠.

فأسرع الناس في تجهيز أنفسهم للقتال عندما سمعوا ما سمعوه من رسول الله، واشتد برسول الله ﷺ وجعه، فخرج أسامة، وخرج جيشه معه، حتى نزلوا الجرف - وهو مكان لا يبعد أكثر من فرسخين عن المدينة المنورة - فضرب به عسكره، فالتحق المتأخرون، إلى هناك، وثقل رسول الله ﷺ، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض في رسول الله ﷺ. ولما أثقل المرض رسول الله، رجع أسامة إلى المدينة المنورة، ورجع معه الناس، فدخل أسامة على رسل الله وقد أصممت الرسول حتى إنه لا يقوى على الكلام، فجعل عليه الصلاة والسلام يرفع يده إلي السماء ثم يضعها على أسامة يدعو له. ولما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، صحا رسول الله من مرضه، فأحب أن يلتقي بأصحابه الذين فدوه بأرواحهم، فخرج إليهم وهم يصلون الصبح، فرفع الستر وفتح الباب، فقام على باب غرفة عائشة وأبو بكر يصلي بالناس، فاشتد فرح المسلمين وكادوا يقطعون صلاتهم ولكن رسول الله أشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم صلوات الله وسلامه عليه سرورا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم يقول أنس بن مالك: وما رأيت رسول الله أحسن هيئة من تلك الساعة. ورجع أبو بكر عن مصلاه ليفسح المكان لرسول الله كي يتقدم فيصلي بالناس فدفع رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق في ظهره. وقال: «صل بالناس». وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه، فصلى قاعدا عن يمين أبي بكر، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلهم رافعا صوته، حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: «أيها الناس، سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم! وإنى والله ما تمسكون علي بشيء، إنني لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن». ثم دخل رسول الله حجرته ودخل معه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فلم يمكث إلا برهة يسيرة حتى خرج فاستقبله الناس الواقفون على باب رسول الله وقالوا: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئنا، فانصرف الناس بعد أن اطمأنوا على رسول الله وهم يرون أن رسول الله قد أبل من مرضه<sup>(١)</sup>.

#### تولية خليفة رسول الله:

لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وهم يطمحون أن يولوا الخلافة زعيمهم سعد بن عبادة، واعتزل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والزيير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فأتى أت إلى أبي بكر وعمر فقال: إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وقد أجمعوا أمرهم على تولية الخلافة سعد بن عبادة، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار حتى تنظر ما هم

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص ٢١٣ .

عليه . ودخل عليهم أبو بكر وعمر في جماعة من المهاجرين، فلما جلسوا قام خطيب الأنصار فأنشأ على الله بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة - قدمت جماعة - من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازون من أصلنا، ويغصبونا الأمر». وكأنه يريد أن يقول: إن الأنصار هم أهل المدينة، وعلى أرضهم قامت دولة الإسلام، وبسواعدهم حموها، والمهاجرون وافدون ومن البديهي أن يكون رئيس الدولة من السكان الأصليين لا من الوافدين. فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأجابه فقال: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش: هم أوسط العرب نسبا ودارا. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم. وأخذ بيد عمر بن الخطاب. وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بينهما. فقال قائل من الأنصار: أنا جديلهما المحكك وعديقهما المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش<sup>(١)</sup>.

فكثرت اللفظ وارتفعت الأصوات، حتى خيف على الناس الاختلاف، وما أنقذ الموقف ودس أنف الشيطان في التراب إلا ارتفاع صوت عمر بن الخطاب، وهو يقول: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسطها أبو بكر، فبايعه عمر بن الخطاب، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار رضي الله عنهم جميعاً. وتعتبر هذه البيعة ترشيحاً رسمياً من أولي الحل والعقد في الدولة الإسلامية للخليفة الجديد، وبقي أن يتلقى هذا الخليفة البيعة المباشرة من القاعدة الشعبية في الدولة الإسلامية. ولذلك فإنه لما كان الغد صعد أبو بكر الصديق رضي الله عنه المنبر فجلس عليه، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدت في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهدته إلي رسول الله ﷺ ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا - يقول: يكون آخرنا - وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى الله ورسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هذاكم الله لما كان هداه له. وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه». فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة على الخلافة بعد بيعة أهل الحل والعقد في السقيفة، ثم قام أبو بكر فأعلن الأركان لسياسته المستقبلية وهذه الأركان هي: الالتزام بشريعة الله وتحقيق سيادتها. تكوين المعارضة البناءة. - الوقوف بجانب الضعيف حتى يقوى. مواصلة الجهاد في سبيل الله. محاربة الرذيلة. وكان ذلك في خطبة قال فيها: «أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٢١٣ .

بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»<sup>(١)</sup>.

جهاز رسول الله محمد ﷺ ودفنه:

فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء. فغسل رسول الله في ثيابه دون تجريده منها، وقد تولى تغسيله الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة ابن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ. واشتد الشوق لرسول الله ببعض أصحابه، فتقدم أحدهم وهو أوس بن خولى أحد بني عوف من الخزرج فقال للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ - وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر - فقال: ادخل. فدخل فجلس، وحضر غسل رسول الله ﷺ، فأسنده الرام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه. وكان أسامة بن زيد وشقران مولاهما اللذان يصبان الماء والإمام علي كرم الله وجهه يغسله، وقد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه، ولا يفضي يده إلى رسول الله ﷺ، والإمام علي كرم الله وجهه يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيا وميتا!! لم ير من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت.

فلما فرغ الإمام علي كرم الله وجهه من غسل رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج به إدراجا. وتم دفنه حيث قبض، فرفع فراش رسول الله الذي توفي عليه وحفر قبره تحته، وكان الذي تولى حفر قبره أبو طلحة، وقد حفره لحدا. أي جعل بجانب القبر من أسفل شقًا فجعل فيه رسول الله ﷺ. ولما فرغ من تجهيز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء وضع الإمام علي كرم الله وجهه سريره في بيته الذي توفي فيه وجعل المسلمون يدخلون يصلون عليه جماعات جماعات دون أن يؤمهم في صلاتهم هذه أحد فدخل الرجال أولا فصلوا عليه، فلما فرغوا دخل النساء حتى فرغن، ثم دخل الصبيان. ولم يفرغوا من الصلاة عليه إلى الليل فدفن عليه الصلاة والسلام من وسط الليل ليلة الأربعاء. وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ. وقد قال أوس بن خولى لعلي بن أبي طالب: يا علي أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ! فقال له: انزل. فنزل مع القوم. وقد كان مولاه شقران - حين وضع رسول الله ﷺ في حفرته وبنى عليه. قد أخذ قطيفة قد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا. قال: فدفنت مع رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>.

فصلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٣١٤.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص ٣٥.



# الفهرس

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ٥      | مقدمة   |
|        | الباب الأول   |
| ٧      | البعثة الشريفة لرسول الله محمد ﷺ ومحاربة كفار قريش                |
| ٩      | الفصل الأول   |
|        | الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ        |
| ٣٧     | الفصل الثاني  |
|        | المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ وسيرته حتى البعثة          |
| ٦٧     | الفصل الثالث  |
|        | الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وعداء كفار قريش                |
| ١١١    | الفصل الرابع  |
|        | من الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة       |
| ١٤٧    | الباب الثاني  |
|        | معارك وغزوات الدولة الإسلامية الأولى                              |
| ١٤٩    | الفصل الخامس  |
|        | بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر |
| ١٧٣    | الفصل السادس  |
|        | معركتي أحد والأحزاب   |

| الصفحة | الموضوع   |
|--------|---|
| ٢٠١    | الفصل السابع<br>من هدنة الحديبية إلى فتح مكة                    |
| ٢٣٩    | الفصل الثامن<br>رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية |
|        | الباب الثالث  |
| ٢٥٧    | سيادة الدولة الإسلامية الأولى على الجزيرة العربية               |
| ٢٥٩    | الفصل التاسع<br>التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى         |
| ٢٨٣    | الفصل العاشر<br>الدولة الإسلامية وعلاقاتها الخارجية             |







### المؤلف: فتي سطور :

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة .
- يعمل في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا .
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية .
- من مؤيدي أبو ظبي 1950
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي (1970-1972) ثم مديراً للعلاقات الثقافية والمكتبات العامة في وزارة الإعلام والثقافة بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة (1979-1984) ، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة (1984-1993) وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي ، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ثم عمل في جامعة الكويت منذ عام (1993-2000) ويعمل حالياً في جامعة روتردام الإسلامية منذ عام 2000 ، وعضو في الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن .
- صدرت له أكثر من اثني عشر كتاباً وأكثر من أربعين بحثاً معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية .

## في هذا الكتاب

يتناول الكتاب ثلاثة أبواب :

### □ الباب الأول : بعنوان البعثة

الشريفة لرسول الله محمد ﷺ

ومحاربة كفار قريش ويضم أربعة فصول : (الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ ، وسيرته حتى البعثة والدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وعداء كفار قريش ، ومن الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة .

### □ الباب الثاني : بعنوان معارك

وغزوات الدولة الإسلامية الأولى ، ويضم أربعة فصول هي : (بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر ، وغزوتي أحد والأحزاب ، ومن هنة الحديبية إلى فتح مكة ، ورسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية) .

### □ الباب الثالث : بعنوان سيادة

الدولة الإسلامية الأولى على الجزيرة العربية يضم فصلان هما : (التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى ، والدولة الإسلامية وعلاقتها الخارجية) .